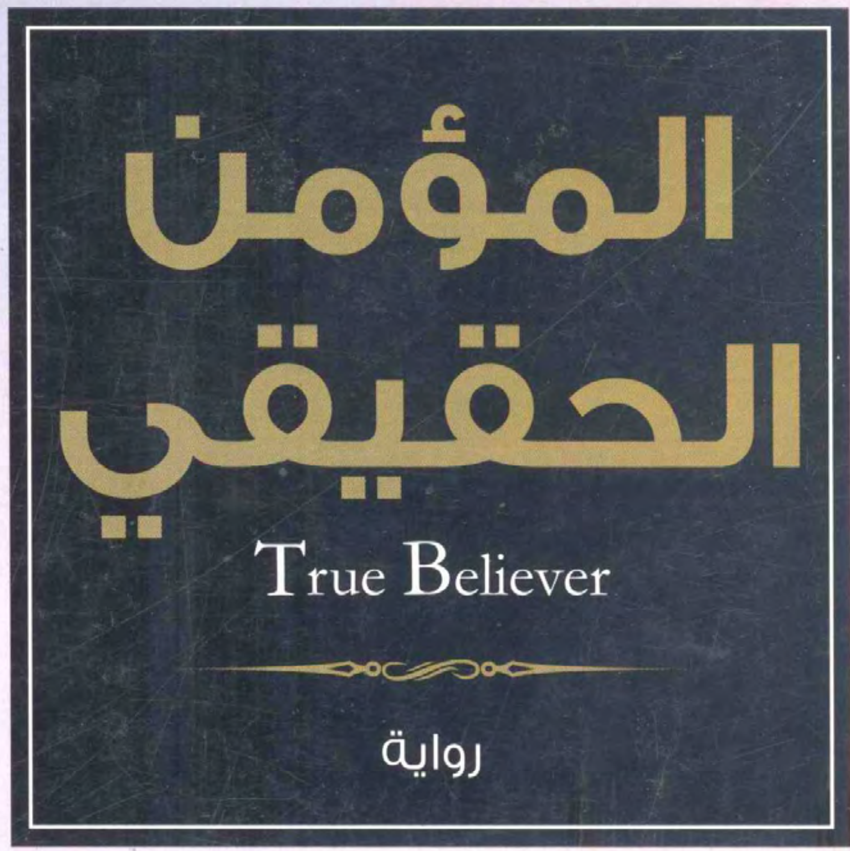
الدار العربية للعلوم ـ ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

مكتبة مدبولي
Madbouly Bookshop

إحدى روايات الكاتب الذي تجاوزت مبيعات كتبه حدّ
الخمسين مليون نسخة في مختلف أنحاء العالم

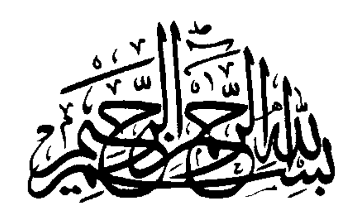
نيكولاس سباركس

NICHOLAS SPARKS





المؤمن
الحقيقي



يضم هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

TRUE BELIEVER

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

Warner Books

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم

المؤمن الحقيقي

تأليف
نيكولاس سباركس

ترجمة
فادي فحص



الدار العربية للعلوم ـ ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

ردمك 978-9953-87-077-9



الدار العربية للعلوم - ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

إهداء ..

إلى ريت وفاليري ليتيل،

أشخاص رائعون، أصدقاء رائعون



شكر وتقدير

كالعادة، يتوجّب عليَّ أن أشكر زوجتي، كاثي، لدعمها لي أثناء كتابتي لهذه الرواية. كل ما أقدر على فعله يعود فضله إليها.

كما عليَّ أن أشكر أولادي أيضاً: ميلز، ريان، لاندون، ليكسي، وسافانا. ماذا أقول؟ لقد كنت مباركاً لحظة دخل كل منكم إلى حياتي، وأنا فخور بكم جميعاً.

وكيلتي، تيريزا بارك، تستحق عاصفة طويلة من التصفيق لكل ما تقوم به من أجلي. مبروك لوكالتك الجديدة Park Literary Group. أشعر بالفخر بأن أدعوك صديقتي.

ومحررتي، جايمي راب، تستحق الشكر مني، ليس فقط للطريقة التي تراجع بها رواياتي، ولكن لكل الثقة التي توليني إياها. لست أعلم إلى أين كانت مهنتي ستؤول من دونك، وأنا ممتنّ لكرمك ولطفك.

لاري كيرباوم وماورين إيجين هما صديقان وزميلان، ولقد كان شرفاً لي أن أعمل معهما. هما بكل بساطة الأفضل في المجال الذي يعملان به.

دنيس دينوفي تستحق أيضاً شكري، ليس فقط للأفلام التي نقلتها عن رواياتي، ولكن أيضاً للاتصالات الهاتفية التي تأتي في الوقت المناسب، والتي تبهج نهاري دائماً.

الشكر أيضاً إلى هوي ساندرز ودايف بارك، وكيلَيْ في UTA، وأيضاً إلى ريتشارد غرين في CAA.

لين هاريس ومارك جونسون، اللذان ساعداني في تحويل روايتي "دفتر الملاحظات" إلى ذلك الفيلم الرائع، يستحقان أيضاً امتناني. شكراً لأنكما لم تفقدا إيمانكما بالرواية.

شـــكر خـــاص إلى فرانسيس غرينبيرغ أيضاً. وهو يعرف لماذا، وأنا مدين له بجميل.

وأخـــيراً، شـــكراً إلى هؤلاء الأشخاص الذين يعملون بجهد وراء الكواليس، والذيـــن أصبحوا بمثابة عائلتي مع مرور السنين: إيمي باتاغليا، وأدنا فارلي، وجينيفر رومانيلو في إدارة الدعاية، وسكوت شويمر، محاميّ، وهارفي جاين كوال، وشانون أوكـــيفي، وجـــولي بايرر، وبيتر ماككويغان. أنا محظوظ لأنني أعمل مع أشخاص رائعين أمثالهم.

الفصل الأول

جلس جيرمي مارش بين بقية جمهور البث المباشر في أستوديو التصوير، وانتابه شعور غريب بأنه محط الأنظار. كان رجلاً بين مجموعة صغيرة من الرجال لا تتعدّى أصابع اليد من جمهور بعد ظهر ذلك اليوم من منتصف شهر كانون الأول/ديسمبر. ارتدى اللون الأسود بالطبع، وجمع بشعره المتموج الداكن وبعينيه الزرقاوين الفاتحتين ولحيته العصرية الخشنة كل مظاهر الرجل النيويوركي. وفيما تمعّن جيرمي بالضيف على خشبة التصوير، استرقّ النظر إلى الشقراء الجذابة الجالسة في الصف الثالث إلى الأعلى. لطالما تطلبت مهنته تعدّداً فعّالاً في أداء المهام، وهو الصحافي الاستقصائي الباحث دوماً عن قصة ما. ومع أن الشقراء بدت وكأنها واحدة من الحضور، إلا أن المراقب المتمرس داخله لم تفته ملاحظة – من منطلق صحفي بحت – كم هي فاتنة في الكنزة العالية الرقبة وسروال الجينز.

استجمع أفكاره، وحاول أن يركّز انتباهه على الضيف مرةً ثانية. هذا الرجل مثار للسخرية. تحت وهج أضواء التلفزيون، فكّر جيرمي كم يبدو ذلك الرجل الذي يدّعي سماع الأصوات من العالم الآخر غليظاً. كان قد اتخذ ألفةً مصطنعة، مضطلعاً بدور الأخ أو الصديق المقرّب من الجميع، في وقت خيّم فيه شعور بالرهبة على أغلبية الحضور – بمن فيهم الشقراء الجذابة والسيدة التي يتوجه إليها الضيف بالكلام – وكأن الضيف هبة من السماء. قال جيرمي لنفسه بأن الغريب في الأمر أن السماء على ما يبدو هي المكان الذي ينتهي إليه جميع الأحباء الراحلين. أرواح الأموات تحاط دائماً بضوء ملائكي لامع، وتغلفها هالة من السلام والهدوء. من جهة أخرى، تذكّر جيرمي على سبيل التهكم بأنه لم يسمع مرةً واحدةً عن وسيط روحي يتخاطب مع أرواح من مكان آخر أشدّ حرارة، ولم يذكر أحدٌ من الأحبة الضائعين قطّ – على سبيل المثال – بأنه كان يتحمّص على عود شواء أو يُغلى في

قــدر حامٍ من زيت المحركات. ولكن علم جيرمي أنه كان غير مبال. مع ذلك، لم يــنكر جيرمي أن العرض كان جديراً بالاهتمام. تيموثي كلوسن كان جيداً بكل معــنى الكلمة، وأفضل بما لا يقاس من أغلب الدجالين الذين كان قد كتب عنهم جيرمي على مرّ السنين.

"أعــلم أنــه أمــر صــعب، لكن فرانك يخبرك بأن الوقت قد حان لتطلقي سراحه"، قال كلوسن في مكبّر الصوت موجهاً كلامه بكثير من التعاطف إلى المرأة التي شارفت على أن تغيب عن الوعي. كانت في العقد الخامس من عمرها، ترتدي قميصــاً أخضــرَ مقلماً، شعرها الأحمر المجعّد يتطاير في جميع الاتجاهات، وتشبك يديها بشدّة على صدرها لدرجة أن أصابعها ابيضّت من شدة الضغط.

توقف كلوسن لبرهة، ثم وضع كفه على صدغه، محاولاً استعادة التواصل مع "العالم الماورائي" حسب تعبيره. وفي الصمت المخيّم، مال جمهور الصالة جميعهم في مقــاعدهم إلى الأمام. الجميع كان يدرك ما كان سيحصل بعد قليل؛ إنها الشخص الثالــث مــن بــين الحضور الذي انتقاهم كلوسن اليوم. وكما هو متوقع، كان كلوسن الضيف الوحيد في هذه الحلقة من برنامج الحوارات الواسع الشعبية.

سأل كلوسن: "هل تذكرين الرسالة التي بعثها لك؟ قبيل وفاته؟"

شهقت المرأة. عمد فريق التصوير بجانبها إلى تقريب مكبّر الصوت أكثر لكي يتمكن جميع مشاهدي التلفزيون من سماعها بشكل واضح.

تلعثمت، "نعم، ولكن كيف لك أن تعلم عن...؟"

لم يدعها كلوسن تكمل كلامها، وسألها: "هل تذكرين مضمون الرسالة؟"

"نعم"، قالت بصوت أجشّ.

أومــأ كلوســن، كما لو أنه قرأ الرسالة بنفسه، "كانت عن المغفرة، أليس كذلك؟"

عــلى الأريكة، أجالت مضيفة برنامج حوارات فترة بعد الظهر الأكثر شعبية في أميركــا بــنظرها بين كلوسن والمرأة. بدت مندهشة وراضية في الوقت نفسه. لطالما كانت استضافة الأدلاء الروحيين جيدة لتحسين تصنيف البرامج!

وفـــيما هـــزّت المرأة رأسها، شاهد جيرمي خطوط الماسكارة تنساب على خدّيهـــا. ركّزت الكاميرا عدستها لتبرز الصورة بشكل أوضح. إنه تلفزيون النهار في تجلياته الدرامية.

"ولكن كيف بإمكانك...؟" كرّرت المرأة السؤال.

تمتم كلوسن: "إنه يتحدث عن شقيقتك أيضاً، لا عن نفسه فحسب".

حدّقت المرأة بكلوسن بعينين متحجّرتين.

"شـــقيقتك إيلين"، أضاف كلوسن، وإثر هذا الكشف، أطلقت المرأة صيحة مفجعـــة. انهمرت الدموع وكأنها رشاش ريّ آلي. أما كلوسن، الأسمر والأنيق في بدلـــته السوداء، ودون أن تحيد شعرة واحدة عن مكانها فقد تابع الإيماء كإحدى دمـــى الكـــلاب المـــتحركة التي تلصقها على لوحة العدادات في السيارة. حدّق الجمهور بالمرأة في صمت مطبق.

"فرانك ترك لك شيئاً آخر، أليس كذلك؟ شيئاً من الماضي".

عـــلى الرغم من أضواء الأستوديو الحارّة، بهت لون المرأة. أما في زاوية موقع التصـــوير، بعـــيداً عن نطاق الرؤية العامة، انتبه جيرمي إلى أن المنتج يدير إصبعه المـــرفوع بشكل طائرة مروحية. لقد اقترب موعد فترة الإعلانات التجارية. أطلق كلوســـن نظـــرة خفيّة خاطفة بذلك الاتجاه، ولم يبدُ أن أحداً بخلاف جيرمي قد لاحـــظ مـــا حصـــل. كثيراً ما تساءل جيرمي كيف أن المشاهدين لا يرتابون في مصادفة تزامن الوساطة الروحية على نحو دقيق مع موعد فترة الإعلانات.

أكمل كلوسن. "شيء لا يمكن لأي شخص آخر أن يعلم به. مفتاح من نوع ما. هل هذا صحيح؟"

استمر البكاء وهزّت المرأة رأسها.

"لم تعتقدي بأنه سيحتفظ به، أليس كذلك؟"

حســـناً، هاكم الحجّة المفحمة، قال جيرمي لنفسه. مؤمن حقيقي آخر على الطريق.

"إنـــه مفتاح من الفندق حيث أمضيتما شهر العسل. لقد تعمّد وضعه بحيث

إنـــك عندما تجدينه، ستذكرين الأوقات السعيدة التي أمضيتماها معاً. لا يريدك أن تذكريه بألم، لأنه يحبك".

"أوووووووه"، صرخت المرأة.

أو شـــيء من هذا القبيل. لعله كان أنيناً؟ فمن حيث كان يجلس جيرمي، لم يستطع تحديد طبيعة الصوت، لأن الصرخة أخفاها تصفيق حماسي مفاجئ. وفي لمح البصـــر، تم اقتلاع الميكروفون، وتحولت الكاميرات. وبعد أن عاشت بضع لحظات مـــن الشـــهرة، انهارت المرأة في مقعدها. وبإيماءة واحدة، وقفت مقدّمة البرنامج وواجهت الكاميرا باسمة.

"تذكـــروا أن مـــا تشـــاهدونه حقـــيقي. لم يسبق أن التقى أي من هؤلاء الأشـــخاص بتـــيموثي كلاوســـن... سنعود إليكم مع قراءة أخرى إضافية بعد لحظات".

مزيد من التصفيق، بعدها توقف البرنامج للإعلانات التجارية، ومال جيرمي في مقعده.

عُـــرف عن جيرمي كونه صحفياً استقصائياً لاهتمامه بالعلوم، وقد بنى حياته المهنـــية بالكتابة عن أشخاص من أمثال هذا الوسيط الروحي الواقف أمامه. شعر بالمـــتعة والفخـــر لقـــيامه بخدمة عامة ذات قيمة، في مهنة خاصة جداً لدرجة أن حقوقهـــا تمّ تعدادهـــا في التعديل الأول لدستور الولايات المتحدة الأميركية. ومن خـــلال عمـــوده المنـــتظم في مجلة ساينتيفيك أميركان، قابل الفائزين بجائزة نوبل، وشـــرح نظريات ستيفن هوكينغ وآينشتاين بالمصطلحات العامّية، ونجح مرة بإثارة موجة اهتمام واسعة من جانب الرأي العام، مما دفع وكالة الغذاء والدواء الأميركية لســـحب دواء خطر ضدّ الكآبة من السوق. كما كان قد كتب على نطاق واسع حـــول مشروع كاسيني، والمرآة المعطوبة على عدسة مركبة هابل الفضائية، وكان من أوائل الذين انتقصوا علناً من تجربة يوتا للانشطار البارد ووصفوها بالاحتيالية.

وللأسف، وعلى الرغم مما يبدو عليه الأمر، فإن عموده الصحفي لم يدرّ عليه الكـــثير مـــن الدخل. كان عملاً كغيره من الأعمال المستقلّة التي تسهم في سداد الفواتـــير، وكما حال الصحفيين المستقلّين، كان دائم السعي للحصول على أخبار

تـثير اهـتمام محرّري الصحيفة أو المجلة. وسّع مجال كتابته وضمّنه *أي شيء غير عـادي*، وعـلى مدى السنوات الخمس عشرة الماضية، كان قد أجرى البحوث والـتحرّيات حول الوسطاء، وتابع وتحرّى عن قصص العرّافين وغيرهم من الأدباء والوسـطاء الروحـيين، وكذلـك أخصائيي الشفاء بالإيمان. انكب على كشف ضـروب الاحتـيال والخدع والتزييف. زار البيوت *المسكونة* بالأشباح، بحث عن المخلوقـات الباطنـيّة، وتعقّب أصول الروايات الكاذبة. منحته طبيعته الشكّاكة بالفطـرة مقـدرة نادرة على توضيح المفاهيم العلمية الصعبة بطريقة تتيح للقارئ العادي أن يفهمها، ونُشرت مقالاته في مئات المجلات والصحف حول العالم. كان يؤمـن بـأن الفضح العلمي يجمع بين النبل والأهمية حتى لو لم يحظَ هذا الكشف بـتقدير الجمهـور عـلى الدوام. كثيراً ما تلقى رسائل بريدية بعد نشر مقالاته المسـتقلّة، وكانـت هـذه الرسائل مليئة بكلماتٍ مثل *أبله ومغفّل*. هذا عدا عن الوصف المفضّل لديه *أجير الحكومة*.

وعليه فقد أيقن أن الصحافة الاستقصائية عمل لا يلقى الكثير من التقدير.

انعكست هذه الفكرة تجهماً على وجهه فيما جال بنظره في الجمهور الملهوف الـذي علـت دردشته. على من يا ترى سيقع الاختيار هذه المرة؟ استرق جيرمي نظرة أخرى إلى الشقراء المنهمكة بتفحّص مكياجها في مرآة صغيرة.

لم يخـفَ عـلى جيمي أن الأشخاص الذين تم اختيارهم من قبل كلوسن لم يكونوا رسمياً جزءاً من المسرحية، علماً أن ظهور كلوسن في الحلقة تم الإعلان عنه مسبقاً، وتسبب هذا الإعلان بتقاطر الناس للحصول على تذاكر لحضور البرنامج، أي أن الجمهور دون شك يعجّ بالمؤمنين بالحياة بعد الموت. بالنسبة لهؤلاء، كلوسن كـان حقيقة. كيف إذاً تمكن من معرفة مثل هذه الأمور الشخصية عن الغرباء، ما لم يكـن قـد تكلّم حقاً مع الأرواح؟ ولكنه مثل كل ساحر ماهر لم يغب عنه أن يحضّر دوره جيداً. الوهم لا يعدو كونه وهماً، وحتى قبل أن يبدأ تصوير الحلقة كان جيرمي قد كشف خديعة كلوسن، كما تمكّن من الحصول على دليل يثبت صحة نظريته، متمثلاً في صورة فوتوغرافية.

سيشكّل كشف النقاب عن خداع كلوسن أكبر خرق صحفي يحققه جيرمي

حـــتى الـــلحظة، وكـــم يستحق الرجل - وهو من أسوأ أصناف المخادعين - أن يُكشـــف على الملأ! من ناحية عملية، قلما يصادف الصحفي قصة بهذه الحساسية، ولذلـــك أدرك جيرمـــي أن عليه أن يستفيد منها إلى أقصى حدّ ممكن. الأهم أن الساحر كان نجماً يتمتع بشعبية واسعة، والشهرة هي كل شيء في أميركا. من شبه المســـتحيل أن يقـــع الاختيار عليه ليصعد إلى المنصّة، ولكن هذه الرغبة ما فتئت تـــراوده. لم يمـــنِّ النفس كثيراً لأن فرصة وقوع الاختيار عليه تقارب فرصة ربح الجائـــزة الكبرى في اليانصيب؛ ومع ذلك، حاول جيرمي إقناع نفسه بأنه ما زال باســـتطاعته أن يطلق قصة مهمة حتى وإن لم يحالفه الحظ بالصعود لمقابلة كلوسن. والغريـــب في الأمر أن الاستثنائي والنوعي لا يفصل بينهما إلا شعرة، فمع انتهاء فترة الإعلانات التجارية، خالجه شعور بأنّ الأمور ستسير لصالحه.

في تلـــك اللحظة، وكأن الله سبحانه أراد أن يكشف ألاعيب كلوسن، فلقد تحققت أمنيته!

بعـــد مرور ثلاثة أسابيع، أرخى شتاء نيويورك بثقله على المدينة، وانخفضت درجات الحرارة إلى ما دون الصفر نتيجة موجة باردة جاءت من كندا، وارتفعت أعمدة البخار من فتحات المجاري قبل أن تتساقط ثلجاً على الأرصفة المتجمدة. لا يـــبدو أن أحداً من سكان نيويورك يعبأ بحال الطقس، حيث تابع السكان كعادتهم تجاهل كل ما له علاقة بالأحوال الجوية، ولم يفوّتوا على أنفسهم فرصة الخروج من المـــنـــزل ليلة الجمعة أنى يكن الثمن! أولئك الذين يعملون بجدّ طوال الأسبوع لا يطـــيقون انتظاراً لإمضاء سهرة خارج المنـــزل، وبالأخص عندما يكون لبعضهم ســـبب وجيه للاحتفال. نايت جونسن وألفين بيرنستاين بدأا الاحتفال قبل ساعة عـــلى شـــرف جيرمي، وتجمّع معهما عدد من الأصدقاء والصحفيين بعضهم من ســـاينتيفيك أميركان. بعضهم أتى للاستمتاع بقضاء بعض الوقت في هذا المساء، وأغلبهم أتى لأن الصحفيين شديدو الحرص على ميزانيتهم الشهرية، وبالأخص لأن نايت تكفّل بدفع الفاتورة.

نايـــت هـــو وكيل جيرمي، أما ألفين فهو مصوّر مستقلّ والصديق الأقرب لجيرمـــي. وقد اجتمعا في الحي الغربي لنيويورك للاحتفال بظهور جيرمي في برنامج

برايم تايم لايف على قناة أي بي سي. تكررت إعلانات تلك الحلقة طوال الأسبوع وهـي تظهـر وجـه جيرمـي، مهيّئة المشاهدين لكشف مهم، وبالمقابل انصبّت الاتصـالات عـلى مكتـب نايت من مختلف أنحاء البلاد طلباً لإجراء مقابلة مع جيرمـي. وفي وقت سابق من عصر ذلك اليوم، تلقى اتصالاً من مجلة بيبول، وتم تحديد المقابلة في صباح يوم الاثنين القادم.

لم يتسنَّ لنايت الكثير من الوقت لتحضير مكان اجتماع خاص لهذه المناسبة، إلا أن أحداً لم يمانع، خاصة وأن المكان المكتظ بصوانه الطويل وإضاءته الخافتة بدا المكـان المناسب لهذا الجمهور الشاب الذي يجمع بين صحفيّي ساينتيفيك أميركان الذيـن ارتدوا السترات الرياضيّة وانحشروا في زاوية الغرفة وغرقوا في نقاش حول الفوتونات، وبين الحضور الآخرين الذين بدوا وكأنهم قد هبطوا للتو من مكاتبهم في وول سـتريت أو ماديسن أفينيو: سترات البدلات الإيطالية معلّقة على ظهور الكراسـي، وربطات العنق المحلولة من ماركة هيرميس... بدا الرجال وكأنهم أتوا لاصـطياد النساء من بين الحضور بومضات ساعات الرولكس الثمينة. كما اكتظ المكان بالنساء العاملات في مجالات النشر والإعلانات، واللاتي ارتدين تنانير أشهر المصـممين وكعـوب أحذيـة عالية جداً، وانهمكن بارتشاف شرابهن متظاهرات بإغفـال الـرجال. جيرمي نفسه علّق نظره على صاحبة الشعر الأحمر في الزاوية الأخـرى، والـتي حوّلـت نظرها باتجاهه. تساءل إن كانت قد تعرفت عليه من الإعلانـات التلفزيونـية، أو أنها فقط تشعر بالملل. استدارت، غير مهتمّة على ما يبدو، ومن ثم نظرت إليه مرة أخرى. هذه المرة أطالت النظر، ورفع جيرمي كأسه بالتحية.

قال نايت، ودفعه بمرفقه: "هيا يا جيرمي، انتبه، أنت على التلفزيون! ألا تريد أن ترى كيف بدوت؟"

حوّل جيرمي نظره عن صاحبة الشعر الأحمر. ونظر إلى الشاشة ليشاهد نفسه جالساً أمام دايان سوير. شعور غريب أن يكون في مكانين في الوقت نفسه، بدا له وكـأن أحداث الأسابيع الثلاثة الماضية ضرب من الخيال على الرغم من السنوات الطوال التي أمضاها في المجال الإعلامي.

على الشاشة، وصفته دايان بأنه "أكثر الصحفيين العلميين تقديراً في أميركا".
يـبدو أن الأمـر تخطى كل التوقعات، ليس فقط لأن هذه الخبطة الصحفية كانت بالضـبط ما يحتاج إليه جيرمي، في الوقت الذي بدأ فيه نايت بالتباحث مع برنامج بـرايم تايم لايف حول إمكانية إنجاز جيرمي لتحقيقات منتظمة لصالح البرنامج مع مـيزّات إضـافية محـتملة على برنامج صباح الخير يا أميركا. ومع أن العديد من الصـحفيين يعـتقدون أن الـتلفزيون أقل أهمية من بقية الوسائل الإعلامية الأكثر جديّـة، إلاّ أنـه ليس سراً أن معظمهم كان ينظر إلى التلفزيون على أنه المصباح السحري الذي يدرّ عليهم الأموال الطائلة. وعلى الرغم من المهنئين الذين تقاطروا حـول جيرمي، أحس الأخير بالحسد يحوم في الهواء، وهو إحساس مجهول بالنسبة لجيرمي مثل جهله بالسفر في الفضاء.

رغـم كل شيء، فإن الصحفييّن من رتبته لم يسبق لهم أن كانوا في قمة نظام التسلسل الاجتماعي الإعلامي؛ حتى اليوم.

"هـل حقـاً وصفتك بأكثر الصحفيين تقديراً؟" سأله ألفين ممازحاً، "يا من تكتب عن حكايات الغول وأسطورة أطلانطس!"

قـال نايـت الذي ثبّت عينيه على التلفزيون: "صه، أنا أحاول أن أتابع هذا الحـوار. قد يكون مهماً لمستقبل جيرمي المهني". بصفته وكيل جيرمي، لم يتوقف نايت يوماً عن التنقيب عن تلك الأمور التي "يمكن أن تكون مهمة لمستقبل جيرمي المهـني"، لسبب بسيط وهو أن الصحافة المستقلّة لا تعود على ممارسيها بكثير من الأربـاح. قـبل سنوات، عند البدايات، تلقّف جيرمي اقتراحاً حول أحد الكتب، ومنذ ذلك الوقت وهما يعملان معاً، ببساطة لأنهما أصبحا صديقين.

"طبعاً طبعاً"، قال ألفين رافضاً الإذعان للتوبيخ.

في هـذه الأثناء، ظهر على الشاشة المثبتة خلف دايان سوير وجيرمي مشهد اللحظات النهائية من أداء جيرمي في برنامج الحوارات التلفزيوني، والذي لعب فيه جيرمـي دور رجـل ما زال يعاني من صدمة موت أخيه وهو طفل، والذي ادّعى كلوسن أنه يتخاطب معه لما فيه شفاء جيرمي.

"إنـه معي" تردّد صوت كلوسن، "يريدك أن تطلق سراحه يا ثاد". انتقلت

الكـــاميرا لتلتقط أداء جيرمي وهو يلعب دور الضيف المتأثر والحزين. أومأ كلوسن برأســـه في خلفية الصورة، في حركة تخلط بين سيل من العاطفة أو حالة مزمنة من الإمساك، اعتماداً على المنظار الذي تعتمده.

"والدتك لم تغيّر غرفته؛ الغرفة التي كنت تشاركه بها. أصرّت بأن تبقى الغرفة بدون تغيّر، وكان عليك أن تنام هناك رغم ذلك"، تابع كلوسن.

"نعم"، ردّ جيرمي لاهثاً.

"ولكـــنك في أعمـــاقك كنـــت خائفاً وغاضباً، وجرّاء غضبك أخذت شيئاً يخصه، أخذت شيئاً شخصياً جداً، ودفنته في فناء البيت".

"نعم"، ردّ جيرمي عليه، وكأن العاطفة غلبته فلم يقوَ على قول المزيد.

"مقوّم الأسنان خاصته؟"

"أوووووه!" بكى جيرمي وغطى وجهه بيديه.

"إنه يحبّك، ويجب أن تدرك بأنه في سلام الآن. وليس غاضباً منك...".

"أوووووه!" رفـــع جيرمـــي صوته بالعويل مرة ثانية، والتوت قسمات وجهه أكثر.

في الداخـــل، ركّز نايت على المشهد بصمت. أما ألفين من ناحية أخرى فقد أطلق العنان للدعابة قائلاً.

"هذا الرجل يستحق جائزة الأوسكار!"

"أداء رائع، أليس كذلك؟" سأل جيرمي مبتسماً ابتسامته العريضة.

قال نايت غاضباً: "كفاكما إزعاجاً تحدّثا أثناء الإعلانات التجارية".

"مهما يكن". قال ألفين ثانية. *مهما يكن* كان تعبير ألفين المفضّل.

توقـــف عـــرض مقطع الحلقة تدريجياً، ثم تركّزت الكاميرا على دايان سوير وجيرمي مرة أخرى.

"إذاً، لا شيء مما قاله تيموثي كلوسن حقيقي؟" سألت دايان.

"عـــلى الإطلاق"، قال جيرمي، "كما تعرفين، اسمي ليس ثاد، ومع أن عندي خمسة إخوة، فإنهم جميعاً أحياء وبصحة جيّدة".

رفعت دايان قلمها فوق مجموعة من الأوراق كما لو أنها على وشك أن تسجّل الملاحظات. "إذا كيف فعل كلوسن كل هذا؟"

"حسناً، دايان"، بدأ جيرمي.

بدا الاندهاش على ألفين ومال ناحية جيرمي. "لا أصدّق بأنك دعوتها دايان من دون تكليف؟"

"أرجوك!" قال نايت باستثارة.

على الشاشة، تابع جيرمي. "كلوسن بكل بساطة اتّبع مع بعض التعديل ما فعله غيره لمئات السنوات. أولاً، إنه يمتلك موهبة قراءة أفكار الناس، وهو خبير في إطلاق العبارات المبهمة المشحونة عاطفياً التي ينسجم معها الجمهور".

"نعم، لكنه كان دقيقاً جداً. ليس معك فقط، ولكن مع الضيوف الآخرين. كان لديه الأسماء. كيف يقوم بذلك؟"

تبسّم جيرمي مستهجناً، "سمعني أتحدّث عن أخي ماركوس قبل بدء البرنامج. بكل بساطة، لقد اختلقت حكاية وتحدثت عنها بصوت مرتفع".

"وكيف تناهت الحكاية إلى أسماع كلوسن إذاً؟"

"من المعروف أن الرجال مثل كلوسن يلجأون إلى الحيل، بما فيها مكبّرات الصوت والجواسيس الذين يتوزّعون في قاعة الانتظار قبل بدء العرض. قبل أن أجلس، عمدت إلى التنقّل في القاعة وإلى فتح العديد من الحوارات مع الكثير من أفراد الجمهور، ساعياً إلى اجتذاب اهتمام غير اعتيادي بقصتي. وكما كنت أتوقع، فإن رجلاً بدا شديد الاهتمام بسماع التفاصيل".

على خلفية الشاشة، ظهرت صورة مكبّرة التقطها جيرمي بآلة تصوير صغيرة أخفاها داخل ساعته، وهي أشبه ما تكون بلعبة جاسوسية عالية التقنية اشتراها جيرمي على حساب ساينتيفيك أميركان. ولعه بالتقنيات الصغيرة لا يضاهيه إلا حب تسجيل تكلفتها على حساب الآخرين".

"إلامَ ننظر هنا؟" سألت دايان.

أوضح جيرمي، "هذا الرجل كان يختلط بجمهور الأستوديو متظاهراً بأنه زائر

من مدينة أخرى. التقطت هذه الصورة مباشرة قبل بدء البرنامج بينما كنّا نتكلّم. هـلاّ كـبّرت الصورة أكثر رجاء؟" على الشاشة، ظهرت الصورة المكبّرة وأشار جيرمي نحوها.

"هـل تـرين الدبّوس الصغير على ياقته؟ إنه أكثر من دبوس للزينة، لأنه في الحقيقة جهاز إرسال صغير يبثّ إلى أداة تسجيل خفية".

عبست دايان. "وكيف لك أن تعرف هذا؟"

"لأني ويـا للصدفة أمتلك جهازاً مثله تماماً" ردّ جيرمي. ومدّ يده إلى جيب سـترته وأخـرج نفس الدبوس الذي شاهدوه على الشاشة، مربوطاً بسلك طويل خفي إلى جهاز إرسال.

"هذا النموذج بالتحديد مصنّع في اليابان بتقنية عالية جداً، وهو يستخدم من قـبل وكالة المخابرات المركزية، لكن، بالطبع، أنا لا أستطيع تأكيد ذلك. ولكن يمكـنني أن أؤكّد لك بأن التقنية متقدّمة جداً. مكبّر الصوت الصغير هذا يمكنه أن يلـتقط المحادثات عبر غرفة مزدحمة صاخبة، وباستخدام نظام ترشيح، يمكن لي أن أعزل الأصوات".

تمعّنـت دايان بالدبّوس باندهاش بادٍ. "وهل أنت متأكّد بأن الدبوس كان في الحقيقة مكبّر صوت وليس مجرد دبّوس؟"

"حسـناً، كمـا تعرفين، أنا أبحث في ماضي كلوسن منذ وقت طويل، وبعد أسبوع من هذا العرض، أمكنني الحصول على المزيد من الصور".

ظهـرت صورة جديدة على الشاشة. ورغم ضبابيتها، كانت صورة الرجل نفسه صاحب الدبوس.

"هذه الصورة التقطت في فلوريدا، خارج مكتب كلوسن. كما ترين، الرجل مـتوجه إلى داخل المكتب. اسمه ريكس مور، وهو في الحقيقة يعمل لصالح كلوسن منذ سنتين".

"أووووه!"صـاح ألفـين، فيما أغرقت الضحكات والتعليقات الوقت القليل المتبقي من البرنامج، وغرق جيرمي بدوره في بحر من التهاني بعد انتهاء العرض.

"كنت رائعاً"، قال نايت. في عمر الثالثة والأربعين، كان نايت قصيراً وأصلعَ يحب ارتداء البدلات الضيقة. مع ذلك، فإن هذا الرجل كان تجسيداً للحيوية، وكما هو حال أكثر الوكلاء، يفيض دائماً بالتفاؤل.

"شكراً"، قال جيرمي، وابتلع بقيّة شرابه.

"إنها قفزة كبيرة لمهنتك"، تابع نايت: "إنها بطاقتك إلى برنامج تلفزيوني منتظم. كفى صراعاً من أجل المزيد من الأعمال الصحفية المستقلّة. كفى قصص مطاردة لأجسام غريبة. لطالما ردّدت أنك بشكلك الجذّاب ولدت لتعمل في التلفزيون".

"نعم، إنك دائماً تردّد ذلك"، أقرّ جيرمي مقلباً عينيه كعادته عندما يتلقى محاضرة من نايت.

"أنا أعني ما أقول. لقد أمطرني منتجو برامج برايم تايم لايف وصباح الخير يا أميركا بالاتصالات، ليقولوا لي إنهم يفكّرون في اعتمادك ضيفاً دائماً في برامجهم. أنت تعرف ماذا يعني هذا الاختراق العلمي بالنسبة لك وما إلى ذلك. إنها قفزة كبيرة لمراسل علمي".

صحّح جيرمي: "أنا صحفي، ولست مراسلاً".

قال نايت ملوحاً بيديه: "مهما يكن، لطالما ردّدت أنك بشكلك الجذّاب ولدت لتعمل في التلفزيون".

"آسف أن أقول إن نايت على حق"، قال ألفين غامزاً. "أقصد أنه عدا ذلك، كيف لك أن تكون أكثر شعبية مني مع السيدات، على الرغم من انعدام شخصيتك؟" لسنوات، تردّد ألفين وجيرمي على الأماكن معاً سعياً للقاء السيدات.

ضحك جيرمي. ألفين بيرنستاين، الذي أوحى اسمه بمواصفات محاسب رصين يرتدي النظّارات، أو بأحد المحترفين العديدين الذين ينتعلون أحذية فلورشايم ويحملون حقيبة جلديّة في طريقهم إلى العمل، لا يشبه بأي شكل هذا الرجل الواقف أمامه. يبدو أن ألفين بيرنستاين المراهق تأثّر بفيلم إيدي ميرفي في ديليريوس وقرّر أن يعتمد الرداء الجلدي زياً رسمياً، وهو ما أرعب والده - ميلفن - المحترف الذي ينتعل أحذية فلورشايم ويحمل حقيبة جلديّة في طريقه إلى العمل! ولحسن الحظ، فإن الزي المصنوع من الجلد يتماشى تماماً مع الأوشام التي وزّعها ألفين على

جسـمه، والتي اعتبرها انعكاساً لجماله الفريد، وهذا الجمال الاستثنائي توزّع على كلتا ذراعيه، وصولاً حتى كتفيه. ومن جهتهما أضفت عليه الأذنان المثقوبتان لمسةً مميّزة.

"إذاً مـا زلـت تخطّط لسفرة إلى أقاصي الجنوب للتحرّي عن قصة الأشباح تلـك؟" قال نايت مستفهماً، وأمكن لجيرمي أن يقرأ الأفكار التي تتسارع داخل رأسه. "أعني، بعد مقابلتك مع مجلة بيبول؟"

رفـع جيرمـي شعره الأسود عن عينيه، وأشار إلى النادل طالباً شراباً آخر. "نعم، على ما أظن. برايم تايم أو غيره، ما زال عليَّ أن أسدد الفواتير، وأنا أفكّر أن أستفيد من الموضوع لعمودي في المجلة".

"لكـنك ستبقى على اتصال، أليس كذلك؟ لا تختفِ كما فعلت أثناء بحثك عـن جماعـة الصدق والقدسيّة؟" كان نايت يشير إلى مقالة من ستّة آلاف كلمة كتـبها جيرمي لصالح مجلة فانيتي فير حول إحدى المجموعات الدينية؛ وقتها، قطع جيرمي كل وسائل الاتصال لفترة ناهزت الشهور الثلاثة.

قال جيرمي: "سأبقى على اتصال. هذه القصّة لا تشبه تلك. ما من داعٍ لأن أمضي هناك أكثر من أسبوع. إن لغز الأنوار الغامضة في المقبرة ليس بالمعضلة".

"هاي، أنت بحاجة إلى مصوّر يرافقك؟" قاطعهما ألفين.

نظر جيرمي إليه. "ماذا؟ هل تودّ الذهاب حقاً؟"

"بكل تأكيد. أحلم أن أتوجّه جنوباً لتمضية فصل الشتاء، وربما قابلت حسناء جنوبـيّة لطـيفة بينما تتكفل أنت بدفع مصاريف الرحلة. سمعت أن النساء هناك يدفعـن الرجال إلى حافة الجنون، لكن يبدو أن ذلك الجنون من النوع الجيد. إنها ستكون مثل عطلة مثيرة".

"ولكنك من المفترض أن تلتقط صوراً لبرنامج القانون والنظام خلال الأسبوع القادم؟"

عـلى الرغم من غرابة مظهر ألفين، فإن سمعته كمصوّر ماهر كانت تسبقه، وكان الطلب مرتفعاً على استئجار خدماته.

قال ألفين: "نعم، لكني سأفرغ من عملي قبيل نهاية الأسبوع. انظر، إذا كنت

جدّياً حول موضوع التلفزيون الذي أثاره نايت للتو، فقد يكون من الأهمية بمكان أن تحصل على فيلم محترم حول هذه الأنوار الغامضة".

"على افتراض أن هناك أنواراً لتصورها؟"

"حسناً، قم بالاستقصاء وأخبرني عمّا تجده. أنا جاهز متى أردتني".

"وحتى لو كان هناك ثمة أنوار بالفعل، فلا يعدو هذا كونها قصة صغيرة بالكاد ستثير اهتمام أحد في التلفزيون".

ردّ ألفين: "ربما ليس في الشهر الماضي، لكن بعد أن يشاهدوك هذه الليلة، فإنهم بالتأكيد سيهتمون. تعرف كيف تسير الأمور في مجال التلفزيون؛ كل أولئك المنتجين يطاردون ذيولهم، محاولين أن يعثروا على الشيء الكبير القادم. فكيف إذا أثرت اهتمام برنامج صباح الخير يا أميركا؟ صدقني، لن يمضيَ وقت طويل حتى يطرق منتجو برامج توداي ودايت - لاين الباب. ما من منتج يرضى باستبعاده، لأنهم عندئذ قد يخسرون وظائفهم. ما من منتج يحب أن يقف موقف المبرّر لمديره كيف أنه فوّت فرصة مثل هذه. أنا أعمل في التلفزيون وأعرف هؤلاء الناس جيداً".

تدخّل نايت: "معه حق، وما يدريك ما يحمله المستقبل، ومن المفيد جداً أن نبدأ بالتخطيط للمستقبل. المؤكّد أن حضورك كان طاغياً الليلة. لا تكذب على نفسك. فإذا ما أتيح لك أن تحصل على بعض التوثيق عن قصة هذه الأنوار، ربما كان ذلك ما يحتاج إليه معدّو برامج صباح الخير يا أميركا أو برايم تايم لاتخاذ قرارهم".

حدّق جيرمي في وكيله. "هل أنت جادّ؟ إنها بالكاد قصّة تستدعي الاهتمام. والسبب الوحيد الذي دفعني لملاحقة الموضوع هو أني كنت بحاجة إلى استراحة بعد قصة كلوسن. تلك القصّة استغرقت أربعة أشهر من حياتي".

"وانظر إلى ما حققته بالمقابل"، قال نايت، ووضع يده على كتف جيرمي. "قد تظن أن قصة الأنوار ليست بالأمر المهم، لكن ربما ساهم الفيلم المناسب والتغطية الجيدة في إنجاح الموضوع من خلال التلفزيون".

أطرق جيرمي للحظة، ثم التفت إلى ألفين، "حسناً، سأغادر يوم الثلاثاء.

حـــاول أن تصل إلى هناك بحدود يوم الجمعة القادم. سأتّصل بك قبل ذلك الوقت لأمليك التفاصيل".

ارتشـــف ألفـــين بعـــض الشراب قائلاً: "حسناً، هيا بنا إلى أرض الجنوب الأميركي، وأنا أتعهد بألا تكون فاتورة السفر مرتفعة".

ضحك جيرمي. "هل سبق لك أن زرت الجنوب؟"

"أبداً. وأنت؟"

"لقد زرت نيوأورلينـــز وأطلانطا، لكنهما مدينتان كغيرهما من المدن في كل مكـــان. أما موضوعنا فسيأخذنا إلى الجنوب الحقيقي. إلى بلدة صغيرة في كارولينا الشـــمالية تدعـــى بون كريك. لا تفوّت موقع البلدة على شبكة الإنترنت الذي يـــتحدث عن الزهور ونبتة القرّانيا التي تتفتح في شهر نيسان/أبريل، ويعرض بفخر صورة لأشهر سكان البلدة، وهو رجل يدعى نوروود جيفيرسن".

"من؟" سأل ألفين.

"مجرد سياسي خدم في مجلس شيوخ ولاية كارولينا الشمالية من العام 1907 إلى العام 1916".

"ومن يهتمّ بمثل هذه الأمور؟"

"بالضـــبط". قال جيرمي غامزاً، ولاحظ عندها أن صاحبة الشعر الأحمر قد اختفت.

"أين هذا المكان بالضبط؟"

"سأســـكن في مكان يدعى أكواخ غرينليف، والذي تصفه غرفة التجارة بأنه مكان يجمع بين العصرية والريفية. هل يعني لك الأمر شيئاً؟"

ضحك ألفين قائلاً: "حقاً إنها مغامرة".

"لا تقلق. لا بد أنك ستندمج هناك بسرعة، أنا متأكّد".

"أتظن؟"

التفـــت جيرمـــي إلى الثـــياب الجلديّة، والأوشام والثقوب.. ثم أردف "أوه، بالتأكيد، من المحتمل أن يطلبوا تبنّيك".



الفصل الثاني

قرابة ظهر يوم الثلاثاء، وفور انتهاء مقابلته مع مجلة بيبول، وصل جيرمي إلى كاروليـــنا الشمالية، مخلفاً وراءه فصل الشتاء، ومستبدلاً نيويورك وجوّها الجليدي وسماءها الرمادية وثلوجها المتراكمة بسماء كارولينا الشمالية الزرقاء المترامية.

تشـــير الخارطة التي حصل عليها من كشك بيع الهدايا في المطار إلى أن بون كـــريك تقع في مقاطعة بامليكو، على بعد مائة ميل إلى الجنوب من رايليه. الطريق طويـــل فيخـــيّل للمســـافر أن بـــون كريك هذه تقع على بعد آلاف الأميال من الحضـــارة. عـــلى جانبيّ الطريق، تترامى سهول مسطّحة إلى ما لا نهاية. وحدها أشجار الصنوبر ترسم الفاصل بين المزارع المنتشرة هنا وهناك. ولولا بضع سيارات عـــلى الطريق، لما تردّد جيرمي في إطلاق عنان السرعة لسيارته عساه يتخلص من الملل الذي اعتراه.

مـــن ناحـــية أخـــرى، أوحت إليه الرحلة الطويلة بشعور من نوع آخر. من المعـــروف أن اهتزاز عجلة القيادة وما يصحبه من خرير المحرك والشعور بالانطلاق غـــير المحدود يرفع من معدلات هورمون الأدرينالين، وبالأخص عند الرجال. سبق لجيرمي أن كتب مقالاً حول هذا الموضوع. إن امتلاك سيارة بالنسبة لقاطني المدن يعدّ ضرباً من الرفاهية ويزيد من الأعباء المالية ليس إلا. أما جيرمي فقد اعتاد على أن ينـــتقل مـــن مكـــان إلى آخـــر بواسطة مترو الأنفاق، أو أن يستقلّ سيارات التاكســـي. عملية الانتقال في المدينة جمعت بين الضجيج والجنون، وأحياناً، إذا ما أوقعـــك الحظ العاثر تحت رحمة سائق من طبع معيّن، فإن عملية الانتقال قد تكون مميتة. مع ذلك، اعتاد جيرمي، وهو المولود في نيويورك والمقيم فيها على هذا النوع من الإثارة التي تطبع مدينته.

انتقل بأفكاره إلى زوجته السابقة، ماريا. كم كانت لتحب رحلة كهذه. في

أوائـــل سنين زواجهما، كانا يستأجران سيارة وينطلقان بها صوب الجبال أو نحو الشـــاطئ ويمضـــيان ساعات على الطريق. كانت زوجته تعمل محررة في مجلة *إيل* عندما التقى بها أثناء إحدى حفلات المحررين. يومها، دعاها لتناول القهوة في مقهى قريـــب، ولم يخطر على باله يومها أنها ستكون المرأة الوحيدة التي سيغرم بها. أول الأمـــر، ظـــن أنه اقترف خطأً بدعوتها للخروج معه، لأنه لم يجد ما يجمع بينهما. كانـــت ناريّة الطباع وشديدة الحماس، ولكنه سرعان ما وقع في شباك حبّها حين قام بتقبيلها خارج باب شقتها.

مـــع الوقـــت، اعتاد على طبعها الحاد وموهبتها الغريزية في استيعاب الناس، والطـــريقة التي كانت تتقبله بها - كما هو - دون أي حكم مسبق، سواء سلباً أو إيجاباً. بعد مضي عام على تعارفهما، عقدا قرانهما محاطين بالعائلة والأصدقاء. بعمر السادسة والعشرين، لم يكن قد بدأ عمله الصحفي في مجلة ساينتيفيك أميركان إلا أنـــه كـــان عـــلى بداية الدرب؛ وبالكاد تمكنا من استئجار شقة صغيرة في حي بـــروكلين. كـــان يتصوّر أنهما يخوضان صراعاً مقدساً لإرساء أسس حياة زوجية ســـعيدة. أما بالنسبة إليها - كما تناهى إليه بعد فترة - فإن زواجهما القوي من حيث المبدأ كان يقوم على أسس مهتزّة. في البدء، كانت المشكلة بسيطة: وظيفتها سمحت لها أن تبقى في المدينة حيث هي، أما وظيفته فتطلّبت منه أن يسافر مطارداً القصص المثيرة أينما تقع. وكم من المرّات اضطر أن يمضي أسبوعاً تلو الآخر بعيداً عن المنـــزل. أكّدت له تكراراً أنها قادرة على تحمل ابتعاده عنها، إلا أنه سرعان ما تبـــيّن أنهـــا لن تستطيع الاستمرار على هذا المنوال. وبعد فترة وجيزة من ذكرى زواجهمـــا الـــثاني، وفيما هو يوضب أمتعته للانطلاق في رحلة جديدة، جلست ماريا على طرف السرير، ضمّت يديها معاً ثم رفعت عينيها لتلتقي بعينيه:

"لـــن أقـــوى على الاستمرار"، قالت بكل بساطة، ثم صمتت لبرهة، "بالكاد أراك في المنـــزل. هذا ليس عادلاً لي، هذا ليس عادلاً لنا نحن الاثنان".

"أتريدينني أن أترك وظيفتي؟" سألها والرعب يتملكه.

"لا. لـــيس بالضـــرورة، ربمـــا وجدت عملاً في المدينة، مثل جريدة التايمز، البوست، أو الدايلي نيوز".

قـــال مترجّـــياً: "لن يبقى الوضع على ما هو عليه إلى ما لا نهاية، إنها مرحلة وستنقضي".

"أليس هذا ما قلته منذ ستة شهور. لا أمل في ما تقوله".

عندما استرجع جيرمي ذكريات الماضي، استغرب كيف فاته أن يدرك مغزى الإشارات التي كانت تصدر عنها. عندما كان يهم بالمغادرة لتغطية قصة حول قلعة لـــوس آلاموس، لفتته تلك الابتسامة الغريبة التي ارتسمت على وجهها عندما انحنى ليقبـــلها مودعـــاً. انطبعت الصورة في رأسه وشغلت تفكيره أثناء الرحلة. ولكنها كانت قد استعادت طبيعتها عندما عاد من رحلته، وأمضيا معاً نهاية أسبوع رائعة. بـــدأت تفاتحـــه بموضوع إنجاب طفل، ورغم كل التوتر الذي انتابه، كان سعيداً للفكـــرة. ظنّ أنها قد غفرت له، إلا أن هيكل زواجهما كان قد تخلخل، وساهمت كـــل سفرة إضافية في دق إسفين الشقاق بينهما. حدث الانفصال النهائي بعد عام مـــن حديـــثهما، وبعـــد ثلاثين يوماً من زيارة قاما بها إلى عيادة طبيب في الحي الشـــرقي، وهو الطبيب الذي حمل إليهما مستقبلاً لم يكن أي منهما ليتخيّله. هذه الـــزيارة كانت القشة التي قصمت ظهر البعير، فلقد آذنت بنهاية العلاقة أكثر من حجّة السفر. لا، ليس مخطئاً في يقينه.

"لا أقـــوى على الاستمرار"، قالت له بعد فترة من الزيارة، "يعلم الله كم أودّ أن أبقى إلى جانبك، وجزء مني سيبقى معك إلى الأبد. لا أستطيع".

وهـــل مـــن متّسع للرد؟ أحياناً، في الأوقات الهادئة التي يغرق فيها نفسه في الإشفاق على الذات، يسأل نفسه، هل أحبته حقاً؟ ألم يكن باستطاعتهما أن يصلا بهـــذه العلاقـــة إلى بر الأمان؟ مع كل ذلك، أنبأه حدسه بسبب رحيلها عنه. مع ذلك، لم يضمر أي ضغينة تجاهها. استمر بالاتصال بها هاتفياً بين الحين والآخر، إلا أنـــه وبعد ثلاث سنوات من انفصالهما، لم يقوَ على حضور حفل زفافها من محامٍ قطن في شاباكوا.

ســـبع سنوات مضت على الطلاق، وهو بحق الحدث الأكثر إثارة للحزن في حـــياته. يتساءل أحياناً كم من الناس باستطاعتهم أن يقولوا ذلك عن حياتهم؟ لم يســـبق له أن تعـــرض لإصابة بليغة، وهو يتمتع بحياة اجتماعية ناشطة، والأهم أنه

تخطّى مرحلة الطفولة دون الإصابة بإحدى الصدمات النفسية التي أحاقت بالكثيرين من الأشخاص في مثل عمره. إخوته وزوجاتهم، ووالداه وحتى جدّاه لوالديه وهم في العقد التاسع من العمر؛ كلهم تمتعوا بصحة جيدة وهم مقربون من بعضهم البعض. أفراد هذه القبيلة - بمن فيهم أولاد وبنات إخوته السبعة عشر - يلتقون مرة أو أكثر في الشهر في منزل والديه؛ في نفس المنزل الذي نشأ فيه جيرمي. وعدا عن شعور الوحدة الذي يغالبه في بعض الأحيان كونه الأعزب الوحيد - من جديد - في عائلة جلّها من الأزواج السعداء، فإن إخوته ومن باب احترامهم له تجنّبوا الخوض في تفاصيل طلاقه.

لقد تخطى الأمر، أو الجزء الأكبر منه على أية حال، مع أن رحلات كهذه تعيد إليه بعض الغصّة من الذكريات لما كان يمكن أن يكون بينهما. إلا أن هذا الإحساس في طريقه إلى التناقص، والأهم أن الطلاق لم يشكّل له عائقاً بينه وبين النساء بشكل عام.

منذ بضع سنين، تابع جيرمي دراسة حول ما إذا كان *إدراك الجمال* حصيلة للمعايير الثقافية أو لعلم الوراثة. وبغرض إجراء الدراسة، طُلب من نساء جذابات ونساء أقل جاذبية أن يحملن أطفالاً صغاراً، وتم قياس طول مدة تلاقي النظرات بين الأطفال والنساء ومقارنتها. أظهرت الدراسة علاقة مباشرة بين الجمال وطول مدة النظرات، إذ حدّق الأطفال لمدة أطول بالنساء الجميلات، مما يشير إلى أن إدراك البشر للجمال أمر غريزي. وحظيت الدراسة بتغطية كبيرة من مجلتي نيوزويك وتايمز.

أراد جيرمي أن يكتب مقالة لانتقاد الدراسة، وبالأخص لأنها لم تتطرق بحسب رأيه لبعض النقاط ذات الأهمية. صحيح أن الجمال الخارجي قد يلفت انتباه شخص ما على الفور، وما من مجال للإنكار أن جيرمي يدرك أنه عرضة لتأثير جاذبية عارضة أزياء كما هو الحال مع أي رجل آخر، إلا أنه كان موقناً بأن عاملي الذكاء والعاطفة يمثلان الجاذبية الطويلة المدى والأكثر تأثيراً من الجمال الخارجي. هذه الصفات تحتاج إلى بعض الوقت لكشف معناها الغامض، وليس للجمال أي دور في ذلك. قد يسيطر الجمال على المدى القصير، أما على المدى

المتوســط والطويــل، فإن المقاييس الثقافية هي الأهم؛ وبالأخص المعايير التي تتأثر بالتربــية العائلية. يومها أصرّ رئيس التحرير على أن الدراسة تحمل في طيّاها مقاربة شخصــية، واقــترح بــدلاً مــن موضوع الجمال مقالة حول الاستخدام المتزايد للمضــادات الحــيوية في علف الدجاج؛ أي ما من شأنه أن يحوّل خطر الجرثومة العقديــة إلى طــاعون العصر الحديث. معه حق، قال جيرمي لنفسه بألم، فرئيس التحرير نباتيّ وزوجته تجمع بين جمال خارق وذكاء متوقّد مثل شمس الصيف.

آه مــن رؤســاء التحرير! لطالما استنتج أن أكثرهم منافقون، ولكن كما هو الحال في معظم المهن، فإن المنافقين يتميزون بحماسهم وسعة اطلاعهم السياسي، أو بشكل من الأشكال، أنهم الناجون من أتون التدرّج الوظيفي، وهو ما يمنحهم حق توزيع المهام، وعلى الأخص لأنهم يقومون في النهاية بتسديد تكاليف هذه المهام.

ربما حان الوقت لكي ينأى بنفسه عن هذه الوظيفة قدر المستطاع. إنه يوافق ألفين الرأي بأن منتجي الأعمال التلفزيونية لا يختلفون كثيراً عن رؤساء التحرير في المجلات؛ مع فارق مهم: العمل التلفزيوني يــدرّ مدخولاً كبيراً، وعندها تتــاح له فرصة انتقاء المواضيع التي يود ملاحقتها بدلاً من الدخول في كثير من الأخذ والرد. كانــت ماريــا محقّة في انتقاد طبيعة عمله الضاغطة منذ وقت طويل، وخاصة أن خمســة عشــر عاماً قد انقضت ولم يتغير ضغط العمل البتّة. صحيح أن المواضيع صــارت تحظــى بمزيد من الاهتمام، وأنه صار سهلاً عليه أن ينشر مقالاته بسبب العلاقات الوظيفية التي حققها على مدى السنين، لكن لم يطرأ أي تغيّر على حجم التحدي المتمثل في استنباط مواضيع جديدة وشيّقة. كان عليه أن يكتب عدداً ليس بقليل من المقالات لساينتيفيك أميركان، منها تحقيق أو تحقيقان أساسيان، وحوالى خمســة عشــر موضــوعاً صغيراً ومتنوعاً كل عام، وبعضها مواضيع تتناسب مع الموســم. فخلال فترة عيد الميلاد، مثلاً، يكتب قصة سانتا كلوز الحقيقية، أي أن ســانتا كلــوز ولد في تركيا وأصبح أسقفاً لمدينة ميرا، وعرف عنه سخاؤه ومحبته للأطفال واهتمامه بالبحارة. أما في موسم الصيف، فموضوع من اثنين، إما ارتفاع حرارة الأرض بثمانية أعشار درجة مئوية خلال المائة عام الماضية، والذي من شأنه أن يحوّل الولايات المتحدة إلى صحراء قاحلة، أو من منظور آخر، أن يطلق ارتفاعُ

حرارة الأرض العصرَ الجليدي الثاني، وساعتها تتحول الولايات المتحدة إلى سهول جلـيدية جـرداء. وفي مناسبة عيد الشكر، لا يصلح أن تخلو مقالاته من تصحيح لـرواية الـرواد الأميركيين الأوائل الذين تعدّت إنجازاهم تناول وجبات حميمة مع سكان أميركا الأصليين، إذ عرف عنهم مطاردة الساحرات في مدينة سايلم، ونشر وباء الجدري والعلاقات العائلية المشبوهة.

أما المقابلات مع مشاهير العلماء والمقالات حول الأقمار الصناعية وغيرها من مشاريع وكالة الفضاء الأميركية ناسا، فتحظى بالتقدير ويسهل نشرها في أي فصل من فصول السنة. وبنفس السهولة، تأتي فضائح العقاقير - المتاح منها والممنوع - وتلـيها فضائح الجنس والقمار والبغاء، والقضايا أمام المحاكم التي تتعلق بتعويضات هائلـة - أو أي مواضـيع أخرى تتعلق بالماورائيات .- وهذه التغطية بالتحديد لا علاقة لها بالعلم بقدر ما يتعلق الأمر بالمخبولين من أمثال كلوسن.

ليست مهنته بالمهنة التي كان يمنّي النفس بها. إنه الوحيد من بين إخوته الذي دخـل جامعة كولومبيا وتخرّج منها بشهادة مزدوجة في الفيزياء والكيمياء مع النيّة في أن يصـبح أستاذاً جامعياً؛ وهو إنجاز ما انفكت والدته تتفاخر به أمام الغرباء. وقـتها، أقنعـته زميلته في الدراسة والتي كانت تكتب لصحيفة الجامعة أن يشترك بقصة قائمة على الإحصاءات وتعالج موضوع التحيّز في استخدام نتائج امتحانات الدخـول في قبول الطلاب في الجامعة. ولما قامت المظاهرات الطلابية إثر نشر هذه المقالـة، تنبّه جيرمي لموهبته الكتابية. إلا أن قرار احتراف الكتابة لم يترسخ إلا بعد أن وقـع والـده ضحية مخادع سلبه 40 ألف دولار أميركي قبل فترة وجيزة من تخرّج جيرمي من الجامعة. يومها، كادت العائلة أن تفقد منـزلها، ومعها مدخرات والـده الـتي جمعهـا قبيل تقاعده من عمله لدى سلطة الموانئ. غاب جيرمي عن حضور حفل تخرجه ليطارد المحتال. كما لو أنه ممسوس، بحث في سجلات المحاكم والسـجلات الأخرى وقابل مقربين من المخادع واحتفظ بملاحظات دقيقة حول أبحاثه.

وكأن القدر كان بانتظاره. لا شك أن ضرباً صغيراً من الاحتيال ما كان ليثير اهـتمام مكتـب المدّعـي العام في نيويورك، ولذا لجأ جيرمي إلى تدقيق مصادره

وتلخيص الملاحظات التي استقاها وكتب أول فضح صحفي في حياته. في النهاية، تمكّن من إنقاذ المنزل، واختارت مجلة نيويورك نشر المقالة. من جهة أخرى، لم يخب سعي رئيس تحرير المجلة بإقناعه أن حياة التعليم الأكاديمي لن تشبع طموحاته، وبحديث مزج بين المديح والخطابة حول العمل وقدرته على تحقيق الأحلام، نجح بإقناع جيرمي بكتابة مقالة حول عقار ليفرتكس، وهو مضاد للاكتئاب في المرحلة الثالثة من التجارب العياديّة، وقد حظي بتغطية إعلامية واسعة.

أخذ جيرمي باقتراح رئيس التحرير، وعمل على متابعة القصة على حسابه الخاص. في النهاية، دفعت مقالته مصنّع الدواء لسحب العقار من قائمة اختبارات مكتب الغذاء والدواء الأميركي. بعدها، وبدل أن يمضي إلى جامعة إم. أي. تي لتحصيل شهادة الماجستير، سافر إلى اسكتلندا مع مجموعة من العلماء لتقصّي أسطورة وحش بحيرة نيس، مما شكل أول مقالة خفيفة من إصداره وقتها. حظي باعتراف من طبيب على سرير الموت أقرّ فيه أن الصورة التي يفترض أنه – أي الطبيب – التقطها للوحش في العام 1933 والتي شغلت الجمهور لسنوات مزوّرة، وأن الطبيب وصديقه قاما بذلك ذات ظهيرة يوم عطلة بقصد المزاح. أما الباقي، كما يقال فهو برسم التاريخ.

مع ذلك، فإن خمسة عشر عاماً من ملاحقة القصص لا تعدو عن كونها خمسة عشر عاماً من ملاحقة القصص بأية حال من الأحوال. ماذا نال هو في المقابل؟ لقد بلغ السابعة والثلاثين من العمر وما يزال يعيش في شقة صغيرة في أعلى الحي الغربي، وهو الآن في طريقه إلى بون كريك ليتولى حل لغز الأنوار الغامضة في إحدى المقابر.

كعادته عندما يكون محتاراً، هزّ رأسه مستغرباً المنحى الذي اتخذته حياته. الحلم الكبير. ما زال الحلم الكبير في مكان ما هناك. ولم يفقد حماسه لتحقيقه. الفرق أنه لم يخطر له قبلاً أن التلفزيون سيكون السبيل لتحقيق حلمه.

بدأت قصة الأنوار الغريبة بعد أن تلقّى جيرمي رسالة قبل حوالى الشهر. وحين فرغ من قراءة الرسالة، قال لنفسه إنها تنفع موضوعاً لموسم الأعياد. وقد تحظى القصة باهتمام الريدرز دايجست أو مجلة ساوثرن ليفينغ، اعتماداً على المقاربة

الـــتي ســـيعتمدها في كتابة المقالة. أما في حال انتهى به الأمر بكتابة مقالة أدبية أو روائية، فربما يظهر التحقيق الصحفي في مجلة هاربر، أو حتى النيويوركر. من ناحية أخـــرى، في حال كانت تلك البلدة تطمح في أن تجتذب بأضوائها الغامضة الوفود السياحية التي سبقتها إليها بلدة روزويل بولاية نيو مكسيكو بقصة الأجسام الطائرة الغريبة، عندها ستظهر المقالة في صحف الولايات الجنوبية التي ستتكفل بنشر الخبر. ولـــو تمكّـــن مـــن كـــتابة مقالة قصيرة، ربما سيتمكن من استخدامها في عموده الصحفي. إن رئيس التحرير في ساينتيفيك أميركان، على الرغم من المظهر الجديّ الذي يود لمجلته أن تظهر عليه، فإنه لا يمانع البتة في قصة ترفع من أعداد المشتركين وتـــثير عاصـــفة من الجدل المتواصل. لا أحد أكثر منه عرف ولع الجمهور بقراءة قصص الأشباح. نعم، لا بد من بضع ثوانٍ لتقييم الموقف والانعكاسات سيمضيها رئيس التحرير مهمهماً ومدندناً ومحدقاً في صورة زوجته الموضوعة على مكتبه، إلا أن جيرمي يعلم جيداً أنه لن يدع موضوعاً شيقاً يفلت من بين يديه. وهل يستطيع محـــرر أن يقاوم إثارة الغبار الصحفي الذي يجتذب القراء بما يمثلونه من عماد العمل الصحفي. والمحزن أن الثرثرة والتفاهة أضحتا قاعدة العمل في المجال الإعلامي.

سبق لجيرمي أن تابع سبعة مواضيع مختلفة حول الأشباح، وظهرت أربعة من هذه المواضيع في أعداد شهر تشرين الأول/أكتوبر، وثبت أن بعض هذه الأحداث لا يعدو عن كونه رؤىً طبيعية عادية جداً ولا يمكن توثيقها علمياً، ولكنّ ثلاثاً من الحـــالات تـــتعلق بالأرواح الشريرة المؤذية؛ حيث يزعمون أن هذه الأرواح قادرة على تحريك الأشياء وتخريب ما يحيط بها. لجأ جيرمي إلى استشارة خبير في الأمور الماورائية؛ وجاء التحليل متناقضاً ومثيراً للسخرية، ومفاده أن هذه الأرواح الشريرة تطـــارد الأشـــخاص بدلاً من أن تسكن مكاناً ما. وخلص جيرمي في كل مرة من المـــرات الـــتي حظيت بتغطية إعلامية جيدة إلى أن الاحتيال هو ما يجمع بين كل الأحداث التي تحرّى عنها.

مع ذلك، فإن أنوار بون كريك قد تكون مختلفة؛ هذه الأنوار تظهر في أوقات محـــددة مكّنـــت الـــبلدة من تنظيم رحلات سياحية حول المنازل التاريخية والمقبرة المهجـــورة، وأن تـــوزع مناشير سياحية تعد الزائرين بتجربة تجمع بين الاستمتاع

بـــروعة المنازل التاريخية المبنيّة في منتصف القرن الثامن عشر والمقبرة المهجورة. وإن حـــالف الحـــظ الـــزوار بطقس ملائم، فإن الدليل يعد المغامرين بمشاهدة "أرواح أجدادنا المتألمة في رحلتها الليليّة بين العوالم الأرضيّة".

اســـتلم جيرمي المنشور السياحي المرفق مع الرسالة، وتظهر فيه البلدة الأنيقة والوعـــود الميلودرامـــية. أثناء الرحلة الطويلة، استعاد جيرمي فحوى الرسالة التي تلقاها:

عزيزي السيد مارش،

اسمي دوريس ماكلين. قرأت قبل سنتين مقالتك في ساينتيفيك أميركان حول الأرواح الشـــريرة التي تطارد قصر برينتون في نيوبورت بولاية رود أيلاند. فكّرت أن أكتـــب إلـــيك وقتها، ولكن لسبب لا أعرفه، مرّ الوقت ولم أفعل. ولكن مع تسارع الأحداث في البلدة هذه الأيام، لا مناص من أن أخبرك بما سمعت.

لا أعـــرف إن كنـــت قد سمعت بمقبرة بون كريك بولاية كارولينا الشمالية. تقـــول الرواية إن المقبرة مسكونة بأرواح العبيد من الزمن الماضي. خلال الشتاء، ابـــتداء مـــن شهر كانون الثاني/يناير وحتى بداية شباط/فبراير، تظهر أنوار زرقاء متراقصـــة على شواهد القبور عند طلوع الضباب. البعض يصف الأنوار بالمتوهجة والـــبعض الآخر يصفها بأضواء صالات الديسكو المتراقصة. لقد شاهدت الأنوار بنفسي وأجدني أقرب إلى القول إنها أشبه بأضواء صالة الديسكو. سبق لباحثين من جامعـــة ديـــوك أن حضـــروا للتحقيق، وأعتقد أنهم كانوا علماء أرصاد جوية أو جيولوجـــيا أو شيئاً من هذا القبيل. شاهدوا الأنوار بأنفسهم ولم يجدوا لها تفسيراً، ونشـــرت الصـــحيفة المحلية تحقيقاً كبيراً عن لغز المقبرة. ربما لو حضرت إلى بلدتنا لأمكنك أن تجد تفسيراً لطبيعة هذه الأنوار.

وفي حال أردت أي مساعدة إضافية، أرجو أن تتصل بي في مطعم هيربس في البلدة.

وأوردت بقية الرسالة تفاصيل الاتصال والعنوان.

قلّـــب جيرمي المنشور السياحي الذي تولى طباعته المجمّع التاريخي في البلدة،

وقرأ المقتطفات التي تصف المنازل المختلفة في الجولة المرتقبة، وكذلك قرأ المعلومات التي تورد تفاصيل المسيرة الاحتفالية والحفل الراقص الذي سيقام في الإسطبل ليلة الجمعة، وتملكه الاستغراب وهو يقرأ أنه وللمرة الأولى فإن الرحلة ستشتمل على زيارة المقبرة ليلة السبت. على الجهة الأخرى من المنشور السياحي رسم تقريبي لشبح، ومقتطفات من أقوال شهود عيان رأوا الأنوار بأنفسهم، ومقطع من مقالة نشرت في الصحيفة المحليّة. وهناك في الوسط صورة حبيبيّة لنور وهاج فوق ما قد يكون أو لا يكون أرض المقبرة.

ليس في القصة ما يشبه أسطورة منزل كاهن أبرشية بورلي، وهو منزل على الطراز الفيكتوري يقع على الضفة الشمالية من نهر ستاوت في إيسكس بإنكلترا. ويعدّ المنزل *المسكون* الأكثر شهرة في التاريخ، حيث تورد الروايات مشاهدات عن خيالة مقطوعي الرؤوس، وموسيقى أرغن غامضة، وأصوات أجراس تقرع، والتي كانت كافية لإثارة اهتمامه.

لم تنجح مساعيه في الاستحصال على المقالة التي ذكرتها الرسالة، ولا حتى عبر موقع الصحيفة المحلية على الإنترنت، فاضطر في نهاية الأمر للاتصال بعدد من الكليات بجامعة ديوك، ونجح في الحصول على الدراسة الكاملة التي قام بكتابتها ثلاثة من طلاب الدراسات العليا، كما حصل على عناوين إقامتهم وأرقام هواتفهم: ومع ذلك فلم يجد ضرورة للاتصال بهم. لم يشتمل البحث على أي من التفاصيل التي كان جيرمي يبحث عنها. على العكس، اكتفت الدراسة بتوثيق الأنوار وبالتشديد على أن أجهزة الباحثين كانت تعمل بشكل طبيعي، وبالكاد يلامس التحقيق سطح المعلومات التي هو بحاجة إليها. أضف إلى ذلك أن الدرس الذي تعلمه جيرمي على مدى خمسة عشر عاماً هو ألا يثق إلا بعمله.

هاكم أهم أسرار العمل لدى المجلات. في الوقت الذي يدّعي فيه الكثير من الصحفيين أنهم يجرون تحقيقاتهم الخاصة – دون إنكار أن معظمهم يقوم ببعض الأبحاث – فإنّهم ما يزالون يعتمدون بشدّة على الآراء وأنصاف الحقائق التي سبق نشرها في الماضي. ولهذا فكثيراً ما يقعون في الأخطاء، وأكثرها أخطاء صغيرة، أو في أحيان أقل تقع أخطاء كبيرة. كل مقالة في كل مجلة تحتوي أخطاءً، وقبل سنتين

كـــان جيرمي قد كتب قصة حول هذا الموضوع، فاضحاً بعض العادات المخجلة لزملائه من الصحافيين.

إلا أن رئيس التحرير منع نشر المقال. و لم تُبدِ أية مجلة أخرى حماسة لنشر هذا التحقيق.

نظر من نافذة السيارة إلى أشجار البلوط على جانبي الطريق، وتساءل إن كان الوقت قد حان ليغيّر مهنته؟ ليته قام بمزيد من الأبحاث حول قصة الأشباح التي أتت بـــه إلى هـــذا المكان. ماذا لو لم يكن هناك ثمة أنوار؟ ماذا لو كانت كاتبة الرسالة مخـــبولة؟ ماذا لو كانت الأسطورة مجرد خيال أو وهم لا يصلح لكتابة مقال؟ هزّ برأســـه. لا يـــنفع القلق، وبالأخص لأنه لا مجال للتراجع الآن. لقد وصل بالفعل، ونايت مشغول بتلقي الاتصالات في نيويورك البعيدة.

في صندوق السيارة، احتفظ جيرمي بالعدة الضرورية لمطاردة الأشباح (وهي نفس المعدّات التي يوردها كتاب اصطياد الأشباح الحقيقية! وهو كتاب اشتراه في الأســـاس على سبيل المزاح بعد إحدى حفلات الكوكتيل). اصطحب معه كاميرا بولارويـــد 35 مـــلم، وأربع كاميرات فيديو نقالة مع قواعدها، ومسجلاً ومكبّراً للصـــوت، وكاشـــفاً لأشـــعة المايكروويف، وكاشفاً للحقل الكهرومغناطيسي، وبوصـــلة، ومنظاراً للرؤية الليلية، وحاسوباً متنقلاً، وغيرها من الأدوات الصغيرة المتنوعة.

لا بد من إتقان العمل، فاصطياد الأشباح ليس مهنة للهواة!

وكمـــا كـــان يـــتوقع، فقد اعترض رئيس التحرير على تكلفة المعدات التي اشـــتراها مؤخراً، والتي تتطلبها مثل هذه التحقيقات. التقنيّة في تطوّر دائم، وآلات الأمس صارت بالية وكأنها من مخلفات العصر الحجري حسبما شرح لمحرره. كان يحـــلم بأن يشتري آلة الليزر المحمولة التي شاهدها مع الممثلين بيل موراي وهارولد رامـــيس في فيلم صائدي الأشباح، وتخيّل وجه رئيس التحرير عندما يزّف إليه مثل هـــذا الخبر، علماً أن الأخير يشبع الأوراق تمعناً مرفقاً بالأنين في كل مرة يوقّع فيها عـــلى طلب شراء، ولن يكون وقع خبر عرض القصة على التلفزيون بدلاً من المجلة سهلاً.

لم يـــتمالك نفســـه عـــن الابتسام وهو يفكر في وجه المحرر، وبدأ يقلّب في محطـــات الـــراديو، موسيقى الروك، والهيب هوب، والإذاعات الدينية، والموسيقى الشعبية، قبل أن يستقر به الأمر على برنامج حوارات محليّ يجري مقابلة مع صيادَيْ سمك مُفلطَح يتكلمان بحماسة عن ضرورة خفض الوزن الأدنى القانوني المسموح به لاصطياد هذا النوع من الأسماك. أما المذيع الذي بالكاد بدا مهتماً بالموضوع، فلم تميزه إلا لكنته الثقيلة. وانطلقت الإعلانات التجارية تروّج لمعرض البنادق والعملة المعدنية في معرض البناء في غريفتون ولآخر تشكيلة في فريق الناسكار.

ازدادت كـــثافة السيارات قرب غرينفيل، واستدار حول وسط المدينة قرب الحرم الجامعي لجامعة شرق كارولينا. ثم عبر نهر ماملیكو المائج نحو الضفة الأخرى، ومـــنه إلى الطريق الريفي السريع الذي يتعرج بين حقول الشتاء القاحلة مثل ندب عمـــيق، وتتخلـــله أجمـــات كثيفة من الأشجار وبيوت ريفية متناثرة. بعد حوالى النصف ساعة، اقترب من بون كريك.

بعد الإشارة الضوئية الأولى، انخفض الحدّ الأقصى للسرعة القانونية إلى خمسة وعشرين ميلاً في الساعة، ووجد جيرمي نفسه يجيل النظر مرتاباً. بالإضافة إلى عدد مـــن البيوت النقالة المنتشرة بشكل عشوائي خارج الطريق والشارعين المتقاطعين، كـــان المكان عبارة عن محطة وقود قديمة ومحل **ليروي** لبيع الإطارات. إعلان كبير عن بيع الإطارات المستعملة كان من شأنه أن يوقع ليروي في متاعب قانونية تحت أي سلطة قضائية خارج هذا المكان. وصل جيرمي إلى الطرف الآخر من البلدة في أقل من دقيقة، ولاحظ أن الحدّ الأقصى للسرعة القانونية قد ارتفع مرة ثانية. أوقف السيارة إلى جانب الطريق.

إمـــا أن تكون غرفة التجارة قد استعملت صوراً لبلدة أخرى في موقعها على شـــبكة الإنترنت، أو أن هناك شيئاً غاب عن باله. سحب الخريطة ليدقق فيها مرة ثانـــية، وطبقاً لهذه النسخة، فإنه كان بالفعل في بون كريك. نظر في المرآة الخلفية متسائلاً أين اختفت الطرقات الهادئة المزنّرة بالأشجار والنساء الأنيقات، والنباتات الصحراوية المزهرة؟

أعـــياه التفكير، ثم شاهد من بعيد ووراء صف الأشجار برج كنيسة أبيض،

وقرّر أن يسلك أحد الطرقات الفرعية التي شاهدها في طريقه. وبعد طريق متعرّج، تغيّرت البيئة المحيطة به فجأة، ووجد نفسه بعد لحظات يقود السيارة عبر بلدة كانت في يوم من الأيام جميلة ومترفة، ولكنها بدت الآن وكأنها تحتضر جراء الشيخوخة. السقائف الخشبية أمام المنازل والتي زيّنتها قدور من الأزهار المعلّقة والأعلام الأميركية لم تخفِ الطلاء المتساقط والجدران المتآكلة. أما الحدائق التي ظلّلتها أشجار الماغنوليا الهائلة، وأجمات الورد المشذّبة بعناية فلم تخفِ الأحواض المتصدّعة. مع ذلك، بدا المحيط العام ودّياً بما فيه الكفاية. في إحدى الشرفات، جلس زوجان مسنان على كرسي هزاز ولوّحا له أثناء مروره قربهما.

استغرق الأمر أكثر من تلويحة ليلاحظ أنهما لم يكونا يلوّحان له لأنهما تعرّفا عليه، بل لأنهما يلوّحان لأي غريب تقوده طريقه قريباً منهما. بعد بضع دقائق من القيادة، وجد نفسه أخيراً أمام الواجهة المائية، ليتطابق المكان مع ما قرأه عن أن بون كريك تأسست على ملتقى جدول بون ونهر بامليكو. ومع دخوله في وسط البلدة التجاري، لاحظ كيف أن ماضي البلدة المزدهر في السابق مضى إلى غير رجعة. وبين المحال الفارغة والنوافذ المغلقة، وجد متجرين قديمين لبيع التذكارات، أحدهما مطعم قديم، والآخر دكان حلاّق. أغلب المحال التجارية حملت أسماء محلية، وبدا الأمر وكأن العمل بدأ فيها منذ عقود ولكنها الآن في صراع للبقاء. المظهر الوحيد للحياة الحديثة يتمثل بقمصان قطنية بيضاء لامعة كتب عليها: "لقد نجوت من أشباح بون كريك"، وقد علقت هذه القمصان في ما بدا أنه مخزن البلدة الأكبر بالمفهوم الجنوبي.

ثم شاهد لافتة مطعم هيربس، حيث تعمل دوريس ماكلين. على الأقل لم يجد صعوبة في إيجاد المكان الذي يقع بالقرب من مبنى مجدّد أصفر اللون على الطراز الفيكتوري. وقفت السيارات أمام مدخل المبنى وملأت الساحة القريبة، ومن النافذة أمكن له أن يشاهد أن كل الطاولات كانت مشغولة، فقرر أن يؤجّل تعارفه بدوريس إلى وقت لاحق أقل ازدحاماً.

شاهد موقع غرفة التجارة الواقع في بناية حجرية صغيرة في طرف البلدة، وعاد أدراجه نحو الطريق السريع. ثم اندفع باتجاه محطة للوقود.

وبعـــد أن نــــزع نظاراتـــه الشمسية، أنـــزل جيرمي نافذة السيارة. ببطء شـــديد، وقف المالك بشعره الأشيب ورداء عمل قذر وقبّعة تقليدية، وبدأ بالمشي نحو السيارة ماضغاً ما قد يكون تبغاً، حسبما افترض جيرمي.

"هل أساعدك؟" لهجته كانت جنوبيّة جداً وأسنانه ملطخة ببقع سوداء. اسمه تولي كما تشير البطاقة البيانيّة المعلقة على جيبه.

ســـأله جيرمـــي عـــن طريق المقبرة، ولكن بدلاً من أن يجيبه، نظر المالك إلى جيرمي باهتمام.

وأخيراً سأله: "من توفي؟"

فزع جيرمي. "عفواً؟"

سأله تولي: "أنت في طريقك لحضور دفن، أليس كذلك؟"

"لا. أريد فقط رؤية المقبرة".

أومأ الرجل. "حسناً، ولكنك تبدو مثل رجل في طريقه لحضور دفن".

راجـــع جيرمي لباسه: سترة سوداء وكنـــزة رقيقة سوداء، وسروال جينـــز أسود، وزوجاً أسود من أحذية برونو ماغلي. للرجل وجهة نظر في ما قاله!

"لا، لا، أنـــا أحـــب أن أرتدي اللون الأسود فحسب. على أية حال، حول الوصول إلى المقبرة...".

رفـــع المـــالك حافـــة قبعته وتكلّم بهدوء: "أنا لا أحبّ الذهاب للدفن على الإطلاق. لأن ذلك يذكرني بما سيؤول إليه أمري. ألا يحصل ذلك معك؟"

عصيت الإجابة على جيرمي، فليس في سؤال الرجل ما هو معتاد على الإجابة عـــنه، وبالأخص أن جلّ ما أراده هو مساعدة في الوصول إلى مكان ما! ثم خاطر بالإجابة قائلاً: "لا أظن".

ســـحب المالك خرقة من جيبه وبدأ بمسح الشحم عن يديه، "يخامرني شعور أنك لست من هذه الأنحاء. لهجتك مضحكة".

أوضح جيرمي: "بل من نيويورك".

"سمعت عنها، ولكن لم أزرها قط". ثم نظر إلى السيارة، "هل هذه سيارتك؟"

"لا، لقد استأجرتها".

أومأ الرجل بصمت.

"لكـــن على أية حال، حول الوصول إلى المقبرة"، أعاد جيرمي الكرّة، "هل بإمكانك أن تخبرني كيف أصل إلى هناك؟"

"لِمَ لا، عن أي مقبرة تبحث؟"

"عن سيدر كريك؟"

نظر الرجل إليه بفضول. "وما حاجتك للذهاب إليها؟ لا شيء فيها لتشاهده وثمة مقابر أجمل على المقلب الآخر من البلدة".

"في الحقيقة، أنا مهتمّ بتلك المقبرة دون غيرها".

لم يبدُ أن الرجل سمعه. "هل لديك أحد مدفون هناك".

"لا".

"إذاً أنت إحدى الشخصيات المهمة من الشمال؟ هل تفكّر ببناء بعض الشقق الخاصّة، أو ربما أحد مراكز التسوّق على بقعة الأرض تلك؟"

هزّ جيرمي رأسه. "لا. في الحقيقة، أنا مجرد صحفي".

"زوجـــتي تحـــبّ مراكز التسوّق. بعض الشقق الخاصّة أيضاً قد تكون فكرة جيدة".

"آه"، دعا جيرمي أن يطول صبره قليلاً. "أتمنّى لو كان بمقدوري أن أساعد، ولكني لست في مجال الإعمار".

"هل تحتاج إلى بعض الوقود؟" سأل الرجل قبل أن ينتقل نحو مؤخّرة السيارة.

"لا، شكراً".

تابع الرجل سؤاله. "عادي أم ممتاز؟"

تمـــلمل جيرمـــي في مقعـــده، ثم قال لنفسه إن الرجل قد يستفيد من بعض المدخول، "عادي، أظن!"

بعد أن ملأ السيارة بالوقود، نـــزع الرجل قبّعته ومرّر يده في شعره في طريقه إلى نافذة سيارة جيرمي.

"هل لاحظت أي مشكلة في السيارة؟ لا تتردّد في المجيء إليّ. يمكنني أن أصلح كل أنواع السيارات، وأتقاضى مبلغاً زهيداً أيضاً".

"حقاً؟"

قال تولي: "السيارات الأجنبية والمحليّة، ماذا كنت تظن؟" وبدون انتظار لجواب، هزّ الرجل رأسه، كما لو أن جيرمي قد ارتكب خطأً فادحاً. "بالمناسبة، اسمي تولي. ماذا عنك؟"

"جيرمي مارش".

"أخصائي أمراض بولية؟"

"لا صحفي".

"لا يوجد أخصائيو أمراض بولية في البلدة. مع ذلك، هناك بضعة منهم في غرينفيل".

"آه"، قال جيرمي، بعد أن فقد الأمل. "لكن على أية حال، كيف أصل إلى سيدر كريك...".

فرك تولي أنفه ونظر نحو الطريق قبل أن يلتفت نحو جيرمي مرة ثانية. "حسناً، لن ترى أي شيء الآن. الأشباح لا تخرج حتى الليل، إن كان هذا ما جئت لأجله".

"أستميحك عذراً؟"

"الأشباح. إذا لم يكن عندك قريب مدفون في المقبرة، إذاً فقد أتيت إلى هنا لمشاهدة الأشباح، أليس كذلك؟"

"هل سمعت قبلاً عن الأشباح؟"

"بالطبع. لقد رأيتها بنفسي. ولكن إذا أردت الحصول على التذاكر، يجب أن تذهب إلى غرفة التجارة".

"هل أحتاج إلى تذاكر؟"

"بالطبع، ليس بإمكانك أن تدخل دون استئذان إلى منزل شخص ما".

توقف جيرمي لحظة محاولاً فهم ما يقوله الرجل.

قال جيرمي: "أوه، ذلك صحيح، جولة في البيوت التاريخية والمقبرة المسكونة، أليس كذلك؟"

حدّق تولي بجيرمي، كما لو أن الواقف أمامه هو أغبى رجل يمشي على وجه الأرض، "حسناً، بالطبع، نحن نتحدّث عن الجولة، ماذا تظن أنني كنت أخبرك؟"

قال جيرمي: "لست متأكّداً. لكن الاتجاهات...".

هزّ تولي رأسه. "نعم، نعم"، قال بغضب وأشار نحو البلدة.

"ما إن تعود إلى المدينة، اتّجه شمالاً على الطريق الرئيسي حتى تصل إلى مفترق طرق على بعد حوالى أربعة أميال. استدر غرباً وتقدّم حتى تصل إلى مفترق طرق يشبه الشوكة، وخذ الطريق الذي يحاذي منزل ويلسون تانر. استدر شمالاً مرة أخرى حيث السيارة الصدئة، تابع القيادة قليلاً، وستجد المقبرة هناك".

أومأ جيرمي، "نعم".

"هل فهمت".

"مفترق يشبه الشوكة، منزل ويلسون تانر، سيارة صدئة"، ردّد أوتوماتيكياً، "شكراً لمساعدتك".

"لا مشكلة. تسعدني مساعدتك. والمبلغ سبعة دولارات وتسعة وأربعون سنتاً".

"هل تقبل بطاقات الائتمان؟"

"لا. لا أحب تلك الأشياء. لا أحب أن تعرف الحكومة كل تحركاتي. لا دخل لأحد بما أفعله".

"حسناً". قال جيرمي، ومدّ يده إلى محفظته، "إنها لمشكلة حقاً. سمعت أن الحكومة تنشر الجواسيس في كل مكان".

أومأ تولي مؤكّداً. "أشعر أن الأمر أصعب حالاً معكم يا معشر الأطباء. لقد تذكّرت...".

وبعدها واصل تولي الكلام لمدة ربع ساعة متواصلة. تعلّم جيرمي عن تقلبات الطقس والمراسيم الحكومية التي تبعث على الضحك، وكيف أن وايات - مالك

محطة البنزين الأخرى – يتقاضى سعراً أعلى من جيرمي إذا ما توقف الأخير عنده لتعبئة الوقود، لأنه يغشّ في عيار المضخات حالما تبتعد شاحنة الوقود. لكن بشكل رئيسي، سمع عن مشكلة تولي مع غدة البروستات، الأمر الذي يضطره إلى الخروج من الفراش على الأقل خمس مرات كل ليلة للذهاب إلى الحمام. طلب نصيحة جيرمي حول معاناته، وبما أنه أخصّائي أمراض بوليّة سأله عن عقار الفياغرا.

بعد أن جدَّد تولي ما يمضغه مرتين، توقفت سيارة أخرى بالقرب من المضخة، وقطعت عليهما الحديث الشيّق. رفع السائق غطاء المحرك، ونظر تولي في المحرك قبل أن يشدّ بعض الأسلاك ويبصق جانباً. تعهّد أن يصلح السيارة، ولكن نظراً لانشغاله يجب أن يبقي السيارة عنده لمدة أسبوع. والواضح أن الرجل كان ينتظر مثل هذه الإجابة، وسرعان ما انتهى بهما الحديث بخبر اقتحام حيوان أبوسوم لمطبخ السيدة دانغناس الليلة الفائتة وأكله من سلة الفاكهة.

استغل جيرمي انشغالهما بالحديث لينسلّ هارباً. توقّف عند المخزن لشراء خريطة ومجموعة من البطاقات البريدية التي تعرض لأهم معالم بون كريك. وبعدها بقليل كان يشق طريقه على الطريق المتعرج الذي يقوده إلى خارج البلدة. والمفاجأة أنه وجد المفترق الذي يشبه الشوكة بسهولة، مع أنه وللأسف أضاع منزل ويلسون تانر. عاد أدراجه بضع مرّات وأخيراً وصل إلى طريق مفروش بالحصى تكاد تخفيه الأشجار النامية على جانبيه.

سلك المفترق، واصطدم بحفر من مختلف الأحجام قبل أن تبدأ الغابة بالانحسار. على يمينه، مرّ قرب علامة تشير لاقترابه من تل ريكر – موقع إحدى المناوشات الحربيّة خلال الحرب الأهلية – وبعد لحظات، انتهى به الأمر أمام مدخل مقبرة سيدر كريك. ارتفع تل ريكر بعيداً عن الأنظار كونه التل الوحيد في هذا الجزء من الولاية. الحقيقة أن أي مرتفع في هذا السهل سيهيمن بالتأكيد على ما حوله. في ما عدا ذلك، المكان كله مسطح مثل الأسماك المفلطحة التي سمع عنها قبل قليل عبر الراديو.

أحاطت أعمدة حجرية وسياج حديدي صدئ بمقبرة سيدر كريك التي تقع

في مـــا يشبه منخفضاً صغيراً، مما يوحي بأنها تغرق. ظللت أشجار البلوط المغطاة بالطحالب المكان، ولكن شجرة المانغروف الهائلة في الوسط طغت على ما عداها. انتشـــرت جذورهـــا مـــن الجذع وبرزت فوق الأرض مثل الأصابع المصابة بداء المفاصل.

ربمـــا كانت المقبرة مكاناً مرتباً ومسالماً في يوم من الأيام، إلا أن الإهمال لفّها مـــن كل جانب. الممر الوسخ الذي بدأ من عند البوابة الرئيسية والمحفور بأخاديد الســـيل العمـــيقة كانت تغطيه أوراق الأشجار المتعفّنة، أما بضع رقع من العشب الأخضر المتهالك والأغصان المتساقطة هنا وهناك فبدت غريبة عن المكان. وذكّرت تضاريس المقبرة جيرمي بأمواج البحر المتلاطمة قبل أن تصطدم بالشاطئ، فيما نمت الأعشاب البريّة بين شواهد القبور المتكسّرة.

تولي على حقّ فيما قاله! ما من شيء يستحق المشاهدة. ولكن بالنسبة لتقرير حول مقبرة مسكونة؛ وبالتحديد هكذا مقبرة قد ينتهي بها الأمر بأن تصبح برنامجاً عـــلى شاشـــة التلفزيون. تبسّم جيرمي، فالمكان أقرب ما يكون إلى موقع تصوير سينمائي في هوليوود.

خـــرج جيرمـــي من السيارة ومدّد رجليه قبل أن يخرج الكاميرا من صندوق الســـيارة. ورغـــم بـــرودة النسيم لم تكن فيه قرصة البرد التي تميّز هواء نيويورك الشتائي. أخذ نفساً عميقاً وتنشّق رائحة الصنوبر والأعشاب البريّة. أما في السماء، فقـــد انجرفـــت الغيوم المتلبّدة مفسحة المجال لصقر يحلّق وحيداً. وتفرّقت أشجار الصنوبر على تل ريكر، أما في السهل الذي أحاط بالتل، فشاهد من بعيد مخزن تبغ مهجـــور مغطـــى بالنباتات المتسلقة وقد اختفى معظم سقفه المصنوع من الصفيح وتداعى أحد جدرانه. كان المخزن مائلاً إلى جانب واحد، وبدا وكأن نفخة هواء قوية كفيلة بإسقاط المبنى بأكمله. فيما عدا ذلك، غابت أي معالم حضارية أخرى.

سمع جيرمي صوت صرير الباب عندما اندفع عبر البوابة الصدئة، وجال فوق الممر الوسخ. حدّق في شواهد القبور على جانبيه، واعترته الحيرة لغياب أي كتابة علـــيها، قبل أن ينتبه إلى أن النقش الأصلي محته عوامل الطقس ومرور الزمن. مع ذلك، فقد استطاع أن يميّز بضع شواهد يعود تاريخها إلى أواخر القرن الثامن عشر.

أمامـــه، شاهد قبواً مهملاً وتماثيل متضررة. لم يعثر على أي دليل يشير إلى تخريب مـــتعمّد، فكل الأضرار ناجمة عن العوامل الطبيعية، كما لم يجد دليلاً آخر يشير إلى أن أحـــداً قد دفن في تلك المقبرة منذ ما يزيد عن ثلاثين عاماً، وهذا يفسّر الإهمال الكبير لحال المقبرة.

تحت ظل شجرة الماغنوليا، توقف متسائلاً كيف سيبدو المكان في ليلة ضبابية. مكان مخيف على أغلب الظن، وكفيل بإطلاق العنان لمخيلة مطلق شخص. ولكن مـــا هو مصدر الأنوار؟ من أين تأتي؟ التحليلُ الأوليّ قاده إلى الظن بأن *الأشباح* ما هـــي سوى انعكاس لأنوار تحوّلت إلى طيف من خلال قطيرات الماء في الضباب. ولكـــن لـــيس ثمة أنوار شوارع في المحيط، ولا في المقبرة. ولم يشاهد في تل ريكر مســـاكن تـــنير أنوارها ليلاً. الاحتمال المتبقي هو أن الأنوار صادرة عن مصابيح الســـيارات؛ غير أنه لم يعثر على أي طريق قريب، وإلا لكان الناس لاحظوا الرابط بين العاملين منذ زمن طويل.

علـــيه أن يحصـــل على خريطة طبوغرافية جيدة للمنطقة يضيفها إلى خريطة الطرق التي اشتراها. ربما يجد هذا النوع من الخرائط في مكتبة البلدة العامة. على أية حـــال، لا بـــد من زيارة المكتبة العامة للبحث في تاريخ المقبرة والبلدة نفسها. في المـــرحلة الأولى، عليه أن يتوصل إلى أول تاريخ شوهدت فيه الأنوار، لعل الحادثة الأولى تعطـــيه فكرة حول المسببات المحتملة. وبالتأكيد عليه أن يمضي بضع ليال في هذه البلدة الغريبة؛ في حال ساعده الطقس الضبابي.

أمضـــى بعض الوقت وهو يتجوّل في المقبرة ليلتقط صوراً ليست بهدف النشر بقـــدر ما هي للمقارنة مع الصور المأخوذة للمقبرة في أوقات سابقة. أراد أن يقارن كـــيف تغيرت المعالم عبر السنين، لعله يستفيد من معرفة متى ولماذا حصل التغيير. الـــتقط صورة لشجرة الماغنوليا كذلك؛ لا شك أنها أكبر شجرة ماغنوليا شاهدها على الإطلاق. جذعها الأسود هائل القطر، وأغصانها المتدلية الواطئة كانت كفيلة بأن تشغله وإخوته لساعات أيام الطفولة - لو لم تكن محاطة بالموتى - بالطبع!

وفيما كان يتصفح الصور الرقمية في كاميرته للتأكد من أنه التقط عدداً كافياً منها، لمح في زاوية عينه حركة.

تطلع إلى الأعلى وشاهد امرأة تمشي نحوه، ترتدي جينز وكنزة زرقاء فاتحة تتماشى مع الحقيبة القماشية التي تحملها، وتنتعل جزمة عالية، وشعرها البني يلامس كتفيها. أما جلدها فينعكس في لونه ظلاً زيتونياً جعل من مساحيق التجميل أمراً يمكن الاستغناء عنه. ولكنّ لون عينيها حبس أنفاسه: من بعيد، تعكس عيناها لوناً يقارب اللون البنفسجي. وأياً تكن تلك المرأة، فقد أوقفت سيارتها وراء سيارته مباشرة.

لوهلة، تساءل إذا ما كانت تقترب منه لتطلب منه المغادرة، فربما كانت المقبرة محظورة على الغرباء، ومن ممنوع دخولها، أو قد تكون زيارتها بكل بساطة صدفة محضة.

تابعت التحرك نحوه.

كم هي جميلة هذه الصدفة! وقف جيرمي وأدخل الكاميرا إلى داخل الحقيبة، وابتسم ابتسامة عريضة عندما اقتربت منه.

قال مرحّباً: "أهلاً بك".

عند سماعه، أبطأت في سيرها بعض الشيء، كما لو أنها لم تره. تعابيرها عكست إحساساً بالمرح، وتوقع أنها ستقف قربه. بدلاً من ذلك تناهى إليه صوت ضحكتها بعدما عبرت بالقرب منه.

ارتفع حاجبا جيرمي تعجباً عندما تخطته، ولم تنظر وراءها. وقبل أن يتمالك نفسه، بدأ يتبعها.

صاح: "هاي!"

وبدلاً من أن تتوقف، استدارت لوهلة وتابعت المشي عكسياً مائلة برأسها بفضول. ومرةً ثانية، انتبه جيرمي إلى نفس التعبير المرح.

قالت بصوت مرتفع: "هل تعرف؟ حقاً، يجب أن لا تحدّق كما تفعل الآن، النساء يعجبن بالرجل الذي يتصرف بكياسة".

وقف جيرمي فاغراً فاهه، وللمرة الأولى في حياته، استعصى عليه الرد.

حسناً، لم أثِر اهتمامها. ليس مهماً، مع ذلك، على الأقل فإن معظم الناس يردون التحية. هل ما حصل تقليد جنوبي أو ما شابه؟ ربما ضجرت من تعرض

الـــرجال لهـــا طوال الوقت، أو ربما لم تشأ أن يقاطعها أحد أثناء.. أثناء... أثناء ماذا؟

هـــذه مشـــكلة الصحافة – قال متحسراً – لأنها ترفع من مستوى الفضول. فعلاً! لا ليس في الأمر ما يعنيه. عدا عن ذلك، ذكّر نفسه، نحن في مقبرة. ربما هي في زيارة لأحد أقربائها الموتى. أليس ذلك ما يفعله الناس عادة؟

قطّب حاجبيه – إلا أن هناك فارقاً بسيطاً ففي كل المقابر التي يعرفها – يأتي شـــخص مـــا بـــين الحين والآخر ليجز العشب، فيما تبدو هذه المقبرة مثل سان فرانسيســـكو بعـــد زلزال عام 1906. ربما لو اتجه نحوها ليرى عن كثب ما هي بصـــدد فعلـــه؟ ثم عـــدل عن الفكرة. إنه يعرف عدداً لا بأس به من النساء جعله يتدارك أن التجسس قد يلقى رداً أعنف من مجرد التحديق، علماً أنها لم تُبدِ حماساً للتحديق.

حـــاول جيرمي جاهداً ألا يحدق عندما اختفت المرأة وراء شجرة السنديان، وحقيبتها القماشية تتأرجح مع كل خطوة من خطواتها الرشيقة.

فقط بعد أن اختفت خلف الأشجار ذكّر نفسه أن الفتيات الجميلات لسن في قائمـــة أولوياتـــه حالياً. لديه مهمة ينكب عليها ومستقبله على المحك. حسناً ماذا بعـــد؟ لقـــد شاهد المقبرة... ربما عليه أن يتجول في المنطقة المحيطة.. ليتعرف أكثر على المكان.

عـــاد أدراجـــه وصعد إلى سيارته، فخوراً بأنه لم يلتفت إلى الخلف ليرى إن كانـــت تراقبه. هذه لعبة سهلة. طبعاً، على افتراض أنها كانت مهتمة أقل الاهتمام بما يفعله، علماً أن إحساسه أنبأه بالعكس.

نظرة سريعة من مقعد السائق رجّحت صحّة إحساسه.

أدار المحـــرك وانطلق ببطء؛ وكلما ابتعد أكثر عن المقبرة، وجد أنه من السهل اســـتبعاد صـــورة المـــرأة من رأسه واستبدالها بالمهمة التي بين يديه. سار إلى أعلى الطريق ليرى إن كان هناك طرق أخرى معبدة أو ترابية تتقاطع معاً، وأجال ناظريه باحـــثاً عن طواحين هواء أو أبنية ذات أسطح؛ دون نجاح. وفشل حتى في العثور على بيت ريفي.

انعطف بالسيارة عائداً أدراجه على نفس الطريق الذي سلكه، على أمل الوصول إلى طريق يقوده إلى أعلى تل ريكر ولكن دون نجاح. ومع اقترابه من المقبرة مرة أخرى، سأل نفسه ما إذا كانت الأراضي التي تحيط بتل ريكر مشاعاً أو أملاكاً خاصة. هذا النوع من المعلومات يتوفر في العادة لدى مصلحة الضرائب التابعة للمقاطعة، كما نبّهته نظرته الصحفية أن سيارة المرأة قد اختفت. خالجه شعور سريع ومفاجئ من الإحباط؛ سرعان ما زال.

نظر إلى الساعة، كان الوقت يشير إلى الثانية ظهراً. لا بد أن زحمة الغداء في مطعم هيربس قد انحسرت، وأنه يستطيع أن يجري حديثاً مع دوريس. ربما استطاعت إلقاء بعض الضوء على الموضوع.

تبسّم في نفسه وغامره شعور بالسخافة لمّا تساءل إن كانت المرأة في المقبرة ستضحك على هذا التعليق.



الفصل الثالث

خلت معظم الطاولات في مطعم هيربس من روادها وقت وصول جيرمي إلى المطعم. ومع صعوده الدرجات القليلة، سلط كل الموجودين في المطعم نظراتهم عليه وخفتت الأصوات باستثناء الضجيج الصادر من المطبخ. لم يتمالك جيرمي نفسه من أن يقارن بين موقفه الحالي والطريقة الفضولية التي ترنو فيها الأبقار إلى من يقترب من مرعاها. هزّ جيرمي رأسه ولوّح بيديه بالتحية تماماً كما فعل العجوزان على الشرفة سابقاً.

نزع نظارته الشمسية ودفع الباب. في الداخل، انتشرت الطاولات المربّعة الصغيرة بين غرفتين على جانبي المطعم يفصل بينهما درج. الجدران المطلية بلون الخوخ تناغمت مع الإطار الأبيض، وأضفت جواً حميمياً ورقيقاً على المكان. لمح المطبخ في الجهة الخلفية من القاعة.

رافقته نظرات البقرة الفضولية أثناء مروره، وخفتت الأحاديث وشخصت العيون. ولما هزّ رأسه ولوّح بيده، بدا وكأن جميع النظرات انزاحت عنه وارتفعت الهمهمة مرة أخرى. لا بد من أن في هزّ الرأس والتلويح فعل السحر.

وقف جيرمي وهو يلهو بنظارته الشمسية، على أمل أن يعثر على دوريس، عندما اقتربت منه إحدى المضيفات التي خرجت من المطبخ. بدت في أواخر العقد الثاني من عمرها، طويلة ونحيلة وبوجه مشمس صبوح.

"اجلس في المكان الذي يعجبك يا عزيزي، سأكون معك بعد دقيقة".

وبعد أن اختار جيرمي مكاناً مريحاً للجلوس قرب النافذة، شاهد المضيفة وهي تقترب، وقرأ اسمها على البطاقة *راشيل*. ما سرّ بطاقات الأسماء في هذه البلدة؟ وهل يمتلك كل عامل بطاقة من هذا النوع؟ هل في الأمر قاعدة ما كما هي الحال مع هزّ الرأس والتلويح؟

"هل آتيك بشيء تشربه يا عزيزي؟"

"هل عندكم كابوتشينو؟"

"لا، آسفة. بل عندنا قهوة".

تبسّم جيرمي، "حسناً، القهوة جيدة".

"فوراً، قائمة الطعام على الطاولة. إذا أحببت أن تختار وجبة الطعام".

"للحقيقة أود أن أسألك إذا كانت دوريس ماكلين موجودة؟"

قالت راشيل بابتسامة: "نعم، إنها في الخلف. أتريدني أن أناديها من أجلك".

"نعم، إذا سمحت".

"بكل تأكيد يا عزيزي".

رآهـــا وهي تتجه نحو المطبخ وتدفع الأبواب المتأرجحة، وبعد لحظة، ظهرت امرأة افترض أنها دوريس. على عكس راشيل، سيدة في العقد السادس من عمرها، قصــيرة وشعرها أبيض خفيف - لا بد بأنه كان أشقرَ ذات يوم - كانت ترتدي مــئزراً بــدون بطاقــة فوق بلوزة مطبوعة بالأزهار الملوّنة. توقفت عند الطاولة ووضعت يديها على خصرها قبل أن تطلق بسمتها.

"حسناً"، قالت بصوت ضاحك، "لا بد أنك جيرمي مارش".

بهت جيرمي، "هل تعرفينني؟"

"بالطبع، شاهدتك في برنامج برايم تايم لايف يوم الجمعة الفائت، لا بد بأنك استلمت رسالتي؟"

"نعم بالفعل. شكراً".

"وقد جئت لتكتب عن الأشباح".

"على ما يبدو". قال رافعاً يديه.

"عـــليَّ اللللـــــ (عليَّ اللعنة)..." قالتها بلهجة جنوبيّة مميزة، "لماذا لم تعلمني بموعد وصولك؟"

"أحـــب أن أفاجئ الناس، وفي أغلب الأحيان أجد أنه من الأسهل الحصول على معلومات دقيقة بهذه الطريقة".

"عليَّ اللللـــ (عليَّ اللعنة)..." قالت مرة أخرى، وبعد أن استردت أنفاسها، سحبت كرسياً وسألته: "أتمانع لو جلست معك؟ أعتقد أنك جئت لتتحدث إلي؟"

"شـــرط ألا أوقعـــك في مشكلة مع صاحب العمل، أو أن أتسبب لك بأي تأخير في أعمالك؟"

التفتـــت دوريـــس إلى الخلف وصاحت: "هاي راشيل، أتظنين أن صاحب العمل سيمانع لو جلست لبضع دقائق؟ هذا الرجل يود أن يتكلم معي قليلاً؟"

أطلّت راشيل برأسها من وراء الأبواب المتأرجحة، ولاحظ جيرمي أنها تحمل إبريق القهوة.

"لا، لا أظـــن أن صاحب العمل سيمانع على الإطلاق". ردّت راشيل: "إنها تحب الأحاديث، وبالأخص مع شخص وسيم".

"أظن أنك صاحبة المطعم؟"

"نعم، أقرّ بالذنب"، أجابت دوريس، وعيناها تلمعان من الاكتفاء.

"كم مضى عليك في هذا المجال".

"ثلاثـــون عاماً تقريباً، أحضّر طعام الفطور والغذاء. لقد بدأنا بوجبة الطعام الصـــحي قـــبل ســـنوات من أن تصبح موضة رائجة، ولدينا أفضل عجّة في هذه الأنحـــاء". ثم انحنت إلى الأمام قائلة: "هل أنت جائع؟ لا بد من أن تتذوق واحدة من شطائرنا للغداء. كلها طازجة، حتى أننا نصنع خبزنا بأنفسنا. يبدو عليك أنك بحاجـــة للتغذية". ثم تردّدت وهي تنظر إليه: "أراهن أنك ستحب شطيرة الدجاج بيســـتو. إنه يحتوي على البراعم الخضراء، الطماطم، الخيار، وأنا اخترعت وصفة البيستو بنفسي".

"لكني لا أشعر بالجوع الآن".

اقتربت راشيل حاملة كوبين من القهوة.

"حســـناً، للعـــلم، إذا كان عليَّ أن أقصّ حكاية، فمن الأفضل لي أن أرويها أثناء تناول وجبة جيدة. وأنا أميل إلى الاستغراق في الشرح".

استسلم جيرمي: "هلاّ أتيتنا بقطعتين من شطيرة البيستو يا راشيل؟"

"بالتأكـــيد". أجابـــت راشـــيل ورمقته بنظرة إعجاب، "بالمناسبة، من هو صديقك؟ لم يسبق لي أن رأيته هنا قبلاً".

أجابـــت دوريس: "أقدّم إليك جيرمي مارش، صحفي مشهور جاءنا ليكتب عن بلدتنا الجميلة".

"حقاً؟" وبدا الاهتمام على راشيل.

"نعم"، أجاب جيرمي.

"آه، حمـــداً لله"، قالـــت راشيل غامزة، "لوهلة اعتقدت أنك قدمت لحضور جنازة".

صعق جيرمي بينما استدارت راشيل مبتعدة.

ضـــحكت دوريس لتعابير وجهه. "لقد زارنا تولي بعد توقفك عنده للسؤال عـــن الاتجاهـــات. أعتقد أنه استنتج أن لي ضلوعاً في إحضارك إلى هنا، وأراد أن يـــتأكد. عـــلى أية حال، فقد أعاد علينا الحوار الذي دار بينكما بالتفاصيل المملّة، وعلى الأرجح أن راشيل لم تقدر على ضبط نفسها. كم ضحكنا على تعليقاته".

قال جيرمي: "آه؟"

"أراهن أنه أرهقك بالحديث".

"بعض الشيء".

"إنـــه ثرثار بطبعه. قد يتحدث مع علبة أحذية إذا لم يجد أحداً يحدّثه. أقسم بـــأني لا أعـــرف كيف صبرت زوجته بوني طيلة هذا الوقت. الغريب أنها أصيبت بالصـــمم قبيل اثني عشر عاماً، ولهذا يعوض بالحديث مع الزبائن. من المستحيل أن توقفه عن الكلام. خرج من هنا شبه مطرود اليوم بعدما جاء ليعلمنا بقدومك، لا يستطيع المرء أن ينجز أي عمل في حضوره".

تناول جيرمي كوب القهوة قائلاً: "أصيبت زوجته بالصمم؟"

"أظن أن الله سبحانه أشفق على حالها!"

ضحك جيرمي من قلبه وقال: "ولماذا استنتج أنك أنت من اتصل بي؟"

"في كـــل مـــرة يحصـــل أمر غير اعتيادي يقع اللوم عليَّ. ربما هذا جزء من

مواصفاتي كوني عرّافة البلدة أو ما شابه".

نظر جيرمي إليها بهدوء. تبسّمت دوريس وقالت ملمّحة: "أظن أنك لا تؤمن بالعرافة؟"

أقرّ جيرمي: "لا، لا أظن".

خلعت دوريس مئزرها. "حسناً، وعلى الأغلب، أنا مثلك. أكثر العرافين مخادعون، ولكن بعض الأشخاص يمتلكون الموهبة".

"إذاً... بإمكانك أن تقرئي أفكاري؟"

"لا، لا شيء من هذا القبيل". قالت دوريس وهي تهزّ رأسها بالنفي... "لا أقوى على ذلك في معظم الوقت.. أمتلك حدساً جيداً حول بعض الأشخاص. لطالما كانت قراءة الأفكار موهبة والدتي. لم ينجح أحد بأن يخفي أمراً عنها. لدرجة أنها كانت تعلم بما كنت أخطط لشرائه بمناسبة عيد ميلادها... هذه الموهبة تقتل عامل المرح. موهبتي مختلفة. أنا بصّارة، كما أني أقدر أن أحدّد جنس المولود قبل ولادته".

"حقاً؟"

"أنت لا تصدقني"، نظرت دوريس إليه.

"حسناً، دعنا نفترض جدلاً أنك بصّارة. هذا يعني أنك تستطيعين أن تدلّيني على مكان وجود المياه الجوفية، وأن تقولي لي أين يجب أن أحفر بئراً؟"

"بالتأكيد".

"ماذا لو طلبت منك أن تجري فحصاً لقواك، مع مقاييس علمية وتحت مراقبة مشددة؟"

"تستطيع أن تراقبني مباشرة، لو أردت، وحتى لو اضطررت أن تربطني بالمعدات لتتأكد من أنني لا أغش، لا مشكلة عندي في ذلك".

"نعم"، قال جيرمي وذهب فكره إلى يوري غيللر. كان غيللر شديد الوثوق بمقدرته على تحريك المواد لدرجة أنه ظهر على التلفزيون البريطاني عام 1973 أمام الجمهور ومجموعة من العلماء. عندما وازن ملعقة على يديه، بدأ طرفا الملعقة

بالانحناء نـــزولاً أمام أعين الجمهور المصعوق. ومضى زمن طويل قبل أن ينكشف سرّه، أي أنه قام بطيّ الملعقة مرات عدة وتسبب بإرهاق المعدن".

صمّمت دوريس أن تعرف ما يدور في ذهنه.

"دعني أقول لك إنك تستطيع أن تمتحنني في أي وقت تشاء. ولكن هذا ليس سبب قدومك. أتيت لتسمع عن الأشباح، صحيح؟"

"بالطـــبع"، قـــال جيرمي مرتاحاً لأن الحديث عاد إلى مجراه المقصود. "هل تمانعين لو سجلت الحديث؟"

"لا، على الإطلاق".

مدّ جيرمي يده إلى جيب معطفه وسحب جهاز التسجيل الصغير. وضع الآلة بينه وبين دوريس. وضغط على الزر المناسب، رشفت دوريس بعض القهوة قبل أن تبدأ.

"حســـناً، هـــذه القصة تعود إلى تسعينيات القرن التاسع عشر أو ما يقاربها. وقـــتها كانت المدينة مفصولة، وكان معظم الزنوج يعيشون في مكان يعرف باسم واتس لانديبنغ. لم يبقَ أثر للقرية بسبب *هازل*، ولكن وقتها...".

"عفواً.. من؟ هازل؟"

"الإعصـــار هازل؟ عام 1954، ضرب الإعصار هازل الساحل قرب حدود كارولينا الجنوبيّة، وكاد أن يغرق بون كريك بالكامل. أما ما تبقّى من آثار واتس لانديبنغ فقد اختفى مع المياه".

"نعم، صحيح. آسف للمقاطعة. رجاء تابعي".

"عـــلى أي حـــال، كما كنت أقول، لن تجد القرية الآن، ولكن عند مُنقلَب القـــرن، عـــاش هناك ما يقارب ثلاثمائة نسمة. معظم السكان انحدروا من سلالة العبـــيد الذيـــن أتوا من كارولينا الجنوبيّة أثناء العدوان الشمالي، أو ما يطلق عليه الشماليون الحرب الأهلية".

غمزت دوريس، وتبسّم جيرمي.

"إذاً جـــاءت شـــركة يونيون باسيفيك لتبني سكة الحديد، وطبعاً، كان من

المفـــترض أن تحوّل هذا المكان إلى مركز حضري نابض، أو هكذا أوهموا السكان. والسكة التي خطّط إليها تمر في وسط مقبرة الزنوج. قائدة المنطقة كانت امرأة اسمها هـــيتي دوبيليـــت - ذات أصول كاريبية - لا أعرف من أية جزيرة، ولكن عندما علمـــت أنهم سيحفرون المقبرة ليستخرجوا الرفات وينقلوها إلى مكان آخر، ثارت ثائـــرتها وحاولـــت أن تقنع المحافظة بأن تغيّر مسار السكة. ولكن مدراء المشروع رفضوا النظر في الأمر. لم يتيحوا لها فرصة حتى لتعرض قضيتها".

في هـــذه الـــلحظة، وصـــلت راشيل مع السندويشات، وضعت الطبق على الطاولة.

قالت دوريس: "جرّبها. إنك مجرد جلد وعظم على أية حال".

تناول جيرمي السندويش وقضمها، ورفع حاجبيه إعجاباً وتبسمت دوريس.

"لا مثيل لها حتى في نيويورك؟"

"دون أدنى شك، تحياتي للشيف".

نظرت إليه نظرة غنج، "إنك فاتن حقاً يا سيد مارش".

راودت جيرمـــي فكرة أنها هي نفسها كانت فاتنة في صباها، ولا بد أنها قد لوّعت بضعة قلوب. تابعت قصتها كما لو أنها لم تتوقف.

"وقتها، كانت العنصرية طاغية. البعض ما زالوا كذلك، ولكنهم أقلية الآن. أنت من الشمال؟ أظنك تفترض بأني أكذب، ولكني لا أكذب؟"

"أصدقك".

"لا! أنت لا تصدقني. لا أحد في الشمال يصدّقنا. ولكن هذا موضوع آخر. بالعودة إلى قصتنا، تجاهل القوم هيتي دوبيليت، وتقول الأسطورة إنهم عندما منعوها من الدخول إلى مكتب رئيس البلدية، رمت لعنة علينا نحن معشر البيض. قالت إن قبورنا ستدنس أيضاً إذا دنسوا قبور أسلافها، وإن أسلافها سيجوبون الأرض بحثاً عـــن مرقدهم الأساسي وسيدوسون على سيدر كريك في رحلتهم، وأنه في النهاية ستبتلع الأرض المقبرة. بالطبع، لم يعرْها أحد أي اهتمام يومها".

قضـــمت دوريـــس بعضـــاً من شطيرتها. "دون إطالة، عمد الزنوج إلى نقل

الجثامين الواحد تلو الآخر من المقبرة واخترقت السكة الأرض، وبعد ذلك تماماً كما قالت هيتي بدأت مقبرة سيدر كريك بالغرق. أشياء صغيرة في البدء، بضع شواهد قبور مكسّرة، أشياء من هذا القبيل وكأن بضعة مخربين هم السبب. ظنّ أهل المقاطعة أن قوم هيتي هم المسؤولون ووضعوا حراسة على المقبرة. ولكن استمر هذا الوضع مهما ازداد عدد الحراس. مع مرور السنين، زادت الأوضاع سوءاً. ذهبت إلى هناك، أليس كذلك؟"

أومأ جيرمي رأسه.

"إذاً بإمكانك أن ترى ما يحصل. يبدو وكأن المكان يغرق، أليس كذلك؟ كما قالت هيتي؟ على أية حال، بعد بضع سنوات، اعتقد السكان أن أرواح العبيد تخترق الأرض".

"إذا أنتم لا تستخدمون المقبرة الآن؟"

"لا، فالمكان مهجور بالكامل منذ أواخر سبعينيات القرن الماضي، ولكن حتى قبل ذلك، فضّل الكثيرون أن يدفنوا موتاهم في مقابر أخرى حول البلدة بسبب ما أصاب تلك المقبرة. إنها ملك للمقاطعة الآن، ولكنهم لا يعتنون بها. لم يعتنوا بها خلال العقدين السابقين".

"هل حاول أحد أن يتحرّى عن سبب غرق المقبرة؟"

"لست متأكدة، ولكني شبه متيقنة من أن أحداً قد قام بذلك بالفعل. عدد لا بأس به من المتنفّذين أسلافهم مدفونون في المقبرة، وآخر شيء يتصورونه هو تحطم قبور أجدادهم. أنا أكيدة أنهم يريدون تفسيراً، ووصلتني قصص أن أشخاصاً قدموا من رايليه ليعاينوا ما يحصل".

"تقصدين تلامذة جامعة ديوك؟"

"آه، لا، ليس أولئك يا عزيزي. هؤلاء مجرد صبية جاءوا العام الفائت فحسب. أنا أتكلم عن سنوات كثيرة خلت، ربما منذ بدء حصول الأضرار".

"لكنك لا تعرفين محصّلة بحثهم؟"

"لا، آسفة". توقفت للحظة، ولمعت عيناها لمعة لعوبة. "لكني أعتقد أني أمتلك

فكرة جيدة عما وجدوه".

رفع جيرمي حاجبيه، "أعطني مثالاً!"

"المياه"، قالت ببساطة.

"المياه؟"

"قلـــت لك إني بصّارة، هل تذكر؟ أشعر بوجود المياه. وسأقول لك بصراحة إن تلك الأرض تغرق بسبب وجود الماء تحتها. أعرف ذلك على وجه التأكيد".

"نعم"، قال جيرمي.

ضـــحكت دوريـــس، "أنت خفيف الظل يا سيد مارش، هل تعلم أن تعابير وجهك تتّسم بالجدية عندما يخبرك أحد بأمر لا تود تصديقه؟"

"للحقيقة لا، لم يسبق لأحد أن لفت انتباهي إلى ذلك!"

"إذاً، الآن صـــرت تعرف وأنا أظن أنها ميزة محبّبة. كانت أمي لتتلاعب بك طوال الوقت. كم هي سهلة قراءتك!"

"إذن بماذا أفكر؟"

تـــردّدت دوريـــس: "حسناً، كما قلت، مواهبي مختلفة عن مواهب والدتي. كانت لتقرأك وكأنك كتاب مفتوح. عدا عن ذلك، أنا لا أريد أن أفزعك".

"هيا، أفزعيني".

"حســـناً"، قالت، ثم نظرت إليه نظرة مطولة. "فكّر في شيء لا يمكن لي أن أعـــرف بـــه. لا تنسَ، موهبتي ليست في قراءة الأفكار. تأتيني فقط... لمحات بين الفترة والأخرى، وفقط إذا كانت مشاعر قوية حقاً".

قال جيرمي مجارياً الموقف: "حسناً، لا بد أنك لاحظت بأنك تبررين نفسك الآن".

"أوه، اسكت!" أمسكت دوريس بيديه. "دعني أمسك يديك، موافق؟"

"بالتأكيد".

"الآن فكّر بموضوع شخصي لا يمكن لي أن أعرفه".

"حسناً".

عصرت يديه. "أنا جادة، الآن أنت تلاعبني فقط".

"حسناً، سأفكر في أمر ما".

أغمض جيرمي عينيه. فكر في السبب الذي دفع ماريا لهجره في النهاية، ولبرهة، لزمت دوريس الصمت وتابعت النظر إليه وكأنها تدفعه للبوح بأمر ما.

لقد واجه أموراً من هذا القبيل سابقاً. مرات لا عدّ لها. ولذلك لزم الصمت هو الآخر، وحين حافظت هي على سكونها، أدرك أنه قد أوقع بها. ثم انتفضت فجأة – لا مفاجآت قال جيرمي في قرارة نفسه، لأن هذه هي العادة – أفلتت يديه.

فتح جيرمي عينيه ونظر إليها:

"ماذا إذاً؟"

نظرت إليه دوريس باستغراب. "لا شيء"، قالت له.

"آه". أضاف جيرمي: "ليس الحظ مؤاتياً، أليس كذلك؟"

"لقد قلت لك إني بصّارة"، ثم تبسمت في ما يشبه الاعتذار. "ولكني أستطيع أن أجزم بما لا يقبل الشك أنك لست حاملاً".

انفجر ضاحكاً، "أعرف أنك مصيبة في مقولتك".

تبسمت ثم أنزلت نظرها إلى الطاولة، ثم رفعته مرة أخرى. "آسفة، لم يكن عليَّ أن أقوم بما قمت به. ليس بالأمر الصائب".

قال بصدق: "ليس بالأمر المهم".

"لا"، قالت بإصرار. تقابلت نظراتهما وأمسكت بيديه مرة أخرى وقالت: "أنا آسفة جداً".

لم يعرف جيرمي كيف يتصرف عندما أمسكت بيديه للمرة الثانية، ولكن العاطفة في تعابير وجهها أذهلته. راود جيرمي إحساس مريب بأنها قد حزرت الكثير عن حياته الخاصة، أكثر مما كان يتصور.

إن مقدرات التواصل الروحي والإيحاء والحدس ما هي إلا نتاج لخليط من التجارب والمنطق وتراكم المعرفة. كثيرون يقللون من كمية المعلومات التي يتعلمونها

في حياقم، فيما العقل البشري قادر على أن يربط بلمح البصر بين تلك المعلومات بطريقة لا تماثله فيها أي فصيلة؛ أو آلة أخرى.

العقـــل مـــع ذلـــك يتعلم أن يتخلص من أكثر المعلومات التي يتلقاها، لأنه ولأســـباب بديهـــية، لـــيس من الضروري تذكر كل شيء. بالتأكيد يمتلك بعض الأشـــخاص ذاكـــرة أفضـــل مـــن الـــبعض الآخر، وهي حقيقة تبرز في أوقات الامتحانات، وقد ثبت علمياً أن القدرة على تدريب الذاكرة أمر موثوق. مع ذلك فـــإن أسوأ التلامذة يتذكرون 99.99% من كل ما يمرون به في الحياة. ولكن هذا الجـــزء المـــئوي المتبقي هو في معظم الأحيان ما يفرّق بين شخص وآخر. للبعض، يتمثل الأمر في القدرة على تذكر الأمور البسيطة، أو أن يتفوقوا مثل الأطباء، أو أن يفسّـــروا بدقـــة متناهـــية المعلومات المالية كما في حال البليونيرات الذين يجمعون ثـــرواقم في الأســـواق المالـــية. أمـــا للبعض الآخر، فيتمثل في المقدرة على قراءة الآخـــرين، وهؤلاء الأشخاص يمتلكون مقدرة فطرية ليجمعوا بين الذاكرة والمنطق والـــتجارب وليحللوها بسرعة وبدقة، وتظهر موهبتهم على شكل مقدرات فوق الطبيعة".

إلا أن مـــا قامـــت به دوريس كان أكثر من ذلك.. بطريقة ما! إنها تعلم. أو على الأقل، هذا ما فكر به جيرمي للوهلة الأولى، ثم تراجع إلى تفسير أكثر منطقية عمّا حصل.

الحقيقة أن لا شيء قد حصل بالفعل، قال لنفسه. لم تقل دوريس أي شيء. لا بـــد بـــأن الطريقة التي نظرت بها إليه دفعته للاعتقاد بأنها تعرف ما يخفيه. هذا الاعتقاد نابع منه شخصياً ولا دخل لدوريس فيه.

وحـــده العـــلم يحمل معه الإجابات الحقيقية، ومع ذلك، فإنها حقاً شخص لطـــيف. وحتى لو آمنت بمقدراقا، فما الضير من ذلك؟ ربما بدا الأمر فوق الطبيعة بالنسبة لها.

مرة أخرى، بدت وكأنها تقرأ أفكاره.

"حسناً، أعتقد أنني أثبت للتو أني مجنونة".

"لا، ليس بالتحديد"، قال جيرمي.

مـــدّت يدها إلى شطيرهًا. "على أية حال، وباعتبار أننا هنا لنتشارك في هذه الوجـــبة اللذيـــذة، ربما كان من الأفضل أن نتحادث لبعض الوقت. هل ثمة شيء بالتحديد تودني أن أحدثك به؟"

قال لها: "أخبريني المزيد عن بون كريك".

"مثل ماذا؟"

"أوه، أي شـــيء". قلـــت لنفســـي بما أنني سأبقى هنا لبضعة أيام، فلماذا لا أتعرف أكثر على المكان.

أمضـــيا نصف ساعة يتحدثان في... أمور ليست بذات الأهمية لجيرمي. بدت دوريس – حتى أكثر من تولي – أنها تعرف كل ما يدور في البلدة. وليس لموهبتها المزعومة دور في إطلاعها – حسب اعترافها – فالسّر هو أن الأخبار تخترق البلدة الصغيرة بسرعة البرق.

تكلّمـــت دوريس دون توقف. صار يعرف من يواعد من، من يصعب العمل معـــه ولمـــاذا، وفضـــيحة العلاقة بين أسقف الكنيسة وإحدى السيدات. الأهم – حســـب دوريـــس، على الأقل – نصحته أن يتفادى طلب مساعدة تريفور لنقل الســـيارات إذا ما تعطلت سيارته لأن تريفور سيكون على الأغلب مخموراً في أي ساعة من ساعات النهار.

أعلنـــت دوريس: "إنه خطر على الطرقات، كلنا نعلم ذلك، لكنّ والده هو قـــائد الشـــرطة، وليس ثمة من يردعه. لا تستغرب، فلقائد الشرطة وارتز مشاكله الخاصة، مثل ديون القمار!"

"آه"، قال جيرمي باهتمام: "ربما تكونين على حق".

لبرهة، توقف كلاهما عن الكلام واستفاد من فترة الصمت ليتطلع إلى ساعته.

"أظن أنك تود المغادرة"، قالت دوريس.

أطفأ آلة التسجيل ووضعها في جيب معطفه. "على الأغلب أني سأزور المكتبة قبل موعد الإغلاق لأرى ما تحتويه".

"حسناً، الغداء عليَّ هذه المرة، لا يزورنا أناس مهمّون كل يوم!"

"ظهور واحد على برنامج برايم تايم لا يضع الشخص على قائمة المشاهير".

"أعلم ذلك، ولكني أقصد عمودك الصحفي".

"هل تقرئينه؟"

"كـل شـهر، زوجي رحمه الله كان يعشق المجلة ويجلس في مرآب المنـزل لـيقرأها. بعد وفاته، لم يطاوعني قلبي أن ألغي الاشتراك. بطريقة ما، أكملت من حيث توقف. إنك لشخص ذكي فعلاً".

"شكراً"، قال لها.

وقفت قرب الطاولة، وسارت قربه إلى خارج المطعم. الزبائن القليلون الباقون رافقوهم بأنظارهم. لا شك في أهم تابعوا تفاصيل حديثهم، وما إن خرج جيرمي ودوريـس مـن المطعم حتى علت الهمهمة فيما بينهم. أجمعوا أن هذا الحدث مثير بالفعل.

قال أحدهم: "هل قالت إنه ظهر في برنامج تلفزيوني؟"

"أعتقد أني شاهدته في أحد برامج الحوارات".

"بالتأكيد ليس طبيباً". أضاف آخر، "سمعته يتكلم عن مقالة في مجلة".

"أتساءل كيف تعرّفت دوريس إليه. هل انتبه أحدكم إلى كيفية لقائهما؟"

"حسناً، على أية حال فقد بدا لطيفاً بما فيه الكفاية".

"أعتقد أنه مجرد حالم"، أضافت راشيل.

في هذه الأثناء، وقف جيرمي ودوريس على الشرفة غير مدركين للجلبة التي أثاراها في الداخل.

"أظـن أنـك ستقيم في غرين ليف؟" استفهمت دوريس. ولّما أومأ جيرمي بالإيجاب تابعت: "هل تعرف مكانها، إنها بعيدة بعض الشيء".

"معـي خـريطة"، قـال جيرمـي، محـاولاً أن يظهر بمظهر المستعد لكل الاحـتمالات. "أنـا أكيد بأنني سأجدها. ولكني بحاجة إلى إرشادات الوصول إلى المكتبة؟"

"بالتأكـيد"، قالـت دوريـس، "إنها عند تلك الناصية". وأشارت إلى أعلى

الشارع. "هل ترى ذلك البناء الحجري؟ المبنى بالنوافذ الزرقاء؟"

أومأ جيرمي.

"خـــذ يســـارك واتجه نحو إشارة التوقف الثانية. عند الشارع الأول، انعطف يميـــناً. المكتـــبة على الزاوية في ذلك الاتجاه. إنها عبارة عن مبنى أبيض كبير كان مـــنـــزلاً لعائلـــة ميدلتون، وكان صاحبه هوارس ميدلتون، قبل أن تقوم المقاطعة بشرائه".

"ألم يقيموا مبنى جديداً للمكتبة؟"

"إنهـــا بلدة صغيرة يا سيد مارش، والمكتبة كبيرة بما فيه الكفاية، كما سوف ترى بنفسك".

مدّ جيرمي يده مصافحاً، "شكراً لك، لقد كنت رائعة والغداء كان لذيذاً".

"أبذل كل جهدي في سبيل ذلك".

"هـــل تمـــانعين لـــو عـــدت مرة أخرى بأسئلة إضافية؟ الظاهر أنك شديدة الإطلاع؟"

"تســـتطيع القدوم في أي وقت تشاء. أنا موجودة هنا دائماً. ولكنني سأطلب مـــنك ألا تكتب ما يجعلنا نبدو مثل مجموعة من الحمقى. الكثيرون هنا وأنا منهم نحب هذا المكان".

"أنا لا أكتب إلا الحقيقة".

"أعلم ذلك، ولهذا السبب بالتحديد اتصلت بك. وجهك يوحي بالثقة، وأنا أكيدة بأنك ستضع حدّاً نهائياً لهذه الأسطورة بالطريقة الأمثل".

رفـــع جيرمـــي حاجبيه. "لا تقولي لي إنك تعتقدين بوجود الأشباح حقاً في مقبرة بون كريك".

"لا – يا إلهي بالطبع لا. أنا أعلم أن لا أرواح موجودة في المقبرة. أردّد ذلك منذ سنين، ولكن لا أحد يستمع إليّ".

نظر جيرمي إليها بفضول، "إذاً لماذا طلبت مني الحضور؟"

"لأن الـــناس لا يعرفون ماذا يجري، وسيحافظون على أفكارهم حتى يعثروا

علـــى تفســـير. منذ ظهور تلك المقالة عن هؤلاء الزوار من جامعة ديوك، ورئيس الـــبلدية يروج للفكرة إلى درجة الجنون، والغرباء يتدفقون من كل حدب وصوب علـــى أمـــل مشاهدة الأنوار. صدقاً المشاكل تزداد تعقيداً، المكان يتداعى بالفعل والأضرار من سيئ إلى أسوأ".

ابتلعت ريقها ثم أكملت: "بالتأكيد، مأمور الشرطة لا يبذل أي جهد لاحتواء المـــراهقين الذين يتسكعون هناك، ولا حيال الغرباء الذين يدوسون المكان دون أي اعتـــبار. مأمور الشرطة ورئيس البلدية رفيقا صيد، وعدا عن ذلك، فإن الجميع فيمن عـــداي يجدون في الترويج للأشباح فكرة سديدة. منذ إغلاق معمل النسيج والمنجم والبلدة تفرغ من سكانها، وربما يظنون أن فكرة الأشباح هي خشبة خلاصهم".

حوّل جيرمي نظره صوب سيارته ومن ثم صوب دوريس، وفكر في ما نطقت به للتو... معها كل الحق... ولكن..

"هل تدركين أنك تغيرين في الرواية التي أوردتها في رسالتك؟"

قالـــت: "لا. لم أفعـــل. هل ما قلته إن ثمة أنواراً غامضة في المقبرة وإن الناس يعـــزونها إلى أسطورة قديمة، وإن أكثرهم يعتقدون أن للأشباح دوراً في الأمر، وإن الأولاد من ديوك لم يستطيعوا حلّ اللغز كل ذلك صحيح. اقرأ الرسالة مرة أخرى لو لم تصدقني. أنا لا أكذب يا سيد مارش. لست كاملة، ولكني لا أكذب".

"إذاً لماذا تريدينني أن أثبت خطأ الاعتقاد؟"

"لأنه ليس اعتقاداً صائباً". ردت بسهولة كما لو أنه الجواب المنطقي الوحيد. "الـــزوار يدوســـون المقبرة على الدوام، والسياح يجيئون ليقيموا مخيمات هنا، أين احـــترام المـــتوفين؟ حتى وإن كانت مقبرة مهجورة. الراقدون هناك يستحقون أن يـــرقدوا بسلام. كما أن الجمع بين زيارة المقبرة والجولة على المنازل التاريخية خطأ فادح. ولكني مجرد صوت صارخ في البرية هذه الأيام".

فكّـــر جيرمي في ما قالته دوريس ووضع يديه في جيبـــي بنطاله. "هل لي أن أكون صريحاً؟"

أومـــأت بالإيجـــاب، ونقل جيرمي وزنه من قدم إلى أخرى، "إذا كنت حقاً تعـــتقدين أن أمـــك كانت روحانية، وأن بمقدورك الإحساس بوجود الماء ومعرفة

جنس الجنين، فإن الأمر يبدو وكأنه...".

نظــرت إلــيه مكمّلة كلامه: "وكأني يجب أن أكون أول من يؤمن بوجود الأشباح؟" أومأ جيرمي بالإيجاب.

"بالفعل، أنا كذلك. ولكني لا أعتقد أهم هناك في تلك المقبرة".

"لما لا؟"

"لأني ذهبت إلى هناك و لم أشعر بوجود الأرواح".

"وهل تستطيعين ذلك أيضاً؟"

هزّت كتفيها دون أن تجيب: "هل لي أن أصارحك؟"

"بالتأكيد!"

"ســيأتي يوم تدرك فيه أموراً لا يمكن للعلم أن يفسّرها. وعندما يحصل ذلك، ستتغير حياتك بطرق يصعب تخيلها".

تبسّم قائلاً: "هذا وعد؟"

قالت له: "نعم، هــو كذلك". ثم نظرت مباشرةً في عينيه، "وسأضيف أني اســتمتعت حقاً أثناء الغداء. لا أحظى كثيراً بفرصة مرافقة شاب رائع. أحس بأني شابة من جديد؟"

"أنا أيضاً قضيت وقتاً ممتعاً".

اســتدار ليغادر. اختفت الغيوم المتلبدة أثناء تناولهما الطعام. السماء - رغم صفائها - بدت وكأن الشتاء قادم لا محالة.

رفع ياقته وسار باتجاه سيارته.

"سيد مارش!" صرخت دوريس وراءه.

استدار قائلاً: "نعم؟"

"بلّغ تحياتي إلى ليكس".

"ليكس؟"

"نعم، عند مكتب الاستقبال في المكتبة. عليك أن تذهب إلى هناك".

تبسّم جيرمي، "بالطبع سأفعل".

الفصل الرابع

اتضح أن المكتبة بناء قوطيّ ضخم يختلف اختلافاً كبيراً عن أي من مباني البلدة. بدا المبنى بالنسبة لجيرمي وكأن أحداً قد اقتلعه عن تل في رومانيا وألقاه في بون كريك.

يحتل المبنى معظم المربع، وزُيِّن طابقاه الاثنان بنوافذ طويلة وضيقة. قرميده شديد الانحدار، وباب مدخله خشبي مقوس ومسكة الباب ضخمة حقاً. كان إدغار آلن بو ليعشق هكذا مكان، وهو على الرغم من مظهر المنزل المسكون الذي يوحي للناظر به، فإن أهل البلدة فعلوا ما بوسعهم ليجعلوه أكثر ألفة. الجدران الحجرية الخارجية، والتي لا بد بأنها كانت حمراء اللون، قد طليت باللون الأبيض وأضيفت ستائر خشبية خارجية على إطار النوافذ فيما زينت الزهور المدخل والحجر وأحاطت بسارية العلم. كما لفتت انتباهه لوحة خشبية حفر عليها بالخط الذهبي "أهلاً بكم في مكتبة بون كريك". رغم ذلك، فإن المنزل كان باعثاً على الرهبة.

في الداخل البهيج للمبنى المطلي بالأصفر الفاتح بدا المبنى متناسقاً في عدم تناسقه! وفيه مكتب بشكل زاوية، ويشير القسم الأطول منه نحو آخر المبنى حيث شاهد جيرمي غرفة زجاجية مخصّصة للأطفال. إلى اليسار دورات المياه، وإلى اليمين، وخلف جدار زجاجي آخر، ما يشبه القاعة الأساسية. أومأ جيرمي ولوَّح بيده إلى المرأة المسنة الجالسة خلف المكتب. تبسمت وردت التلويح بمثله ثم عادت إلى مطالعة كتابها. دفع جيرمي الباب الزجاجي الثقيل الذي يفصله عن القاعة الرئيسية، وشعر بالفخر لنجاحه في فهم أسلوب التعامل في هذه البلدة.

أما الصالة الرئيسية فقد أصابه منظرها بالإحباط، بالأخص عندما رأى ستة رفوف لا غير من الكتب مرصوفة قرب بعضها بعضاً في مساحة لا تزيد كثيراً عن

مساحة شقته. في الزاويتين القريبتين أجهزة الحواسيب القديمة، وفي الزاوية على يمينه مكـــان للجلوس فيه بضع نشرات دورية، كما توزعت أربع طاولات صغيرة حول الغرفة، وشاهد ثلاثة أشخاص فقط قرب رفوف الكتب يتصفّحونها، ومن ضمنهم رجـــل عجوز مع سماعة أذن يقوم بتكديس الكتب على الرفوف. أجال النظر مرة أخـــرى قـــبل أن يخامره شعور أنه اشترى خلال حياته كتباً أكثر عدداً مما تمتلكه المكتبة.

توجّه إلى مكتب المراجعة، ولا غرابة؛ لم يجد أحداً هناك. توقف عند المكتب واســـتند إليه مجيلاً النظر حوله. لا بد من أن ليكس هو ذلك الرجل العجوز الذي يرتب الكتب، إلا أن الأخير لم يحرّك ساكناً.

نظر إلى ساعته، وبعد دقيقتين، نظر إليها مرة ثانية.

وبعد دقيقتين لاحقتين، وبعد أن همهم جيرمي بصوت مرتفع، انتبه له الرجل أخـــيراً. أومأ جيرمي ولوّح له بحيث لا يدع له مجالاً للشك بأنه بحاجة للمساعدة، ولكـــن بـــدلاً من الاقتراب من جيرمي، لوّح الرجل بدوره وأومأ لجيرمي قبل أن يعاود تكديس الكتب. لا بد أن العجوز يسارع في إنجاز عمله قبل فترة الازدحام. يا للكفاءة الجنوبيّة؛ كم هو رائع هذا المكان.

في مكتـــب صـــغير مزدحم من الطابق العلوي، سرحت بنظرها إلى الخارج. كانت تعلم أنه قادم، فلقد اتصلت دوريس لحظة غادر مطعم هيربس وأخبرتها عن الرجل ذي الثياب السوداء من نيويورك والذي جاء ليكتب عن أشباح المقبرة.

هزّت رأسها. لا بد وأنه أصغى لما قالته دوريس. عندما كانت تعزم على أمر مـــا فإنها كانت تتمتع بقدر كبير من الإقناع، ولن تؤرقها المخاوف عن انعكاسات مثل هذه المقالة. سبق لها أن قرأت مقالات السيد مارش، ولقد كانت تعلم بالضبط كـــيف كـــان يتعامل مع مواضيعه. لن يكفيه أن يثبت عدم وجود أشباح – وهذا حقيقي – لكنه سيتعداه إلى ما هو أكثر. كان يقوم بمحاورة الناس بأسلوبه الساحر ويدفعهـــم إلى الكـــلام بصـــراحة، وبعدها يقوم بانتقاء مقولاتهم وتحوير الحقائق بالطريقة التي يرتئيها. وبعد أن يفرغ من كتابة المقالة، سيظن الناس في طول البلاد وعرضـــها أن جمـــيع ســـكان هذه البلدة هم مجموعة من السذج الحمقى المؤمنين

بالخرافات.

لا. أبداً. ليست مرتاحة لوجوده هنا.

أغمضت عينيها، ودون تفكير مررت أصابعها في شعرها الغامق. أضف إلى كل شيء أنها هي الأخرى لا تحبّذ فكرة تحويل المقبرة إلى منتزه للسياح. دوريس معها حق: في الأمر قلة احترام، ومنذ قدوم الصبية من جامعة ديوك وظهور تلك المقالة والأمور خرجت بالفعل عن السيطرة. لماذا لم يبقَ الموضوع طي الكتمان؟ الأنوار موجودة منذ سنوات كثيرة خلت، ولم يعرها أحد اهتماماً. بالتأكيد، بين الحين والآخر، يذهب بضعة أشخاص إلى هناك ليلقوا نظرة - وأكثرهم رواد لوكيلو وبضعة مراهقين - ولكن أن يصل بهم الأمر إلى طباعة القمصان، وأكواب القهوة؟ أو البطاقات البريدية المخيفة؟ أو الأدهى، أن يدمجوا زيارة المقبرة مع زيارة المنازل التاريخية؟

لم تفهم بدقة السبب الرئيسي وراء ظاهرة الأنوار. وما أهمية زيادة السياحة في المنطقة أساساً؟ بالتأكيد، المال عنصر جذاب، ولكن لا أحد سكن في بون كريك طمعاً في الغنى، أو على الأقل معظمهم! كان هناك دائماً قلّة تسعى وراء المال، وأولهم وعلى رأسهم رئيس البلدية. لطالما اعتقدت أن سكان البلدة يشاطرونها نفس الأسباب التي جعلتها تقيم في بون كريك: نفس شعور الرهبة الذي يخامرها عندما تحيل شمس المغيب نهر بامليكو إلى شريط ذهبي أصفر، أو لأنها تعرف كم تثق بجيرانها، ولأن السكان يسمحون لأولادهم باللعب ليلاً دون خوف من أن يصيبهم مكروه. في عالم يزداد انشغالاً يوماً بعد يوم، كانت بون كريك عبارة عن بلدة لم تحاول حتى اللحاق بركب العالم الحديث. وهذا بالتحديد ما ميزها.

لهذا السبب هي هنا رغم كل شيء. لقد أحبت كل ما في هذه البلدة: رائحة الصنوبر والملح صباحاً، أيام الربيع، وأوراق الخريف. وأكثر من أي شيء، أحبت الناس ولا تستطيع تصوّر الحياة في أي مكان آخر. وثقت بهم، تكلمت معهم وأحبتهم. بالطبع لم يشاطرها كثير من أصدقائها نفس المشاعر، وبعد أن غادروا ليلتحقوا بالجامعة لم يعودوا أبداً. وهي أيضاً انتقلت بعيداً لفترة من الزمن، وحتى وقتها كانت تعرف أن مصيرها هو العودة. وتبيّن أن العودة أمرٌ جيد، حيث ينتابها

القلـــق حول صحة دوريس منذ سنتين. ولطالما علمت أنها ستعمل في مكتبة، كما كانت أمها من قبلها، على أمل أن تجعل المكتبة مبعثاً لفخر البلدة.

لا، ليســـت الوظـــيفة الأكثر تألقاً في العالم، وليست الأعلى أجراً بالتأكيد. العمـــل في المكتبة لا ينتهي ويتطور على الدوام. ولكنّ الانطباعات الأولى خادعة. الطـــابق الســـفلي يحتوي على الروايات المعاصرة فقط، بينما يضم الطابق العلوي الكتب الكلاسيكية والعناوين الأخرى، وروايات للمؤلفين المعاصرين، بالإضافة إلى مجموعـــات فـــريدة. غامرها الشك بأن يكون السيد مارش قد تنبّه إلى أن المكتبة تـــتوزع على الطابقين، خاصة وأن درج الطابق العلوي يتم الوصول إليه من خلف المبنى، قرب غرفة الأطفال. أحد معوقات إقامة مكتبة عامة في منـــزل سكني سابق تمثل في عدم تناسب الهندسة المعمارية مع متطلبات الحركة العامة. لكنها كانت تجد المكان مناسباً بما فيه الكفاية.

مكتـــبها في الطابق العلوي هادئ في معظم الأحيان، وقريب من الجزء المحبب إلـــيها مـــن المكتـــبة. الكتـــب التي جمعتها من خلال المزادات العلنية وغيرها من التـــبرعات، أو مـــن خلال زيارة المكتبات الأخرى والموزعين على امتداد الولاية كانـــت من ضمن مشروع أطلقته والدها. كما كانت تمتلك أيضاً مجموعة متنامية مـــن المخطوطات التاريخية والخرائط ويرجع بعضها إلى ما قبل حروب الثورة. هذا كـــان عشـــقها. إنهـــا في بحث دائم عن الأشياء الخاصة، ولا تتوانى عن استعمال ســـحرها أو الالتماسات أو حتى المكر للحصول على ما كانت تريده. وإذا باءت محاولتها بالفشل، تلجأ إلى الإغراء بالإعفاءات الضريبية. ولأنها عملت جاهدة على مـــدّ جســـور التعاون مع محامي الضرائب والأملاك على امتداد الجنوب، كثيراً ما كانت تتسلم مواداً قبل أن تدرك بقية المكتبات بوجودها. ورغم أنها لم تمتلك سعة مصـــادر جامعة ديوك أو ويك فورست أو جامعة كارولينا الشمالية، فإن مكتبتها صـــنّفت مـــن أفضل المكتبات الصغيرة على صعيد الولاية، إن لم يكن على صعيد الدولة.

نعم! مكتبتها! كما هي بلدها! والآن ثمة غريب بانتظارها، غريب أراد كتابة قصة يحتمل ألا تكون في مصلحة أهلها.

آه، شـــاهدته يقترب بسيارته. شاهدته يخرج من السيارة ويتجه نحو المدخل. هزّت رأسها لما رأت فيه رجل المدينة المتبختر الواثق من نفسه. ما هو سوى واحد من أعداد كبيرة من الزوار الآتين من أماكن أكثر إثارة، أناس اعتقدوا أنهم امتلكوا رؤيـــة أعمق لحقيقة العالم الواقعي. أناس ادعوا أن الحياة يمكن أن تكون أكثر إثارة إذا مـــا انـــتقلوا بعيداً. منذ بضع سنوات، وقعت ضحية أحد الأشخاص من ذلك النوع، ورفضت الوقوع في شرك هذه الأفكار مرة أخرى.

هـــبط طـــير كاردينال أحمر قاني على حافة النافذة. راقبته وهو ينظف رأسه وأطلقـــت تنهيدة. حسناً ربما من الأفضل أن تذهب لتتحدث إلى السيد مارش من نيويورك والذي كان في أي حال من الأحوال في انتظارها. لقد قطع مسافة كبيرة - وأصـــول الضـــيافة الجنوبيّة، بالإضافة إلى طبيعة عملها - تحكّم عليها مساعدته للعـــثور عـــلى مـــا يحـــتاج إليه. الأهم أنه سيكون تحت مراقبتها طوال الوقت، وبمقدورها أن ترشح إليه المعلومات بأسلوب يجعله يفهم النواحي الإيجابية للحياة في هذه البلدة هو الآخر.

ابتسمت، نعم بمقدورها التعامل مع السيد مارش. أضف إلى ذلك أنه لا مفر من الاعتراف بأنه رجل شديد الوسامة على الرغم من أنه ليس مأمون الجانب.

بدا الضجر على جيرمي مارش.

كأنها به يذرع أحد الممرات، مكتوف اليدين، ومتأملاً في العناوين المعاصرة. بين الحين والآخر، يظهر العبوس على وجهه، ويتساءل لماذا لا يمكنه العثور على أي مـــن روايات ديكنيز، تشوسر، أو أوستين. حاولت أن تخمّن ردّ فعله عندما يسألها عـــن هـــؤلاء المؤلفين وترد عليه "من؟" لا تعرف عنه حتى الآن إلا القليل، ولكن الاحـــتمال الأكبر أن يحدق بها بدهشة وأن يخونه الرد تماماً كما حصل في المقبرة. الرجال، كم يسهل توقع ردود أفعالهم!

رتبـــت بلوزتهـــا، وأجّلت للحظة أخيرة الانطلاق باتجاهه. إنها امرأة محترفة؛ ذكّرت نفسها، وفي مهمة خاصة كذلك.

"الأرجح أنك تبحث عني؟" قالت وهي تجبر نفسها على الابتسام.

لمـــا سمـــع صـــوتها، رفع جيرمي نظراته وبدا وكأنه تجمد في مكانه. ثم أرفق

دهشـــته بابتسامة لما تعرّف على مصدر الصوت. بدا ودياً بما فيه الكفاية. غمازتاه محببتان، لكن ابتسامته مدربة ولا تتماشى مع الثقة التي تشع من عينيه.

"أنت ليكس؟" سألها.

"إنه اختصار اسم ليكسي، ليكسي دارنيل. إنه اسم التحبب الذي تطلقه عليّ دوريس".

"أنت أمينة المكتبة؟"

"نعـــم، أحـــاول أن أقوم بالمهمة عندما لا أتسكع في المقابر متجاهلة تحديق الرجال بي".

ابتسمت ومرّت قربه لترتب بضعة كتب على الرف كان قد تفحصها.

"عليَّ اللللـــــ..." قال محاولاً أن يقلّد لكنة دوريس.

"لكنـــتك ليست مقنعة يا سيد مارش، تبدو وكأنك تحاول استعمال حروفنا في لعبة الكلمات المتقاطعة".

أطلق ضحكة سهلة دون انـــزعاج من تعليقاتها، "أتظنين؟"

رجل مرّت عليه الكثير من النساء؛ قالت في سرها.

ثم تابعـــت وهـــي ترتـــب الكتـــب: "أنا متأكدة، الآن ماذا يمكنني أن أفعل لمساعدتك يا سيد مارش، لا بد أنك جئت بحثاً عن معلومات حول المقبرة؟"

"سمعتي تسبقني!"

"اتصلت دوريس لتخبرني بقدومك".

"آه، كان عليَّ أن أعرف، إنها امرأة مثيرة للاهتمام".

"كما أنها جدتي".

ارتفع حاجبا جيرمي دهشة، "عليَّ اللـــــــ... (عليَّ اللعنة)". قال في خلده. "يا للمصادفة. هل أخبرتك عن غدائنا البهيج؟" سألها.

"أنـــا حقاً لم أسألها". دسّت شعرها وراء أذنها، ولفتها أن غمازتيه من النوع الـــذي يغري الأطفال بطعن أصابعهم داخلهما. لا يهم، بالتأكيد لا يهمها الأمر! انتهـــت من ترتيب الكتب، والتفتت لمواجهته، وجهدت لتبقي نبرتها ثابتة: "صدّق

أو لا تصـــدّق فإني مشغولة في هذه اللحظة: عندي كومة من العمل المكتبي الذي أحتاج إلى إنهائه اليوم. عن أي نوع من المعلومات كنت تبحث؟"

هـــزّ كتفـــيه بـــلا مبالاة. "أي معلومات تساعدني على معرفة تاريخ البلدة والمقبرة. متى بدأت الأنوار، الدراسات التي أجريت في الماضي، أي روايات يرد في ســياقها ذكر الأنوار، الخرائط القديمة، معلومات عن تل ريكر وطبوغرافية المنطقة، الســـجلات التاريخـــية وأشـــياء مـــن هذا القبيل". توقف لبرهة وتمعن في العينين البنفســـجيتين مرة ثانية؛ يا لهذا اللون الغريب. وهي الآن بقربه تماماً، لم تنصرف. أثاره الموقف برمته.

ثم أردف: "لا بـــد لي من أن أعترف أنه أمر مثير للعجب". واستند إلى أحد الرفوف.

"عذراً؟" قالت محدقة به.

"أن أراك في المقـــبرة والآن هنا. رسالة جدّتك التي أتت بي إلى هنا. مصادفة غريبة ألا تعتقدين؟"

"ليتني أستطيع أن أقول إني فكرت في الموضوع!"

ليس من السهل ثني جيرمي وبالأخص عندما تزداد المواقف إثارة. "حسناً بما أني لســـت مـــن هـــذه الأنحـــاء، ربما أمكنك أن ترشديني إلى ما يفعله الناس هنا ليســـترخوا. أقصد هل ثمة مكان للحصول على بعض القهوة؟ أو بعض الطعام؟" ثم تمهّل للحظة قبل أن يكمل، "لاحقاً ربما؟ بعد فراغك من العمل؟"

تساءلت إذا كان ما سمعته حقيقياً. "هل تسألني الخروج معك؟"

"فقط إذا كنت متوفرة".

"أعتقد أن عليَّ أن أعتذر. شكراً لسؤالك على أية حال".

حافظت على ثبات نظرها إليه حتى رفع يديه أخيراً.

"حسناً، معك حق". قال بنبرة سهلة. "ولكن لا يمكنك أن تلومي رجلاً لمجرد المحاولـــة". وبـــرزت غمازتاه مرة ثانية. "الآن هل بإمكاننا أن نبدأ بالبحث؟ إذا لم تكوني مشغولة بالعمل المكتبي، أعني يمكنني أن آتي غداً إذا كان الغد أكثر ملائمة؟"

"هل هناك موضوع خاص تودّ البدء به؟"

"كنـــت آمل أن أقرأ المقالة التي ظهرت في الصحيفة المحلية. لم تتح لي الفرصة حتى الآن. هل تحتفظون بها؟"

أومـــأت. "يحتمل أن تكون على الميكروفيش. نحن نتعامل مع المجلة منذ عدة سنوات فلا أعتقد أن ثمة مشكلة في العثور عليها".

قال: "عظيم، وأي معلومات عامة عن البلدة".

"ستجدها في نفس المكان".

نظر حوله لبرهة متسائلاً أين يذهب. أما هي فبدأت المشي باتجاه القاعة.

"الطريق من هنا سيد مارش. ستجد ما تحتاج إليه في الطابق العلوي".

"هناك طابق علوي؟"

"إذا تبعتني، سأريك. هذا وعد!"

سارع جيرمي خطاه ليتمكن من اللحاق بها، "هل تمانعين لو سألتك سؤالاً؟"

فتحت الباب الرئيسي وتردّدت. "لا على الإطلاق"، قالت بهدوء.

"لماذا كنت في المقبرة اليوم؟"

بدلاً من أن تجيب، تابعت التحديق به بكل بساطة دون تغيّر في تعابيرها.

"أعـــني، كنـــت أتســـاءل"، تـــابع جيرمي: "تكون لديّ انطباع أن قلة من الأشخاص يذهبون إلى هناك هذه الأيام".

حافظت على الصمت، وازداد فضول جيرمي ثم صار انـــزعاجاً. "ألن تقولي شيئاً؟"

ابتسمت، وللمفاجأة غمزته قبل أن تلج من الباب المفتوح. "قلت إنك يمكنك أن تسأل، سيد مارش، ولم أقل بأني سأجيب".

وفيما سارت أمامه، لم يستطع جيرمي إلا التحديق. أوه، إنها امرأة مميزة حقاً. أليس كذلك؟ الواثقة والجميلة والساحرة في نفس الوقت، علماً أن هذا رأيه بعد أن قضت على فكرة خروجهما معاً في موعد.

ربما كان ألفين على حق... ربما تخفي الحسناوات الجنوبيات سحراً يمكن أن

يدفع الرجل إلى حافة الجنون.

شقّا طريقهما خلال القاعة، وعبرا غرفة مطالعة الأطفال، وقادته ليكسي صعوداً على الدرج. وفي أعلى السلم، توقف جيرمي لينظر حوله.

عليَّ اللللللـ (عليَّ اللعنة)... فكّر مرة أخرى.

يحمل المكان في زواياه أكثر بكثير من كونه مكاناً يحتوي على بضعة رفوف متداعية مليئة بالكتب الجديدة؛ أكثر بكثير من مجرد مخزن. تحمل الصالة في جنباتها الكثير من الدلائل القوطية بأدق تفاصيلها، وصولاً إلى رائحة الغبار وأجواء المكتبات الخاصة: الجدران المكسوّة بخشب البلوط، الأرضية من الخشب الماهوغوني، وستائر حمراء غامقة. بدا الفارق كبيراً بين المساحة المكشوفة في الطابق السفلي والغرفة المعتمة المليئة بالكراسي والمصابيح من طراز تيفاني في الزوايا. على طول الجدار في أقصى الغرفة موقد حجري علقت فوقه صورة، أما النوافذ فعلى الرغم من ضيقها، فإنها تسمح بمرور كمية من الضوء كافية لتضفي على المكان أجواء منزلية.

"الآن فهمت". لاحظ جيرمي. "الطابق السفلي كان عبارة عن طبق المشهّيات. أما هنا فالوليمة الحقيقية".

أومأت. "أغلب زوّارنا اليوميين يأتون بحثاً عن روايات حديثة للمؤلفين الذين يعرفونهم، لذا أنشأت طابقاً في المنطقة السفلية لراحتهم. إنّ الغرفة في الطابق السفلي صغيرة لأنها كانت مكتبنا قبل أن نحوّله".

"أين المكاتب الآن؟"

"هناك". قالت، وأشارت إلى ما وراء الرفّ البعيد. "بجانب غرفة الكتب النادرة".

قال: "نجاح باهر، أنا شديد الإعجاب بما أراه".

ابتسمت. "تعال، دعني أجول بك حول المكان وأخبرك المزيد عنه".

في الدقائق القليلة التي تلت، دردشا فيما جالا بين الرفوف. علماً أن المنزل بناه هوراس ميدلتون في العام 1874 - قبطان جنى ثروته من شحن الأخشاب

والتبغ - لزوجته ولأطفاله السبعة، ولكن المحزن أنه لم يقدّر له أن يعيش في المنـــزل أبـــداً. قـــبل استكمال أعمال البناء، توفيت زوجته، وقرّر الانتقال مع عائلته إلى ويلمينغتون. بقي المنـــزل فارغاً لسنوات، ثم سكنته عائلة أخرى حتى الخمسينيات مـــن القـــرن الماضي، وأخيراً بيع إلى المجمع التاريخي الذي باعه بدوره إلى المقاطعة لاستعماله كمكتبة.

اســـتمع جيرمي باهتمام. سارا ببطء، واستطردت ليكسي بين الحين والآخر لتشـــير إلى بعض كتبها المفضّلة. كانت قارئة نهمة وواسعة الإطلاع - أكثر منه - وبـــالأخص في المواضيع الكلاسيكية. طبعاً، قال لنفسه. كيف لشخص أن يصبح أمـــين مكتـــبة لو لم يعشق الكتب؟ وكأنها أدركت ما يجول في خاطره، فتوقفت وأشارت إلى لوحة تعريف على أحد الرفوف.

"ربما يكون هذا القسم الأقرب إلى اهتماماتك، سيد مارش".

تمعّـــن في اللوحـــة، وقرأ عناوين عالم ما وراء الطبيعة والسحر. أبطأ لكن لم يتوقّف، وأمضى قليلاً من الوقت ليتصفح بضعة عناوين، منها كتاب حول توقعات ميتشل دي نوستراداموس. من المعروف أن نوستراداموس نشر مائة توقع مبهم جداً في العـــام 1555 ضمن كتاب أسماه **القرون**، وهو الأوّل من ضمن عشرة مؤلفات كتـــبها في حياته. خفت وهج التوقعات الألف التي نشرها نوستراداموس، باستثناء حـــوالى الخمســـين توقعاً التي ما تزال تتردّد اليوم، أي نسبة نجاح تافهة لا تتعدّى الخمسة بالمائة.

أدخـــل جيرمي يديه في جيبيه. "يمكنني أن أنصحك ببضعة عناوين جيدة إذا أحببت".

"بكل سرور. لست شديدة الاعتداد لدرجة أني لا أطلب المساعدة".

"هل قرأت هذه المادة من قبل؟"

"لا. بصـــراحة، أنـــا لا أجد الموضوع جذاباً بما فيه الكفاية. أعني، أنا أقلّب الصفحات في هذه الكتب عندما تصل إلينا، وأنظر إلى الصور، وأتصفح البعض من الحواشي التي ترد مع الصور لأتأكد بأنها ملائمة، لا أكثر".

قال: "فكرة جيدة، من المحتمل أنك أفضل حالاً بهذا الأسلوب".

"المدهش، مع ذلك أن هناك بعض الناس في البلدة الذين لا يريدونني أن أحضر أي من الكتب عن هذه المواضيع. خصوصاً كتب السحر. يظنون بأن لها تأثيراً سيئاً على الصغار".

"فعلاً. كلها أكاذيب".

ابتسمت. "ربما، لكنك أخطأت بيت القصيد. يريدونني أن أتخلص منها لأنهم يؤمنون أنه من المحتمل جداً استحضار الشرّ، وأن الأطفال الذين يقرأون هذه المادة قد يستحضرون... بطريق الخطأ، ويتسبّبون بالفوضى في بلدتنا".

أومأ جيرمي. "شباب يسهل التأثير عليه في منطقة حزام الكتاب المقدّس؛ وجهة نظر صائبة".

"مع ذلك لا تنقل عني ما أقوله. أنت تعرف أن ما أقوله هنا ليس للتداول، صحيح؟"

رفع أصابعه. "أقسم بشرف الكشافة".

لبضع لحظات، مشيا في صمت. بالكاد تمكنت شمس الشتاء من اختراق الغيوم الرمادية، وتوقفت ليكسي أمام بضعة مصابيح لتنيرها. انتشر وهج أصفر عبر الغرفة، والتقط رائحة العطر الوردي الذي تضعه.

أشار جيرمي بذهن شارد إلى الصورة فوق الموقد الحجري. "من هذه؟"

توقفت ليكسي وقالت: "أمّي".

نظر جيرمي إليها متسائلاً، وسحبت ليكسي نفساً عميقاً.

"بعد أن احترقت المكتبة الأصلية كلياً في العام 1964، أخذت أمّي على عاتقها إيجاد مبنى جديد وتأسيس مجموعة جديدة، وبالأخص أن كل من في البلدة استبعد فكرة نجاح هكذا مسعى. كانت في الثانية والعشرين من عمرها، لكنها أمضت أعواماً تعمل من أجل إثارة اهتمام المقاطعة والولاية والمسؤولين السياسيين. أقامت معارض لبيع الكعك، وانتقلت من باب إلى باب في المؤسسات التجارية المحلية، تلتمس دعمهم حتى يكتبوا شيك التبرع. استغرقت مهمتها سنوات، ولكنها أخيراً حقّقت حلمها".

فـــيما كانت تتكلم، انتبه جيرمي إلى نفسه ينقل النظر بين ليكسي والصورة وبالعكس. الشبه لا يخفى على أحد، وكان يجب أن يلاحظه على الفور. خصوصاً العيـــنين. اللـــون البنفسجي لفته على الفور، وعن قرب لاحظ بأن ليكسي عندها نفـــس اللون الأزرق الخفيف والذي ذكّره بطريقة ما بلون الحنان. ومع أن الصورة حاولت أسر اللون غير العادي، إلا أنها بالكاد نجحت في نقل الدرجة الأصلية.

عندما انتهت ليكسي من رواية قصتها، دسّت خصلة من الشعر المنفلت وراء أذنها. لاحظ أنها تكرّر هذه الحركة كثيراً. على الأغلب أنها عادة عصبية. هذا يعني بالطبع أنه يدفعها إلى حافة التوتّر. أليس ذلك بالأمر الجيّد؟

نظّف جيرمي حنجرته وقال: "تبدو امرأة ساحرة. أودّ مقابلتها".

أومضـــت ابتسامة ليكسي بعض الشيء، كما لو أن هناك المزيد لتقوله، لكن بدلاً من ذلك، هزّت رأسها وقالت: "آسفة. أظن بأنني قد تجوّلت بما فيه الكفاية. أنـــت هنا لتؤدي عملاً وأنا منعتك عنه". أومأت نحو غرفة الكتب النادرة. "دعني أريك أين ستمضي الأيام القادمة".

"هل تعتقدين بأني سأستغرق مدة طويلة؟"

"طلبـــت المـــراجع التاريخـــية والمقالة، صحيح؟ ليت بمقدوري القول إن كل المعلومات مفهرسة، لكنها ليست كذلك. أمامك القليل من البحث المضجر".

"ليس ثمة الكثير من الكتب لمطالعتها؟"

"ليســـت الكتب وحدها، على الرغم من أن لدينا الكثير منها التي قد تجدها مفيدة. أغلب الظن أنك ستجد ضالتك في المفكرات. عملت جاهدة على أن أجمع مفكرات الأفراد الذين عاشوا في المنطقة، وهناك مجموعة لا بأس بها الآن. حتى أنني حصلت على بعض منها ترجع إلى القرن السابع عشر".

"إذاً هل تصادف أن وقعت على مفكرات هيتي دوبيليت؟"

"لا. لكـــنْ عـــندي فعلاً مفكرتان تعودان إلى فردين كانا يقطنان في واتس لاندينغ، وحتى مفكرة لشخص كان يعتبر نفسه مؤرخاً هاوياً للمنطقة. لا تستطيع إخـــراج هـــذه المراجع من المكتبة، وعليه ستستغرق بعض الوقت لتراجعها كلها.

بالكاد يمكن قراءتها".

قال: "أنا لا أطيق انتظاراً، أنا أعيش في سبيل البحث المضجر".

ابتسمت. "وأراهن أنك خبير في ما تفعله".

حدّق فيها مطوّلاً. "أوه، بالفعل. أنا جيّد في كثير من الأمور".

"ليس عندي أدنى شكّ، سيد مارش".

قال: "جيرمي، ادعيني جيرمي".

رفعت حاجبيها استغراباً. "لست متأكّدة بأنها فكرة سديدة".

قال: "أوه، بل هي فكرة عظيمة، ثقي بي".

ضحكت. "طبعاً. عرض مغرٍ حقاً. إنه لإطراء. لكن رغم ذلك، أنا لا أعرفك كفاية لأثق بك، سيد مارش".

راقبها جيرمي بمرح وهي تبتعد. لم يسبق له أن قابل مثيلاً لها من قبل. في العادة إن النساء اللواتي يستعملن الذكاء ليبعدن الرجال يتميزن بالقسوة، أما معها، فتأتي هذه القسوة ممزوجة بالسحر وحسن الطباع. ربما هي اللهجة. إن الطريقة التي تترنّم فيها بكلماتها يسهل معها أن تقنع قطاً بعبور النهر سباحة.

لا، صحّح لنفسه، ليست اللهجة فقط، ولا ذكاؤها الذي متعه، ولا حتى عيناها المذهلتان ولا شكلها وهي ترتدي الجينز. نعم، لكل مما سبق دور، ولكن هناك المزيد.. إنه... إنه ماذا؟ إنه لا يعرفها، ولا يعرف أي شيء عنها. وإذا عاود النظر في الأمر، فإنها لم تُبح بأي شيء حول نفسها. قالت الكثير عن الكتب وعن والدها، وفي ما عدا ذلك، لا شيء.

لقد جاء ليكتب مقالة. أحسّ بقلبه يهوي عندما استوعب أنه يفضّل أن يمضي الساعات القادمة برفقتها بدلاً من الكتابة. أراد أن يسير بها عبر بلدة بون كريك، أو الأفضل، أن يتعشّى معها في إطار رومانسي في مطعم بعيد، في عزلة عمّا حولهما ليتعرفا على بعضهما البعض. إنها غامضة، وهو يحب الألغاز. الألغاز تفضي دائماً إلى المفاجآت، وفيما لحق بها نحو غرفة الكتب النادرة، غالبه الإحساس بأن رحلته إلى أقصى الجنوب ازدادت إمتاعاً.

غـــرفة الكتب النادرة كانت صغيرة، ومن المحتمل أنها كانت في السابق غرفة نـــوم، وقسّـــمت بحائط خشبي منخفض يمتد من جانب الغرفة إلى الجانب الآخر. الجـــدران طليت باللون البيج الصحراوي، الأطر بيضاء، وأرضية الخشب الصلب بالية ولكنها غير مشوّهة. وراء الحائط امتدت رفوف طويلة من الكتب وفي إحدى الـــزوايا صـــندوق زجاجي يشبه صندوق الكنـــز، وقربه تلفزيون وجهاز عرض يســـتخدمان لعرض الأشرطة التي تؤرّخ لتاريخ كارولينا الشمالية دون شك. أمام الباب المقابل نافذة تحتها طاولة أثرية جرّارة. وعلى يمين جيرمي منضدة صغيرة مع آلة ميكروفيش. أشارت ليكسي إليها، قبل أن تذهب إلى الطاولة الجرّارة وتفتحها وتعود بصندوق كرتوني صغير.

وضـــعت الصـــندوق عـــلى المنضدة، وقلّبت في الصفائح الشفّافة وسحبت إحداهـــا. ثم انحنـــت فـــوق الآلة وأدارتها، وأدخلت الصفيحة الشفافة بداخلها، وحركـــتها حـــتى صارت المقالة في وسط الشاشة. مرة أخرى، وصلت إليه رائحة عطرها، وبعد لحظة، كانت المقالة أمامه.

قالـــت: "يمكنك أن تبدأ بهذه، سأمضّي بضع دقائق محاولة أن أعثر على مادّة أكثر".

قال: "كم كان البحث سريعاً".

"ليس بالأمر الصعب. تذكّرت تاريخ المقالة".

"رائع".

"ليس في الواقع. ظهرت المقالة بتاريخ عيد ميلادي".

"ستّة وعشرون؟"

"تقريباً. الآن، دعني أرى إن أمكنني العثور على المزيد".

استدارت واتّجهت نحو الأبواب المتأرجحة مرة ثانية.

صاح: "خمسة وعشرون؟"

"محاولة جيدة، سيد مارش. لكني لن أشارك في اللعبة".

ضحك. إنه بالتأكيد سيكون أسبوعاً مثيراً.

حـــوّل جيرمـــي انتباهه إلى المقالة وبدأ بالقراءة. المقالة مكتوبة بالطريقة التي توقّعها؛ تركيز على الدعاية والإثارة، وغطرسة كافية للإيحاء بأن كل من عاش في بون كريك كان يعلم أن المكان شديد الخصوصية.

لم يتوصـــل إلى أي جديد. غطّت المقالة الأسطورة الأصلية، ووصفتها بنفس الطـــريقة التي أوردها دوريس، ولو مع بعض الاختلافات البسيطة. في المقالة، ورد أن هـــيتي زارت مفوّضي المقاطعة، وليس رئيس البلدية، وأنها كانت من لويزيانا، ولـــيس جـــزر الكاريـــبـــي. المثير كان أنه من المفترض أن هيتي قد أطلقت اللعنة خارج أبواب دار البلدية، مما تسبّب ببعض الاضطرابات، وأنها اقتيدت إلى السجن. وعـــندما ذهب الحرّاس لإطلاق سراحها في الصباح التالي، اكتشفوا أنها اختفت، كمـــا لو أنها تبخّرت في الهواء.. بعد ذلك، رفض مدير الشرطة محاولة اعتقالها مرة ثانية، لأنه خشي أن تضع لعنة على عائلته. لكن كل الأساطير هي على هذا النحو: تنتشـــر القصص، ويتم تحويرها بعض الشيء لجعلها أكثر إلحاحاً. لا بد له من أن يعترف أن رواية الاختفاء كانت مثيرة بحق. عليه أن يتقصّى قصة اعتقالها وإمكانية فرارها.

التفت جيرمي إلى الخلف. لا إشارة عن عودة ليكسي حتى الآن.

أعـــاد الـــنظر إلى الشاشة. قرّر أنه من الأفضل أن يزيد من معلوماته حول ما أخـــبرته إيـــاه دوريـــس عن بون كريك. وبدأ بتحريك الصفيحة الشفافة وراقب المقالات المختلفة تمر أمامه. أخبار أسبوع كامل في أربع صفحات فقط. الصحيفة تصـــدر كـــل ثلاثاء، وسرعان ما أدرك كل ما يمكن لهذه البلدة أن تقدّمه. قراءة الأخـــبار مسلّية، بالطبع ما لم تكن تسعى إلى معرفة الأحداث في أماكن أخرى من العـــالم لتغالـــب النعاس. قرأ عن شابّ اعتصم أمام مقرّ جمعية المحاربين القدامى في ســـعي للحصـــول عـــلى شارة كشافة النسر، وعن محل للتنظيف الجاف افتتح في الشـــارع الرئيســـي، واستعادة لمجريات اجتماع البلدة حيث تبوّأ موضوع تركيب شـــارة ضـــوئية على طريق ليري قائمة جدول الأعمال. تغطية يومين من الأخبار خصّصت لأخبار حادث سير أُصيب فيه رجلان بجروح طفيفة.

أسند ظهره إلى الكرسي.

إن هذه البلدة بالضبط كما توقعها. بلدة ناعسة، هادئة ومميّزة كما هي الحال مع كل المجتمعات الصغيرة، ولكن لا شيء أكثر من ذلك. كانت من البلدات التي تواصـــل الوجود بحكم العادة أكثر منها لامتلاكها أي خاصية فريدة، والتي يبهت تألقها مع مرور الوقت وتقادم أعمار السكان. لا مستقبل هنا، ليس مستقبلاً طويل المدى على أية حال...

سألت: "هل تقرأ عن بلدتنا المثيرة؟"

قفـــز مـــن المفاجأة. لم يسمعها وهي تجيء وراءه. شعر بالحزن حيال وضع الـــبلدة، "بـــالفعل. يجب أن أعترف أنها مثيرة جداً. تحديداً، اعتصام شارة كشافة النسر.. يا للهول".

قالـــت: "جـــيمي تيلسون. في الحقيقة، إنه طفل عظيم ومستقيم، وهو أيضاً لاعـــب كرة سلة جيّد جداً. توفي والده السنة الماضية، لكنه ما زال يتطوّع حول الـــبلدة على الرغم من عمله لجزء من الوقت في مطعم بيت للبيتزا. نحن فخورون به".

"اقتنعت بقضية الطفل".

ابتســـمت، وقالت في سرها بالتأكيد لقد اقتنعت. "هاك"، ووضعت مجموعة من الكتب بجانبه، "يجب أن تكون كافية كبداية".

قرأ مجموعة العناوين. "أعتقد بأنك قلت بأني سأكون أفضل حالاً بالعودة إلى المفكرات. كل هذه كتب تاريخ عام".

"أعرف. لكن ألا تريد أن تطّلع على الفترة التي حصلت الأحداث خلالها؟"

تردّد. "أفترض ذلك، نعم". قال معترفاً.

قالت: "جيد". وبذهن شارد شدّت كمّ بلوزتها. "كما أني وجدت كتاباً عن قصص الأشباح قد يثير اهتمامك. يحتوي فصلاً يناقش ظاهرة سيدر كريك".

"عظيم".

"حســـناً، سأتركك تبدأ إذاً. أنا سأكون في الغرفة الخلفية بعد قليل إذا كان هناك أي شيء آخر تحتاج إليه".

"لن تبقي؟"

"لا. كما قلت في وقت سابق، عندي الكثير من الأعمال لأنجزه. الآن، يمكنك أن تبقى هنا، أو أن تجلس على إحدى المناضد في المنطقة الرئيسية. لكني أقدّر لك لو لم تخرج الكتب من هذا الطابق. هذه الكتب بالتحديد لا يمكن استعارتها".

قال: "لن أتجاسر".

"أما الآن، آمل أن تعذرني، سيد مارش، أنا حقاً يجب أن أذهب. وتذكّر بأنه على الرغم من أن المكتبة مفتوحة حتى السابعة مساءً، فإننا تغلق غرفة الكتب النادرة عند الخامسة".

"حتى للأصدقاء؟"

"لا. نسمح لهم بالبقاء قدر ما يريدون".

"إذا، هل أراك في السابعة؟"

"لا، سيد مارش. سأراك في الخامسة".

ضحك. "ربما غداً ستتركينني أبقى مدة أطول؟"

رفعت حاجبيها بدون إجابة، ثم سارت خطوتين نحو الباب.

"ليكسي؟"

التفتت. "نعم؟"

"كنت لي عوناً عظيماً حتى الآن. شكراً لك".

أطلقت ابتسامة رائعة دون تحفّظ. "مرحباً بك".

قضى جيرمي الساعتين القادمتين في مطالعة المعلومات عن البلدة. قلّب صفحات الكتب الواحدة تلو الأخرى، ودقّق في الصور، وقرأ الأقسام التي اعتقدها ملائمة.

أغلب المعلومات غطّت التاريخ المبكّر للبلدة، وسجّل ملاحظاته على دفتر الملاحظات إلى جانبه. بالطبع، لم يحدّد حتى الآن الإطار الكامل للبحث، وكان من المبكّر جداً أن يعرف أين ستقوده التحرّيات، ولهذا فإن ملاحظاته غطّت صفحتين

اثنتين تقريباً.

علّمـــته التجارب أن أفضل طريقة لمقاربة قصة مثل التي بين يديه كانت بأن يبدأ بما كان يعرفه، حسناً... ماذا كان يعرف بالتأكيد؟ إن المقبرة استعملت لأكثر من مائة سنة بدون أي مشاهدات للأنوار الغامضة. ظهرت الأنوار أول ما ظهرت قـــبل حوالى مائة سنة بصورة متكررة، ولكن فقط أثناء الطقس الضبابي. إن العديد مـــن الناس رأوها بأنفسهم، والخلاصة؟ من غير المحتمل أن تكون الأنوار أمراً من نسج الخيال. وبالطبع، إن المقبرة كانت تغرق.

حـــتى بعد مضي ساعتين، لم يكن حاله أفضل مما كان عليه عندما بدأ. مثل أكثر الألغاز، كان لغز المقبرة موزعاً بين العديد من القطع المتباينة. الأسطورة، سواء أكانت هيتي ألقت بلعنتها على البلدة أو لم تفعل، لم تتعدَّ كونها محاولة للجمع بين عوامـــل مخـــتلفة بعضـــها بالـــبعض الآخر. الأهم أن الأسطورة تقوم على أحد الافتراضات الخاطئة، مما عنى أن بعض قطع اللغز في مكان ما قد أهملت أو سقطت ســـهواً؛ وعليه فإن ليكسي على حق. لا بد له من أن يقرأ كل شيء لكي لا يفوته ما يبحث عنه.

لا مشـــكلة. هذا هو الجزء الممتع. البحث عن الحقيقة أكثر إمتاعاً في أغلب الأحيان من الكتابة الفعليَّة للاستنتاجات، ووجد نفسه غارقاً في الموضوع. علم أن بـــون كريك تأسست في العام 1729، مما يجعل منها واحدة من البلدات الأقدم في الولايـــة، وأنها ولوقت طويل، لم تتعدَّ كونها أكثر من قرية تجارة صغيرة جداً على ضفة نهر باමليكو وجدول بون. في وقت لاحق من القرن، أصبحت ميناء بسيطاً في نظـــام ملاحـــة مائي داخلي، وعجّل استعمال المراكب البخارية في أواسط القرن التاسع عشر من نمو البلدة. وبنهاية القرن التاسع عشر، أصاب ازدهار سكة الحديد كارولينا الشمالية، وسويّت الغابات أثناء حفر المناجم. كذلك تأثرت البلدة بحكم موقعها المتقدم بكافة العوامل الخارجية. بعد ذلك، تابعت البلدة ازدهارها بالتزامن مـــع الـــنمو الاقتصادي للولاية، على الرغم من أن عدد السكان استقرّ بعد العام 1930. في آخـــر إحصـــاء سكاني، تبين أن عدد سكان المقاطعة قد انخفض، وهو الأمر الذي لم يفاجئه البتة.

كمـــا قرأ حكاية المقبرة في كتاب عن قصص الأشباح، مفادها أن هيتي لعنت البلدة لا لأن الجثامين كانت قد أُزيلت من المقبرة، بل لأنها رفضت أن تنتحي جانباً عـــندما مـــرت أمامهـــا زوجة أحد المفوضين في الجهة المقابلة. ولكن لأنهم كانوا ينظرون إليها مثل رمز روحي في واتس لانდينغ، فإنها نجت من التوقيف، ولذا أقدم بضـــعة من سكان المدينة العنصريين بأخذ الأمور على عاتقهم، وسبّبوا الكثير من الأضـــرار في المقـــبرة الزنجـــية. في ثورة غضبها، لعنت هيتي مقبرة سيدر كريك، وأقسمت بأن أسلافها سيدوسون موقع المقبرة حتى تبتلعها الأرض.

أســـند جيرمي ظهره على الكرسي، وفكّر: ثلاث نسخ مختلفة جوهرياً حول نفس الأسطورة. ما معنى ذلك؟

المثير للانتباه بأن كاتب الكتاب - أي. جي. موريسون - قد أضاف تذييلا لمقولته يصرّح فيه بأن مقبرة سيدر كريك قد بدأت بالغرق بالفعل. طبقاً لدراساته، فـــإن أرض المقبرة غرقت عشرين بوصة (50 سم)، من دون أن يذكر المؤلف أي تفسير.

دقّـــق جيرمـــي في تاريخ النشر. الكتاب نشر في 1954، وبالعودة إلى وضع المقبرة الحالي، ما من شك بأنها قد غرقت على الأقل ثلاثة أقدام (90 سم) إضافية مـــنذ ذلك الحين. سجّل ملاحظة ليتحقق من الدراسات الأخرى في تلك الفترة، بالإضافة إلى تلك التي أجريت في تواريخ لاحقة.

رغـــم انشغاله في تشرّب المعلومات، لم يستطع أن يقاوم النظر وراء كتفه من وقت لآخر، علّ ليكسي تكون قد عادت.

في الطـــرف الآخـــر من المدينة، في الشارع الرابع عشر، وضع رئيس البلدية هاتفـــه الخلويّ على أذنه، وأصغى بانتباه إلى الشخص المتصّل على الرغم من سوء الاتصـــال. الاستقبال سيئ في هذا الجزء من المقاطعة، وتساءل رئيس البلدية إذا ما كان رفع مضرب الغولف فوق رأسه سيحسّن الإرسال.

"تقول إنه كان في هيربس؟ اليوم وقت الغداء؟ هل قلت برايم تايم لايف؟"

أومـــأ برأسه، متظاهراً بأنه لم يرَ رفيقه في لعبة الغولف يرفس الكرة من وراء

الشجرة إلى موقع أفضل.

"وجدهّا!" صاح رفيقه، وبدأ يستعدّ للضربة الثانية.

صديقه معتاد على هذه التصرفات، و لم ينــزعج رئيس البلدية كثيراً، خاصة وأنه يمارس نفس الخدع بين الحين والآخر وإلا لما استطاع أن يربح اللعبة.

في هــذه الأثــناء، كــاد المتّصل أن ينهي مكالمته، أطلق رفيقه الكرة باتجاه الأشجار مرة ثانية.

صاح: "اللعنة!" وتجاهله رئيس البلدية.

"حسناً، هذا مثير بالتأكيد"، قال رئيس البلدية، وانشغل فكره بالاحتمالات، "وأنا مسرور جداً لاتصالك. نهارك سعيد. مع السلامة".

أغلق الهاتف لحظة اقترب منه رفيقه.

"آمل أن أنجح هذه المرة".

"لا تقلق كثيراً". قال رئيس البلدية، وهو يعيد في عقله التطورات المفاجئة في المدينة. "أنا متأكّد بأن الأمور ستتجه إلى حيث تتمنى".

"من المتصل؟"

أعلن بفخر: "النصيب، وإذا لعبنا هذه اللعبة بمهارة، فإنها خشبة خلاصنا".

بعــد ســاعتين، تمامــاً عندما مالت الشمس إلى ما تحت رؤوس الأشجار، وامــتدت الظلال إلى داخل نوافذ المكتبة، أطلت ليكسي برأسها في غرفة الكتب النادرة.

"كيف الحال؟"

مــن وراء كتفه، ابتسم جيرمي. دفع نفسه بعيداً عن المنضدة، ومرّر يده في شعره. قال: "جيد، استفدت كثيراً".

"هل عثرت على الجواب السحري؟"

"لا، لكني أقترب منه. أشعر به".

دخلت إلى الغرفة. "أنا مسرورة. لكن كما قلت سابقاً، فأنا أغلق هذه الغرفة حوالى الساعة الخامسة لأستطيع أن أتعامل مع الحشود المتأخرة التي تزور المكتبة في

هذا الوقت".

وقف جيرمي قائلاً. "لا مشكلة. لقد تعبت على أية حال. كان يوماً حافلاً".

"ستأتي صباح الغد، صحيح؟"

"هذا ما كنت أخطّط له".

"جيّد، في العادة، أنا أعيد كل الكتب إلى رفوفها يومياً".

"هـــل بالإمكان أن أبقي مجموعة الكتب هذه كما هي الآن؟ بالتأكيد سأعود إلى معظمها مرة أخرى".

فكّـــرت للحظة. "لا بأس. لكن عليَّ أن أحذرك: إذا لم تظهر غداً صباحاً، سأظن بأني أسأت تقديرك".

أومأ بجدّية. "أعدك بأني لن أخيب تقديرك. لست ذلك النوع من الرجال".

أغمضـــت عينيها وقالت لنفسها: أوه، كم هو مثابر، لا بد أن تعطيه حقه في هـــذا الحقـــل عـــلى الرغم من كل شيء. "أنا متأكّدة من أنك تقول ذلك لكل الفتيات، سيد مارش".

قال: "لا"، واستند على المنضدة. "في الحقيقة، أنا خجول جداً. ناسك تقريباً، حقاً! ونادراً ما أخرج".

استهجنت. "يظهر أني لا أعرف الكثير، وبالأخص كونك صحفياً من المدينة الكبيرة، حسبتك زير نساء".

"وذلك يضايقك؟"

"لا".

"جيد. لأنه كما تعرفين، فإن الانطباعات الأولية خادعة".

"أوه، أدركت ذلك مباشرة".

"أحقّاً فعلت؟"

قالـــت: "بالطبع، عندما رأيتك لأول مرة في المقبرة، ظننت أنك أتيت لحضور جنازة".



الفصل الخامس

بعد خمس عشرة دقيقة، وبعد أن سلك طريقاً إسفلتياً أودى به إلى طريق حصويّ آخر - ما سر الحب بالطرق الحصويّة في هذه البلدة؟ - وجد جيرمي أنه يوقف سيارته وسط مستنقع، مباشرة أمام لافتة مرسومة باليد تشير إلى أكواخ غرينليف. عاهد نفسه ألا يثق مستقبلاً بوعود غرفة التجارة المحليّة.

عصري؟ بالتأكيد ليس كذلك. صفة العصرنة ما كانت لتنطبق على المكان منذ ثلاثة عقود. يتألف المكان من ستّة بيوت صغيرة من طابق واحد مبنيّة على طول النهر، قشرة طلائها تتساقط، وجدرانها عبارة عن ألواح خشبية، وأسطحها من الصفيح. الوصول إلى البيوت يتمّ عبر ممرات صغيرة وسخة تتوزع انطلاقاً من بيت مركزي من طابق واحد؛ ربما هو المكتب الرئيسي. مكان جميل، لا مفرّ من الاعتراف، ولكنّ الطابع الريفي على الأرجح يُقصد به البعوض والتماسيح، ولا تغري أي من هاتين الفصيلتين بالإقامة في المكان.

جلس في السيارة يفكر.. هل ينزل ليستأجر غرفة؟ تذكّر أنه شاهد أحد الفنادق التابعة لسلسلة معروفة قرب واشنطن، على بعد حوالى أربعين دقيقة بالسيارة من بون كريك. سمع صوت محرّك على الطريق وراقب اقتراب كاديلاك نبيذيّة اللون ورآها تتخبط بعنف في حفر الطريق. وللمفاجأة، اتجهت الكاديلاك إلى بقعة وراء سيارته مباشرة، مبعثرة الحصى أثناء توقفها.

سارع رجل أصلع سمين بالخروج من باب السيارة، والتوتر باد على وجهه، كان يرتدي ملابس من قماش البوليستر خضراء اللون، وكنزة عالية الرقبة زرقاء، وكأنه انتقى ألوان ثيابه في ظلام دامس.

"السيد مارش؟"

دهش جيرمي. "نعم؟"

استدار الرجل حول السيارة. كل شيء فيه يبدو أنه يتحرّك بسرعة.

"أنـــا مســـرور لأني عثرت عليك قبل أن تسجّل اسمك في الفندق! أردت أن تـــتاح لي فرصـــة الحديـــث معك قليلاً. لا أستطيع إخبارك كم نحن متحمسون لزيارتك لنا!"

بدا منقطع الأنفاس وهو يمدّ يده ويهزّ يد جيرمي بشدّة.

سأل جيرمي، "هل أعرفك؟"

"لا، لا، بالطبع لا". قال الرجل ضاحكاً. "أنا رئيس البلدية توم غيركن. اسمي بالإنكلـــيزية يعني المخلل، لكن يمكنك أن تدعوني توم". ضحك ثانية. "أردت أن أمـــر بالمكـــان لأرحّب بك في بلدتنا الجميلة. أعتذر عن ظهوري المفاجئ. كنت لأســـتقبلك في مكـــتبي وسط البلدة، لكني جئت مباشرة من ملعب الغولف عندما أخبروني أنك وصلت إلى هنا".

أجـــال جيرمي النظر في مظهر الرجل، وهو ما زال تحت وطأة الصدمة. على الأقل، استطاع تفسير سبب ارتداء هذه الملابس.

"أنت رئيس البلدية؟"

"مـــنذ العـــام 1994. يقال إنه تقليد عائلي. أبي، أوين غيركن، كان رئيس البلدية هنا لأربع وعشرين سنة. أعطى أبي كل اهتمامه للبلدة. كان يعرف كل ما يمكـــن معرفـــته عن هذا المكان. بالطبع، أن تكون رئيس البلدية ليس سوى عمل جـــزئي في هذه البلدة؛ فهو منصب فخري. الحق يقال إني رجل أعمال في معظم الأوقـــات، فأنـــا أمـــتلك محطة الإذاعة في البلدة والمخزن الكبير. ماذا عن الأغاني القديمة. هل تحبّ الأغاني القديمة؟"

"بالتأكيد"، قال جيرمي.

"جـــيد، جيد. هذا ما خطر لي لحظة وقع نظري عليك. قلت لنفسي هاكم رجل يقدّر الموسيقى الجيدة. أنا لا أستطيع أن أتحمّل معظم تلك الأغنيات الجديدة الـــتي يدعوها الآخرون موسيقى في هذه الأيام. تسبب لي الصداع. الموسيقى يجب أن تهدئ النفس. هل فهمت مقصدي؟"

"طبعاً"، كرّر جيرمي، محاولاً أن يتابع الحديث.

ضحك غيركن. "عرفتك مذ رأيتك. حسناً، كما قلت، لا أستطيع أن أصف لك كم تأثرنا جميعنا لوجودك بيننا لتكتب قصة عن بلدتنا الجميلة. إنها بالضبط ما تحتاج إليه هذه البلدة. أقصد، من لا يحب قصة أشباح جيدة، حقّاً؟ لقد أثار الموضوع موجة من الحماس في هذه الأنحاء بكل تأكيد. أولاً الخبراء من جامعة ديوك، ثم الصحيفة المحليّة. والآن صحفي عظيم الشأن من المدينة. الموضوع ينتشر، وذلك جيد. الأسبوع الماضي فقط، تلقينا اتصالاً من مجموعة في آلاباما كانت تفكّر بقضاء بضعة أيام في عطلة نهاية الأسبوع والانضمام لجولة البيوت التاريخية".

هزّ جيرمي رأسه مستمهلاً. "وكيف عرفت أني وصلت إلى هنا؟"

وضع رئيس البلدية غيركن يده على كتف جيرمي، وقبل أن تتاح لجيرمي فرصة الإفلات، كانا يتحرّكان نحو المكتب المؤلف من طابق واحد. "الكلام ينتشر، سيد مارش، مثل النار في الهشيم. هذه حقيقة، وكذلك الأمر مع الجمال الطبيعي وسحر هذا المكان. كما أننا محظوظون بأفضل مواقع صيد الأسماك والبط في الولاية. هل تعرف أن الناس يأتون من جميع الأنحاء، حتى المشهورين منهم، وأغلبهم ينزل هنا في غرينليف. إنها قطعة صغيرة من الجنة لو طلبت رأيي. بيتك الخاص والهادئ من طابق واحد، في منتصف الطبيعة. سترى بنفسك، ستستمع إلى الطيور والصراصير طوال الليل. أراهن أنك بعد اليوم ستنظر إلى تلك الفنادق في نيويورك بمنظار مختلف كليّاً".

"فعلاً" اعترف جيرمي. لا مجال لإنكار أن الرجل ناجح في مجال السياسة.

"ولا تشغل بالك بالأفاعي".

اتسعت عينا جيرمي. "الأفاعي؟"

"أنا متأكّد من أنك سمعت عنها، لكن لا يغيبنّ عن بالك أن أحداث السنة الماضية كانت مجرد سوء تفاهم لا أكثر. بعض الناس لا يستخدمون عقولهم. كما قلت، ليس هناك داعٍ لتقلق من تلك الأفاعي. فهي لا تخرج عادة حتى حلول الصيف على أية حال. بالطبع، لا تذهب باحثاً عنها في الغابة، فأفاعي القطن مؤذية".

"أوه"، قال جيرمي، وخانه الرد في خضم الرؤية التي حضرته. إنه يكره

الأفاعي، أكثر بكثير من البعوض والتماسيح. "في الحقيقة، كنت أفكّر...".

تنهّد غيركن رئيس البلدية بصوت عالٍ وقطع على جيرمي سؤاله، ونظر حوله كمـــا لو كان يريد أن يتأكد من أن جيرمي يتمتّع بجمال المكان الطبيعي. "أخبرني إذاً، جيرمي... لا تمانع إذا ناديتك بجيرمي؟"

"لا".

"إنـــه لتواضع منك. فعلاً. إذاً يا جيرمي، أود أن أسألك عن إمكانية اهتمام إحدى القنوات التلفزيونية بالتحقيق الذي تجريه هنا".

قال: "ليس لدي أدنى فكرة".

"حســـناً، لأنهـــم إن فعلوا فإننا سنفرش لهم السجاد الأحمر، وسنريهم ماهية الكرم الجنوبي الأصيل. سننـــزلهم هنا، في غرينليف، مجّاناً. وبالطبع، سيعودون إلى ديارهم بقصّة رائعة، أفضل بكثير من تلك التي قدّمتها على برنامج برايم تايم لايف. لدينا الرواية الحقيقية".

"بالطـــبع أنت تعرف أني معلّق صحفي لا أكثر؟ في العادة، ليس لي أي علاقة بالتلفزيون...".

"نعم، بالطبع". رمش غيركن رئيس البلدية بعدم تصديق. "إذاً قم بما يتوجب عليك القيام به، ودعنا نرى".

قال جيرمي: "أنا جادّ".

رمش غيركن ثانية. "بالطبع، أنت كذلك".

لم يعـــرف جيرمي ما يجب أن يقوله ليقنعه - بالأخص لأن الرجل قد يكون مصيباً - وبعد لحظة، دفع غيركن باب المكتب؛ أو ما يطلقون عليه اسم المكتب.

يـــبدو المكـــان وكأنه لم يرَ التغيير منذ مائة سنة على الأقل، وذكرته جدران الخشـــب بـــأكواخ الغابات. وراء المكتب الخشبي المتداعي، علّقت سمكة ضخمة، وعـــلى كـــل زاوية على امتداد الجدران وأعلى خزنة الملفات والطاولات علّقت حـــيوانات محـــنّطة: قنادس، أرانب، سناجب، حيوانات أبوسوم، ظرابين، وغرير. وعـــلى خلاف أغلب المحنّطات التي سبق له أن رآها، فإن كل المحنّطات التي أمامه

حنّطـــت بطريقة تجعلها تظهر وكأنها محاصرة وفي وضع الدفاع عن النفس. الأفواه تزمجر، الأجسام مقوّسة، والأسنان والمخالب بارزة. أخذ جيرمي بما حوله، ثم وجد نفســه وجهاً لوجه مع دبّ محنّط وقفز من الصدمة. وكما هو الحال مع الحيوانات الباقــية كان كفاه ممتدّين وكأنه يهاجم. المكان كان مثل متحف للتاريخ الطبيعي تحوّل إلى موقع لتصوير فيلم رعب.

وراء المنضــدة، جلس رجل ملتحٍ ضخم، مسنداً قدميه على الطاولة، يشاهد الــتلفزيون. الصورة كانت ضبابية، والخطوط العمودية تعبر الشاشة طوال الوقت، مما يجعل من المستحيل تقريباً رؤية ما يعرضه التلفزيون.

نهض الرجل من وراء المنضدة وتابع النهوض حتى تعالى كالبرج فوق جيرمي. لا بــد من أنه بطول سبعة أقدام (210 سم) على الأقل، وبكتفين أوسع من كتفي الــدبّ المحشو في الزاوية، ويرتدي لباس العمّال وقميصاً قطنياً. أمسك بملف وجده على الطاولة.

أشار بإصبعه إلى جيرمي، ومن ثم إلى لوح خشبي عليه أوراق. لم يبتسم، ولم يخامــر جيرمي شك للحظة أن هذا الرجل يسعى لانتزاع ذراع جيرمي من جسمه ويستعملها ليشبعه ضرباً، قبل أن يعلقه على الجدار.

أمــا غيركن، ومن دون استغراب، فقد أغرق في الضحك. لاحظ جيرمي أن هــذا الــرجل يضــحك كثيراً. سارع رئيس البلدية بالقول: "لا يخيفنّك جاد يا جيرمي. لا يتعاطى كثيراً مع الغرباء. ما عليك سوى أن تملأ الاستمارة، وتمضي إلى قطعتك الخاصة من الجنة".

حدّق جيرمي في جاد بترقّب، وقال لنفسه إنه ربما كان الشخص الأشدّ إثارة للفزع الذي سبق لجيرمي أن رآه في حياته.

"جــاد لا يكــتفي بعمله في غرينليف وخدمته في مجلس البلدة، ولكنه أيضاً المحنط المحليّ". وتابع غيركن: "هل لاحظت كم عمله متقن؟"

"مدهش"، أجبر جيرمي نفسه على القول وأرفق القول بابتسامة.

"إن أطلقت النار على أي شيء في المحيط، أحضره إلى جاد، ولن تندم".

"سأحاول أن أتذكّر ذلك".

ابتهج رئيس البلدية فجأة. "وهل تصطاد؟"

"ليس كثيراً، لأكون صادقاً معك".

"جيّد، ربما سنعمل على تغيير ذلك أثناء وجودك بيننا. ألم أذكر أن صيد البطّ هنا مدهش؟"

وبينما كان غيركن يتكلم، نقر جاد بإصبعه الضخمة على اللوح الخشبي للمرة الثانية.

"الآن، لا تحاول إخافة الزميل"، سارع غيركن بالقول. "إنه من نيويورك. صحفي كبير من المدينة، ولذا يجب أن تعتني به".

أدار غيركن انتباهه إلى جيرمي ثانية. "جيرمي، للعلم، فإن البلدة سيسرها أن تتكفل بمصاريف إقامتك هنا".

"آه، ذلك ليس ضرورياً".

"أرجوك، لا تقل المزيد". استبق غيركن كلام جيرمي، "إنه بالمناسبة أقل ما يمكننا فعله لتكريم ضيف بارز".

"حسناً، شكراً لكم".

مدّ جيرمي يده إلى القلم، وبدأ يملأ الاستمارة. شعر بعيني جاد مثبتتين عليه، وخاف مما سيحصل فيما لو غيّر رأيه بالبقاء في غرينليف. أما غيركن، فقد اتكأ على كتف جيرمي.

"هل ذكرت كم أننا في البلدة مسرورون بوجودك بيننا؟"

في المقلب الآخر من المدينة، في منزل من طابق واحد في شارع هادئ نوافذه الخشبية مطلية باللون الأزرق، كانت دوريس تشوي قطعة من اللحم مع البصل والثوم، وبجانبها يغلي قدر من الباستا على النار. أما ليكسي فانصرفت إلى تقطيع الطماطم والجزر فوق المغسلة، ثم غسل الأطباق. بعد الانتهاء من دوامها في المكتبة، تأتي إلى منزل دوريس كعادتها بضع مرات في الأسبوع. وعلى الرغم من أن بيتها لا يبعد كثيراً، إلا أنها تتناول طعام العشاء عند جدّتها في أغلب الأحيان.

تغيير العادات القديمة صعب كما يقولون.

على حافة النافذة، يبث الراديو موسيقى الجاز، وباستثناء الأحاديث المعتادة التي يتبادلها أفراد العائلات، لم يكن لديهما المزيد لقوله. بالنسبة لدوريس، السبب كان يومها الطويل الذي تمضيه في العمل. فمنذ أن أصيبت بنوبة قلبية قبل سنتين، صارت تشعر بالتعب بشكل أسرع، حتى إن لم ترد الإقرار به. أما ليكسي، فالسبب كان جيرمي مارش، فإنها أذكى من أن تفاتح دوريس بموضوع من هذا القبيل. لطالما كان لدوريس اهتمام كبير بحياتها الشخصية، وتعلّمت ليكسي أن الأفضل تفادي الموضوع قدر الإمكان.

كانت ليكسي تعلم أن جدّتها لا تقصد إلحاق الأذى بها. من ناحيتها، فإن دوريس ببساطة لم تفهم لماذا فشلت فتاة في العقد الثالث من عمرها في الاستقرار، ولذلك تواصل تكرار السؤال: لماذا لم تتزوج ليكسي؟ فبالرغم من ذكائها الحاد، تنتمي دوريس إلى المدرسة القديمة؛ تزوّجت في سن العشرين وأمضت السنوات الأربع والأربعين التي تلت زواجها مع الرجل الذي أحبته، حتى توفّي قبل ثلاث سنوات. تولى أجداد ليكسي تربيتها. أما اختصار ما تريده دوريس من ليكسي فهو أنه حان الوقت لتلتقي برجل لطيف، لتستقرّ، ولتنتقل إلى منزل بسياج خشبي أبيض، وتنجب الأطفال.

لم تستغرب دوريس هذا الاعتقاد، لأنها تعلم جيداً أن هذا ما يتوقعه المجتمع من النساء في هذه الأنحاء. وفي المرات القليلة التي صارحت بها ليكسي نفسها، تمنّت المصير نفسه. من الناحية النظرية، على أي حال. لكنها في انتظار وصول الرجل المناسب أولاً، شخص يلهمها، رجل تكون فخورة بكونه رجلها. وهذه نقطة الخلاف بينها وبين دوريس. دوريس مقتنعة بأن أي رجل محترم لديه عمل جيد هو ما يجب أن ترضى به أي امرأة. ربما في الماضي، كانت هذه المواصفات هي المعيار المقبول. ولكن ليكسي لم ترضَ القبول بالزواج من شخص ما ببساطة لأنه لطيف ومحترم ولديه عمل جيد. من يدري؟ ربما كانت توقّعاتها غير واقعية، لكن ليكسي أرادت أن تشعر بالعاطفة نحوه أيضاً. مهما كان الرجل لطيفاً أو محترماً، فإنها ترفض أن تقنع بأي شخص؛ لا تريد أن تقنع فحسب. ليس الأمر

عـــادلاً لأي مـــن الطرفين. في ذهنها تبحث عن رجل يجمع بين الرقة واللطف من جهـــة، ولكـــنه رجل يخلب لبّها من جهة أخرى. أرادت شخصاً يقترح أن يفرك قدميها بعد يوم عمل طويل في المكتبة، ولكنه يتحدّاها على الصعيد العقلي. شخص رومانسي، يشتري لها الأزهار من دون سبب على الإطلاق.

ليس ضرباً من المستحيل!

طـــبقاً لمجلة غلامور، أو مجلة السيدات أو مجلة التدبير المنـــزلي الجيد - والتي تـــرد إلى مكتبتها بانتظام - فهو أمر ممكن. تؤكد كل تلك المجلات بأن إبقاء توقد العلاقـــة يقع على عاتق المرأة. ولكن كلمة علاقة لا لبس فيها. العلاقة هي حيث يعمل الشريكان كل ما يمكن عمله ليرضي كل منهما الطرف الآخر؟

هـــذه بالـــتحديد كانـــت المشكلة مع العديد من الأزواج والزوجات الذين تعرفهم. في أي زواج، هناك توازن دقيق بين أن تقدم على ما تريد، مقابل أن تقدم عـــلى مـــا يطلبه الشريك. فطالما يعمل كل من الزوج والزوجة ما يطلبه الطرف الآخـــر، لا تقع أي مشكلة. تبدأ المشاكل بالظهور عندما يبدأ أحد الطرفين بالقيام بما يريده كل منهما بدون اعتبار للطرف الآخر. كأن يقرر الزوج فجأة بأنه يحتاج إلى المزيد من الجنس ويبحث عنه خارج الزواج؛ أو أن تقرر الزوجة بأنها تحتاج إلى المـــزيد من العاطفة وتبحث عنه خارج الزواج هي الأخرى. إن الزواج الجيد، مثل أي شراكة، يقصد به إخضاع الحاجات الخاصة لحاجات الآخرين، مقابل أن يقوم الطـــرف الآخـــر بالشيء نفسه. وما دام الطرفان ملتزمين بنصيبيهما من الصفقة، تحافظ الحياة على جمالها.

أما إذا غابت أية عاطفة عن الزوج، فهل يمكن فعلاً أن تستنظر ذلك؟ ليست مـــتأكدة. دوريـــس، بالطـــبع، عندها جواب جاهز. فهي تقول لها: "صدقيني يا عزيـــزتي، كـــل ذلك يذهب بعد انقضاء عامين"، وهذا على الرغم من أن ليكسي مقتنعة بأن جديها عاشا في علاقة تبعث على الحسد. جدّها كان من أولئك الرجال الرومانســـيين بالفطرة. حتى آخر أيامه، كان يفتح باب السيارة لدوريس ويمسك يدها عندما يتمشيان في البلدة. حافظ على التزامه وإخلاصه لها. أحبها من كل قلبه وكثيراً ما كان يردد كم هو محظوظ لأنه التقى بامرأة مثلها. بعد أن توفي، بدأ جزء

مــن دوريس بالموت أيضاً. أولاً النوبة القلبية، ثم تدهور في حالة التهاب مفاصل؛ كمـا لو أنه مكتوب لهما أن يبقيا معاً. وحين تقارن ذلك بنصيحة دوريس، ماذا تكـون النتيجة؟ هل أن دوريس محظوظة في زواجها من رجل بهذه الطباع؟ أم أنها لاحظت ميزة معينة فيه قبل الزواج، أو إشارة أكّدت لها بأنه الحل المناسب؟

الأهم، لماذا بحق الله بدأت ليكسي بإعادة التفكير بالزواج؟

هل السر في أنها هنا، في منـزل جدّتها دوريس، في المنـزل الذي نشأت فيه بعـد موت أبويها. مشاركة دوريس الطبخ أمرٌ مريح وأليف، وتذكّرت أنها كانت تكـبر وهي تحلم أنها في يوم ما ستعيش في منـزل مثل هذا: بسقفه المتقادم الذي يـردّد صـوت المطـر وكأنها لا تمطر في أي مكان آخر في العالم، بنوافذه القديمة وإطاراتها التي طليت لمرات لا تحصى فصار من شبه المستحيل فتحها. والحقيقة أنها تسـكن في مـنـزل مماثل على أي حال - أو هكذا يتبادر للذهن للوهلة الأولى، عـلماً أن المـنـزلين بنيا في الفترة نفسها - لكنها لم تنجح أبداً في إعادة تكوين الـروائح: رائحة الطبخ عصر الأحد، رائحة الشمس في ملاءات السرير، والرائحة المملّـة في الكرسـي الهزاز القديم حيث استرخى جدّها لسنوات. في هذا المنـزل تشتمّ رائحة لطريقة حياة أضحت أكثر نعومة على مرّ السنين، وكلما تدفع الباب للدخول إلى هنا، تغرقها ذكريات الطفولة.

بالطبع، كانت تتخيّل دوماً بأنه كانت ستكون لديها عائلتها الخاصة في هذا الوقـت، وربمـا أطفـال، لكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن. كادت العلاقة تتحقق مرتين: علاقة طويلة مع أفيري والتي بدأت في الكليّة، واستمرّت بعد ذلك، وعلاقـة أخـرى مع شابّ من شيكاغو جاء لزيارة ابن عمه ذات صيف في بون كريك. كان رجلاً من عصر النهضة الكلاسيكي، فلقد كان يتحدّث أربع لغات، وأمضـى سنة دراسيّة في مدرسة لندن للاقتصاد، وسدد مصاريف دراسته الجامعية مـن خـلال مـنحة في رياضة البيسبول. سيد النهضة جمع بين السحر والإثارة، وسرعان ما وقعت أسيرة سحره. ظنّت أنه سيبقى معها هنا، وأنه سيتعلم أن يحبّ المكـان كمـا تفعل هي، ولكنها استيقظت صبيحة يوم سبت لتعلم بأنه كان في طريق العودة إلى شيكاغو. لم يكلّف نفسه أن يمرّ لوداعها.

وبعـــد ذلـــك؟ ليس بالكثير، باستثناء علاقتين دامتا ستّة شهور تقريباً دون أن تـــتركا فـــيها أي انطباع. إحداهما كانت مع طبيب محليّ، والأخرى مع محام؛ تقدم كلاهما بطلب الزواج منها، إلا أنها لم تشعر بنفس إحساس السحر أو الإثارة أو بأنها وجـــدت ضالتها. و لم يشهد العامان السابقان الكثير من المواعيد، باستثناء خروجها مع رودني هوبر، نائب مفوّض الشرطة في البلدة. خرجا معاً عدة مرات، بمعدل مرة في الشـــهر، كـــلما كانت هناك مناسبة محليّة أرادت حضورها. مثلها، ولد رودني وترعـــرع هـــنا، ومنذ كانا طفلين، اشتركا في اللعب بالمراجيح وراء الكنيسة. ومنذ ذلـــك الحين، تعلّق بها وطلب منها في مناسبتين مرافقته لاحتساء شراب في لوكيلو. أحـــياناً كانـــت تتســـاءل إذا كان عليها أن تستجيب لطلباته بالخروج معه بصورة منـــتظمة. إلا أن رودني... حســـناً، كـــان مهتماً أكثر من اللازم بصيد السمك، والصـــيد، ورفـــع الأثقال، ولا يملك أدنى اهتمام بالكتب أو أي أحداث تدور حول العالم. كان رجلاً لطيفاً، وكانت تعتقد أنه سيكون زوجاً جيداً، ولكن ليس لها.

إذاً، أين تقف الآن؟

هنا، عند دوريس، ثلاث مرات في الأسبوع، ربما في انتظار إجابة عن الأسئلة الحتمية حول حياتها الغراميّة.

"ما رأيك به؟" سألتها دوريس، في اللحظة المناسبة.

لم تقوَ ليكسي على مغالبة الابتسام. "من؟" سألت، مدّعية البراءة.

"جيرمي مارش. عمّن تظنين أني أتحدّث؟"

"ليس عندي أدنى فكرة. ولهذا سألتك".

"كفاك هرباً من الموضوع. سمعت بأنه أمضى ساعتين في المكتبة".

اســـتغربت ليكسي. "بدا لطيفاً بما فيه الكفاية. ساعدته في العثور على بضعة كتب ليبدأ عمله، لا أكثر".

"إذاً لم تتبادلي معه أطراف الحديث؟"

"بالطبع، تكلّمنا. كما قلت، بقي هناك لفترة".

انـــتظرت دوريـــس أن تقول ليكسي المزيد، ولكنّ الأخيرة لزمت الصمت.

تنهّدت دوريس، ثم تطوّعت قائلة: "حسناً، أنا أحببته، بدا لي رجلاً محترماً".

وافقت ليكسي: "أوه، بالفعل، إنه مثالي".

"لا يبدو أنك تعنين ذلك".

"ماذا تريدين منّي أن أقول خلاف ذلك؟"

"حسناً، هل سحرته بشخصيتك الحيويّة؟"

"ولماذا أقدم على ذلك؟ إنه في البلدة لبضعة أيام".

"هل أخبرتك كيف التقيت جدّك؟"

"كثيراً"، قالت ليكسي وهي تستعيد القصّة برأسها. التقيا على قطار متجه إلى بالتيمور؛ هو كان من غريفتون في طريقه لمقابلة عمل، وهي وظيفة لم يشغلها، لأن اختياره وقع عليها بدلاً من ذلك.

"إذاً أنت تعرفين بأنك – على الأغلب – قد تلتقين بالشخص المناسب عندما لا تتوقّعين ذلك".

"أنت دائماً تقولين ذلك".

رمشت دوريس. "لأني أظنّك بحاجة إلى أن تسمعيه على الدوام".

أحضرت ليكسي صحن السلطة إلى المائدة. "ليس من الضروري أن تقلقي عليّ. أنا سعيدة. أحبّ عملي، عندي أصدقاء جيدون، وعندي وقت للقراءة والهرولة وممارسة الأعمال التي أحبّ".

"ولا تنسي بأنك محظوظة بوجودي".

ردّت ليكسي، "وكيف لي أن أنسى؟"

ضحكت دوريس وعادت إلى عملها. للحظة، حلّ الصمت في المطبخ، وتنفّست ليكسي الصعداء. على الأقل انقضى الحديث بسرعة، وحمداً لله أن دوريس لم تضغط كثيراً. أما الآن – قالت في نفسها – يمكنهما أن تتناولا عشاءً هادئاً.

قالت دوريس: "أعتقد أنه وسيم جداً".

لزمت ليكسي الصمت، وبدلاً من الردّ، أمسكت بصحنين وأدوات الطعام

قبل الانتقال إلى المائدة. ربما من الأفضل أن تدّعي عدم سماعها.

"ولعلمك، فإنه يخفي أكثر مما تعتقدين"، تابعت دوريس، "ليس هو من تظنّينه".

دفعت الطريقة التي نطقت بها دوريس جملتها ليكسي إلى التمهل. كثيراً ما سمعت هذه النغمة مرات ومرات في الماضي: عندما كانت تريد الخروج مع أصدقائها في المدرسة الثانوية، لتأتي دوريس في اللحظة الأخيرة لتقنعها بالعدول عن الالتحاق بهم؛ أو عندما أرادت الذهاب في رحلة إلى ميامي قبل بضع سنوات، قبل أن تدفعها دوريس إلى عدم الذهاب. تعرض أصدقاؤها الذين أرادت الخروج معهم إلى حادث سيارة، فيما اندلعت الإضطرابات في ميامي وامتدت إلى الفندق حيث كانت تنوي الإقامة.

تقول ليكسي إن دوريس تشعر أحياناً بوقوع خطب ما، لكن ليس بقدر إحساس والدة دوريس. ومع أن دوريس لا تذهب أبعد في تفسير مقولتها، أدركت ليكسي منذ زمن طويل أن جدّتها تحس بالأمور كافة.

قبع جيرمي في سريره تحت الأغطية، يشاهد الأخبار المحلّية في انتظار تقرير عن حالة الطقس، متمنياً لو أنه اتبع حدسه وانتقل إلى الفندق الآخر، غافلاً عن أن خطوط الهاتف كانت ترنّ في جميع أنحاء البلدة لتناقش وصول الضيف المميز. قال لنفسه لو أنه انتقل لما أحاطته أعمال جاد من كل جانب، ولما انتابه شعور الارتياع كلما نظر إليها.

الواضح أن الرجل كان يحظى بالكثير من أوقات الفراغ.

والكثير من الرصاص أو البنادق، أو الكثير من واجهات الشاحنات الصغيرة، أو ما شابه مما يستخدمه لقتل كل هذه الحيوانات. في غرفته، كان هناك اثنا عشر مخلوقاً معلقاً يشكلون نموذجاً كاملاً للتنوع الحيواني لولاية كارولينا الشمالية؛ لم يكن ينقص إلا دبّ محنّط كالذي شاهده في غرفة الاستقبال. لا بد من أن جاد سيضيف دباً فور أن يقع أحد الدببة تحت يديه.

أما في ما عدا ذلك، فإن الغرفة كانت مقبولة طالما لم يتوقّع المرء اتصالاً سريعاً بشبكة الإنترنت، أو تدفئة الغرفة دون استعمال الموقد، أو خدمة غرف، أو محطات

تلفزيونـــية مــن شبكة الكابل، أو الاتصال بهاتف يعمل بالأزرار. مضى عليه زمن طويـــل مـــنذ أن رأى هاتفاً من هذا النوع؟ عشر سنوات؟ حتى والدته استسلمت لتقدم العالم واستبدلت هاتفها.

ولكن ليس جاد! بالطبع لا! جاد العظيم لديه مفهومه الخاص لكيفية استضافة ضيوفه.

أما أهم ميزة في الغرفة فكانت السقيفة المغطاة في الخلف، وفيها كرسي هزاز. فكـــر جيرمي بالجلوس هناك لفترة، حتى تذكّر الأفاعي. وتساءل عن سوء التفاهم الـــذي تحدّث عنه غيركن. لم يرتح لسماع القصة، وكان عليه أن يسأل أكثر عن تفاصيلها، كما كان يجب أن يسأل أين يمكنه أن يجد بعض الحطب في هذا المكان. المكـــان متجمّد بالتأكيد، لكنّ الشك كان يخامره حول ما إذا كان جاد سيجيب عـــلى التلفون لو أنه حاول الاتصال بمكتب الاستقبال للسؤال. أضف إلى ذلك أن جاد أخافه.

ثم ظهـــر الأرصـــادي (مقدم الأرصاد الجوية). قفز جيرمي إلى خارج السرير ليرفـــع صـــوت جهاز التلفزيون قبل أن يركض بأسرع ما يمكن وهو يرتعش من البرد، ويرتمي تحت الأغطية.

فجأة، استبدلت نشرة الأرصاد الجوية بالإعلانات التجارية فوراً. طبعاً، وماذا غير ذلك؟

تســـاءل ما إذا كان عليه أن يخرج إلى المقبرة ليرى إمكانية حصول الضباب، وإذا تبـــيّن عكـــس ذلـــك، يعود ليستكمل راحته. كان يوماً طويلاً بدأ في العالم الحديـــث ورجـــع بالزمن خمسين سنة، والآن هو يقبع وسط الثلج والموت المحنّط. بالتأكيد، لا تحصل هذه الأحداث كل يوم.

بالطـــبع، كان هناك ليكسي. ليكسي...، مهما كان اسمها الأخير. ليكسي، الغامضة. ليكسي التي تعبث معه وتنسحب لتعبث معه مرة ثانية.

هـــي كانت تعبث، أليس كذلك؟ الطريقة التي استمرّت فيها بدعوته بالسيد مـــارش؟ الطـــريقة الـــتي أوقفته فيها عند حدّه على الفور؟ تعليق الجنازة؟ عبث بالتأكيد.

أليس كذلك؟

عـــاد مقدم الأرصاد الجوية مرة ثانية، ويبدو وكأنه تخرّج للتو من الكليّة. لم يـــتجاوز عمـــر الرجل أكثر من ثلاثة وعشرين أو أربعة وعشرين، ولا شك بأنه يشـــغل وظيفته الأولى. نظراته فزعة ولكنها تعكس الحماسة، ولكنه على الأقل بدا مؤهـــلاً. لم يتلعثم بكلماته، وعليه قرّر جيرمي أنه لا يتوجب عليه مغادرة الغرفة. توقعت الأرصاد الجوية أن تكون السماء صافية طول الليل، واستبعد الرجل إمكانية تكوّن الضباب هذه الليلة أو الليلة المقبلة.

طبعاً، وماذا غير ذلك؟

الفصل السادس

في الصباح التالي، بعد الاغتسال تحت قطرات من الماء الفاتر، ارتدى جيرمي سروال جينــز، وكنــزة، وسترة جلديّة سوداء وذهب إلى هيربس؛ مكان الفطور الأكــثر شعبية في البلدة على ما يبدو. قرب الصندوق، رأى رئيس البلدية غيركن يــتكلّم مع رجلين يرتديان بدلتين رسميّتين، وراشيل المشغولة في خدمة الطاولات. كــان جاد يجلس في الجانب البعيد للغرفة متكوّماً كالجبل. أما تولي فكان يجلس في إحــدى المناضــد وسط المطعم مع ثلاثة رجال، وكما هو متوقّع، تكفل بأغلب الحديــث. أومــأ الناس ولوّحوا أثناء توجه جيرمي إلى طاولته، ورفع رئيس البلدية كوب القهوة بالتحية.

"حســناً، صباح الخير، سيد مارش"، صاح غيركن. "هل تفكّر بأشياء إيجابية لتكتبها عن بلدتنا، آمل ذلك؟"

قالت راشيل: "أنا متأكدة بأنه كذلك بالفعل".

"آمــل أنــك وجــدت المقبرة"، قال تولي بلكنته المتشدّقة. قال واتكأ على الطاولة، "هاكم الطبيب الذي أخبرتكم عنه".

لــوّح جيرمــي وأومأ رداً على التحيات، محاولاً الوقوع في شرك الأحاديث الدائــرة. إنــه ليس شخصاً صباحياً، إضافة إلى ذلك أنه لم يحظَ بنوم مريح. الثلج والمــوت، إضافة إلى كوابيس حول الأفاعي يمكن أن تدفع بالشخص إلى حالة لا يحســد عليها. جلس في إحدى الزوايا، وانتقلت راشيل إلى الطاولة بكفاءة، حاملة إبريقاً من القهوة.

"لا جنازة اليوم؟" قالت ساخرة.

أوضح جيرمي: "لا. قرّرت الانطلاق بمظهر أكثر بساطة".

"قهوة يا عزيزي؟"

"رجاء".

بعد أن قلبت كوب القهوة، ملأته إلى الحافة. "هل تود أن تتناول الطبق الخاص هذا الصباح؟ الناس كانوا يهذون بعد تناوله".

"ما هو الطبق الخاص؟"

"عجّة كارولينا".

"بالتأكيد"، قال، دون أن تكون عنده أدنى فكرة عن عجّة كارولينا، ولكن الأصوات التي تصدرها معدته الخاوية ستجعل من أي طعام أمراً مستحباً.

"مع جريش القمح والبسكويت؟"

"لِمَ لا؟"

"سأعود إليك بعد بضع دقائق، عزيزي".

بدأ جيرمي بارتشاف قهوته بينما كان يطالع صحيفة الأمس. كل صفحة من صفحاتها الأربع، بما فيها خبر الصفحة الأولى الكبير عن الآنسة جودي روبرتس، التي احتفلت بعيد ميلادها المائة، وهو عمر لا يصله أكثر من 1.1 بالمائة من السكان. ومع المقالة نشرت صورة الموظّفين في بيت التمريض يحملون كعكة صغيرة عليها شمعة واحدة بالقرب من سرير الآنسة روبرتس التي بدت فاقدة للوعي.

نظر من النافذة، متسائلاً لماذا أضاع وقته بمطالعة الصحيفة المحليّة. كان هناك آلة لبيع صحيفة يو. أس. أي توداي، وفيما مدّ يده إلى جيبه للبحث عن النقود، جلس على الطاولة المقابلة شرطي بالزي الرسمي.

بدا الرجل غاضباً وشديد اللياقة البدنية. نفخت عضلات ذراعيه أطراف قميصه، وكان يضع نظارات سوداء أصبحت خارج الموضة منذ... أوه، عشرين عاماً على الأغلب، مباشرة بعد أن توقف عرض برنامج تشيبس على التلفزيون. وضع الرجل يده على حافظة المسدس. وفي فمه مسواك تناقله من جانب إلى آخر. لم يقل شيئاً على الإطلاق، مفضّلاً التحديق، مخصصاً الكثير من الوقت لدراسة

ملامح جيرمي بالتفصيل.

لا بد من الاعتراف بأن الأمر كان... مخيفاً إلى حدّ ما.

سأل جيرمي: "هل أستطيع مساعدتك؟"

انـتقل المسـواك من جانب إلى آخر. أغلق جيرمي الصحيفة، متسائلاً عما يجري.

سأل الضابط: "جيرمي مارش؟"

"نعم؟"

"اعتقدت ذلك".

فوق جيب قميص الضابط، لمح جيرمي بطاقة نحاسية نقش عليها الاسم. "لا بد من أنك الشريف هوبر؟"

"نائب الشريف هوبر"، صحّح ذلك.

قال جيرمي: "آسف، هل قمت بأي مخالفة؟"

قال هوبر: "كيف لي أن أعرف، هل فعلت؟"

"ليس على حدِّ علمي".

حرّك نائب الشريف هوبر المسواك ثانية. "هل تخطّط للبقاء هنا لفترة؟"

"فقط لمدة أسبوع تقريباً. أتيت لأكتب مقالة".

"أعرف لماذا أنت هنا"، قاطعه هوبر. "أردت فقط أن أتأكّد من ذلك بنفسي. أحبّ التحدث مع الغرباء الذين يخطّطون للتسكّع هنا لفترة".

شـعر جيرمـي مع سماع تشديد هوبر على كلمة الغرباء بأن ذلك نوع من الجريمة. وباعتبار أن ليس لديه إجابة لتبديد التشنج، عاد إلى الواضح، وقال: "آه".

"سمعت بأنك تنوي قضاء الكثير من الوقت في المكتبة".

"حسناً... أعتقد أني سأفعل".

"همممم"، همهم نائب الشريف، مقاطعاً للمرة الثانية.

مـدّ جيرمـي يده إلى كوب القهوة وارتشف منه وقال: "أنا آسف يا نائب الشريف هوبر، ولكني لست متأكّداً بالضبط مما يجري هنا".

"هممم"، قال هوبر ثانية.

"الآن، أنـــت لا تزعج ضيفنا، أليس كذلك رودني؟" صاح رئيس البلدية عبر الغرفة. "إنه زائر خاص، إنه هنا لزيادة الاهتمام بالفولكلور المحلي".

لم يجفل هوبر أو يدر نظرته بعيداً عن جيرمي. لسبب ما، بدا غاضباً بالتأكيد. "بل أتحادث معه فقط، سيدي رئيس البلدية".

"حسناً، دع الرجل يستمتع بتناول فطوره"، قال غيركن موبّخاً، ثم انتقل إلى الطاولة ولوّح بيده. "تعال إلى هنا، جيرمي. هناك شخصان أودّ أن أعرفك بهما".

عبس هوبر بينما وقف جيرمي وشقّ طريقه نحو غيركن رئيس البلدية. وعندما اقترب من الطاولة، قدّمه غيركن إلى شخصين؛ أحدهما كان محامي المقاطعة شديد النحول، والآخر كان الطبيب الذي يعمل في العيادة المحليّة ببنيته الضخمة. بدا أنهما يقومـــان بتقييمه بنفس الطريقة التي اتبعها نائب الشريف هوبر، وتمهلا في إصدار حكمهمـــا عليه كما يقال. في هذه الأثناء، استمر رئيس البلدية بالحديث كم هي مثيرة زيارة جيرمي للبلدة. ثم التفت إلى الرجلين وغمز لهما بطريقة تآمرية:

"وقد يصل حتى إلى برنامج برايم تايم لايف"، قال هامساً.

"حقـــاً؟" قال المحامي. أما جيرمي، فانشغل في صورة أن المحامي يسهل تمويهه كهيكل عظمي.

حوّل جيرمي وزنه من قدم إلى أخرى. "حسناً، كما كنت أحاول أن أشرح لرئيس البلدية أمس ".

ربّـــت غيركـــن على ظهر جيرمي مقاطعاً... "مثير جداً"، أضاف غيركن، "برنامج تلفزيوني رئيسي".

أومأ الآخرون ووجوههم تعكس الجدّية.

"وبالحديـــث عـــن البلدة"، أضاف رئيس البلدية فجأة، "أودّ أن أدعوك إلى عشـــاء لمّ شمل هذا المساء مع بضعة أصدقاء مقرّبين. لا شيء مفرط، بالطبع، لكن بما أنك ستكون هنا لبضعة أيام، أردت أن أمنحك فرصة التعرّف على بعض الناس هنا".

رفع جيرمي يديه. "ذلك ليس ضرورياً على الإطلاق...".

قال غيركن: "هراء، إنه أقلّ ما يمكننا أن نفعله... وتذكّر، بعض هؤلاء الناس الذيـــن دعوهم رأوا تلك الأشباح، وستتاح لك الفرصة لسماع قصصهم، قصص تستحضر الكوابيس ليلاً".

رفـــع غيركن حاجبيه، فيما ترقّب المحامي والطبيب الردّ. وفي اللحظة التي بدا فيها التردّد على جيرمي، كان ذلك كل ما احتاج إليه رئيس البلدية للاستنتاج.

"فلنقل حوالى الساعة السابعة؟"

"نعم... بالتأكيد. وقت مناسب"، وافق جيرمي. "أين سيكون حفل العشاء؟"

"سأعلمك بعد قليل. افترض بأنك ستكون في المكتبة، صحيح؟"

"من المحتمل".

رفع رئيس البلدية حاجبيه. "إذاً أفهم أنك قابلت أمينة مكتبتنا الرائعة، الآنسة ليكسي؟"

"بالفعل، نعم".

"إنها رائعة حقاً، أليس كذلك؟"

حمل كلامه إمكانية بعض التلميحات الأخرى. الطريقة التي تكلّم بها أشبه ما تكون بحديث حجرة الأدراج المُقْفَلة.

قال جيرمي: "كانت مفيدة جداً".

ابتســـم المحامي والطبيب، لكن قبل أن يتّخذ الحديث أي منحى آخر، جاءت راشيل مسرعة وهي تحمل صحناً، ثم اقتربت من جيرمي ووكزته.

"تعال، عزيزي. لقد جئتك بالفطور".

نظر جيرمي إلى رئيس البلدية مستأذناً.

"بكل تأكيد"، قال غيركن ملوّحاً بيديه.

لحـــق جيرمـــي براشـــيل إلى الطاولة ليجلس على مقعده. حمداً لله أن نائب الشريف هوبر كان قد رحل، ووضعت راشيل الصحن أمامه.

"تمتّع بالفطور. أخبرهم أن يحضروا شيئاً خاصاً وبالأخص لأنك تزورنا قادماً

من مدينة نيويورك. كم أحبّ ذلك المكان!"

"أوه، هل زرتها من قبل؟"

"حسناً، لا. لكني أردت دائماً أن أذهب. تبدو لي... فاتنة ومثيرة".

"إذا يجب أن تذهبي. ما من مكان مثلها في العالم".

ابتسمت، وهي تتظاهر بالخجل، "ماذا، سيد مارش... هل تلك دعوة؟"

فغر جيرمي فمه، ماذا؟؟

أمـــا راشـــيل، فـــلم يبدُ عليها أنها انتبهت لتعبيره، "حسناً، أظن أني سأقبل الدعوة"، قالت مزقزقة. "وسأكون مسرورة أن أريك المقبرة في أية ليلة تودّ فيها أن تذهب. أنتهي من عملي هنا حوالى الساعة الثالثة تقريباً".

"سأتذكر ذلك"، غمغم جيرمي.

خـــلال الدقائق العشرين التي تلت، وفيما هو يتناول الطعام، مرّت به راشيل عشر مرات، لتعيد ملء كوب القهوة ربع بوصة (0.6 سم) في كل مرة، ولتبتسم له بشدة.

ذهب جيرمي إلى سيارته، محاولاً التعافي مما كان من المفترض أن يكون فطوراً هادئاً.

هوبر، غيركن، تولي، راشيل، جاد.

هذه البلدة الأميركية الصغيرة أكثر مما يقوى عليه المرء قبل قهوة الصباح.

غـــداً سيتناول القهوة في أي مكان آخر. ما من دافع يعيده إلى هيربس مع أن الطعـــام كان رائعاً. لا بد من أن يعترف بأنه كان أفضل مما ظن أنه سيكون. كما قـــال دوريـــس أمس، يميزه المذاق الطازج لأن مكوناته استحضرت من المزرعة في ذلك الصباح.

مع هذا، فإن القهوة غداً ستكون في مكان آخر، بالتأكيد ليس من محطة وقود تولي، وكأن الأخير عنده قهوة. لم يرد أن يقع فريسة محادثات تولي في وقت عنده الكثير مما يتوجب إنجازه.

تمهل قليلاً. يا إلهي، بدأت أتحول إلى أحد السكان المحليين.

هزّ رأسه واسترد مفاتيحه من جيبه وهو يمشي نحو السيارة. على الأقل انتهى الفطور بسلام. نظر إلى ساعته، وكانت تشير إلى التاسعة. جيّد!

ضبطت ليكسي نفسها تنظر إلى خارج نافذة مكتبها لحظة توقف جيرمي بسيارته أمام المكتبة.

جيرمي مارش. هذا الرجل الذي يواصل الزحف إلى أفكارها، على الرغم من أنها تحاول أن تعمل. انظروا إليه! أغلب الظن أنه تعمّد أن يرتدي ثياباً بسيطة تسهّل اندماجه مع المحيط. بطريقة ما، نجح في مسعاه.

كفى! عندها الكثير لتنجزه. مكتبها مغطى بصناديق من الكتب في كل زاوية: أكوام من الكتب في كل اتجاه، عمودياً وأفقياً. في جانب من الغرفة خزانة أضابير فولاذية رمادية اللون، أما مكتبها وكرسيها فكانا عمليّين. ما من شيء حول الغرفة يوحي بالتزيين، والسبب ببساطة هو نقص المساحة، وانتشرت أوراق العمل في كل مكان: في الزوايا، تحت النافذة، على الكرسي الإضافي الجاثم في الزاوية. دون إغفال الأكوام الكبيرة على مكتبها، والتي تحتوي على كل الأمور المستعجلة.

الميزانية تستحقّ نهاية الشّهر، وأمامها كومة من أدلة الناشرين لتراجعها قبل أن تملأ طلبها الأسبوعي. أضف إلى القائمة مهمة العثور على متكلّم لحفل غداء أصدقاء المكتبة في نيسان/أبريل، والتحضير لجولة البيوت التاريخية - والمكتبة جزء منها - وهي بالكاد قادرة على التقاط أنفاسها. في المكتبة مستخدمان يعملان بدوام كامل، لكنها تعلمت أن الأعمال تنجز أحسن إذا لم توكل بإنجازها إلى أحد آخر. المستخدمان مناسبان للتوصية على العناوين الأخيرة، ولمساعدة الطلاب في العثور على ما كانوا يبحثون عنه، ولكنها في المرة الأخيرة التي تركت فيها أحدهم يقرّر أي الكتب يطلب، انتهى بها الأمر بستة عناوين مختلفة عن السحالب، والتي تصادف أنها كانت زهرة المستخدم المفضّلة. في وقت سابق من النهار، بعد الجلوس أمام حاسوبها، حاولت جاهدة أن تضع خطة لتنظيم جدولها، لكنها لم تنجح. مع كل الجهد الذي بذلته، كانت الأفكار تأخذها مرة أخرى باتجاه جيرمي مارش. لا تريد أن تفكر به، لكن دوريس قالت ما فيه الكفاية لتحفيز فضولها.

"لعلمك، فإنه يخفي أكثر مما تعتقدين".

ماذا تعني؟ ليلة أمس، بعد أن ضغطت عليها، انكفأت دوريس وكأنها لم تقل شـيئاً. لم تأتِ على ذكر حياة ليكس العاطفية، ولا جيرمي مارش. بدلاً من ذلك، دارتـا حـول الموضوع: أحداث العمل، أخبار الناس، وتحضيرات جولة البيوت التاريخـية في عطلـة نهاية الأسبوع. دوريس كانت عضوة في مجلس إدارة المجمع التاريخي، والجولة شكلت أحد الأحداث الكبيرة كل عام رغم أنها لم تتطلب الكثير من التخطيط من جهة المجمع. في الجزء الأكبر منها اشتملت على نفس المنازل التي اخـتيرت كـل عام، بالإضافة إلى أربع كنائس والمكتبة. وفيما كانت جدّتها تتابع الحديث، انجرفت ليكس في بحر من الأفكار بشأن تصريح جدّتها...

"لعلمك، فإنه يخفي أكثر مما تعتقدين".

ماذا يمكن أن يكون رجل المدينة الكبيرة؟ زير نساء؟ شخص يسعى إلى علاقة عابرة؟ شخص سيسخر من البلدة لحظة يغادرها؟ شخص يبحث عن قصة ويرغب في إيجادها بأي شكل من الأشكال، حتى لو انتهى به الأمر في هذه الأثناء.

ولماذا تهتم؟ سيبقى هنا لبضعة أيام، وبعدها سيتوارى عن الأنظار وكل شيء سيعود إلى طبيعته ثانية. حمداً لله.

أوه، لقـد سمعت الثرثرة هذا الصباح. في المخبز حيث توقفت لتشتري بعض الكعك، سمعت امرأتين تتحدّثان عنه. كيف أنه سيجعل البلدة مشهورة، وكيف أن الأمـور قـد تتحسـن قليلاً في مجال العمل. لحظة لمحوها، أغرقوها بالأسئلة عنه وعرضوا آراءهم حول فرص نجاحه في اكتشاف مصدر الأنوار الغامضة.

مـا زال الـبعض هنا على أي حال يصدقون أن الأنوار تسببها الأشباح. في مقابل، من لا يصدق الرواية. غيركن رئيس البلدية على سبيل المثال، لا يرى الأمر مـن زاوية مختلفة ويعتبر التحقيق الذي سيجريه جيرمي نوعاً من الرهان. إذا أخفق جيرمي مارش في اكتشاف السبب، فإن إخفاقه سيكون جيداً لاقتصاديات البلدة، وذلـك ما يراهن عليه رئيس البلدية. ففي النهاية، فإن غيركن يعرف أمراً لا يعرفه سوى قليلين.

لسـنوات وسنوات، فتش الناس عن تفسير لهذا اللغز، ولم يقتصر الأمر على

طلاب جامعة ديوك. فبالإضافة إلى المؤرخ المحليّ الذي يبدو أنه توصل حسب رأي ليكسي إلى تفسير معقول، فإن فريقين خارجيين على الأقل تحريا حول الادعاءات في السابق دون نجاح. من المعروف أن غيركن نفسه هو من دعا طلاب جامعة ديوك لزيارة المقبرة على أمل ألا يتوصلوا إلى تفسير. وكما توقع، فإن الحركة السياحية أخذت بالنمو منذ ذلك الحين.

فكرت أنها كان يمكن أن تذكر القصة أمام السيد مارش يوم أمس. لكنه لم يسأل، وهي لم تعرض جواباً. ربما كانت منشغلة في ردّ تقربه منها وأن تظهر له جلياً عدم اكتراثها. أوه، حاول أن يفتنها. حسناً، موافقة، إنه ساحر بطريقته الخاصة، لكن سحره لن يغيّر حقيقة أنها لن تسمح لعاطفتها بأن تغلبها. لقد شعرت بنوع من الراحة عندما غادر المكتبة ليلة أمس.

ثم جاء دور دوريس لتتفوه بذلك التعليق السخيف، وما من شك بأنها قصدت منه دفع ليكسي نحو التعرف على الرجل بصورة أفضل. لكن المريب في الأمر أن دوريس ما كانت لتجاهر بأمر ما لم تكن متأكدة منه. لسبب ما لا تعرفه، رأت دوريس ميزة في جيرمي.

آه كم تكره حدس دوريس أحياناً!

بالطبع، ما كان يجب عليها أن تصغي إلى ما تقوله دوريس. وفي نهاية المطاف، سبق لها أن فعلت فعلتها مع *الزائر الغريب*، وليست في وارد أن تسلك ذلك المسار مرة أخرى. وعلى الرغم من تصميمها، لا تنكر أن الموضوع برمته وضعها في موضع عدم الاستقرار. وفي ما هي غارقة في تأملاتها، سمعت صرير الباب وهو يفتح.

"صباح الخير"، قال جيرمي، مطلاً برأسه. "اعتقدت أني سأعثر عليك هنا".

أدارت كرسيها، ولاحظت أنه يلفّ سترته على كتفه.

"مرحباً بك"، أومأت بشكل مؤدّب. "كنت أحاول استلحاق بعض الأعمال".

حمل سترته. "هل من مكان محدد لأضع هذه؟ ليس هناك مساحة كافية على الطاولة في غرفة الكتب النادرة".

"هات، أنا سآخذها. علاّقة المعاطف وراء الباب".

دخل المكتب وناول ليكسي السترة. علّقتها بجانب معطفها وراء الباب. نظر جيرمي حول المكتب.

"إذاً هذه غرفة قيادة العمليات، هاه؟ هنا موقع اتخاذ القرارات؟"

"بالضبط"، أكّدت. "ليس كبيراً، ولكنه كافٍ لإنجاز الأعمال".

"أحـــبّ نظام ملفاتك"، قال، وأشار إلى كومة الأوراق على مكتبها. "عندي واحد مثله تماماً في البيت".

غلبتها الابتسامة، وتوجه هو نحو مكتبها ونظر إلى خارج النافذة.

"إطلالـــة جميلة، أيضاً. رباه! يمكن أن أرى الطريق بأكمله وصولاً إلى البيت المجاور، وموقف السيارات، أيضاً".

"حسناً، يبدو أنك مفعم بالحيوية والنشاط هذا الصباح".

"وكـــيف لا أكون؟ نمت في غرفة مجمّدة مليئة بالحيوانات الميتة. أو بالأحرى، بالكاد نمت، وبقيت أسمع كل هذه الضوضاء الغريبة من ناحية الغابة".

"تساءلت إن كان غرينليف سيروق لك. سمعت بأنه ريفي الطابع".

"إن كلمة ريفي لا تنصف المكان على الإطلاق. ثم هذا الصباح، نصف البلدة كانت في المطعم تتناول الفطور".

"أظن أنك ذهبت إلى هيربس؟"

قال: "نعم فعلت، ولاحظت أنك لم تكوني هناك".

"لا. إنه مزدحم جداً. أحب أن أبدأ نهاري بهدوء".

"كان عليك أن تحذّريني".

ابتسمت. "كان عليك أن تسأل".

ضحك، وأشارت ليكسي نحو الباب.

أثـــناء سيرها إلى غرفة الكتب النادرة معه، أحسّت بأنه كان في حالة مرحة رغم إعيائه، ولكن ليس بما فيه الكفاية لتضع ثقتها به.

سألها: "هل حصل أنك تعرفين نائب الشريف هوبر؟"

نظرت إليه بدهشة. "رودني؟"

"أعتقد أن هذا هو اسمه. ما هي حكايته على أي حال؟ بدا قلقاً من وجودي هنا في البلدة".

"أوه، إنه غير مؤذٍ".

"لم يبدُ لي أنه غير مؤذٍ".

استـــتهجنت. "ربما تناهى إليه بأنك تقضي وقتك في المكتبة. كما يقال، فإنه يصبح دفاعياً عندما يتعلق الأمر بأمور كهذه. إنه معجب بي منذ سنوات".

"إذا توسّطي لي عنده، هلاّ فعلت؟"

"هل من الضروري أن أفعل ذلك".

كان يتوقع رداً حازماً من ردودها، فرفع حاجبيه في مفاجأة.

"شكراً".

"لا مشكلة. فقط لا تقدم على أي أمر يجعلني أسحب شهادتي بك".

تابعـــا السير بصمت حتى وصلا إلى غرفة الكتب النادرة. دخلت الغرفة أمامه وأضاءت النور.

"كنت أفكّر بمشروعك، وربما هناك شيء من الضروري أن تعرفه".

"ما هو؟"

أخبرته عن التحقيقين السابقين حول المقبرة قبل أن تضيف، "إذا أعطيتني بضع دقائق، يمكنني أن أبحث عنهما".

"أقدّر لطفك، ولكن لماذا لم تذكريهما يوم أمس؟"

ابتسمت دون إجابة.

"دعيني أحزر، لأني لم أسأل؟"

"أنا أمينة مكتبة فحسب، ولست قارئة أفكار".

"مثل جدتك؟ أوه، انتظري، إنها بصارة، صحيح؟"

"نعم بالفعل. يمكنها أن تخبرك بجنس الطفل قبل أن يولد أيضاً".

"هذا ما سمعته"، قال جيرمي.

ومضــــت عيناها. "إنها الحقيقة يا جيرمي. سواء صدّقتها أم لم تود تصديقها. يمكنها أن تقوم بهذه الأشياء".

ابتسم ابتسامة عريضة. "هل دعوتني جيرمي؟"

"نعم. لكن لا تحيلها إلى قضية كبرى. وأنت طلبت مني ذلك، هل تذكر؟"

"أذكر، نعم أذكر يا ليكسي".

"لا تلحّ على ذلك"، قالت، ولكنها وهي تتكلم، لاحظ جيرمي أنها حافظت على نظرها إليه لمدة أطول من المعتاد، وأحب هو ذلك.

أحبّ ذلك كثيراً.

الفصل السابع

أمضى جيرمي بقية الصباح منكباً على كومة الكتب والمقالتين اللتين وجدهما ليكسي. الأولى كتبها عام 1958 أستاذ فولكلور في جامعة كارولينا الشمالية ونُشرت في مجلّة الجنوب، وبدا أن القصد منها الردّ على شرح أي. جي. موريسون للأسطورة. اقتبست المقالة بضعة مقاطع من عمل موريسون، لخّصت الأسطورة، ثم أوردت تفاصيل إقامة الأستاذ في المقبرة فترة أسبوع واحد. في أربعٍ من تلك الأمسيات، شاهد الأنوار. على الأقل، بدأ الأستاذ في التمهيد للأسباب: احتسب عدد البيوت في المنطقة المحيطة (كان هناك ثمانية عشر منزلاً ضمن ميل واحد من المقبرة، والملفت أن لا منازل على تل ريكر)، كما راقب أعداد السيارات التي عبرت خلال فترة دقيقتين من ظهور الأنوار. على أي حال، في الحالتين لم يسجل الأستاذ مرور أي سيارة، مما أزال احتمال أن أضواء السيارات العلوية كانت السر الكامن وراء ظهور *الأشباح*.

المقالة الثانية كانت أغنى قليلاً بالمعلومات المفيدة. نشرت في عدد العام 1969 من كارولينا الساحلية، واستمرت بالصدور لحين توقفها كلياً في العام 1980. ذكرت المقالة أن المقبرة كانت تغرق، والضرر الذي أحاق بالمقبرة كان نتيجة الغرق. كما كرّر الكاتب الأسطورة ولفته قرب تل ريك من المقبرة. ومع أن الكاتب لم يعاين الأنوار بنفسه، إلا أنه استقى موضوعه من روايات شهود عيان، وعليه أورد عدة احتمالات لتفسير الوضع، وهي احتمالات كان جيرمي مدركاً لها أساساً.

الاحتمال الأول كان تعفّن النباتات، الأمر الذي يصدر أبخرة معروفة بغاز المستنقع تنفجر لهباً. في منطقة ساحلية مثل بون كريك، أدرك جيرمي أن هذا الاحتمال لا يمكن استبعاده بالكامل، مع أن جيرمي كان يعتقد أنه ليس الجواب

لأن الأنـــوار تشاهد في الليالي الضبابية الباردة. كما يمكن أن تكون الأنوار *أنواراً زلزالـــية*، وهـــي شـــحنات كهربائية جوية تتولّد نتيجة تحرك وطحن الصخور في أعمـــاق القشـــرة الأرضـــية. كما أن فكرة أضواء السيارات عادت إلى الواجهة بالاعتماد على تكسر الأضواء على وهج فوسفوري تصدره بعض الفطريات على الخشـــب المـــتعفّن. كما أورد المؤلف إمكانية حصول ظاهرة نوفايا زيملايا، وهي ظاهـــرة توهج ضوئي تأتي نتيجة تكسر الأشعة الخفيفة على طبقات متجاورة من الهواء بدرجات حرارة مختلفة. أما الإمكانية النهائية فكانت احتمال انبعاث الأنوار نتـــيجة ظاهـــرة نيران سانت إلمو، وهي شحنات كهربائية تحدثها الأجسام الحادّة المدبّبة أثناء العواصف الرعدية.

أو بكلام آخر، المؤلف يقول إن الأسباب يمكن أن تكون متعددة.

ومع أن المقالة كانت غير حاسمة، فإن المقالات ساعدت جيرمي على توضيح أفكاره. برأيه، فإن الأنوار لا بد من أنها متعلقة بجغرافية المنطقة. إن التل وراء المقبرة هو أعلى نقطة في المنطقة كلها، مما جعل من المقبرة الأكثر عرضة للضباب في تلك المنطقة، وكل الدلائل أشارت إلى الأنوار المنكسرة أو المنعكسة.

علـــيه فقـــط أن يحدد المصدر بدقة، ولذلك فهو بحاجة لمعرفة متى شوهدت الأنـــوار للمرة الأولى. ليس تاريخاً عاماً، بل تاريخاً محدداً، ومنه ينطلق ليكتشف ما كان يحدث في البلدة في ذلك الوقت. فإذا كانت البلدة تمرّ بتغيير كبير آنذاك حول مشـــروع بناء جديد، مصنع جديد، أو شيء من هذا القبيل، فإنه قد يجد السبب. أمـــا لو شاهد الأنوار بنفسه - ولم يعوّل على ذلك - فإن مهمته ستكون أسهل. فـــإذا ظهـــرت الأنـــوار عـــند منتصف الليل، على سبيل المثال، ولم يلحظ مرور السـيارات، يمكنه أن يمسح المنطقة، ويسجل موقع البيوت التي تنير مصابيحها من الـــنوافذ، وأن يقـــيس مقدار قرب الطريق السريع، أو حتى القوارب في النهر. إن القوارب حسبما فكر جيرمي يمكن أن تكون مصدر الأنوار إذا ما كانت كبيرة بما فيه الكفاية.

عـــاد إلى كومـــة الكتـــب مـــرة ثانية، وسجل ملاحظات إضافية بخصوص التغييرات في البلدة على مرّ السنين، وعلى الأخص التغييرات حول نهاية القرن.

وفـــيما مـــرت الساعات، كبرت القائمة. في أوائل القرن العشرين، شهدت الــبلدة ازدهـــاراً ســـكانياً صغيراً بين عامي 1907 و1914، حيث نهض القسم الشـــمالي مـــن البلدة. الميناء الصغير توسّع في العـــام 1910، ومرة ثانية في العام 1916، ومـــرة أخـــرى في العـــام 1922؛ وبالـــتزامن مع إنشاء المقالع ومناجم الفوســـفور كانت عمليات التنقيب موسعة. سكة الحديد بدأت في العام 1898، وتابعـــت توســـعها نحـــو مناطق مختلفة من المقاطعة حتى العام 1912. أقيم جسر مِنْصَـــبيّ فـــوق النهر في العام 1904، وبين عامي 1908 و1915 أقيمت ثلاثة مصانع: مصنع نسيج، منجم فوسفور، ومصنع للورق. وحده مصنع الورق ما زال عاملاً إلى وقتنا، أما مصنع النسيج فقد أقفل أبوابه قبل أربع سنوات، وأقفل المنجم عام 1987، وبالتالي فإن المصنعين الأخيرين لم يعودا بين الاحتمالات.

أعاد التدقيق في الحقائق مرة ثانية ليتأكد من صحتها، ثم أعاد تكديس الكتب لكي تعيدها ليكسي إلى الرف. أمال ظهره في الكرسي ليزيل التصلب الذي حل في جســـمه، وتطلع إلى ساعته. قارب الوقت على الظهر. بشكل عام، فإن الساعات التي أمضاها في المكتبة تمّت الاستفادة منها بشكل جيد جداً. ثم التفت خلفه عندما انفتح الباب وراءه.

لم تعـــد ليكســـي لتطمئن عليه. بطريقة ما. أعجبته حقيقة أنه لا يستطيع أن يفهمهـــا، وللحظة، تمنّى لو أنها كانت تعيش في المدينة، أو حتى في مكان ما قرب المديـــنة. كان من المثير مراقبة سير الأمور بينهما لو كان الأمر كذلك. بعد لحظة، دفعت الباب.

"هاي"، حيّته ليكسي. "كيف تسير الأمور".

استدار جيرمي. "جيد. شكراً".

ارتـــدت ســـترتها. "اسمع، كنت أفكر بالخروج لأتناول طعام الغداء، وكنت أتساءل إن كنت تريدني أن أحضر لك شيئاً".

"هل أنت ذاهبة إلى هيربس؟"

"لا. إذا ظننـــت أن الفطور كان مزدحماً، يجب أن ترى المكان وقت الغداء. ولكن يسعدني أن أمر لأحضر لك طلبك في طريق عودتي".

تردّد للحظة.

"حسناً، هل يمكن أن أذهب معك إلى حيث تذهبين؟ يجب أن أمرن رجليّ قليلاً. جلست هنا طوال فترة الصباح، وأنا أحب أن أرى مكاناً جديداً. هل بإمكانك أن تريني محيط البلدة. أقصد، ما لم يكن عندك مانع بالتأكيد".

كادت ترفض، ولكنها وللمرة الثانية سمعت ما قالته دوريس يتردّد في ذهنها، واختلطت أفكارها. هل ينبغي لها أن تفعل أو لا؟ وبالرغم من أن عقلها أمرها أن ترفض، إلا أنها والشكر لدوريس، ردّت قائلة: "بالتأكيد، ولكن عندي أقل من ساعة لأعود، ولذا لا أعرف إن كنت سأستطيع مساعدتك في هذا الوقت الضيق؟"

بدا أنه تفاجأ مثلها بالضبط، ثم وقف ولحق بها إلى خارج الباب. "أي شيء سيكون عظيماً وسيساعدني في ملء الفراغات، كما تعرفين. من المهم أن يعرف المرء ما يدور في مكان كهذا".

"أتعني في بلدتنا المتخلفة الصغيرة؟"

"أنا لم أقل بأنها بلدة متخلفة. تلك كلماتك".

"نعم. لكنها أفكارك، أنا أحبّ هذا المكان".

"أنا متأكّد، وإلا لماذا رجعت لتعيشي هنا؟"

"بالدرجة الأولى، لأنها ليست نيويورك".

"كنت هناك؟"

"كنت أعيش في مانهاتن. في الشارع التاسع والستّين غرباً".

كاد جيرمي يتعثر بخطواته. "أي قرب مسكني الحالي".

ابتسمت. "إنه لعالم صغير، ألا تظن؟"

كافح جيرمي ليجاريها في مشيتها السريعة، وحين اقتربا من الدرج سألها "أنت تمزحين، صحيح؟"

"أبداً، عشت هناك مع صاحبي لمدة سنة تقريباً. كان يعمل لصالح شركة مورغان ستانلي، وأنا كنت أتدرب في مكتبة جامعة نيويورك".

"لا أصدق...".

"مـــاذا؟ بـــأني عشت في نيويورك وتركتها؟ أو إني عشت قربك؟ أو إني عشت مع صاحبي؟"

"كـــل ما تقولين أو لا شيء منه. لست متأكّداً". وجهد ليتخيل سكن أمينة المكتـــبة في هذه البلدة الصغيرة في نفس حيّه. لاحظت تعابيره، وغالبها الضحك.

"جميعكم متشابهون، أتعرف ذلك؟"

"من؟"

"ســـكان المديـــنة. يعيشون حياهم يفكرون أنه ليس ثمة مكان في العام مثل نيويورك، وأن لا مكان في العالم لديه ما يعطيه سوى مدينتهم".

"صحيح"، اعترف جيرمي. "لكن لأن بقية العالم باهتة بالمقارنة مع نيويورك".

التفتت إليه، ورمقته بنظرة ثابتة، أنت لم تقل ما نطقت به للتو؟

اســـتهجن جيرمـــي مدّعياً البراءة. "أعني، هيا... أكواخ غرينليف ليست نداً لفـــندق الفصول الأربعة أو البلازا، أليس كذلك؟ أعني، حتى أنت يجب أن تعترفي بذلك".

ثـــار غضـــبها من موقفه المتعجرف وبدأت تمشي بخطوات أسرع. قرّرت في الحال بأن دوريس ليس لديها أدنى فكرة عما قالته لها.

أما جيرمي على أي حال، فلم يتوقف عن المحاولة. "هيا...اعترفي. تعرفين أني محقّ، أليس كذلك؟"

عند تلك النقطة، كانا قد وصلا إلى الباب الأمامي للمكتبة، ففتح الباب لها. خلفهمـــا، كانت المرأة المسنة التي تعمل في بهو الاستقبال تراقبهما باهتمام شديد. ضبطت ليكسي لسانها حتى صارت خارج الباب، ثم التفتت إليه.

"الـــناس لا يعيشون في الفنادق" ردّت بنـــزق. "إنهم يعيشون في مجتمعات. وهـــذا مـــا لدينا هنا، مجتمع، الناس فيه يعرفون بعضهم البعض، ويهتمّون ببعضهم البعض. حيث يمكن للأطفال أن يلعبوا في الليل دون خوف من الغرباء".

رفع يديه. "لا، لا تسيئي فهمي. أنا أحب المجتمعات، وقد نشأت في أحدها. كنـــت أعرف كل عائلة في حيّي بالاسم، لأن هذه العائلات عاشت فيه لسنوات.

البعض منها ما زال يسكنه. صدقيني إذاً، أنا أعرف أهمية أن يعرف المرء جيرانه، وأهمية أن يعرف الآباء ماذا يفعل أولادهم ومن يرافقون. هكذا عشت. حتى عندما كنت أخرج، كان الجيران يبقون الرقابة علينا. أقصد أن نيويورك فيها هذه الميزة، اعتماداً على الحي الذي تسكنين فيه. طبعاً، الحي الذي أسكنه الآن مليء بالشبان النشطين، ولكن إذا نزلت إلى المنتزه في بروكلين أو فيكتوريا أو كوينز، فسترين الأطفال يلهون هناك، ويلعبون كرة السلة أو كرة القدم، وتقريباً يفعلون كل ما يفعله أطفال هذه الأنحاء".

"تقولها وكأنه سبق لك أن فكرت بهذه الأمور".

أسفت للحدة في صوتها لحظة شنت هجومها على جيرمي، أما هو فعلى أي حال، لم يبدِ انزعاجاً.

قال: "بلى، فعلت. صدقيني، إن كان عندي أطفال، فلن أسكن حيث أفعل الآن. عندي طن من أبناء وبنات الإخوة الذين يعيشون في المدينة، وكلهم يعيشون في أحياء تعج بالأطفال وبالناس الآخرين الذين يرعونهم. في أوجه كثيرة، هناك تشابه مع هذا المكان".

لزمت الصمت، وتساءلت إن كان يقول الحقيقة.

"انظري، أنا لا أحاول افتعال شجار هنا. النقطة التي أحاول إيصالها هي أن الأطفال بخير ما دام الآباء يتحملون المسؤولية بغض النظر عن المكان الذي يعيشون فيه. ليس للبلدات الصغيرة احتكار على القيم. أعني، أنا متأكّد بأني إذا بحثت فسأعثر على الكثير من الأطفال الذين يعانون من المشاكل هنا أيضاً. الأطفال أطفال، أينما يعيشون". ابتسم، محاولاً الإشارة إلى أنه لم يأخذ أقوالها على محمل شخصي. "أضيفي إلى ذلك، لا أعرف كيف انتهى بنا الأمر بمناقشة موضوع الأطفال. من الآن فصاعداً، أعدك بألا أثير الموضوع مرة ثانية. كل ما كنت أحاول قوله هو أني فوجئت بأنك عشت في نيويورك على بعد مبنيين من مكان سكني". ثم توقّف. "هل نعلن الهدنة؟"

حدّقت فيه قبل أن تعاود التقاط أنفاسها. لربما كان على حق. لا، إنها كانت تعلم بأنه على حق. كما أنها أقرّت بأنها من صعّد وتيرة الحديث. إن الأفكار

المتشابكة يمكن أن تفعل هذا بالشخص. بماذا تحاول أن تتورط؟

"هدنة"، وافقت أخيراً. "على شرط...".

"وهو؟"

"عليك أن تتولى القيادة. لم أحضر سيارتي".

بدا مرتاحاً. "دعيني أجد مفاتيحي".

لم يكونـــا جائعين، ولهذا وجّهته ليكسي إلى مخزن بقالة صغير، وعادت بعد بضــع دقائق مع علبة من البسكويت المملح، وبضع حبات من الفواكه الطازجة، وأنواع مختلفة من الجبن، وقارورتي شاي مثلج.

في الســـيارة، وضعت ليكسي الطعام بين قدميها. "هل هناك مكان محدّد تود رؤيته؟" سألته ليكسي.

"تلّ ريكر. هل هناك طريق يصل إلى القمة؟"

أومأت. "ليس ما تدعوه طريقاً، بل ممراً استعمل أصلاً لقطع ونقل الأخشاب، أمـــا الآن فيســـتخدمه صيّادو الأيّل. إنه طريق قاسٍ، لا أعرف إذا كنت تريد أن تصعد بسيارتك إلى هناك".

"لا تقلقـــي. إنهـــا مســـتأجرة. كما أني تعودت على الطرق الوعرة في هذه المنطقة".

"حسناً، لكن لا تقل بأنني لم أحذّرك".

لم يقولا الكثير وهما يتجهان إلى خارج البلدة، ومرّا بالقرب من مقبرة سيدر كـــريك وفوق جسر صغير. وسرعان ما اكتست الطريق على الجانبين بالأشجار، وأفســـح لـــون السماء الأزرق مكانه للون الرمادي، وذكّر ذلك جيرمي بأوقات الشتاء عصراً في المناطق الشمالية. من حين إلى آخر، أفزعت السيارة مجموعات من الزرازير التي تطير معاً كما لو أنها مربوطة معاً بالخيط.

أزعج الصمت ليكسي، ولذا بدأت بوصف المنطقة: مشاريع عقارات لم تبدأ، أسماء الأشجار، وسيدر كريك التي أمكن رؤيتها من خلال الأجمة. ظهر تل ريكر من جهة اليسار، كئيباً وموحشاً في الضوء الخافت.

سبق لجيرمي أن سلك هذا الطريق بعد أن غادر المقبرة في أول زيارة واضطر لأن يعــود أدراجـــه عند هذه النقطة. ولم تمضِ دقيقة أو أكثر قليلاً حتى قالت له ليكسي أن يلتف عند التقاطع القادم، والذي يبدأ بالاستدارة باتجاه تل ريكر. مالت ليكسي إلى الأمام في مقعدها، وتطلعت من الزجاج الأمامي.

قالت: "المنعطف قريب، ربما يجب أن تبطئ السرعة".

أبطأ جيرمي السرعة، وتابعت هي التحديق أمامها، والتفت إليها ولاحظ خط التجهم الخفيف بين حاجبيها.

"حسناً...هناك"، قالت مشيرة.

كانـــت على حـــق: إنه ليس بطريق. كان مثخنـــاً بالحفر والحصى، وكأنه مدخـــل غرينليف؛ وإن بدرجة أسوأ. بدأت السيارة بالترنّح والوثب. أبطأ جيرمي أكثر.

"هل تل ريكر ملك للولاية؟"

أومأت بالإيجاب. "الولاية اشترته من إحدى شركات الخشب الكبيرة واسمها وير - هاوزير أو جورجيا - باسيفيك، أو شيء من هذا القبيل، عندما كنت طفلة صغيرة. إن التل جزء من تراثنا المحليّ كما تعرف. لكنه ليس منتـــزهاً أو ما شابه. أعـــتقد بـــأنهم كـــانوا يخططون لتحويله إلى موقع للتخييم، ولكن الولاية لم تنفذ مشروعها".

لامست أبر أشجار الصنوبر السيارة في الطريق الضيق، إلا أن الطريق سرعان مـــا تحسّن كلما اتجها على المسار الشديد التعرج نحو القمة. وبين الفينة والأخرى، ظهر أحد الممرات التي ربما شقها الصيادون.

مـــع مرور الوقت، خفّت كثافة الأشجار وأمكن رؤية السماء. وقرب القمة، بـــدت الأضرار على الأشجار، وعند القمة، دمار كامل. عشرات الأشجار كانت مقصوفة من وسطها، وأقل من ثلث الأشجار ما زالت واقفة. قلّت زاوية الانحدار، ومن ثم كانت هناك مساحة منبسطة عند القمة. توقف جيرمي إلى جانب المنبسط. أشارت ليكسي إليه أن يطفئ المحرك، وخرجا من السيارة.

كتفت ليكسي يديها أثناء سيرهما. كان الهواء أبرد نتيجة الارتفاع، والرياح شتائية ولاذعة. كما أن السماء بدت أقرب، و لم تعد الغيوم عديمة الشكل، لكنها التفّت وتضافرت في أشكال متميّزة. وفي الأسفل، أمكنهما أن يريا البلدة، وأسطح المنازل المتجمعة على طول الطرق المستقيمة، وأحد هذه الطرق يصل إلى مقبرة سيدر كريك. ووراء البلدة، ظهر النهر المالح قليلاً في مجراه شبيهاً بالحديد المنصهر المتدفق. كما أمكن رؤية جسر الطريق السريع وجسر سكة الحديد رائع الهندسة الذي ارتفع خلفه وكأنه صقر أحمر. ومع قليل من التدقيق، شاهد جيرمي مبنى المكتبة الصغير، وحتى موقع غرينليف، وإن كانت الأكواخ قد غارت في بيئتها المحيطة.

"منظر مدهش"، قال أخيراً.

أشارت ليكسي باتجاه طرف البلدة وساعدته في توجيه نظره. "هل ترى البيت الصغير هناك؟ على الطرف، قرب البركة؟ ذلك المنزل حيث أعيش الآن. وهناك؟ ذلك منزل دوريس حيث نشأت. أحياناً لما كنت صغيرة كنت أنظر إلى التل وأتخيل أني على أعلى التل أراقب المنظر من فوق".

ابتسم. رفع النسيم شعرها وهي تتكلم.

"في سن المراهقة، كنت وأصدقائي نصعد إلى هنا أحياناً ونبقى لساعات. أثناء الصيف، وبسبب الحرارة، تومض أنوار المنازل كالنجوم. واليراعات المضيئة؛ حسناً، إنها تتكاثر في شهر حزيران/يونيو فيبدو أن هناك بلدة أخرى في السماء. ومع أن الجميع كانوا يعرفون هذا المكان، إلاّ أنه لم يكن مُحتشِداً أبداً. ظل لي ولأصدقائي بمثابة مكان سري نتشاركه سوية".

توقّفت بعد أن لاحظت أنها غدت أكثر عصبية. و لم تقدر أن تحدد سبب هذه الشعور الغريب.

"أذكر يوم هبّت عاصفة رعديّة كبيرة. أقنعتُ أنا وأصدقائي أحد الشبان ليأتي بنا إلى هنا في شاحنته. كما تعرف، إحدى تلك العواصف الكبرى التي قد تصل إلى الغراند كانيون أحياناً. لذا صعدنا كلنا إلى هنا لمراقبة البرق، متوقّعين أن نرى ومض البرق في السماء. لم نتنبّه بأننا تمركزنا على أعلى نقطة في المنطقة بأسرها.

وعـــندما بـــدأ البرق، كان جميلاً في بادئ الأمر. أضاء السماء، أحياناً مثل وميض سريع، وأحياناً مثل ضوء متوهّج، وكنا نبدأ بالعد حتى يهدر الرعد، ونستعد لرؤية الـــبرقة التالـــية. ولكن قبل أن نعي، كانت العاصفة فوقنا تماماً. كانت الريح تنفخ بشـــدة وتهـــزّ الشاحنة بعنف. أما المطر فحجب الرؤية تماماً. ثم بدأ البرق يضرب الأشجار حولنا. أحزمة من البرق نـــزلت من السماء حولنا بحيث صارت الأرض ترتعد، وبعدها انفجرت قمم أشجار الصنوبر شراراً".

راقبها جيرمي وهي تتكلم. كان أطول كلام لها منذ التقيا، وحاول أن يتخيّل حياتها السابقة. كيف كانت في المدرسة الثانوية؟ هل كانت في فريق المشجعات أم إحـــدى الفتـــيات المثقفات اللاتي يمضين فرصة الغداء في المكتبة؟ نعم بالطبع، إنه تاريخ ماضٍ؛ ومن يهتم بالمدرسة الثانوية؟ ولكن حتى الآن، وهي غارقة في بحر من الذكريات، لم يكن قادراً أن يعرف من هي حقاً.

"أراهـــن بـــأنك ارتعبـــت؟ حرارة الصواعق يمكن أن تصل إلى خمسين ألف درجة، هل تعرفين؟ أي عشر مرات أحرّ من سطح الشمس".

ابتسمت بمرح. "لا، لم أعرف ذلك، ولكنك على حق، لم يسبق لي أن خفت كما خفت يومها".

"ماذا حدث؟"

"آه، عـــبرت العاصفة كما الحال مع كل العواصف. وعندما تمالكنا أنفسنا، عدنـــا إلى منازلـــنا. لكني أذكر قبضة راشيل التي أمسكت بيدي بشدة بحيث إن أظافرها أدمت جلدي".

"راشيل؟ تقصدين نفس النادلة في هيربس، أليس كذلك؟"

"نعم، هي نفسها". كتفت ذراعيها، ونظرت إليه، "ماذا فعلت؟ هل حاولت التحرش بك عند الفطور هذا الصباح؟"

انتقل من قدم إلى أخرى. "حسناً، لا أدعوه تحرشاً. هي فقط بدت...شديدة الصراحة".

انفجرت ليكسي ضاحكة. "لا يفاجئني الأمر.. إنها... حسناً... هذه راشيل.

هي وأنا كنا صديقتين مقربتين أثناء الصبا، وما زلت أعتبرها مثل أختي، وأعتقد أني سأنظر إليها كأختي على الدوام. لكن بعد أن ذهبت إلى الكليّة ونيويورك... حسناً، لم تعد الأمور كما كانت بيننا. فلنقل إنها تغيّرت، إذ أعجز عن إيجاد كلمة أدق. لا تسيء فهمي، إنها فتاة جميلة وشديدة المرح، وليس فيها ذرة من الشر، ولكن...".

تخلّفت عن اللحاق بك. قال جيرمي لنفسه وهو ينظر إليها عن قرب. "أنت ترين العالم بشكل مختلف هذه الأيام؟" قال مقترحاً.

تنهدت ليكسي "نعم، على الأرجح".

أجاب جيرمي: "أظن أن ذلك يحدث مع الجميع عندما يكبرون. تكتشفين من أنت وما تريدينه، وبعد ذلك تدركين بأن الناس الذين عرفتهم منذ البداية لا ينظرون إلى الأمور بنفس النظرة. ولذا تبقي الذكريات الرائعة، لكنك تتابعين الطريق. هذا طبيعي جداً".

"أعرف. لكن في بلدة بهذا الحجم، هذا ليس بالسهولة التي تتخيلها. هنا، هناك عدد محدد من الناس في العقد الثالث من العمر وأقل منهم من بقي عازباً. إنه عالم صغير".

أومأ قبل أن يبتسم. "العقد الثالث؟"

تذكّرت فجأة بأنه حاول احتساب عمرها يوم أمس.

"نعم"، قالت بلا مبالاة. "أغدو عجوزاً على ما أظن".

"أو تبقين شابة"، قال محتجّاً. "هكذا أرى نفسي، بالمناسبة. حينما أقلق بشأن الشيخوخة، أرتدي سراويل تظهر أطراف ملابسي الداخلية، وألبس قبّعتي بشكل معاكس، وأتجوّل في مركز التسوّق لأستمع إلى الموسيقى الصاخبة".

أطلقت ضحكة تلقائية وهي تتخيل الصورة. على الرغم من الهواء البارد، أحست بالدفء بعد الاعتراف. الغريب وغير المعقول أنها كانت تتمتّع بصحبته. لم تكن متأكّدة من أنها قد أحبّته حتى الآن. في الواقع، كانت متأكدة بأنها لم تفعل. ومع هذا فقد كافحت لكي تصالح الشعورين اللذين انتاباها. وهذا عنى، بالطبع،

بأن عليها تجنّب الموضوع بأكمله. لامست ذقنها بإصبعها وقالت: "نعم، يمكنني أن أرى ذلك. يبدو عليك أنك تعطي الكثير من الأهمية لموضوع المظهر".

"دون شكّ. وهذا الأمر في الحقيقة، يوم أمس على ما أظن، قد أثار إعجاب الجميع بملابسي، بمن فيهم أنت!"

ضحكت، وفي الصمت الذي تلا، نظرت إليه وسألته: "أعتقد بأنك تسافر كثيراً في مجال عملك، أليس كذلك؟"

"ربما أربع أو خمس سفرات في السّنة، كل منها لفترة أسبوعين".

"هل سبق أن زرت بلدة مثل هذه؟"

"لا، لا أظن. كل مكان أذهب إليه له سحره الخاص، ولكن يمكنني أن أقول بأمانة تامة بأنه لم يسبق أن زرت مكاناً مشابهاً. ماذا عنك؟ أعني، ما عدا نيويورك".

"درست في جامعة شمال كارولينا، في تشابل هيل، وأمضيت الكثير من الوقت في رالاي. كما زرت تشارلوت، أيضاً، عندما كنت في المدرسة الثانوية. وصل فريقنا لكرة القدم إلى البطولة الرسمية في السنة الأخيرة لي في المدرسة، وتستطيع أن تقول إن كل شخص في البلدة تقريباً قام بالرحلة. امتدت قافلتنا أربعة أميال على الطريق السريع. وواشنطن العاصمة، في رحلة ميدانية لما كنت صغيرة. لكن لم يسبق لي أن سافرت إلى ما وراء البحار أو أماكن من هذا القبيل".

وهي تتكلم، خالجها شعور بأن حياتها ستبدو صغيرة بالمقارنة مع حياته. وكما لو أنه قرأ أفكارها ابتسم لها وقال: "ستحبّين أوروبا. الكاتدرائيات، والريف الرائع، وميادين المدن... أسلوب الحياة المرتاح... ستندمجين فوراً".

غطّت ليكسي عينيها. كانت فكرة حلوة، لكن...

نعم، كانت فكرة حلوة، ولكن. هناك *لكن* على الدوام. الحياة تميل إلى المباعدة بين الفرص المثيرة. الحلم لا يتحول إلى حقيقة مع أكثر الناس. الناس مثلها. وكأن بمستطاعها أن تأخذ دوريس معها، أو أن تأخذ إجازة طويلة من عملها في المكتبة. ولماذا كان يخبرها بكل هذا، على أي حال؟ هل ليظهر لها بأنه أوسع اطلاعاً منها؟

مــع ذلك، إن صوتاً آخر بداخلها كان يقول لها بأنه كان يحاول امتداحها. يـــريد أن يقول لها بأنه يعرف بأنها كانت مختلفة، وأكثر اطلاعاً مما يتوقع منها أن تكون، وأنها قادرة على الاندماج في أي مكان تختاره.

"لطالمـــا أردت أن أســـافر". اعترفـــت، وجاهدت لتسيطر على الأصوات المتعارضة في ذهنها. "سيكون شيئاً جميلاً عندما تتاح لي الفرصة".

"بـــالفعل، أحـــياناً. لكن صدّقي أو لا تصدّقي أنّني أستمتع أكثر بمقابلة أناس جدد. وعندما أسترجع في ذهني الأماكن التي زرتها، في معظم الأحيان أرى الوجوه لا الأماكن".

قالـــت: "الآن تـــبدو رومانســـياً. أوه، صعبة هي مقاومة هذا السيد جيرمي مارش. أولاً زير نساء، والآن رجل اجتماعي محب للغير. سافر ولكنه ما زال وطيد الأســـاس، واسع الاطلاع، وما زال يدرك أي الأمور هي المهمة. ودون اعتبار لمن التقى وإلى أين ذهب، لم يكن عندها أدنى شك بأنه يمتلك مقدرة فطرية على جعل الآخرين، وبالأخص النساء يشعرن بأنه قريب منهن. هذه الموهبة بالطبع تعيدها إلى الانطباع الأول الذي كونته عنه.

"ربما أكون رومانسياً". قال، ونظر إليها.

"أتعرف ماذا أحببت في نيويورك؟"سألته لتغيّر الموضوع.

نظر إليها بترقب.

"أحببـــت أن أمـــراً كان يحصل في كل وقت من الأوقات. دائماً هناك أناس يســـرعون على الأرصفة، وسيارات أجرة متسابقة في كل وقت من الأوقات. على الـــدوام كان هناك مكان تذهب إليه، أو حدث تراه، أو مطعم جديد تجربه. كان أمـــراً مـــثيراً، وخصوصاً بالنسبة لشخص مثلي نشأ هنا، كان الأمر كالذهاب إلى المريخ تقريباً".

"لماذا لم تبقي؟"

"ربما كان عليَّ أن أبقى. ولكن نيويورك لم تكن بالمكان المناسب لي. تستطيع أن تقـــول إن الدافـــع الأول الذي ذهب بي إلى هناك قد تغيّر. ذهبت لأكون مع

شخص معيّن".

"آه. إذا لحقت به إلى هناك؟"

أومـــأت. "التقيـــنا في الكليّة. بدا وكأنه... لا أعرف... مثالي، ربما. نشأ في غريــــنـــزبورو، وهو من عائلة جيدة. كان ذكياً ووسيماً جداً. كان وسيماً لدرجة كافـــية تجعـــل المرأة تهمل كل ما يمليه عليها عقلها. نظر إليّ، وكل ما أتذكره أني كنت في طريقي إلى المدينة وراءه. لم أقوَ على المقاومة".

تلوّى جيرمي. "أحقاً ما تقولينه؟"

ابتســـمت في داخـــلها. ما من رجل يريد أن يسمع عن وسامة رجل غيره، خصوصاً إذا كانت العلاقة جدّية.

"كل شيء كان عظيماً لسنة ونيّف. حتى أننا عقدنا خطوبتنا". بدا عليها أنها ضاعت في الماضي قبل أن تأخذ نفساً عميقاً. "استلمت وظيفة متدربة في مكتبة إن واي يو، وعمل إيفيري في وال ستريت. ذات يوم، وجدته في السرير مع زميلته في العمـــل. أدركت أنه ليس الرجل المناسب. جعلني الأمر أدرك بأنه ما كان الرجل الصحيح. حزمت أمتعتي ليلتها وعدت إلى هنا، ولم أرَه بعدها ثانية".

اشـــتد الهواء وأصدر صوتاً مثل الصفير مع اصطدامه بالمنحدرات، وحمل معه رائحة التراب.

"هل أنت جائع؟" سألته لأنها أرادت أن تغيّر الموضوع للمرة ثانية. "أقصد أنه مـــن اللطـــيف التحادث معك هنا، ولكن إذا لم أحصل على بعض الطعام، أصبح حادة الطباع".

"أتضور جوعاً"، قال مجيباً.

عـــادا إلى الســـيارة واقتسما الغداء. فتح جيرمي صندوق البسكويت المملح ووضـــعه على المقعد الأمامي. لاحظ أن المنظر من هذه الزاوية لم يكن خلاباً، ولذا أدار السيارة وصعد بها باتجاه القمة حيث أوقفها بزاوية ملائمة باتجاه البلدة.

"إذاً عدت إلى هنا وبدأت العمل بالمكتبة، و...".

"لا أكثر. هذا ما كنت أفعله طوال السنوات السبع الماضية".

أجرى عملية حسابية سريعة، وقدّر أنها في عامها الحادي والثلاثين.

"أي أصدقاء آخرين منذ ذلك الحين؟"سألها.

قضمت قطعة من البسكويت المملح وألحقتها بقطعة جبن، وتساءلت إذا كان عليها أن تجيبه، ثم قرّرت، ممَّ تخشى، فهو سيغادر على أي حال.

"أوه، بالطـــبع. بضعة أصدقاء هنا وهناك". ثم أخبرته عن المحامي، والطبيب، ومؤخراً رودني هوبر. لم تأتِ على ذكر سيد النهضة.

قال: "حسناً... جيد. تبدين سعيدة".

"نعم". سارعت بالموافقة. "ألست أنت كذلك؟"

"أغلـــب الوقت. بين الحين والآخر، أصاب بمس من الجنون، لكني أعتقد أن ذلك طبيعي".

"وعندها تتحول إلى السراويل ذات الخصر المنخفض لتظهر أطراف ملابسك الداخلية؟"

"تمامـــاً"، وأرفـــق قوله بابتسامة. أمسك حفنة من البسكويت المملح ووضع بعضـــها على ساقه، ثم بدأ بإضافة الجبن عليها. نظر إليها بجدّية، "هل لي أن أطرح سؤالاً شخصياً؟ لست مضطرة للإجابة. بالطبع، لن آخذ الأمر محمل على الجد إذا رفضت الإجابة. صدقيني، أنا فضولي فحسب".

"تعني، أكثر شخصية من مشاركتك بأخبار أصحابي السابقين؟"

هـــزّ كتفـــيه بلا مبالاة خجولة، وتخيلت كيف كان شكله وهو ولد صغير: هـــزيل، وجـــه ناعم، وخصلات شعره على وجهه، وثيابه متسخة من اللعب في الخارج.

قالت: "هيا بنا، اطرح سؤالك".

ثبت عينيه على كأس الفاكهة الذي يحمله وهو يطرح السؤال، متفادياً التقاء نظراتهما. "عندما وصلنا إلى هنا، أشرت لي إلى منـــزل جدتك وقلت إنك نشأت هناك".

أومأت. تعجَّبت حين طرح هذا السؤال.

"نعم بالفعل".

"لماذا؟"

أنـــزلـــت نافذة السيارة. دفعتها العادة إلى البحث عن الطريق السريع الذي يخرج من البلدة. عندما رأت الطريق، تكلّمت بهدوء.

"كـــان أبـــواي في طريق العودة من باكستون، هناك على الضفة الأخرى. تـــزوجا هناك، وكانا يمتلكان كوخاً صغيراً على الشاطئ في ذلك المكان. الوصول إلى هـــناك مـــن هنا شديد الصعوبة، لكن أمّي أقسمت بأنه كان المكان الأجمل في العالم، ولذا اشترى أبي مركباً صغيراً لكي لا يضطرا لاستعمال العبارة للوصول إلى هـــناك. كان الكوخ ملجأهما الصغير. هناك منارة جميلة يمكن أن تراها من الشرفة، وبـــين الحين والآخر، أذهب إلى هناك، أيضاً، مثلما فعلا، فقط للابتعاد عن كل ما حولي".

ارتسمت شبه ابتسامة على شفتها قبل أن تتابع حديثها. "على أي حال، أثناء عودهمـــا تلـــك الليلة، تعب أبواي. يستغرق الوصول إلى هناك ساعتين حتى دون اســـتعمال العبارة، وأعتقد أنه في طريق العودة إلى المنـــزل، غطّ أبي في النوم أثناء القـــيادة ووقعت السيارة عن الجسر. وعندما وجدت الشرطة السيارة وسحبتها في الصباح التالي، وجدوهما ميتين".

حـــافظ جيرمـــي على هدوئه للحظة. "حادثٌ فظيع"، قال أخيراً. "كم كان عمرك وقتها؟"

"كان عمري عامين. كنت أمضي الليل عند دوريس. وفي اليوم التالي، ذهبت إلى المستشـــفى مع جدي. عندما عادا أخبراني أني سأبقى عندهما من الآن فصاعداً، وهكذا كان. الغريب في الأمر أني أعرف ما حصل، ولكنه لا يبدو أنه حقيقي. لم أشـــعر بأني فقدت أهلي أثناء نشأتي. كان جدّاي بالنسبة لي مثل الآباء الآخرين، باســـتثناء أني كنـــت أدعوهما باسميهما الأولين". ابتسمت. "بالمناسبة، تلك كانت فكـــرتهما. أظـــن بأنهمـــا لم يريداني أن أعتبرهما مثل جدّي لأنهما كانا يربيانني، ولكنهما لم يكونا أبويّ في الوقت نفسه".

عـــندما انتهت، نظرت إليه ولفتها أن كتفيه كانتا تملأان قميصه، ونظرت إلى

الغمازة في ذقنه مرة ثانية.

قالــت: "الآن دوري لطــرح الأسئلة. تكلّمت كثيراً، وأنا أعرف بأن حياتي تبدو مملة بالمقارنة مع حياتك. ليس أبواي بالطبع، ولكن حياتي هنا".

"لا، ليست مملة على الإطلاق. إنها مثيرة.. تشبه قراءة كتاب جديد... عندما تقلب الصفحات وتواجه حدثاً غير متوقّع".

"استعارة موفقة".

"فكرت بأنك ستعجبين بها!"

"ماذا عنك؟ ماذا دفعك لتصبح صحفياً؟"

بدأ في الدقائق التي تلت سؤالها بإخبارها عن سنوات الكليّة، وعن خططه بأن يصبح أستاذاً، ومجرى الأحداث الذي أتى به إلى هذه النقطة.

"قلت لي إن لديك خمسة إخوة".

أومأ. "خمسة إخوة أكبر سنّاً. أنا الطفل الأصغر في العائلة".

"لسبب ما، لا أستطيع أن أتخيلك مع إخوة".

"ولماذا؟"

"تبدو لي مثل طفل وحيد".

هزّ رأسه. "من المؤسف أنك لم ترثي القدرات الروحية لبقيّة عائلتك".

ابتســمت قبل أن تدير وجهها. في السماء، شاهدت صقوراً حمراء تحوم فوق الــبلدة. وضعت يدها على النافذة، وأحسّت بالبرد ينتقل من الزجاج إلى جلدها.

"مئتان وسبعة وأربعون"، قالت.

نظر إليها. "اعذريني".

"إنه عدد النساء اللاتي زرن دوريس لاكتشاف جنس أطفالهن. نضجت وأنا أراهــن يجلســن في المطبخ يتبادلن الأحاديث مع جدتي. المضحك أنني حتى الآن يمكــنني أن أتذكّر هذه النظرة التي تجمعهن: البريق في عيونهن، الوهج الجديد على جلدوهــن، وحماسهن الحقيقي. هناك بعض الحقيقة في حكايات النساء العجائز أن

النسوة الحوامل يتوهجن بطريقة مميزة، كما أذكر أنني كنت أريد أن أشبههن عندما أكبر. كانت دوريس تتكلّم معهن لفترة لتتأكد إن كن يردن حقاً أن يعرفن جنس المولــــود، وبعد ذلك تمسك بأيديهن وتصبح هادئة جداً فجأة. لم يبدُ على أي من النســـاء مظاهــــر الحمل، وبعد بضع ثوانٍ تقوم بتصريحها". أطلقت ليكسي نفساً ناعمـــاً. "وكانـــت تصـــيب في كل مرّةً. مئتان وسبع وأربعون امرأة استشرنها، وأصـــابت مئتين وسبع وأربعين مرة. أبقت دوريس أسماءهن في دفتر، ودونت كل التفاصـــيل بداخله، بما فيها تواريخ الزيارات. يمكنك أن تتأكد من الأمر لو أردت، ما زالت تحتفظ بالدفتر في مطبخها".

حـــدّق جيرمـــي فـــيها دون أي تعبير على وجهه. قال لنفسه إن ما تقوله مســـتحيل، ومجرد حظ إحصائيّ. ومع أن الرقم يتعدى المقول إحصائياً، إلا أنه لا يعدو كونه مجرد حظ. أما دفتر الملاحظات فعبارة عن دفتر لتسجيل التخمينات التي أصابت.

"أعـــرف مـــا تظنه، ولكن يمكنك أن تتأكّد منه في المستشفى أيضاً. أو من النســـاء. كما يمكن أن تسأل أي شخص تريد لتتأكد إن هي أخطأت يوماً. لكنها لم تفعل. حتى الأطباء في البلدة سيخبرونك بكل ثقة أنها تمتلك هبة مميزة".

"هل فكرت أبداً أنها ربما كانت تعرف أحداً يجري الفحوصات بالأشعة فوق السمعية؟"

أصرّت، "لم يكن هذا الحال".

"وكيف تعرفين بالتأكيد؟"

"لأنها توقفت عن إخبار النساء عندما وصلت التقنية إلى البلدة أخيراً. لم يعد هـــناك ســـبب لمجيء النساء إليها في الوقت الذي صار بمقدورهن أن يرين صورة الجـــنين بأنفسهن. بدأت زيارات النساء بالتباطؤ تدريجياً، والآن ربما تأتيها امرأة أو اثنـــتان في الســـنة، في العادة يأتيها أشخاص من الأرياف والذين لا يمتلكون تأميناً طبياً. بإمكانك القول إن قدراتها ليست موضع طلب شديد هذه الأيام".

"والتبصير؟"

قالــت: "الشــيء نفســه، لم يعد ثمة طلب كثير لمهاراتها. يقع كامل القسم الشــرقي من الولاية على خزان مائي كبير. يمكنك أن تحفر بئراً في أي مكان وأن تجــد ماءً هناك. لكن عندما كانت تعيش في مقاطعة كوب، جورجيا أثناء شبابها، كــان المزارعون يأتون إلى منــزلها يستجدون مساعدتها، خصوصا أثناء الجفاف. وبالرغم من أنها لم تتعدَّ الثماني أو التسع سنوات من العمر، كانت تجد الماء في كل مرّة".

قال جيرمي: "مثير".

"أعتقد بأنك لم تقتنع".

تحرك في مقعده. "هناك تفسير في مكان ما. هناك تفسير دائماً".

"هل تؤمن بالسحر من أي نوع؟"

"لا".

قالت: "مؤسف، لأنه أحياناً يكون حقيقياً".

ابتسم. "جيّد، ربما سأجد ما سيغيّر رأيي بينما أنا هنا".

ابتســمت أيضــاً. "وجدتــه بــالفعل، ولكنك شديد العناد لدرجة أنك لا تصدق".

بعد أن انتهيا من غدائهما الخفيف، أدار جيرمي السيارة وبدأ النــزول خلفياً عــن تل ريكر. سقطت العجلات الأمامية على ما يبدو في كل الأخاديد والحفر. كما علا صوت الصرير. وفي الوقت الذي وصلا به إلى أسفل التل، كانت مفاصل جيرمي بيضاء على عجلة القيادة من شدة الضغط.

سلكا نفس الطريق الذي جاءا منه، مروراً بمقبرة سيدر كريك. وجد جيرمي نفســه يــنظر إلى قمــة تل ريكر، وعلى الرغم من المسافة، أمكنه أن يحدد مكان توقفهما.

"هل عندنا وقت لرؤية مكانين آخرين؟ أود أن أمر بالمارينا، وبمصنع الورق، وربما بجسر سكة الحديد".

قالت: "عندنا وقت. طالما لن نبقى طويلاً في كل مكان، كلها تقريباً في نفس

المنطقة".

بعد عشر دقائق، توقف جيرمي عند إشارة ليكسي. كانا في الطرف البعيد من البلدة، على بعد بضعة مبانٍ من هيربس، وقرب الممر الخشبي الذي امتدّ على طول واجهة النهر. يقارب عرضُ نهر باملیکو الميل تقريباً، وتتدفق مياهه بغضب، وتتموّج التيارات لتشكل رؤوساً بيضاء تتسارع مع التيار. على الضفة البعيدة من النهر، قرب جسر سكة الحديد، برزت مباني مصنع الورق الضخمة، وسحب من الدخان تنفثها مداخن ضخمة.

تمدّد جيرمي عندما خرج من السيارة، وكتفت ليكسي ذراعيها. واحمرّ خدّاها من البرد.

سألت: "الطقس يميل نحو البرودة، أم أني أتخيل البرد؟"

"إنها برودة جميلة"، قال موافقاً. "يبدو الطقس أبرد مما كان فوق القمة، لكن ربما نحن فقط قد تعوّدنا على المدفأة في السيارة".

كافح جيرمي من أجل اللحاق بها لما بدأت بالمشي على الممر الخشبي. وأخيراً أبطأت ليكسي وتوقّفت لتتكئ على الجدار فيما حدّق جيرمي في جسر سكة الحديد. أقيم الجسر على مستوى عالٍ فوق النهر لعبور المراكب الكبيرة، وكانت العوارض الفولاذية تتقاطع عليه وكأنه جسرٌ معلّق.

قالت: "لم أعرف كم أردت أن تقترب من المكان. لو كان عندنا وقت أكثر، كنت سآخذك عبر النهر إلى مصنع الورق، ولكن الأرجح أنك ستحصل على منظر أفضل من هنا". ثم أشارت نحو الطرف الآخر للبلدة. "المارينا هناك، قرب الطريق السريع. يمكنك أن ترى أين ترسو كل تلك السفن الشراعية".

أومأ جيرمي. لسبب ما، كان يتوقّع شيئاً أعظم.

"هل يعقل أن المراكب الكبيرة تتمكن من الرسو هناك؟"

"أعتقد ذلك. تتوقّف بعض اليخوت الكبيرة من نيو بيرن لعدة أيام أحياناً".

"وماذا عن مراكب نقل البضائع؟"

"هي أيضاً. النهر عميق بما فيه الكفاية ليسمح بعبور مراكب نقل الأخشاب

الكـــبيرة، ولكـــنها في العادة تتوقف على الضفة الأخرى. هناك"، وأشارت إلى ما يشبه خليجاً صغيراً، "الآن، يمكنك أن ترى اثنين منها هناك محمّلين بالكامل".

لحق بنظرهما، ثم استدار ليقيس المواقع. بدا أن تل ريكر البعيد، وجسر السكة الحديدي، والمصنع مصطفون بشكل مثالي. صدفة؟ أو أنها ليست بالصدفة المهمة؟ حـــدّق باتجاه مصنع الورق، مخمناً إذا كانت أعلى المداخن تضاء في الليل. عليه أن يتحرى عن ذلك.

"هـــل يشحنون كل الأخشاب بالمراكب، أو هل تعرفين إن كانوا يستعملون سكة الحديد أيضاً؟"

"لأصدقك القول. لم ألاحظ أبداً، أنا متأكّدة بأنه من السهل معرفة الجواب".

"هل تعرفين عدد القطارات التي تستعمل الجسر الحديدي؟"

"مـــرة أخـــرى، لست متأكّدة. أحياناً أسمع الصافرة في الليل، وأنا أضطر أن أتوقف أكثر من مرّة في البلدة أثناء عبور القطارات، ولكني لا أستطيع أن أقول لك العدد بالتحديد. ما أعرفه هو أنهم يقومون بالكثير من الشحنات من مصنع الورق. في الحقيقة القطار يتوقف هناك".

أومأ جيرمي وهو يحدّق بالجسر الحديدي.

ابتســـمت ليكسي وتابعت. "أعرف بماذا تفكر. أنت تظن بأن الأضواء تلمع أثناء مرور القطار على الجسر الحديدي، وأنها هي التي تتسبّب بالأنوار، صحيح؟"

"خطرت لي الفكرة".

"إذاً، ليس هذا هو السبب". قالت، وهزّت رأسها.

"هل أنت متأكّدة؟"

"في اللـــيل، تتوقف القطارات في ساحة مصنع الورق لكي تحمّل بالبضائع في اليوم التالي. ولذا فإن أضواء القاطرة تنير بالاتجاه المعاكس، بعيداً عن تل ريكر".

فكـــر بما قالته وهو يلحقها إلى الجدار. طار شعرها في الريح، مما أضفى عليها مظهراً وحشياً. أدخلت يديها في جيبـــي سترتها.

علّق قائلاً: "يمكنني أن أرى لماذا تحبين هذا المكان".

استدارت لتستند ظهرها على الجدار، وحدّقت باتجاه البلدة. الدكاكين الصغيرة اللطيفة مزينة بالأعلام الأميركية، عمود دكان حلاق، منتزه صغير على طرف الممشى الخشبي. على الرصيف، تحرّك المشاة جيئة وذهاباً إلى داخل المؤسسات حاملين أكياس التسوّق. وعلى الرغم من البرد، لم يبدُ أن أحداً يسرع هرباً من الطقس.

"حسناً، يجب أن أعترف، إنها تشبه نيويورك كثيراً".

ضحك. "هذا ليس ما قصدته. ما قصدته بأن أبويّ كانا ليحبا أن يربيا أطفالهما في مكان مثل هذا. بحدائقه الواسعة، والغابات الخضراء الكبيرة، وأماكن اللعب. وكذلك وجود نهر للسباحة في فصل الصيف. لا بد وأن الحياة هنا كانت... شاعرية".

"وما زالت. وذلك ما يقوله الناس حول الحياة هنا".

"يبدو أنك كنت سعيدة هنا".

للحظة، بدت حزينة. "نعم، لكني ذهبت إلى الكليّة كما لا يفعل الكثيرون في هذه الأنحاء. إنها مقاطعة فقيرة، والبلدة تكافح منذ إغلاق معمل النسيج ومنجم الفوسفور. الكثير من الآباء لا يعلقون آمالاً كبيرة على التعليم. ومن الصعب أحياناً إقناع بعض الشبان بأن الحياة أكثر من مجرد العمل في مصنع الورق على الضفة الأخرى. أنا أعيش هنا لأني أريد العيش هنا. اتخذت قراري. أما الكثيرون فيبقون ببساطة لأنه من المستحيل عليهم أن يغادروا".

"إن ذلك يحدث في كل مكان. لم يرتَد أي من إخوتي الكليّة، لذا كنت حالة شاذة لأنني تمكنت من التحصيل العلمي. أبواي من أفراد الطبقة العاملة وعاشا في كوينز طوال حياتهما. أبي كان سائق حافلة في المدينة. أمضى أربعين عاماً من حياته جالساً وراء مقود إلى حين تقاعد أخيراً".

ضحكت. "ذلك مضحك. أمس تصورتك من الجانب الشرقي الأعلى لنيويورك. تعرف، مع بوّاب يحيّيك بالاسم، ومدارس تمهيدية، ووجبات العشاء من خمسة أصناف، وكبير خدم يعلن عن وصول الضيوف".

ارتدّ متظاهراً بالرعب. "أولاً طفل وحيد والآن هذا؟ تخامرني الشكوك بأنك ترينني طفلاً مدللاً".

"لا، ليس مدللاً... بل...".

"لا تقوليها". قال رافعاً يديه. "أفضّل ألا أعرف. خصوصاً أنها ليست حقيقية".

"وهل عرفت ما كنت سأقول؟"

"لأنك أطلقت عليَّ وصفين حتى الآن لم يكن أي منهما دقيقاً".

زمّت شفتيها بعض الشيء. "آسفة. لم أقصد".

قال مكشراً: "نعم، لقد فعلت". ثم استدار وأسند ظهره على الحاجز الحديدي. لسع النسيم وجهه. "لكن لا تقلقي، لن آخذ الأمر بصفة شخصية. خاصة وأني لست بذلك الطفل الغني الفاسد".

"لا. أنت صحفي موضوعي".

"بالضبط".

"ومع ذلك فإنك ترفض أن يكون عندك عقل منفتح حول أي أمر غامض".

"بالضبط".

ضحكت. "وماذا عما يقال عن الغموض الذي يكتنف النساء؟ ألا تؤمن بذلك؟"

"أوه، أعرف أنها مقولة حقيقية". قال وهو يفكر بها بشكل خاص. "لكنه أمر مختلف عن الاعتقاد بإمكانية الانشطار البارد".

"لماذا؟"

"لأن النساء لغز شخصي، ولسن سرّاً موضوعياً. لا تستطيعين قياس أي شيء عنهن علميّاً، على الرغم من أنه - بالطبع - هناك اختلافات وراثية بين الأجناس. تبدو النساء غامضات بعيون الرجال لأنهن لا يدركن أن الرجال والنساء يريان العالم بشكل مختلف".

"وهل هم كذلك؟ هاه؟"

"بالتأكيد. وهذا يرجع إلى التطور وأفضل الوسائل للحفاظ على النوع".

"وهل أنت خبير بالأمر؟"

"عندي قليل من المعرفة في هذا المجال، نعم".

"ولذا تعتبر نفسك خبيراً بأمور النساء، أيضاً؟"

"لا، ليس في الواقع. أنا خجول، هل تذكرين؟"

"نعم، أذكر. ولكن، إني لا أصدقك".

كتف ذراعيه. "دعيني أحزر... هل تعتقدين بأني أعاني من مشاكل بما يختص بالالتزام؟"

نظرت إليه. "باختصار، ربما".

ضحك. "ماذا يمكنني أن أقول؟ الصحافة الاستقصائية عالم فاتن، وهناك جحافل من النساء اللاتي يشتقن لكي يكنّ جزءاً منه".

رفعت عينيها. "أرررجوك، لا تظننَّ نفسك نجماً سينمائيّاً ومغنيّاً في فرقة روك. إنك تكتب لمجلة ساينتيفيك أميركان".

"و؟"

"حسناً، قد أكون من الجنوب، لكن رغم ذلك، لا أستطيع تخيّل أن مجلتك غارقة في بحر من المعجبات".

حدّق فيها بانتصار. "أعتقد أنك ناقضت نفسك للتو".

رفعت حاجباً. "تعتقد بأنك ذكي جداً، سيد مارش، أليس كذلك؟"

"أوه، هل عدنا إلى لقب السيد مارش الآن؟"

"ربما. أنا لم أجزم قراري حتى الآن". دسّت شعرها الطائر وراء أذنها. "لكنك أغفلت أنه ليس من الضروري أن تحيط بك المعجبات لكي... تجد طريقك. كل ما تحتاج إليه هو أن تجد المكان الصحيح من بين سائر الأماكن، وأن تصبّ بعض السحر".

"وهل ترينني ساحراً؟"

"أنا أقول إن بعض النساء يجدنك ساحراً".

"لكن ليس أنتَ".

"نحن لا نتحدّث عنّي. نحن نتحدّث عنك، والآن أنت تعمل ما بوسعك لتغيّر الموضوع. ومن المحتمل أني على حق ولكنك لا تريد الاعتراف".

حدّق فيها بإعجاب. "أنت ذكية جداً، آنسة دارنيل".

أومأت. "سمعت ذلك".

"وساحرة"، أضاف مؤكداً.

ابتسمت له، ثم نظرت بعيداً. نظرت إلى الممشى الخشبي، ثم إلى الشارع نحو البلدة، ثم إلى السماء قبل أن تتنهّد. قرّرت أن تمتنع عن الردّ على إطرائه. مع هذا، أحسّت بتورد خدّيها.

وكما لو أنه قرأ رأيها، غيّر جيرمي الموضوع. بدأ قائلاً: "ماذا سيحصل في عطلة نهاية الأسبوع هذه. كيف ستكون الأمور؟"

"ألن تكون هنا؟"

"من المحتمل. لبعض الوقت على أي حال. لكني أردت أن أعرف رأيك بها".

"تقصد، عدا عن أنها تحيل حياة الكثير من الناس إلى جنون لبضعة أيام؟... إنها... مطلوبة في هذا الوقت من السنة. تمرّ بك عطلات الأعياد بسرعة، وبعد ذلك يعمّ الهدوء حتى فصل الربيع. وفي هذه الأثناء، الطقس بارد ورمادي وممطر... منذ سنوات عديدة، قرّر أعضاء المجلس البلدي أن يطلقوا جولة البيوت التاريخية. ومنذ ذلك الحين، أضافوا المزيد من الاحتفالات إلى عطلة نهاية الأسبوع على أمل تحويلها إلى عطلة نهاية أسبوع خاصة. هذه السنة وقع الاختيار على المقبرة، والسنة الماضية على الاستعراض، والسنة التي قبلها على حفلة الإسطبل الراقصة ليلة الجمعة. الآن أصبحت جزءاً من تقاليد البلدة، ولذا فإن أغلب الناس الذين يعيشون هنا يتطلّعون إليها بلهفة". التفتت إليه. "ومع أن بلدة صغيرة مثل بلدتنا تبدو سهلة النسيان، فهي في الحقيقة مكان مرح".

استغرق جيرمي بالنظر إليها وهي تتكلم، ثم رفع حاجبيه عندما تذكر رقصة الإسطبل من الدليل السياحي. "هل يقيمون حفلة راقصة؟"سألها مدّعياً الجهل بالأمر.

أومأت. "ليلة الجمعة. في إسطبل ماير للتبغ وسط البلدة. إنه احتفال صاخب فعلاً، مع فرقة موسيقية تعزف الموسيقى الحية وما شابه. إنها الليلة الوحيدة في السنة التي ستجد فيها لوكيلو خاوية تقريباً".

"حسناً، إذا حدث وذهبت، ربما ترقصين معي".

ابتســمت قــبل أن ترمقه بنظرة تقارب إلى حدّ الإغراء. "دعني أخبرك. إذا حللت اللغز قبل موعد الحفلة، سأرقص معك".

"تعدينني؟"

قالت: "أعدك، لكننا اتفقنا على أنه يجب عليك أن تحلّ اللغز أولاً".

قــال: "حســناً، لا أستطيع الانتظار. وعندما يتعلق الأمر برقصات الليندي والفوكــس تروت..." هزّ رأسه، وسحب نفساً عميقاً. "حسناً، كل ما يمكنني أن أقوله هو أنني أتمنّى أن تكوني قادرة على المتابعة".

ضحكت. "سأفعل ما بوسعي".

كتّفــت ذراعيها، ثم نظرت إلى إخفاق الشمس في اختراق الظلام، وقالت: "الليلة".

عبس. "الليلة؟"

"سترى الأنوار الليلة. إذا ذهبت إلى المقبرة".

"كيف عرفت؟"

"الضباب سيحلّ الليلة".

تبع نظرتها. "كيف تعرفين؟ لا يبدو لي أن هناك فرقاً".

"انظر إلى النهر خلفي. اختفت أعلى مداخن مصنع الورق وراء الغيوم".

"نعم، بالفعل..." قال متابعاً حديثها.

"استدر وانظر. سترى بنفسك".

استدار ونظر، ودرس محيط مصنع الورق وقال: "معك حق".

"بالطبع معي حق".

"أظن بأنك استرقت النظر عندما لم أكن منتبهاً، هاه؟"

"لا. عرفت فحسب".

"آه، أحد تلك الألغاز الغريبة ثانية؟"

دفعـــت نفســـها بعيداً عن الجدار وقالت: "إذا كان هذا ما تريد أن تدعوه، ولكـــن هـــيا بـــنا، لقد تأخر بنا الوقت ويجب أن أعود إلى المكتبة. عليَّ أن أقرأ للأطفال بعد ربع ساعة".

بيـــنما شـــقّا طريقهما عائدين إلى السيارة، لاحظ جيرمي بأن قمة تل ريكر كانـــت قد اختفت أيضاً. ابتسم، وعرف كيف قامت بخديعتها الصغيرة. شاهدت الضـــباب هـــناك، وعلمت بأن الأمر نفسه يحدث على الضفة الأخرى من النهر. خدعة لطيفة.

"حسناً، أخبريني". قال وهو يحاول جاهداً لإخفاء ابتسامته، "بما أنك تمتلكين مواهب مخفيّة، كيف أمكنك التأكد بأن الأنوار ستظهر هذه الليلة بالذات؟"

استغرقت لحظة للإجابة.

"هكذا".

"حسناً، أظن أننا اتفقنا. ربما يجب أن أتوجّه إلى هناك، أليس كذلك؟" وحالما تكلّم، تذكّر العشاء الذي يفترض أن يحضره، وأجفل فجأة.

سألته محتارة: "ماذا؟"

"أوه، رئيس البلدية يقيم عشاء يضم بضعة أشخاص يريدني أن ألتقيهم. تجمّع صغير نوعاً ما".

"لك؟"

ابتسم. "ماذا؟ هل تأثرت؟"

"لا، بل فوجئت".

"لماذا؟"

"لأني لم أسمع عن العشاء".

"اكتشفت الأمر هذا الصباح فقط".

"مع ذلك فإنها مفاجئة. لكني لن أقلق من عدم رؤية الأنوار، حتى ولو ذهبت

إلى عشاء رئيس البلدية. الأنوار لا تظهر إلا في وقت متأخر. وعليه سيكون عندك الكثير من الوقت".

"هل أنت متأكّدة؟"

"لأني عندما شاهدتها، كان الوقت قرابة منتصف الليل".

توقّف مكانه. "انتظري! هل رأيت الأنوار؟ لم تذكري لي ذلك".

ابتسمت. "لأنك لم تسأل".

"تستمرّين بترداد هذه المقولة".

"حسناً، يا سيدي الصحفي، لأنك ما تنفك تنسى أن تسأل".

الفصل الثامن

في الطرف الآخر للبلدة، في مطعم هيربس، جلس نائب الشريف رودني هوبر محدّقاً بكوب القهوة، متسائلاً أين بحق الله اختفت ليكسي وولد المدينة؟

أراد أن يفاجـئ ليكسي في المكتبة ويخرج معها للغداء لكي يعلم ابن المدينة حدوده. ربما كانت ستدعه يرافقها حتى السيارة بينما يراقبهما ابن المدينة والحسد يأكله.

أوه، إنه يعرف بالضبط ماذا يرى ابن المدينة في ليكسي. لا يمكنه إلا أن يراه. اللعـنة، من المستحيل ألا يلاحظ، فكر رودني. كانت أجمل امرأة في المقاطعة، أو ربما الولاية، أو ربما في العالم بأسره.

في العـادة، لا يقلق من كل رجل يدخل إلى المكتبة، و لم يقلق عندما سمع عن ابـن المديـنة في أول مرة. ثم بدأ يسمع كل أولئك الناس يتهامسون حول الغريب الجديـد في البلدة، وأراد أن يتحقق بنفسه. وكانوا على حق. لم يحتج إلى أكثر من نظـرة واحـدة ليرى مظهر ابن المدينة الذي يعكسه ذاك الرجل. من المفترض أن يكـون الـرجال الذين يأتون إلى المكتبة بغرض البحث مسنين وشاردي الذهن، يضـعون نظارات القراءة، ومتهالكين، ومرهقين. ولكن ليس هذا الرجل؛ لا، إنه يـبدو وكأنه خرج للتو من صالون التجميل. وحتى هذا لم يكن ليضايقه، باستثناء أنه الآن يطوف بليكسي في مكان ما حول البلدة، وحدهما.

عبس رودني. أين هما؟ أراد أن يعرف مكانهما، على أي حال؟

لم يأتيا إلى هيربس، ولا إلى مطعم بليك. لا، لقد تفقد مواقف السيارات و لم يعثر على دليل. ربما كان عليه أن يدخل إلى الداخل ويطرح بعض الأسئلة، ولكن عـلى الأغلـب سينتشـر الحديث، لذا الفكرة ليست موفقة. كل أصدقائه كانوا يستمتعون بمضايقته بموضوع ليكسي، بالأخص إذا ما ذكر أنهما سيخرجان معاً في

موعد. كانوا ينصحونه أن ينساها، ويقولون إنها ما كانت تمضي الوقت معه إلا من باب الكياسة، ولكنه لا يوافقهم الرأي. كانت ترضى بالخروج معه في كل مرة يطلب منها ذلك، أو في أغلب الأحيان. لم تقبّله بعد ذلك، ولكن ليس هذا بيت القصيد. سيصبر، وسيأتي اليوم الذي ينتظره. في كل مرة يخرجان فيها معاً، كانا يقتربان رويداً رويداً من تحويل علاقتهما إلى علاقة جدّية. شعر بدنو الحل. أما رفاقه، فلا بد بأنهم كانوا يغارون منه.

كان يتمنى لو أن دوريس تعرف مكانهما، ولكنها للمصادفة لم تكن موجودة هي الأخرى. قالوا إنها ذهبت إلى مكتب المحاسب، وبأنها ستعود بعد وقت قليل. وهذا بالطبع لا يفي بالغرض، لأن فرصة غدائه شارفت على الانتهاء، وليس بمقدوره الجلوس والانتظار مطولاً. عدا عن أنها وعلى الأغلب ستنفي معرفة أي معلومة عن ابن المدينة. سمع بأنها معجبة به. أليس مميزاً؟

قالت راشيل: "عفواً، عزيزي؟ هل كل شيء على ما يرام؟"

نظر رودني إلى الأعلى ورآها تحمل إبريق القهوة.

"لا شيء، راشيل، فقط أحد تلك الأيام".

"الرجال الأشرار يتعبونك!"

أومأ رودني. "أمر من هذا القبيل".

ابتسمت وأضاء جمالها، ومع ذلك فلم يبدُ أن رودني قد لاحظ. إنه ينظر إليها وكأنها أخته منذ زمن طويل.

قالت مطمئنة: "حسناً، ستسير الأمور نحو الأحسن".

أومأ. "ربما تكونين على حق".

زمّت شفتيها. إنها تقلق أحياناً على رودني.

"هل أنت متأكد بأنك لا تريد أن تتناول لقمة سريعة؟ أعرف أنك مستعجل ويمكنني أن أطلب منهم أن يحضروا الطعام بسرعة".

"لا. لست جائعاً. عندي بعض من مسحوق البروتين في السيارة لأتناوله لاحقاً. سأكون على ما يرام". ثم رفع كوب القهوة. "إلا أن المزيد من القهوة سيكون رائعاً".

"بكل تأكيد"، قالت وملأت الكوب.

"آه، هل حدث أن رأيت ليكسي، ربما مرت إلى هنا لتأخذ بعض الطعام؟"

هـــزّت رأسها. "لم أرَها طوال النهار. هل مررت بالمكتبة؟ يمكن أن أتّصل بها إلى هناك لو أردت".

"لا، ليس ضرورياً".

جالـــت حول الطاولة، وكأنها تتوقع استمراراً للمناقشة. "رأيتك جالساً مع جيرمي مارش هذا الصباح".

"من؟" سألها رودني مدّعياً البراءة.

"الصحفي من نيويورك. ألا تذكر؟"

"أوه، نعم. أردت فقط أن أعرّفه بنفسي".

"شاب وسيم، أليس كذلك؟"

قال بحزم: "أنا لا ألاحظ إن كان الرجال الآخرون وسيمين".

"حسناً، إنه وسيم فعلاً. يمكنني أن أنظر إليه طوال النهار. أعني، ذلك الشعر. يجعلني أريد أن أمرّر أصابعي به. الجميع يتحدّث عنه".

"عظيم"، غمغم رودني، وزاد شعوره بالمرارة.

قالت بفخر: "دعاني إلى نيويورك".

عـــند سماعها، نظر إليها رودني، متسائلاً إن كان قد سمع ما سمعه للتو. "هل فعل؟"

"حســـناً، نوعاً ما على أي حال. قال بأني يجب أن أزورها، ومع أنه لم يقدم دعوة مباشرة، أعتقد أنه طلب مني زيارته".

"حقاً؟ ذلك عظيم، راشيل".

"ما رأيك به؟"

تململ رودني في مقعده. "لم نتكلم كثيراً".

"أوه، ليـــتك فعلـــت. إنه مثير جداً وذكي جداً. وذلك الشعر. هل ذكرت

شعره؟"

"نعـــم"، قال رودني، وارتشف جرعة أخرى من قهوته، محاولاً أن يضع حدّاً للأفكـــار المتصارعة داخل رأسه. هل دعا راشيل حقاً إلى نيويورك؟ أم هل دعت راشيل نفسها؟ لم يكن أكيداً. إنه يعرف كيف يمكن لولد المدينة أن يجدها جذابة، وهو بالتأكيد من النوع الذي قد يحاول إغراء امرأة، ولكن راشيل تميل إلى المبالغة، والأهـــم أن ليكســـي وولد المدينة في مكان ما في البلدة دون أثر. هناك خلل في الصورة، أليس كذلك؟

تهـــيأ للوقوف. "حسناً، اسمعي، إذا رأيت ليكسي، أخبريها أني سألت عنها، موافقة؟"

"بالتأكيد، هل تريدني أن أضع قهوتك في كوب ورقي تأخذه معك؟"

"لا، شكراً. أشعر بالحرقة من كثرة القهوة".

"أوه، يـــا مســـكين. أعتقد أن عندنا دواء للحرقة في الخلف. هل تريدني أن آتيك بقليلٍ منه؟"

"ســـأكون صادقاً". قال وهو ينفخ صدره ويحاول استعادة المظهر الرسمي مرة ثانية، "لا أظن أن الدواء سيفيدني".

في مكان آخر من البلدة، خارج مكتب المحاسب، سارع رئيس البلدية غيركن الخطى ليلحق بدوريس صائحاً: "أنت المرأة التي كنت أود رؤيتها".

التفتت دوريس ورأت غيركن يقترب منها بسترته الحمراء وسرواله المخطط. ســـألت نفسها إن كان هذا الرجل مصاباً بعمى الألوان. يبدو شكله مضحكاً في أغلب الأحيان.

"كيف لي أن أساعدك، توم؟"

"حســـناً، لا شـــك بأنك قد سمعت بأننا نعد أمسية خاصة لضيفنا، جيرمي مارش. إنه يكتب قصّة كبيرة كما تعرفين، و...".

أنهت دوريس القصة معه بعقلها ورددت نفس الكلمات معه.

"... تعرفين أهمية هذه القصة للبلدة".

"نعم، سمعت، وبالأخص لأعمالك التجارية".

"أفكّر بالمجتمع هنا بأكمله"، قال متجاهلاً تعليقها. "لقد أمضيت الصباح بأكمله في الترتيبات لكي يكون كل شيء على أحسن وجه. لكني أمل أن تكوني راغبة بمساعدتنا في إعداد بعض الطعام".

"تريدني أن أقوم بتحضير الطعام؟"

"طبعاً ليس من باب الصدقة. البلدة ستكون أكثر من سعيدة لدفع التكاليف. نخطط لإقامة الأمسية في مزرعة لوسون القديمة خارج البلدة. تكلّمت مع أصحاب المكان، وقالوا إنه سيسعدهم السماح لنا بإقامة الحفل. أظن أنه سيكون عندنا عدد تجمع صغير، ويمكننا أن نعتبره إطلاقاً لجولة البيوت التاريخية. كما تكلّمت مع الصحيفة، وسيمر بنا مراسلها لتغطية الحدث".

"متى تخطّط لإقامة هذا التجمّع الصغير؟" سألته مقاطعة.

بدت عليه الحيرة للحظة قبل أن يكمل، "نعم، الليلة بالطبع...لكني أودّ أن أضيف...".

"الليلة؟" قاطعته للمرة الثانية. "تريدني أن أحضّر لإحدى جلساتك الصغيرة الليلة؟"

"إنها من أجل قضية محقّة يا دوريس. أعرف أنه من التهور أن أرمي هذا الأمر عليك، لكنّ أموراً مهمة قد تحدث، وعلينا أن نتحرّك بسرعة للاستفادة منها. أنت وأنا كلانا نعرف بأنك الوحيدة التي يمكنها أن تتعامل مع شيء من هذا القبيل. إنه ليس بالأمر الكثير، بالطبع. كنت أفكر بأنك ربما يمكن أن تحضري طبق دجاج البيستو الخاص بك لكن من دون الشطائر...".

"وهل يعلم جيرمي مارش أصلاً بهذا الحدث؟"

"بالطبع يعلم. لقد أخبرته هذا الصباح، وبدا عليه الفرح".

"حقاً؟" سألته وهي تميل إلى الوراء وينتابها الشك.

"وأنا كنت آمل أن تحضر ليكسي أيضاً. تعرفين كم هو مهم وجودها بالنسبة لأهل هذه البلدة".

"أشــكّ في أن تأتي. إنها تكره القيام بأكثر مما تضطر للقيام به. ولا أعتقد أنها تعتبر هذا الحفل حدثاً ضرورياً".

"قد تكونين على حق. لكن على أي حال، مثلما كنت أقول، أودّ أن أستفيد من هذه الأمسية لإطلاق عطلة نهاية الأسبوع".

"ألم يغــب عــنك بأني أعارض تماماً فكرة استغلال المقبرة كمصدر جذب للسواح؟"

قــال: "لا على الإطلاق. أتذكّر ما أخبرتني به بالضبط. لكنك أيضاً تريدين إيصال صوتك، أليس كذلك؟ إذا لم تأتي، فلن تكون وجهة نظرك مسموعة".

حدّقــت دوريــس في غيركن لبرهة. هذا الرجل يعرف بالضبط أين يضغط، كما أن ما قاله صحيح. إن هي لم تذهب، سينتهي الأمر بجيرمي بكتابة كل ما يمليه عليه غيركن رئيس البلدية وبقية المجلس البلدي. توم على حق؛ هي الوحيدة القادرة عــلى الــتعامل مع مثل هذا الأمر في هذه المهلة القصيرة. كما أن توم عرف بأنها كانــت تستعد لانطلاق الجولة في نهاية الأسبوع، وأن عندها الكثير من الطعام في ثلاجات المطبخ.

"حســناً، استسلمت، سأتكفل بالأمر. لكن لا يخطر لك للحظة بأني سأخدم كل أولئك الناس. سأقيم مقصفاً، وسأجلس على الطاولة معكم".

ابتسم غيركن. "وأنا لن أقبل إلا بما يرضيك، دوريس".

جلــس نائــب الشــريف رودني هوبر في سيارته في الشارع مقابل المكتبة، متســائلاً إن كان ينبغي له ألا يدخل، أو أن يدخل ليتكلم مع ليكسي. أمكنه أن يرى سيارة ابن المدينة متوقفة في الموقف، أي أنهما عادا من مشوارهما، كما أمكنه أن يرى الأضواء في مكتب ليكسي من خلال النافذة.

تصــوّر ليكســي جالســة في مكتبتها وهي تقرأ، وهي تسند رجليها على الكرسي، وتلاعب خصل شعرها وهي تقلّب صفحات أحد الكتب. أراد أن يتكلم معهــا، ولكــنه كان يعلم أن ليس لديه سبب وجيه. لم يسبق له أن دخل المكتبة لــيحادثها، لأنه بأمانة لم يعلم إن كانت توافق على ذلك. حتى أنها لم تطلب منه وإن عرضــاً أن يتوقّف لرؤيتها، وكلما اقترح الفكرة، كانت تغيّر الموضوع. من

جهـــة، إنـــه يفهم موقفها، لأنها من المفترض أن تكون مشغولة بعملها، ولكن في الوقت نفسه، كان يشعر بأن تشجيعاً من هذا النوع يمكنه أن يشكّل خطوة صغيرة إضافية في اتجاه تقدّم علاقتهما.

رأى خيالاً يمر أمام النافذة، ووجد نفسه يتساءل إن كان ابن المدينة برفقتها.

عبس. ابن المدينة سيأكل الكعكة كلها، أليس كذلك؟ أولاً غداء، و لم يسبق أن فعلـــت ليكســـي شيئاً من هذا القبيل، والآن زيارة ودّية في مكان العمل. تجهّم لمجـــرد التفكير في الموضوع. في أقل من يوم، نجح ابن المدينة في التأثير عليها، أليس كذلـــك؟ حســـناً، ربما عليه أن يتحادث معه مرة أخرى حول الوضع الحالي. أن يشرح له الأمور ببساطة، أن يفهم ابن المدينة حدوده بالضبط.

من جهة أخرى، ربما لم يكن ابن المدينة وليكسي مع بعضهما البعض الآن. لا يعلم ما كانا يفعلانه. يوم أمس، كان راضياً بمنـــزلة العلاقة. حسناً، موافق، ربما لم يقتنع بالكامل. كان يفضّل لو أن الأمور بينهما تتحرك بدرجة أسرع نسبياً، ولكنّه أمر ثانوي. كل الأمر أنه نام ليلة أمس من دون منافسة، واليوم ها هما يجلسان معاً، وربمـــا يتبادلان النكات، ويضحكان معاً، ويمضيان وقتاً رائعاً. وها هو الآن، يجلس في سيارته تائهاً، ويحدّق بهما من الخارج.

ولكـــن، ربما لم يكن ولد المدينة وليكسي في المكتب معاً. ربما كانت ليكسي تعمـــل... حســـناً، تـــؤدي واجبها كما يجب في المكتبة، بينما ابن المدينة يقبع في الزاوية يقرأ بعض الكتب. وربما كانت ليكسي ودودة فحسب خاصة وأن الرجل كـــان غريباً ويزور البلدة للمرة الأولى. أجال الفكرة في رأسه قبل أن يقتنع بهـــا. كـــل من في البلدة يبذل جهداً للترحيب به، صحيح؟ ورئيس البلدية على رأسهم. هـــذا الصـــباح، عندما كان ابن المدينة أمامه، وعندما كانت الفرصة سانحة لكي يرســـم حدود تحركه، رئيس البلدية، (نعم رئيس البلدية!) ساعد الرجل بأن ينسلّ بعـــيداً إلى بر الأمان. وفجأة! ابن المدينة وليكسي يقطفان الزهور ويراقبان أقواس قزح معاً.

ولكن، ربما لا!

أزعجـــه ألا يعرف ماذا يجري، وفيما استعد للدخول إلى المكتبة، قطعت عليه

أفكاره نقرات على زجاج السيارة. استغرق لحظة ليميّز الوجه.

رئـيس الـبلدية. اختصاصي المقاطعة في الأوقات الخاطئة. وللمرة الثانية هذا اليوم.

أنـزل رودني زجـاج نافذة السيارة فدخل الهواء البارد. اتكأ غيركن على السـيارة قائلاً: "الرجل الذي كنت أبحث عنه! صودف أن كنت ماراً بالقرب من هنا، وعندما رأيتك، تذكرت بأننا بحاجة إلى ممثل للقانون هذا المساء".

"لأي سبب؟"

"للأمسـية الصـغيرة، بالطبع. لجيرمي مارش، زائرنا البارز. الليلة في مزرعة لوسون".

رمش رودني. "أنت تمزح؟"

"لا، لا عـلى الإطلاق. في الحقيقة، لقد طلبت من غاري أن يصنع له مفتاحاً للبلدة وهو منكب عليه الآن".

"مفتاح البلدة"، كرّر رودني.

"بالطـبع، لا تخبر أحداً بالأمر. من المفترض أن يكون الأمر مفاجأة. وبما أن الحفل اتخذ طابعاً رسمياً، أتمنى حضورك الليلة. إن ذلك سيجعل من الأمسية أكثر... جدّية. كما آمل أن تكون إلى جانبي عندما أقدّم له المفتاح".

نفـخ رودني صدره قليلاً بفخر. مع ذلك، ما من قوة ستجعله يقوم بمثل هذا الأمر. "أعتقد أن ما تطلبه يقع ضمن صلاحيات رئيسي، أليس كذلك؟"

"حسـناً، بالطـبع. لكنك وأنا كلانا نعرف بأنه في الجبال يصطاد. وبما أنك أنت المسؤول في غيابه، يقع الأمر على عاتقك".

"لا أعـرف، توم. يجب أن أطلب من شخص آخر أن يتولى الحراسة مكاني. آسف، ولكن في الحقيقة لا أظنّني سأكون قادراً على الحضور".

"مؤسف. لكني أفهم. الواجب يأتي أولاً".

تنفّس رودني الصعداء. "شكراً".

"كانت ليكسي مع ذلك لتسعد برؤيتك".

"ليكسي؟"

"بالطبع. إنها مديرة المكتبة، وهذا يجعل منها إحدى الوجهاء الذين سيحضرون. لقد أتيت خصيصاً لأدعوها. لكني متأكّد بأنها ستمضي وقتاً جيداً في الحديث مع ضيفنا، حتى في غيابك. على أي حال، كما قلت، إني أتفهم ظروفك".

"انتظر!" قال رودني وهو يفكر بسرعة محاولاً التعافي من الصدمة. "قلت لي الليلة، صحيح؟"

أومأ رئيس البلدية.

"لا أعرف بماذا كنت أفكر، لكني أعتقد أنه دوام بروس، ولذا على الأغلب سأتمكن من الحضور".

ابتسم رئيس البلدية. "أنا مسرور لذلك. الآن دعني أدخل لكي أتكلم مع الآنسة دارنيل. أم هل كنت تفكر بالدخول أنت أيضاً؟ أعني، لا أمانع أن أنتظر لبعض الوقت".

قال رودني: "لا. فقط أخبرها بأني سأراها لاحقاً".

"سأفعل".

بعد أن استخرجت ليكسي بعض المعلومات الإضافية التي طلبها جيرمي، وبعد توقف سريع في مكتبها، وجدت نفسها محاطة بعشرين طفلاً، البعض منهم جالس في أحضان أمهاتهم. أما ليكسي فجلست على الأرض تقرأ كتابها الثالث. كانت الغرفة صاخبة كعادتها. في إحدى زوايا الغرفة طاولة صغيرة وضع عليها بعض البسكويت والعصير، وفي الزاوية الأخرى، انشغل بعض الأطفال باللعب ببعض الألعاب الموجودة على الرفوف، وبعضهم الآخر منهمك في تلوين الأوراق على طاولة وضعتها ليكسي خصيصاً لهذا الغرض. زيّنت الغرفة بالألوان الفرحة؛ ألوان الرفوف كألوان الطباشير الملونة، دون أي موضوع محدد ولكنها تعكس الحيوية والبهجة. وعلى الرغم من اعتراض بعض المتطوعين والمستخدمين الكبار الذين أرادوا أن يجلس الأطفال بهدوء أثناء القراءة لهم كما هي العادة، أرادت ليكسي أن تتيح للأطفال فرصة قضاء وقت ممتع في المكتبة. أرادتهم أن يشعروا

بالفــــرح لقدومهم، وإن تطلب الأمر بعض الألعاب وقدراً أقل من الهدوء. على مرّ السنين، تذكّرت كيف أن العشرات من الأطفال انشغلوا باللعب لمدّة سنة أو أكثر قبل أن تأسرهم بهجة القصص. ولا فرق، المهم أنهم كانوا يستمرون بالقدوم.

لكـــن الـــيوم، بينما كانت تقرأ، انحرفت أفكارها نحو الغداء مع جيرمي. لا يمكن تصنيفه كموعد غرامي، ولكنه بالتأكيد كذلك من ناحية الشعور، مما زاد من إرباكهـــا. الحقـــيقة أنها أدركت أنها كشفت الكثير عن نفسها، وأكثر مما كانت تحـبّذ، وحاولت أن تسترجع كيف اندفعت بذلك الاتجاه؟ لا، لم يكن متطفلاً، بل على العكس، حدث ما حدث. ولكن ما سبب انشغالها؟

لا تحـــب أن تتصور أنها إنسانة عصبية، ولكن هذا التحليل اللانهائي لم يكن من طـــباعها. أضـــف إلى ذلك أن نـــزهة الغداء لم تكن موعداً غرامياً بقدر ما كانت جولـــة ســـياحية. ولكن كلما كانت تبعد الفكرة عن رأسها، كانت صورة جيرمي تعـــود للظهـــور بشـــكل مفاجئ: الابتسامة الملتوية بعض الشيء، تعابير وجهه التي تعكس التسلية أثناء كلامها. لا تستطيع إلا أن تتساءل كيف يرى حياتها هنا، إن لم نقل نظرته إليها هي نفسها. أحست بالخجل وهو يقول إنه يجدها ساحرة، ماذا كان يقصد؟ هل لأنها أفاضت بما في صدرها عن ماضيها وظهرت أمامه بمظهر الضعيفة؟

آلت على نفسها ألا تعيد الكرّة.. ومع ذلك...

ليس الأمر بهذا السوء، وهو لا يعدو كونه كلاماً مع شخص جديد، شخص لا يعـــرف كـــل شاردة وواردة في البلدة، وهذا أمر منعش بعض الشيء. كادت تنســـى هذا الإحساس، وأحست بالمفاجأة. دوريس كانت على حق، وإن في جزء مما قالته، فإنه يخفي أكثر مما تعتقد. وحتى لو أنه تصلب في أفكاره حول الألغاز، إلا أنـــه في الوقـــت نفسه عوض عن تصلبه بالمزاح حول اختلاف آرائهما وأساليب حياتهما. سخر من نفسه أيضاً، مما زاد من جاذبيته.

تابعـــت القـــراءة. حمداً لله أنه لم يكن كتاباً صعباً، لأن ذهنها لم يتوقف عن العمل.

حســـناً، ومـــاذا لو أنها أعجبت به، أو أنها أرادت أن تمضي المزيد من الوقت برفقته؟ ذلك الإدراك لم يغيّر الصوت الصغير في رأسها الذي يحذّرها بألاّ تتأذّى. لا

بد من أن تطأ هذه المنطقة هنا بعناية، فرغم كل الاتفاق الذي بدا عليهما، ما زال بإمكان جيرمي مارش أن يؤذيها إذا سمحت له بذلك.

ركّز جيرمي انتباهه على مجموعة من خرائط بون كريك، ويعود بعضها إلى خمسينيات القرن التاسع عشر. كلما كانت الخريطة أقدم، كانت التفاصيل المدونة أكثر. راقب كيف أن البلدة تغيرت عقداً بعد عقد، وسجل المزيد من الملاحظات. من قرية ناعسة لا تتعدى شوارعها أصابع اليدين إلى بلدة مترامية.

المقبرة، كما تبين له، واقعة بين النهر وتل ريكر. الأهم أن التل والمقبرة ومصنع الورق كلها تقع على خط واحد يمر عبر المقبرة. كانت المسافة لا تزيد كثيراً عن ثلاثة أميال، مما جعل من الممكن تكسّر الضوء على هذا البعد، حتى في الليالي الضبابية. هل كان المصنع يعمل في الليل، مما قد يستلزم إنارة قوية في الليل؟ إن مرور ضوء ساطع بما فيه الكفاية عبر الضباب كفيل بتفسير كل الظاهرة.

نعم، كان عليه أن يلاحظ الخطّ المستقيم بين مصنع الورق وتل ريكر عندما كان على التل. بدلاً من ذلك، انغمس في تبادل وجهات النظر، والتمتع بمشاهدة البلدة برفقة ليكسي.

ما زال يحاول فهم التغيير المفاجئ في سلوكها. يوم أمس، قطعت الطريق أمام أية علاقة معه، واليوم... حسناً، اليوم كان يوماً جديداً، أليس كذلك؟ اللعنة! إنها لا تفارق فكره، وليس بالصورة المغرية المعتادة على السرير. لا يستطيع أن يتذكّر آخر مرّة حدث معه هذا الأمر؟ مع ماريا، ربما! في زمن آخر، وعمر آخر، حينها كان شخصاً آخر. أما اليوم، فالمحادثة كانت طبيعية جداً، مريحة جداً، ومع أنه أراد أن ينتهي من دراسة الخرائط، إلاّ أن كل ما أراده حقاً هو أن يعرفها أكثر.

أمر غريب! وقبل أن يدرك ما كان يحدث، وقف وبدأ بالسير باتجاه الدرج. كان يعلم أنها تقرأ للأطفال، وما أراد إزعاجها، لكنه أراد أن يراها، أن يراها فقط.

نزل الدرج ونظر من خلال أحد الجدران الزجاجية، ورأى ليكسي تجلس على الأرض محاطة بالأطفال من كل جانب.

كانت تقرأ بصورة حيوية، ولم يتمالك نفسه أن يبتسم للتعابير التي ترسمها على وجهها: لعينيها الواسعتين، لحركات شفتيها وهما تلفظان الحروف، ولطريقة

جلوســها الــتي تتغير طبقاً لأحداث القصة. جلست الأمهات مبتسمات، وبعض الأطفال كانوا جامدين في أماكنهم، فيما البعض الآخر يتهزهزون في أماكنهم.

"إنها حقاً مدهشة".

التفت جيرمي متفاجئاً. "حضرة رئيس البلدية، ماذا تفعل هنا؟"

"جئــت لرؤيتك، بالطبع! والآنسة ليكسي أيضاً حول عشاء الليلة. سيكون عندنا مجموعة رائعة هذا المساء، وأعتقد أنها ستعجبك".

قال جيرمي: "آه، طبعاً".

"لكن كما كنت أقول، إنها مدهشة، أليس كذلك؟"

لــزم جيرمي الصمت، ورمش رئيس البلدية متابعاً: "رأيتك تنظر إليها. عينا الرجل تكشفان سره. العيون لا تنطق إلا بالحقيقة".

"ماذا تقصد؟"

ابتســم رئيس البلدية ابتسامة عريضة. "حسناً، أنا لا أعرف. لماذا لا تقول لي أنت؟"

"ما من شيء أقوله".

"آه بالتأكيد!"

هزّ جيرمي رأسه. "لحظة، سيد.. توم".

"أوه، لا يهــم. كنت أغيظك فقط. لكن دعني أخبرك حول جلستنا الصغيرة هذا المساء".

أعطــى غيركن جيرمي عنوان المكان، ومن المفاجئ أن الإشارات التي أعطاها لــه كانــت تعتمد كلياً على المعالم المحلية. لا شك في أن تولي علّم غيركن كل ما كان يعرفه.

"هل تعتقد بأنك ستجده بنفسك؟" قال غيركن عندما فرغ من الكلام.

قال جيرمي: "معي خريطة".

"قد تساعدك قليلاً، ولكن لا يغيبنّ عن بالك أن هذه الطرق الخلفية قد تكون مظــلمة ويسهل أن تضل طريقك إن لم تكن حذراً. ربما عليك أن تأتي مع شخص

يعرف المكان جيداً".

عندما نظر إليه جيرمي بفضول، التفت غيركن إلى غرفة القراءة.

سأل جيرمي: "هل تظن أني يجب أن أطلب من ليكسي أن ترافقني؟"

لمعــت عيـــنا رئيس البلدية. "ذلك يرجع لك. إذا كنت تعتقد أنها ستوافق. الكثير من الرجال يعتبرونها جوهرة المقاطعة".

"ستوافق"، قال جيرمي بتفاؤل كبير.

بـــدا رئيس البلدية مرتاباً. "أعتقد أنك تخطئ بتقدير قدراتك. لكن إذا كنت مـــتأكّداً، أعتقد أن عملي قد انتهى. جئت لأدعوها بنفسي، ولكن بما أنك ستتولى المهمة، سأراكما مساء".

اســـتدار رئيس البلدية ليغادر، وبعد دقائق قليلة، انتهت ليكسي من القراءة. أغلقت الكتاب، وبينما وقفت الأمهات ليغادرن، شعر جيرمي برعشة الأدرينالين. أدهشه الإحساس. متى شعر هكذا آخر مرة؟

نـــادت بضـــع أمهـــات على أطفالهن الذين لم يصغوا إليهن، وبعد لحظات، غـــادرت ليكســـي الغـــرفة مع إحدى مجموعات الأطفال. وعندما رأت جيرمي، اتجهت نحوه.

"أظن أنك مستعدّ للبدء بمراجعة المذكرات".

قال لها: "إذا كان عندك وقت لإحضارها، ما زلت أعمل على الخرائط، لكني في الحقيقة أتيت لسبب آخر".

"أوه؟" أمالت رأسها بعض الشيء في حركة استفهامية.

وقبل أن يتكلم، أحسّ ببعض التشنج في معدته. يا للغرابة.

"سبق وأن أخبرني رئيس البلدية عن عشاء سيقام الليلة في مزرعة لوسون، ولم يكـــن أكـــيداً بأنني سأجد المكان بمفردي، ولذا اقترح أن آتي مع شخص يعرف المكان. وحسناً، باعتبار أنك الوحيدة التي أعرفها في البلدة، كنت أتساءل إن كنت راغبة بمرافقتي".

صمتت ليكسي للحظة.

قالت أخيراً: "نعم، وما الغريب في ذلك؟"

فاجأ ردّها جيرمي.

"أستميحك عذراً؟"

"أوه، لست أنت المقصود. بل رئيس البلدية والطريقة التي ينجز بها الأمور. يعلم جيداً أنني أحاول تفادي هذه المناسبات بقدر الإمكان ما لم يتعلق الموضوع بالمكتبة. لا بد من أنه يعلم بأني كنت سأرفض إن وجّه الدعوة لي مباشرة. ولذا أنجز الأمر بأن يلتف عليَّ ويطلب منك أن تدعوني بدلاً منه. وها أنت، وها أنا".

رمش جيرمي مفكراً، مستعيداً حديثه مع رئيس البلدية بالضبط، ولكنه لم يستعد إلا مقاطع متفرقة. من اقترح أن يرافق ليكسي؟ هو أو رئيس البلدية؟

"لماذا أحسّ فجأة أنني وسط مسلسل تلفزيوني؟"

"لأنك فعلاً في مسلسل اسمه العيش في بلدة جنوبيّة صغيرة".

بهت جيرمي، وبدا عليه القلق. "وهل تعتقدين أن رئيس البلدية رسم كل هذا المخطّط؟"

"أعرف قطعاً بأنه خطّط له. من قبيل الصدف بأنه ليس أذكى من جذع الشجرة، ولكنه يمتلك موهبة مذهلة في دفع الناس بالاتجاه الذي يريده، وأن يجعلهم يقتنعون بأنها كانت فكرتهم طوال الوقت. لماذا تظن بأنك ما زلت مقيماً في غرينليف؟"

دفع جيرمي يديه داخل جيبيه مفكراً. "حسناً، فقط لكي تعلمي، ليس من الضروري أن تأتي، أنا متأكّد بأنني سأجد المكان بنفسي".

وضعت يديها على وركيها ونظرت إليه. "هل تتراجع عن دعوتك لي؟"

تجمّد جيرمي، ولم يعرف كيف يردّ. "حسناً، أنا فقط اعتقدت أنه بما أن رئيس البلدية...".

"هل تريدني أن أذهب معك أو لا؟"

"طبعاً، لكن إذا لم تكوني...".

"إذاً اسألني مرة ثانية".

"عذراً؟"

"اطلب مني مرافقتك الليلة. هذه المرة، لأنك تريدني أن أفعل ولا تختلق أعذاراً حول الاتجاهات. قل شيئاً مثل: "أنا أود أن أرافقك إلى العشاء الليلة. متى تريدينني أن أمرّ بمنـــزلك؟"

نظر إليها، متسائلاً إن كانت جادة. "تريدينني أن أقول تلك الكلمات؟"

"إن لم تفعل، فستبقى الفكرة فكرة رئيس البلدية وأنا لن أذهب. أما في حال سألتني، فعليك أن تعني ما تقوله، وأن تستخدم النغمة الصحيحة لتسألني".

شـــعر جيرمي بقلق تلميذ المدرسة. "أودّ حقاً أن أرافقك إلى عشاء الليلة. هل أمرّ بمنـــزلك لاحقاً؟"

ابتسمت ووضعت يدها على ذراعه.

"آه، سيد مارش"، ترنّمت، "سأكون مسرورة بتلبية الدعوة".

بعـــد دقائق، راقب جيرمي ليكسي وهي تُخرج المذكرات من صندوق مقفل في غـــرفة الكتب النادرة، والأفكار تتصارع داخل رأسه. نساء نيويورك ببساطة لم يـــتكلّمن معه كما تفعل ليكسي. لم يعد متأكداً إن كانت المرأة عاقلة أم مجنونة أم بين الحالتين؟ أي في الوسط. اطلب مني مرافقتك ثانية واستعمل النغمة الصحيحة. أي نوع من النساء يقوم بذلك؟ ولماذا وجد الأسلوب... مغرياً؟

لم يعـــد مـــتأكداً، وفجأة، لم تعد القصّة وفرصة المستقبل التلفزيوني أكثر من تفصيلين بسيطين. بدلاً من ذلك، بينما راقب ليكسي، كل ما كان يفكّر فيه كان شعوره بلمسة يدها لما وضعتها بلطف على ذراعه.



الفصل التاسع

في وقـــت لاحـــق مـــن ذلك المساء، وفيما تحوّل الضباب إلى ما يشبه المرق السميك، قرّر رودني هوبر بأن مزرعة لوسون أشبه بموقع حفل موسيقي يحييه باري مانيلو.

لقـــد أمضـــى الدقـــائق العشرين السابقة وهو يوجه السيارات إلى مواقفها، ويراقب بدهشة المواكب التي تشق طريقها بحماسة نحو المدخل. حتى هذه اللحظة، شاهد الطبيبين بندسون وتريكيت، وألبرت طبيب الأسنان، وأعضاء المجلس البلدي الثمانية بمن فيهم تولي وجاد، ورئيس البلدية وموظفي غرفة التجارة، وكامل إدارة المدرســـة، ومفوّضـــي المقاطعـــة التسعة، والمتطوعين في المجتمع التاريخي، وثلاثة محاســـبين، وكامل طاقم مطعم هيربس، والعامل في لوكيلو، والحلاق، وحتى توبي الـــذي يجـــني عيشه من إفراغ البالوعات الصحيّة ولكنه أنيق رغم ذلك. لم تشهد مزرعة لوسون حشداً كهذا الحشد حتى في مواسم عيد الميلاد حينما كانت تكتسي بالزينة وتفتح أمام الجمهور مجاناً يوم الجمعة الأول من كانون الأول/ديسمبر.

لكـــن اللـــيلة مختلفة. لم يكن هذا احتفالاً يجمع الأصدقاء للاستمتاع برفقة بعضـــهم بعضـــاً قبل الانشغال بتحضيرات الأعياد. إنه احتفال بتكريم شخص لا علاقـــة له بالبلدة، ولم يعر المكان اهتماماً. الأسوأ من ذلك كله - ومع أن رودني كـــان حاضراً بصفة رسمية - فكّر فجأة بأنه لم يكن عليه أن ينشغل بكيّ قميصه وتلميع حذائه إذ لا شك في أن ليكسي لن تلاحظه على الإطلاق.

لقـــد عـــرف القصة بكاملها. فبعد عودة دوريس إلى هيربس لتبدأ بتحضير الطعـــام، نشر رئيس البلدية الأخبار السيئة حول جيرمي وليكسي، وقامت راشيل باســـتدعائه فـــوراً. كم هي لطيفة راشيل في هذه الأمور، ولطالما كانت. كانت تعرف شعوره تجاه ليكسي، ولم تكن تضايقه كما يفعل الآخرون. على أي حال،

حصـــل على انطباع أنها لم تكن سعيدة بمجرى الأحداث، أي فكرة ظهور جيرمي وليكســـي معـــاً. لكن راشيل كانت أقدر منه على إخفاء مشاعرها، وها هو الآن يتمنى لو كان في أي مكان آخر. كل أحداث هذه الليلة تشعره بالكآبة.

على وجه الخصوص، الطريقة التي كانت تتصرّف بها البلدة بأكملها. على ما يذكـــر فـــإن البلدة لم تشهد حبوراً بهذا الشكل منذ أرسلت مجلة رالاي للأبحاث مراســـلاً ليقدم تقريراً حول قصة جامبي والتن الذي حاول بناء نسخة طبق الأصل عـــن طائـــرة الإخوة رايت لإحياء الذكرى المائة لإقلاع الطائرة كيتي هوك. لكن جـــامبي لم يكـــن حاضر العقل على الدوام، وعليه فقد ادعى لمدة طويلة أنه على وشك الانتهاء من بناء النموذج، ولكن عندما فتح أبواب الحظيرة ليستعرض بفخر إنجازاته، أدرك المراسل ساعتها أن جامبي ليست لديه أدنى فكرة عما كان يفعله. في الحظـــيرة، بدا النموذج مثل نسخة عوجاء عملاقة من الأسلاك الشائكة والخشب المعاكس.

والآن كانـــت الـــبلدة تراهن على وجود الأشباح في المقبرة وبأن ولد المدينة ســـيأتي بالعالم إلى أبواب بلدهم بسببها. استبعد رودني الفكرة. أضف إلى ذلك أنه لم يهتم إن أتى العالم إلى البلدة أم لم يفعل طالما بقيت ليكسي جزءاً من عالمه.

في الطـــرف الآخـــر من البلدة وفي الوقت نفسه، خطت ليكسي على شرفة مـــنـــزلها فيما كان جيرمي يسير في الممشى وفي يده باقة من الأزهار البريّة. لمسة لطيفة، قالت لنفسها، وتمنت فجأة ألا يشعر بارتباكها.

أن تكـــوني امرأة لهو تحدٍّ أحياناً، وهذه الليلة أصعب من غيرها. أولاً، بالطبع، كـــان هـــناك السؤال إذا ما كان هذا موعداً حقيقياً. نعم، إنه أقرب إلى الموعد من الغـــداء، ولكنه ليس بالضبط عشاء رومانسيّاً لاثنين، وهي لم تكن واثقة إن كانت ســـتوافق على شيء من هذا القبيل. كما كان هناك موضوع المظهر، وكيف أرادت أن تظهر أمام الآخرين وهي معه. الحقيقة أنها ستكون مرتاحة أكثر لو ارتدت سروال جيـــنـــز، وفي الوقت نفسه لم تكن في وارد لبس ثياب مغرية. اختلط عليها الأمر، واستسلمت في النهاية وقررت الذهاب بمظهر محترف: بذلة بنية وقميص عاجي.

وها هو آتٍ في مظهره المتأنق، وكأنه أعاد تخطيط مشاريع الأمسية وحده.

قالت ليكسي: "وجدت المكان".

"بسهولة، لقد أشرت لي إلى منزلك عندما كنا على تل ريكر. هل تذكرين؟" ثم قدم لها الزهور قائلاً: "هذه لك".

ابتسمت وهي تأخذها، وبرز جمالها مع الابتسامة. جذابة إلى أقصى الحدود، ولكن كلمة *جميلة* كانت هي الأنسب.

"شكراً لك. كيف كانت قراءة المفكرات؟"

"جيدة، لا اكتشافات ذات أهمية حتى الآن من المفكرات التي راجعتها بعناية".

"أعط الأمور وقتها"، قالت مع ابتسامة. "من يعرف ماذا ستجد؟" ثم رفعت الباقة إلى أنفها. " بالمناسبة، هذه جميلة. امنحني ثانية لأضعها في زهرية، ولأحضر معطفي وسأكون حاضرة بعدها".

فتح يديه. "سأنتظرك هنا".

وفي خلال دقيقتين كانا في السيارة في طريقهما عبر البلدة في الاتجاه المعاكس للمقبرة. فيما ازدادت كثافة الضباب، وجّهت ليكسي جيرمي باتجاه الطريق الخلفي حتى وصلا إلى ممر متعرج طويل مزروع على الجانبين بأشجار البلوط التي يتجاوز عمرها المائة عام. ومع أنه لا يمكن رؤية المنزل، فقد أبطأ السرعة عندما اقتربا من سياج شاهق أحاط بالممر الدائري. اتّكأ على دولاب القيادة للحظة، متسائلاً في نفسه عن الاتجاه الذي عليه أن يسلكه.

"ربما يجب أن توقف السيارة هنا"، اقترحت ليكسي. "أشكّ في أنك ستجد مكاناً أقرب. كما أنك تريد أن تكون قادراً على الخروج من هنا لاحقاً".

"هل أنت متأكّدة؟ لا نستطيع رؤية البيت حتى الآن".

قالت: "ثق بي. لماذا تظن أني أحضرت المعطف؟"

قرر أن يأخذ بنصيحتها. لم لا؟ وبعد لحظات كانا يسيران في الممر مشياً على الأقدام، وليكسي تحاول جاهدة أن تلف المعطف حول جسمها. وعند آخر الممر، انتصب القصر الجورجي القديم بكامل عظمته أمامهما.

كانت السيارات المتجمعة أول ما لفت انتباه جيرمي وليس المنزل. أعداداً

لا تحصى من السيارات، انتشرت بشكل عشوائي، في كل الاتجاهات كما لو أن أصحابها يخططون لهروب سريع. كما أن أعداداً كبيرة من الناس كانوا يدورون بسياراتهم في خضم المعمعة في بحث عن مكان للوقوف، أو يحاولون حشر السيارات في أماكن ضيقة جداً.

توقف جيرمي متأملاً المشهد.

"على ما أظن، إن الأمسية لم تكن أكثر من جلسة مع الأصدقاء".

أومأت ليكسي. "هذه فكرة رئيس البلدية عن الجلسة. عليك أن تتذكّر أنه يعرف كل شخص في المقاطعة".

"وأنت تعرفين أن هذا ما كان يخبئه؟"

"بالطبع".

"لماذا لم تحذريني؟"

"كما أقول على الدوام، لأنك ما تنفك تنسى أن تسأل. أضف إلى ذلك أني ظننت أنك كنت تعلم".

"كيف لي أن أعلم أنه يخطّط لشيء من هذا القبيل؟"

ابتسمت، ونظرت نحو البيت. "منزل رائع، أليس كذلك؟ وليس لأنك تستحقه بالضرورة".

ضحك بصوت عالٍ. "هل تعرفين، لقد بدأت بتقدير سحرك الجنوبي".

"شكراً لك. ولا تقلق البتة الليلة. لن تكون مرهقة كما تظن. كلهم ودودون، وعندما تشعر بالشك، تذكر أنك ضيف الشرف".

لا شك في أن دوريس كانت ممون الطعام الأكثر تنظيماً وكفاءة في العالم، قالت راشيل لنفسها وهي ترى كل ما نجحت دوريس بتحضيره في أقل وقت. وبدلاً من أن تعمل راشيل على توزيع الطعام طوال الليل، ها هي تتنقل بين الحضور في فستانها - تقليد ماركة شانيل - عندما شاهدت رودني يتجه نحو الشرفة.

بدا رسمياً بزيّه المكوي بعناية، مثل جندي بحرية في أحد ملصقات الحرب

العالمية الثانية القديمة في بناية في إف. دبليو. على الشارع الرئيسي. بقية الضباط يحملون دجاجاً مقلياً وشراباً أكثر من اللازم حول منطقة الخصر، ولكن رودني في أوقات الفراغ من العمل يرفع الأثقال في جيمنازيوم أقامه في مرآبه. كان يبقي باب المرآب مفتوحاً، وأحياناً وهي في طريق عودهما إلى البيت كانت تتوقف لزيارته لفترة.. إنهما صديقان منذ زمن بعيد، وهما أيضاً جاران، وتمتلك أمها صوراً لهما في حوض الاستحمام معاً وهما طفلان. كم من الأصدقاء القدامى يجمع بينهم تاريخ كهذا؟

تناولت قلم أحمر الشفاه من محفظتها ووضعت منه على شفتيها. إنه نقطة ضعفها. أوه، صحيح أن كلاً منهما سلك طريقاً منفصلاً لفترة، ولكن في السنتين الأخيرتين، كانت الأمور تتغيّر. الصيف قبل الماضي، جلست قربه في لوكيلو، ورأت تعابير وجهه حين شاهد تقريراً إخبارياً عن ولد صغير قضى في حريق مفجع في رالاي. إن رؤية تأثره بخسارة غريب أثّرت عليها بطريقة لم تتوقعها. كما لاحظت مشاعرها للمرة الثانية يوم استضاف قسم الشرطة مناسبة التقاط البيض الملون في العيد، حين انتحى بها جانباً ليفشي لها بمخابئ البيض الصعبة. بدا عليه الحماس أكثر من الأطفال... كم بدت المقارنة مضحكة بعضلاته المنتفخة!..قالت لنفسها إنه الأبّ الذي يكون مبعث فخر لأي زوجة.

لو استعادت الماضي، لتذكرت تلك اللحظة التي أدركت فيها بأن مشاعرها تجاه رودني تغيّرت. لم تقع في حبه وقتها، ولكنها اللحظة التي أدركت وقتها أن العلاقة بينهما ممكنة، وإن لم تكن مؤكدة. رغم كل شيء، فإن رودني يهيم حباً بليكسي، كما كان على الدوام، وكما سيبقى إلى الأبد. ولقد اقتنعت راشيل منذ وقت طويل أن لا شيء كفيل بتغيير مشاعره تجاه ليكسي. لم يكن تقبل الموضوع سهلاً في كل الأوقات، أو أنها لم تنزعج في أوقات أخرى، مع أن هذه الأوقات صارت أكثر تباعداً وقصراً.

تغلغلت داخل الحشد، وتمنت لو أنها لم تفتح موضوع جيرمي مارش أثناء الغداء. كان يجب أن تعلم أن ذكره سيضايق رودني. وحتى هذه اللحظة، بدا أن البلدة بأكملها تتحدّث عن ليكسي وجيرمي، بدءاً بالبقال الذي باعهما غداءهما،

ثم انتشـــر الحديث عنهما كالنار في الهشيم مع إعلان رئيس البلدية. ما زالت تودّ الذهاب إلى نيويورك، ولكنها عندما استعادت حديثها مع جيرمي، تقبلت تدريجياً فكـــرة أنه كان ببساطة يبادلها الحديث، ولا يعرض عليها الذهاب. أحياناً كانت تقفز إلى استنتاجات خاطئة في مثل هذه الحالات.

لكن جيرمي مارش مع ذلك كله كان... مثالياً.

مشهور، وساحر، وذكي، ومثقّف، وأفضل صفاته أنه ليس من هذه الأنحاء. مـــع ذلك، ما من مجال لينافس رودني، وكانت تشعر أن رودني يعلم قصوره عن المنافســـة. ولكـــن في الجانـــب الآخـــر من الموضوع، إن رودني هنا، ولا يخطط لـــلمغادرة، وفي الأمر فائدة لمن يفضل أن يقرأ الأمور على هذا النحو. كما أنها لا تنكر أنه مسؤول ووسيم جداً، بطريقته الخاصة.

قالت بابتسامة: "رودني".

التفت رودني، "أوه راشيل، كيف حالك؟"

"بخير، شكراً. حفلة كبيرة، هاه؟"

"إنهـــا عظـــيمة". قـــال، دون أن يخفـــي التهكّم في صوته. "كيف الحال في الداخل؟"

"جيّدة جداً. لقد انتهوا من تعليق اللافتة للتو".

"اللافتة؟"

"طـــبعاً. اللافـــتة الـــتي ترحب به في البلدة، وتكتب اسمه بالحروف الزرقاء الكبيرة".

زفر رودني وبدا عليه الضيق. "عظيم". قال ثانية.

"يجب أن ترى ماذا يحضّر له رئيس البلدية. عدا عن اللافتة والطعام سيقدم له مفتاح البلدة".

قال رودني: "سمعت".

"وفـــرقة الماهي ماهي هنا أيضاً، مشيرة إلى فرقة الغناء الرباعية التي تتألف من مواطـــنين محليّين يغنون سوية منذ أكثر من ثلاثة وأربعين عاماً. ورغم أن اثنين من

أعضـــاء الفــــرقة كان عليهما الاستعانة بالعكازات للسير، وأن أحدهما يعاني من اخـــتلاجات عصبية تجبره على الغناء وعيناه مغلقتان، فإنهم كانوا من أشهر الفرق الترفيهية في محيط مائة ميل.

قال رودني ثانية: "رائع".

لفتـــتها نغمة صوته هذه المرة. "أظن أنك لا تريد السماع عن أي من ذلك، صحيح؟"

"فعلاً".

"لِمَ أتيت إذاً؟"

"أقنعني توم. سيأتي يوم سأفهم فيه ما يرمي إليه قبل أن يفتح فمه".

"لـــن يكون الأمر سيئاً إلى هذا الحدّ. أعني، رأيت كيف هم الناس الليلة. كل شـــخص يـــريد الكلام معه. لن يكون الأمر كأنه هو وليكسي يمكن أن يختفيا في حفرة ما. أراهنك أنهما لن يكونا قادرين أن يقولا عشر كلمات لبعضهما البعض. ولعلمك، فقد خبأت صحن طعام خاص لك حين تتاح لك فرصة لتناول الطعام".

تردّد رودني للحظة قبل أن يبتسم. راشيل دوماً تحيطه بالعناية.

"شـــكراً، راش". لـــلمرة الأولى، لاحـــظ فستانها، وأجال نظره في زينتها، وأردف: "تبدين جميلة الليلة".

"شكراً لك".

"هل تودين مرافقتي لبعض الوقت؟"

ابتسمت. "أودّ ذلك".

انـــتقل جيرمي وليكسي عبر جميع السيارات المتوقفة، وتحولت أنفاسهما إلى جلـــيد كلما اقتربا من القصر. أمامهما مباشرة، رأى جيرمي المجموعة تلو الأخرى تتوقف عند الباب قبل أن تدخل، ولحظتها انتبه إلى أن نائب الشريف رودني هوبر يقف قرب الباب. رأيا بعضهما بعضاً في نفس الوقت، وتغيّرت ابتسامة رودني فوراً إلى عبوس. حتى عن بعد ظهرت عليه الغيرة، والأكثر، أن رودني كان مسلحاً، مما أفقد جيرمي إحساسه بالارتياح.

لاحقته ليكسي بنظراتها قائلة: "أوه، لا تقلق من رودني. أنت معي".

قال: "أنا قلق لهذا السبب. يخامرني شعور أنه ليس سعيداً على الإطلاق لأننا ظهرنا معاً".

تعــرف أن جيرمــي على حق. مع ذلك، شعرت بالراحة لأن راشيل كانت بجانب رودني. راشيل لديها طريقتها الخاصة في الحفاظ على هدوء رودني، ولطالما اعتقدت ليكسي أنها مثالية له. لكن ليكسي لم تجد في نفسها طريقة لتلفت انتباهه بــدون إيذاء مشاعره. ليس هذا بالأمر الهيّن لإفشائه أثناء رقصة في الحرم الماسوني، أليس كذلك؟

قالت: "لربما من الأسهل لك أن تتركني أتولى الكلام".

"كنت أخطّط أن أترك لك إدارة الأمور".

ابتهجت راشيل لما رأتهما يقتربان منها.

"هــاي، أنتما الاثنان!" وعندما اقتربا، لامست سترة ليكسي، "أحب زيّك، ليكس".

"شكراً، راشيل". ردّت ليكسي. "وأنت تبدين رائعة أيضاً".

حــافظ جيرمي على صمته، وشغل نفسه بتفحّص أظافره فيما حاول تفادي النظرة الشرّيرة التي رمقه بها رودني. وفي لحظة صامتة، نظرت راشيل وليكسي إلى بعضهما البعض. قرأت راشيل أفكار ليكسي، فتقدمت من جيرمي.

"وانظــر إلــيك، يــا سيدي الصحفي الشهير، نظرة واحدة وقلوب النساء ســتخفق طــوال اللّيل". وأطلقت ابتسامة عريضة. "لا تسيئي فهمي، ولكن هل تمانعين بأن أرافقه إلى الداخل. أعرف بالتأكيد أن رئيس البلدية ينتظره".

"لا عــلى الإطلاق". قالت ليكسي. إنها فعلاً بحاجة لبعض الوقت وحدها مع رودني. أومأت إلى جيرمي. "امضِ، سألحق بكما بعد دقيقة".

ثبّتــت راشــيل ذراعها في ذراع جيرمي، وقبل أن يدرك، دفعت به بعيداً. "الآن، هل سبق لك أن أتيت إلى مزرعة جنوبيّة راقية كهذه؟" سألته راشيل.

"لا أستطيع أن أدّعي أني فعلت"، أجاب جيرمي، متسائلاً إن كانت ليكسي

قد رمت به إلى الذئاب. من بعيد، لفظت ليكسي كلمة شكر صامتة صوب راشيل التي ردّت برمشة.

استدارت ليكسي نحو رودني.

"لــيس الأمــر كمــا تعــتقد"، بدأت كلامها، ورفع رودني يديه لمنعها من الاستمرار.

"لحظة، ليس من الضروري أن توضحي. سبق لي أن شهدت حدثاً مماثلاً، هل تذكرين؟"

عرفــت أنه كان يغمز من قناة سيد النهضة، وأشار عليها حدسها الأول أن تخبره بأنه كان مخطئاً. أرادت إخباره بأنها ما كانت لتترك مشاعرها تعبث بها هذه المــرة، ولكنها عرفت بأنها قطعت وعداً مماثلاً قبل ذلك. نعم، هذا ما قالته لرودني عندما حاول أن يحذرها بلطف بأن سيد النهضة ما كانت عنده نية البقاء.

"أتمنّى لو عرفت ما عليَّ أن أقوله"، قالت وكرهت لحن الذنب في صوتها.

"ليس من الضروري أن تقولي أي شيء".

.. فعــلاً، ليس عليها أن تقول أي شيء. لم يكونا زوجين، ومع ذلك فلقد انــتابها نفــس إحساس المواجهة مع زوج سابق بعد طلاق وشيك، عندما يكون الجــرح حــياً. وللمرة الثانية، تمنّت لو أنه ببساطة يبتعد عنها، ولكنّ صوتاً صغيراً ذكّــرها بأنها هي التي كانت تلعب دوراً في إبقاء جذوة الحرارة بينهما في السنين الماضية، حتى لو كانت العلاقة تعني لها الأمان والراحة أكثر من الرومانسية.

"حســناً، فقــط لكــي تعرف، أتطلّع في الحقيقة إلى وقت عودة الأمور إلى طبيعتها هنا"، تطوّعت قائلة.

قال: "أنا أيضاً".

صــمتا لــبرهة. وخلال هذا الصمت، التفتت ليكسي حولها، وتمنت لو أن رودني قادر على تمالك مشاعره أكثر.

قالت: "لا شك في أن راشيل تبدو رائعة، أليس كذلك؟"

دهــش رودني لوهلة، قبل أن يلتفت إلى ليكسي للمرة الثانية. أما هي، فقد

لمحت ما يشبه الابتسامة.

"نعم، بالفعل".

"هـــل مـــا زالت تواعد جيم؟" جيم، العامل في مجال إبادة الحشرات. رأهما ليكســـي معاً في شاحنة خضراء علّق عليها مجسم حشرة عملاقة، وهما في طريقهما إلى غرينفيل لتناول العشاء خلال فترة العطلة.

"لا، انتهـــت العلاقـــة. خرجا معاً لمرة واحدة. قالت إن سيارته تفوح منها رائحة المبيدات، وأنها عطست مثل المجنونة الليل بكامله".

على الرغم من التوتّر، ضحكت ليكسي. "يبدو أمراً لا يمكن أن يحدث إلا مع راشيل".

"تجـــاوزت الأمـــر. وهو لم يؤذِها أو يزعجها. وهي من النوع الذي يستمر بالعودة إلى ظهر الحصان، كما تعرفين".

"أحـــياناً أعتقد أنها بحاجة لأن تجد لنفسها خيولاً أفضل. أو على الأقل واحداً من دون حشرة عملاقة معلقة على سيارته".

ضحك، كما لو أنها تفكر مثله. التقت عيونهما للحظة، ثم استدارت ليكسي، ودسّت خصلة من الشعر وراء أذنها.

"حسناً، اسمع، أظن أن عليَّ أن أتوجّه إلى الداخل".

قال: "أعرف".

"هل ستأتي؟"

"لست متأكّداً حتى الآن. لم أكن أخطط للبقاء لمدة طويلة. كما أني ما أزال في دوام العمـــل. المقاطعـــة كبيرة جداً ليهتم بها شخص واحد، وبروس وحيد في الميدان الآن".

أومأت. "حسناً، إذا لم أرَك الليلة، انتبه لنفسك، موافق؟"

"سأفعل. أراك فيما بعد".

بدأت بالتحرّك نحو الباب.

"ليكسي؟"

استدارت. "نعم؟"

ابتلع ريقه. "بالمناسبة، تبدين رائعة أنت الأخرى".

الطـــريقة الحزيـــنة التي نطق بها كلامه قطعت قلبها، وخفضت عينيها للحظة وقالت: "شكراً لك".

تفـــادى راشـــيل وجيرمي الاختلاط بالحشد، وأرته راشيل صور أفراد عائلة لوسون الذين اشتركوا بتشابه مميز لا بين الجيل والآخر فحسب، ولكن للعجب بين الأجناس أيضاً. الرجال تميزوا بمواصفات أنثوية، والنساء تقاسيمهن رجولية، وكأن الرسامين اعتمدوا نموذجاً خُنْثَويّاً واحداً لرسم أجيال العائلة.

لكـــنه قـــدّر حقيقة أن راشيل كانت تبقيه منشغلاً وبأمان، مع أنها رفضت إطلاق ذراعه. تمكن من سماع الناس يتحدثون عنه ولكن لم يكن مستعداً للاختلاط حتى الآن، مع أن الحدث بأكمله أشعره ببعض الإطراء. فلم يسبق لنايت أن تمكن من جمع عشر هذا العدد من الناس لمشاهدة ظهوره التلفزيوني، وكان لا بد من أن يعرض الشراب المجّاني كإغراء ليحصل على ما حصل عليه من حضور.

لا... ليس هنا. ليس في أميركا البلدات الصغيرة. حيث تسلى الناس بالبينغو، ولعـــبوا البولينغ، وشاهدوا إعادة من حلقات تلفزيونية قديمة على قناة تي إن تي. لم يشـــاهد هذا الكم الهائل من البوليستر والشعر الأزرق منذ... حسناً.. أي وقت. وبينما كان يراقب الوضع، عصرت راشيل ذراعه لاسترعاء انتباهه.

"استعد، عزيزي، لقد حان وقت العرض".

"اعذريني؟"

نظرت بعيداً عنه إلى الحشد المضطرب وراءه.

"حســـناً، ســـيدي رئـــيس البلدية، كيف حالك؟" سألت راشيل، وأطلقت ابتسامة تليق بنجمات هوليوود.

بدا رئيس البلدية وكأنه الشخص الوحيد في المكان الذي كان يتصبب عرقاً. صلعته كان تلمع في الضوء، وهو وإن بدا متفاجئاً لأن جيرمي كان مع راشيل، فلم يظهر ارتباكه.

"راشيل! رائعة كما على الدوام. كما أرى أنك تشاركين ماضي هذا البيت الراقي مع ضيفنا".

قالت: "أفعل ما بمقدوري".

"جيد، جيد. أنا مسرور لسماع ذلك". وامتدت الأحاديث المختلفة بينهما إلى أن وصل غيركن أخيراً إلى صلب الموضوع.

"أكره أن أطلب منك ذلك، كونك لطيفة بما فيه الكفاية لتخبريه عن هذا المكان الرائع، ولكن هل يمكنني...؟" وأشار إلى جيرمي. "الناس في انتظار بداية هذا الحدث المهم".

"لا على الإطلاق"، أجابت راشيل، وفي لمحة عين، استبدل رئيس البلدية يد راشيل بيده، وبدأ بقيادة جيرمي خلال الحشد.

فيما مشيا، صمت الحشد فجأة وانزاحوا إلى الجانب، كما البحر الأحمر الذي شقه النبي موسى (عليه السلام). حدّق بهما البقية ورفعوا رقابهم ليحصلوا على نظرة أفضل. همهم الحضور وعلت الآهات والهمسات، لا بد بأنه هو!

"لا أستطيع إخبارك كم أنا مسرور لأنك تمكنت من الحضور"، قال رئيس البلدية من زاوية فمه فيما واصل الابتسام إلى الحشد. "لبعض الوقت، بدأت أقلق".

"ربما يجب أن ننتظر ليكسي". أجاب جيرمي، محاولاً منع خديه من الاحمرار. الحدث بأكمله، وبالأخص مرافقته لرئيس البلدية مثل ملكة حفلة راقصة، كان كماً كبيراً من ميزات أميركا الريفية مما لا يقوى على احتماله، دون الحاجة لذكر أوجه الغرابة في الموضوع.

"تكلّمت معها، وهي ستقابلنا هناك".

"وأين ذلك؟"

"هناك، حيث ستقابل بقيّة المجلس البلدي، بالطبع. قابلت جاد وتولي والأشخاص الذين قدمتهم لك هذا الصباح، لكن هناك بضعة أشخاص آخرين. ومفوّضو المقاطعة، مثلي أيضاً، هم معجبون جداً بزيارتك لنا، معجبون جداً. ولا تقلق، كل قصص أشباحهم جاهزة. أحضرت مسجلتك، صحيح؟"

"إنها في جيبـــي".

"جـــيد. جيد. أنا سعيد بذلك. و..." للمرة الأولى، استدار عن الحشد لينظر إلى جيرمي. "أظن أنك ستتوجه إلى المقبرة الليلة..".

"فعلاً، وبالحديث عن ذلك، أردت التأكيد".

تابع رئيس البلدية الكلام كما لو أنه لم يسمعه، كما استمر بالإيماء والتلويح للحشـــد. "حســـناً، كرئيس للبلدية، أشعر بأني ملزم بإخبارك ألا تقلق البتة حول الالـــتقاء بالأشباح. أوه، ستشاهدهم بكل تأكيد. ستفاجأ بهم بما يكفي لمباغتة فيل إلى حـــدّ الإغمـــاء. لكن حتى الآن، لم يصب أحد بأذى، ما عدا بوبي لي هاوارد، الـــذي اصطدم بإشارة طريق و لم يتعلق الأمر بالأشباح بقدر ما كان متعلقاً بأنه قد شرب للتو اثنتي عشرة قارورة من شرابه المفضل قبل أن يقود سيارته".

"آه"، قـــال جيرمـــي، ثم بدأ بتقليد رئيس البلدية إيماءً وتلويحاً. "سأحاول أن أتذكر ما سمعت".

كانـــت ليكسي تنتظره عندما قابل المجلس البلدي، فتنفّس الصعداء عندما انتقلت إلى جانبه بينما تمّ تقديمه إلى نخبة البلدة المهمة. أكثرهم كان ودّياً بما فيه الكفاية – فيما عـــدا جاد الذي وقف مكتفاً ذراعيه – و لم يقوَ هو على مقاومة مراقبة ليكسي بطرف عينه. بدت شاردة الذهن، وتساءل عما حدث بينها وبين رودني.

لم تـــتح لجيرمـــي فرصة اكتشاف سرّ ليكسي، أو حتى أن يرتاح على امتداد ثـــلاث ســـاعات لاحقة، وكأن الأمسية أشبه ما تكون باجتماع سياسي تقليدي. وكـــأن لقاءه مع أعضاء المجلس، فرداً فرداً – فيما عدا جاد – كان مدبراً من قبل رئـــيس البلدية الذي وعده بأنه سيحصل على "أكبر قصة في حياته"، وذكّره بأن الســـياحة مهمة للبلدة. أُخذ جيرمي إلى المسرح المزين بلافتة كتب عليها: مرحباً جيرمي مارش!

تقنـــياً، لم يكـــن مسرحاً، لأنه أقرب إلى منضدة خشبية طويلة مغطاة بمفرش مائدة أرجواني لمّاع. اضطر جيرمي للاستعانة بكرسي ليخطو إلى المسرح، وكذلك فعل غيركن، ليجد نفسه في مواجهة بحر من الوجوه الغريبة تحدق إليه.

عندما صمت الحشد، أدلى رئيس البلدية بخطاب مطوّل يثني فيه على جيرمي

بسبب مهارته وأمانته كما لو أنهما يعرفان بعضهما البعض منذ سنوات. إضافة إلى ذلــك، لم يكتفِ غيركن بذكر ظهور جيرمي على برايم تايم لايف، وهو الموضوع الــذي انتزع الابتسامات والإيماءات المألوفة، بالإضافة إلى بضعة تأوهات، ولكنه ذكــر أيضـاً عدداً من المقالات المشهورة التي كتبها جيرمي، بما فيها مقالة كتبها للأتلانــيك مونثلي حول أبحاث الأسلحة البيولوجية في فورت ديتريك. وبقدر ما يوحــي غيركن بأنه شخص غبي - قال جيرمي لنفسه - إلا أن الرجل أدّى واجبه المدرســي وعــرف بالتأكــيد كيف يغري. في نهاية الخطاب، منح جيرمي مفتاح البلدة، وأنشدت فرقة الماهي - ماهي في الطرف الآخر ثلاث أغنيات: *كارولينا في البــال*، *ونيويورك - نيويورك*، وربما أكثر الأغنيات علاقة بالحفل، أغنية من فيلم **صيادي الأشباح**.

الغريب أن فرقة الماهي - ماهي لم تكن سيئة كما تخيلها، رغم أن جيرمي لم يتمكن من حل معضلة صعود الفرقة إلى المنضدة. انسجم الحشد مع الفرقة، وفجأة انتــبه جيرمــي إلى أنه كان يبتسم ويتمتع بالحفل. وفيما هو واقف على المسرح، رمشت ليكسي باتجاهه، وتحولت الليلة إلى ما يشبه الليلة الأسطورية.

مــن هــناك، قاده رئيس البلدية إلى الزاوية، حيث أجلسه على كرسي أثري مــريح أمام طاولة أثرية رائعة. أدار مسجلته، وأمضى بقية الأمسية يستمع إلى قصة تلو الأخرى حول اللقاءات مع الأشباح. تكفل رئيس البلدية بجمع المتحدثين الذين دردشــوا بإثــارة بيــنما هم ينتظرون دورهم لمقابلته، كما لو أنه يوقع كتاباً أو أسطوانة.

للأسف، أغلب القصص التي سمعها متشابهة. كل شخص في الخطّ، ادّعى أنه رأى الأنــوار، لكــن كــل واحد منهم أعطى وصفاً مختلفاً. البعض أقسموا بأن الأشــباح بدوا مثل الناس، فيما شبّههم آخرون بأضواء متوهجة. رجل واحد قال بــأنهم بدوا كمن يلتفون بملاءات بيضاء. أكثرهم ثقة، ويدعى جو، قال بأنه رأى الأضــواء عدة مرات، وقال بثقة إنهم يشبهون أضواء لافتة البيغلي ويغلي المتوهجة على الطريق السريع 54 قرب بلدة فانسيربورو.

في نفــس الوقت، كانت ليكسي دائماً في المحيط تتكلّم مع الناس المختلفين،

وبين الحين والآخر، تتقابل عيونهما فيما كل منهما منشغل بمحادثة الآخرين. وكما لو أنهما يتشاركان في نكتة خاصّة، كانت تبتسم وترفع حاجبيها كما لو أنها تسأله عما أتى به إلى هنا؟

فكّـر جيرمـي أن ليكسي لم تكن مثل أي امرأة صادقها مؤخراً. لم تخفِ ما كانـت تفكـر به، ولم تحاول أن تنال إعجابه، ولم تتأثر بأي من إنجازاته السابقة. بـدلاً من ذلك، بدت وكأنها تقيّمه لما هو عليه اليوم، الآن، بدون أن تحمل الماضي أو المستقبل ضدّه.

هـذا بالضـبط أحـد أسباب زواجه بماريا. لم يكن فقط الوهج المندفع من العاطفـة الـتي شعر بها عندما مارسا الجنس للمرة الأولى - والذي كان رائعاً بالمناسبة - ولكنها الأشياء البسيطة التي أقنعته بأنها كانت المرأة المناسبة له. سهولة تواجدها دون توتر بين الحشود، والأسلوب الفولاذي الذي واجهته به عندما كان يخطـئ، والصـبر الذي تحلت به وهي تستمع إليه عندما يكافح لمواجهة المشاكل المعقـدة. ومـع أنه وليكسي لم يتشاركا بعد بتفاصيل الحياة اليومية، لم يقوَ على تخطي فكرة أنها ستكون مميزة في تعاملها مع هذه الأمور إذا ما صممت على ذلك.

أدرك جيرمـي بأنهـا تتمتع بمودّة أصيلة تجاه الناس هنا، وبدت تهتمّ حقاً بما كانوا يقولونه. سلوكها أوحى بأنها لم تكن قط في عجلة للإسراع أو لقطع محادثة مـع شخص آخر، ولم تتردّد في إطلاق ضحكات جهورية عندما تجد أمراً مسلياً. بـين الحـين والآخر، كانت تنحني لمعانقة شخص ما، وتنسحب، وتمد يديها نحو الناس وتغمغم شيئاً من قبيل: "أنا مسرورة جداً لرؤيتك ثانية". إنها لم تعتبر نفسها مميزة، أو حتى لم تلاحظ كيف ينظر إليها الآخرون، مما ذكّر جيرمي بعمّة له كانت دائماً الشخص الأكثر شعبية في وجبات عشاء العطلة، ببساطة لأنها ركّزت انتباهها بالكامل على الآخرين.

بعـد دقـائق قليلة، وعندما وقف ليمدد ساقيه، رأى جيرمي ليكسي تتحرّك نحـوه، مـع نفحة من الإغراء في حركة وركيها اللطيفة. وفيما هو يراقبها، مرت لحظة، لحظة واحدة، عندما بدا المشهد كما لو أنه لا يحصل الآن، بل في المستقبل.. فقط جلسة صغيرة أخرى في قائمة طويلة من جلسات بلدة جنوبيّة صغيرة جداً في مكان مجهول.

الفصل العاشر

في نهايـــة الأمسية، وقف جيرمي مع رئيس البلدية على الشرفة، فيما انتحت دوريس وليكسي جانباً.

قال غيركن: "آمل أن تكون الأمسية قد نالت رضاك. وأنك عاينت بنفسك الفرصة الرائعة التي أتاحتها لك هذه القصة".

"فعـــلاً، شكراً لك. ولكن لم يكن من داعٍ لكل هذا التعب"، قال جيرمي محتجّاً.

ردّ غيركن: "هراء، إنه أقل ما يمكننا فعله. عدا عن ذلك، أردتك أن ترى ما تستطيع هذه البلدة فعله عندما تصمم على أمر ما. سأترك لك أن تتخيل ما سنفعله لأجـــل طـــاقم الـــتلفزيون. بالطبع، ستتذوق المزيد من نكهة البلدة في عطلة نهاية الأسبوع أيضاً؛ جو البلدة الصغيرة، وإحساس السفر إلى الماضي عندما تمرّ بالمنازل لا يشابهه إحساس آخر".

قال جيرمي: "ما من شك".

تبسّـــم غيركن. "حسناً، اسمع. عليَّ أن أقوم ببعض الأعمال في الداخل. عمل رئيس البلدية لا ينتهي، كما تعلم".

"بالتأكـــيد، وبالمناسبة، أود أن أشكرك على هذا"، قال جيرمي ورفع مفتاح البلدة.

"أوه، مرحـــباً بك. أنت تستحقه". ثم أمسك بيد جيرمي، "ولكن لا تخامرك أفكار غريبة. ليس هذا مفتاح لخزنة البنك أو ما شابه. إنه مجرد عربون تقدير".

تبسّـــم جيرمـــي عندما ضغط غيركن على يده. وبعد أن اختفى غيركن في الداخـــل، اقتربت ليكسي ودوريس من جيرمي، وابتسامتان ساحرتان مرتسمتان

على وجهيهما. رغم ذلك، لاحظ جيرمي أن الإرهاق بادٍ على محيّا دوريس.

قالت دوريس: "عليَّ اللعنة".

"ماذا؟"

"أنت وأساليب ابن المدينة الماكرة".

"عفواً؟"

"ليتك استمعت إلى الطريقة التي يتكلمون بها عنك". قالت دوريس ساخرة. "شعرْت أني محظوظة لأني عرفتك قبل اليوم".

تبسّم جيرمي ابتسامة طفوليّة. "كانت أمسية مجنونة، أليس كذلك؟"

"لا شـــك. مجموعـــة الدراسات الدينية الخاصة بي أمضت الأمسية بأكملها تمـــتدح وسامتك. بعضهن أردن استضافتك في منازلهن، ولكني نجحت في إقناعهن بألاّ يفعلن، لا أظن أن أزواجهن كانوا سيسعدون بهكذا مفاجأة".

"أقدر لك مجهودك".

"هـــل أكلـــت بمـــا فيه الكفاية، يمكنني أن أحضّر لك بعض الطعام لو كنت جائعاً".

"لا، أنا بخير، شكراً".

"متأكد؟ ليلتك ما تزال في بدايتها، صحيح؟"

"ســـأكون على خير ما يرام"، قال مطمئناً. خلال الصمت، نظر حوله ولفته أن الضباب ازداد كثافة. "بالحديث عن الأمسية، أعتقد أنه حان وقت المغادرة. لا أطيق فكرة إضاعة فرصة التلاقي مع ما وراء الطبيعة".

قالـــت دوريس: "لا تقلق. لن تفوتك الأنوار. لا تظهر حتى وقت متأخر، ما زال عـــندك بضـــع ساعات". وفوجئ جيرمي عندما اقتربت منه واحتضنته رغم تعـــبها. "أردت فقط أن أشكرك على الوقت الذي أمضيته للقاء الجميع. لا يتمتع كل الغرباء بمواهبك في الإصغاء".

"لا مشكلة. استمتعت بلقائهم".

وبعد أن أطلقت دوريس سراحه، وجَّه جيرمي انتباهه صوب ليكسي، وخطر

له أن العيش مع دوريس شديد الشبه بالعيش مع والدته.

"جاهزة للذهاب؟"

أومأت ليكسي دون أن تنبس بأي كلمة. بدلاً من ذلك، قبّلت دوريس على خدها، وقالت بأنها ستراها غداً، وبعد لحظة، كان جيرمي وليكسي يمشيان إلى السيارة، والحصى تصدر أصواتاً خافتة تحت أقدامهما. بدت شاردة، وبعد فترة من الصمت، دفع جيرمي كتفها بكتفه.

"هل أنت بخير، أنت هادئة جداً؟"

هزّت رأسها وعادت إلى الواقع. "كنت أفكر في دوريس. أتعبتها الليلة حقاً، وبالرغم من أني يجب أن لا أقلق عليها، لا أستطيع أن أمنع نفسي".

"بدت بخير".

"نعم، إنها ممثلة بارعة. ولكنها يجب أن تعتاد على أخذ الأمور بسهولة أكبر. أصيبت بنوبة قلبية قبل سنتين، لكنها تحب أن تدعي بأنها حادثة لم تقع. الأهم أن أمامها عطلة نهاية أسبوع حافلة أيضاً".

لم يعرف جيرمي ماذا يجب أن يقول. لم ترد له فكرة أن دوريس لم تكن بأتمّ صحتها.

لاحظت ليكسي انزعاجه وابتسمت. "لكنها روحت عن نفسها، أنا متأكدة. سنحت لنا فرصة الحديث مع كثير من الناس بعد غياب طويل".

"كنت أظن أن الجميع هنا يرون بعضهم بعضاً طوال الوقت".

"نعم بالفعل. ولكنّ الناس مشغولون، ونادراً ما تتاح لنا فرصة مناسبة لنتحادث بين الأشغال. الأمسية كانت لطيفة رغم كل شيء". ثم التفتت نحوه. "دوريس على حقّ. الناس أحبّوك".

بدت مندهشة من صراحتها، ودفع جيرمي يديه داخل جيبيه.

"حسناً، ما من داعٍ للدهشة. أنا محبّب جداً كما تعلمين".

قلبت عينيها، وبدت مازحة أكثر منها منزعجة. خلفهما، اختفى البيت وراء السياج.

"هاي، أعرف بأنه ليس من شأني، ولكن كيف سارت الأمور مع رودني؟"

تردّدت قليلاً قبل أن تقول باستهجان: "معك حق، ليس من شأنك".

بحـــث عن ابتسامة على وجهها، ولكنه لم يرَ شيئاً. "حسناً، السبب الوحيد الذي دفعني للسؤال هو أني أريد أن أعرف ما إذا كنت تعتقدين أنها فكرة جيدة أن أنسلّ إلى خارج البلدة تحت جنح الظلام لكي لا يحطّم رأسي بيديه العاريتين".

ابتسمت. "ستكون على ما يرام. عدا عن ذلك، ستحطم قلب رئيس البلدية إنْ غادرت. لا يحظى كل زائر بحفلة كهذه أو بمفتاح للبلدة".

"إنه أول مفتاح أتسلمه. في العادة أتلقى رسائل كراهية".

ضـــحكت ضحكة رنّانة. في ضوء القمر، لم يقدر أن يقرأ ملامحها، وذهب فكره إلى كم كانت تبدو حيوية بين أهل البلدة.

وصـــلا إلى الســـيارة وفتح الباب لها. وهي تصعد إلى السيارة، لامسته بعض الشـــيء، وتساءل إن فعلت ذلك عن قصد رداً على الطريقة التي دفعها بها، أو إن كانـــت قـــد لاحظت حتى. التفّ حول السيارة، وانـــزلق وراء عجلة القيادة،... وتردّد قليلاً قبل أن يدير المحرك.

سألته: "ماذا؟"

قال وهو يحدق: "كنت أفكّر...".

توقف عن الكلام، وأومأت هي بالمقابل. "أظن أنني سمعت صريراً".

"أنـــت مضـــحكة، كنت أحاول القول... إنه رغم تأخر الوقت، هل تودين مرافقتي إلى المقبرة؟"

"في حال أصبت بالخوف؟"

"شيء من هذا القبيل"؟

نظرت في ساعتها وفكرت... أوه..

يجـــب ألا تذهـــب. حقاً، يجب ألا تذهب. لقد فتحت النافذة بنفسها عندما جـــاءت معـــه اللـــيلة، وأن تمضي الساعات القليلة القادمة معه سيفتح الباب على مصـــراعيه. لـــن يـــتأتّى شيء جيد عن مرافقتها له، وما من سبب واحد يدفعها

للموافقة. ولكن قبل أن تتمكن من ردع نفسها، غلبتها الكلمات.

"يجب أن أمر بالمنـــزل لأرتدي ثياباً مريحة".

"عظيم، أنا مع التغيير إلى ثياب مريحة".

"أراهن أنك صادق"، قالت بثقة.

"الآن، لا تتذاكي عليَّ. لا أظن أننا نعرف بعضنا البعض كفاية لذلك".

"هذه جملتي".

"ظننت أنه سبق لي أن سمعتها".

"حسناً، استخدم جملك الخاصة في المرة القادمة. وفقط لكي تعرف، لا أريد أن تراودك أي أفكار مضحكة حول الليلة".

"لا تتوارد لدي أية أفكار مضحكة. أنا مجرّد بالكامل من المرح".

"تعرف ما قصدته".

"لا"، قال مدّعياً البراءة. "ماذا كنت تقصدين؟"

"قم بالقيادة، هلاّ تفضلت؟ أو أني سأغيّر رأيي".

"حسناً، حسناً"، ثم أدار المفتاح. "أوف، كم أنت ملحّة أحياناً".

"شكراً لك، قيل لي بأنها أفضل صفاتي".

"من قِبَل من؟"

"أحقاً تريد أن تعرف؟"

طـــوت سيارة التوروس الشوارع الضبابية، وساهمت أضواء الضباب الصفراء في إضـــفاء المـــزيد مـــن العتمة على الليل. وحالما اقتربا من مدخل البيت، فتحت الباب.

"انـــتظر هـــنا"، قالـــت ودسّت خصلة الشعر وراء أذنها. "سأعود بعد بضع دقائق".

تبسّم، وسعد لأنها عصبية.

"هل تحتاجين إلى مفتاح البلدة لفتح الباب؟ سأكون سعيداً بأن أعيرك إياه".

للموافقة. ولكن قبل أن تتمكن من ردع نفسها، غلبتها الكلمات.

"يجب أن أمر بالمنـــزل لأرتدي ثياباً مريحة".

"عظيم، أنا مع التغيير إلى ثياب مريحة".

"أراهن أنك صادق"، قالت بثقة.

"الآن، لا تتذاكي عليَّ. لا أظن أننا نعرف بعضنا البعض كفاية لذلك".

"هذه جملتي".

"ظننت أنه سبق لي أن سمعتها".

"حسناً، استخدم جملك الخاصة في المرة القادمة. وفقط لكي تعرف، لا أريد أن تراودك أي أفكار مضحكة حول الليلة".

"لا تتوارد لدي أية أفكار مضحكة. أنا مجرّد بالكامل من المرح".

"تعرف ما قصدته".

"لا"، قال مدّعياً البراءة. "ماذا كنت تقصدين؟"

"قم بالقيادة، هلاّ تفضلت؟ أو أني سأغيّر رأيي".

"حسناً، حسناً"، ثم أدار المفتاح. "أوف، كم أنت ملحّة أحياناً".

"شكراً لك، قيل لي بأنها أفضل صفاتي".

"من قِبَل من؟"

"أحقاً تريد أن تعرف؟"

طـــوت سيارة التوروس الشوارع الضبابية، وساهمت أضواء الضباب الصفراء في إضـــفاء المـــزيد مـــن العتمة على الليل. وحالما اقتربا من مدخل البيت، فتحت الباب.

"انـــتظر هـــنا"، قالـــت ودسّت خصلة الشعر وراء أذنها. "سأعود بعد بضع دقائق".

تبسّم، وسعد لأنها عصبية.

"هل تحتاجين إلى مفتاح البلدة لفتح الباب؟ سأكون سعيداً بأن أعيرك إياه".

"الآن، لا تظـــنـنّ أنك مميز، سيد مارش. حصلت أمي على مفتاح البلدة هي الأخرى".

"هل عدنا إلى السيد مارش ثانية؟ وها أنا كنت أظن أننا على ما يرام".

"وأنا صرت أظن أن الأمسية أثّرت على تفكيرك".

نـــزلـــت مـــن الســـيارة وأغلقت باب السيارة وراءها في محاولة للاحتفاظ بالكـــلمة الأخيرة. ضحك جيرمي، وفكر بأنها تشبهه كثيراً. لم يقوَ على المقاومة، ضغط على زر النافذة وأنـــزلها ثم اتكأ على المقعد.

"ليكسي؟"

استدارت. "نعم؟"

"بما أن الطقس سيكون بارداً الليلة، لا تتردّدي في إحضار قنينة شراب".

وضعت يديها على وركيها، "ماذا؟ أتريد أن تجهدني بكثرة الشراب؟"

ابتسم ابتسامة عريضة. "فقط إذا أردت!"

ضاقت عيناها، ولكن مثل السابق، بدت لعوبة أكثر منها منـــزعجة ثم قالت: "عدا عن أني لا أحتفظ بالشراب في بيتي سيد مارش، سأقول لا على أي حال".

"ألا تشربين؟"

قالـــت له: "ليس كثيراً، الآن انتظرني هنا"، قالت محذرة وأشارت إلى الممر. "سأذهب لأرتدي سروال جينـــز".

"أعدك حتى ألا أحاول أن أتلصص من النافذة!"

"فكرة سديدة، وإلا فأنا مضطرة لإخبار رودني عن قيامك بعمل غبي من هذا القبيل".

"لا يبدو الأمر واعداً!"

"صـــدقني"، قالـــت وهي تحاول استجماع نظرة صادقة، "ليس عندي أدنى شك".

راقبها جيرمي وهي تتحرك في الممرّ. بالتأكيد لم يلتقِ بامرأة مثلها من قبل.

بعـــد ربع ساعة، توقفا أمام مقبرة سيدر كريك. أوقف السيارة بزاوية معينة

بحيث أنارت أضواء السيارة داخل المقبرة، وأول فكرة راودته أن الضباب في هذه المنطقة يبدو مختلفاً. كان كثيفاً وغير قابل للاختراق في بعض الأماكن، ورقيقاً في أماكن أخرى. ورسم النسيم الرقيق منحنيات والتفافات خفيفة، كما لو أنه مخلوق حيّ. أغصان شجرة الماغنوليا الواطئة لم تكن سوى ظلال داكنة، وأضافت شواهد القبور المتداعية في التأثير المخيف. كان الظلام شديداً لدرجة أن جيرمي كان غير قادر على تمييز أي وجود للقمر في السماء.

ترك محرك السيارة شغالاً، وفتح صندوقها. وفيما هو يبحث في الأغراض، اتسعت عينا ليكسي.

"يبدو لي أنك تمتلك المعدات لبناء قنبلة هنا؟"

"لا، فقط بضع أدوات رائعة. الرجال يحبون مثل هذه الألعاب كما تعلمين".

"كنت أظن أنك قد تكتفي بكاميرا فيديو أو شيء من هذا القبيل".

"فعلاً. عندي أربع كاميرات".

"ولماذا تحتاج إلى أربع؟"

"لتصوير كل زاوية، بالطبع. على سبيل المثال، ماذا لو كانت الأشباح تسير بالاتجاه الخطأ؟ عندئذٍ لا التقط وجهها؟"

تجاهلت تعليقه. "وما هذا؟" سألته وأشارت إلى صندوق إلكتروني.

"كاشف إشعاع مايكروويف. أما هذا"، وأشار إلى أداة أخرى. "فيكتشف النشاط الكهرومغناطيسي".

"أنت تمزح".

"لا، إنه في كتيب *غلام الأشباح* الرسمي. في أغلب الأحيان تجدين نشاطاً روحياً متزايداً في المناطق حيث توجد تجمعات عالية من الطاقة، وهذا يساعد على اكتشاف حقل طاقة غير طبيعي".

"هل سبق وأن سجلت وجود حقل طاقة غير طبيعي؟"

"في واقع الأمر، نعم. في ما كان يفترض بأنه منزل مسكون، لا أقل! للأسف، لم تكن له علاقة بالأشباح، بل إن فرن المايكروويف في المنزل لم يكن

يعمل بشكل صحيح.

"آه!"

نظر إليها. "الآن أنت من يسرق كلماتي!"

" لم أجد كلمة مناسبة، آسفة".

"لا بأس، سأتشارك معك فيها".

"ولماذا كل هذه المعدات؟"

"لأنـــي عـــندما أستبعد فرضية وجود الأشباح، عليَّ أن أستخدم كل شيء يستخدمه المحققون في الظواهر ما فوق الطبيعية. لا أريد أن أتهم بإضاعة أي فرصة. وهؤلاء الناس عندهم قواعد محددة. أضيفي إلى ذلك أن شخصاً يقرأ عن استخدام كاشف كهرومغناطيسي سيعتقد بأني أدرك ما أفعل".

"وهل أنت تفعل؟"

"بالتأكيد، أخبرتك أن عندي الكتيب الرسمي".

ضـــحكت. "هـــل ثمة ما أساعدك به؟ هل تحتاج إلى مساعدة في حمل هذه المعدات؟"

"نحـــن نستعملها كلها. ولكن إذا كنت تعتقدين أنه عمل رجولي، فأنا متأكد بأنني قادر على التعامل مع المعدات وحدي بينما أنت تصبغين أظافرك أو شيء من هذا القبيل".

سحبت إحدى كاميرات التصوير وقذفتها على كتفها ثم أمسكت بالأخرى.

"موافقة، سيدي الرجولي، بأي اتجاه؟"

"هذا يعتمد. أين يجب أن نبدأ؟ بما أنك رأيت الأنوار، ربما كان عندك بعض الأفكار".

أومـــأت باتجاه شجرة الماغنوليا، إلى حيث كانت متجهة في أول مرة عندما رآها في المقبرة.

قالت: "هناك، هناك سترى الأنوار".

كانت البقعة مباشرة أمام تل ريكر، رغم أن التل قد اختفى وراء الضباب.

"هل يظهرون دائماً في نفس البقعة؟"

"ليس لدي أي فكرة. لكني رأيتهم في ذلك المكان".

على امتداد الساعة القادمة، وفيما انشغلت ليكسي بتصويره بإحدى كاميراته، قام جيرمي بتركيب المعدات. ركّز الكاميرات الثلاث المتبقية في مثلث كبير على الحاملات الثلاثية، وعلّق عدسات الترشيح الخاصة على اثنتين منها، وعدّل التركيز بحيث غطّت الكاميرات المنطقة بأكملها. واختبر معدات التحكم عن بعد العاملة بالليزر. ثم بدأ بالأجهزة السمعية وربط أربعة مكبّرات صوت بالأشجار القريبة، والخامس في الوسط حيث وضع كاشفات الحقل الكهرومغناطيسي والإشعاعي وأيضاً مسجلة مركزية.

وفيما هو يتأكد من أن كل المعدات تعمل بصورة صحيحة، سمع ليكسي تصيح به.

"هاي، كيف أبدو؟"

استدار ورآها تضع جهاز الرؤية الليلي وتشبه الحشرة.

"جذابة جداً، أظن أنك وجدت أسلوبك بالتأكيد".

"هذه الأشياء لطيفة، يمكنني أن أرى كل شيء هنا!"

"أي شيء يجب أن أقلق بشأنه؟"

"فيما عدا أسدين جائعين ودب، لا شيء عداك".

"حسناً، لقد انتهيت هنا تقريباً. بقي عليَّ رشّ بعض الطحين وفك بعض الخيوط".

"طحين! أتقصد كطحين القمح؟"

"من أجل التأكّد من أن لا أحد يعبث بالأجهزة. من خلال الطحين يمكنني أن أتحقق من الآثار، والخيط سينبهني من اقتراب شخص آخر".

"ذلك ذكي جداً. لكنك تعلم بأننا هنا وحدنا، أليس كذلك؟"

"لا يمكنني أن أكون متأكداً".

"أوه، أنا متأكدة. لكن عليك أن تنهي ما تقوم به على أي حال، وأنا سأبقي

الكاميرا موجّهة بالاتجاه الصحيح. بالمناسبة، إنك تقوم بعمل رائع".

ضـــحك بينما فتح كيس الطحين وبدأ ينشره، وأحاط آلات التصوير بطبقة بيضاء. وكذلك الحال مع مكبّرات الصوت والأجهزة الأخرى، ثم ربط الخيط إلى فـــرع وشكل دائرة كبيرة حول المنطقة بأكملها كما لو أنه يغلق مشهد جريمة. ثم مـــرّر خيطاً ثانياً حوالى قدمين (90 سم) تحت الخيط الأول، وعلّق أجراساً صغيرة على الخيط. وعندما انتهى أخيراً، عاد إلى ليكسي.

قالت له: "لم أكن أعلم أن هناك الكثير من العمل".

"أظن أنك كوّنت مستوى تقدير مختلف لي، أليس كذلك؟"

"ليس بالضرورة. كنت فقط أحاول أن أفتح حديثاً".

تبسّـــم قبل أن يشير إلى السيارة. "سأذهب لأطفئ الأضواء في السيارة، على أمل ألا يضيع كل التعب سدى".

عندما أطفأ المحرك، غرقت المقبرة بأكملها في ظلام دامس، وانتظر قليلاً لكي تعتاد عيناه على الظلام. للأسف، لم تفعلا لأن المقبرة كانت أشد ظلمة من كهف. اضـــطر لتلمس طريق العودة إلى البوابة مثل هواة اكتشاف الكهوف، وتعثر بأحد الجذور المكشوفة داخل المقبرة وكاد يقع.

"هلاّ أعطيتني منظار الرؤية الليلية؟" قال صائحاً.

"لا". جـــاء الجواب. "كما قلت، إنها أجهزة رائعة، وفيما عدا ذلك، فأنت بخير".

"لكني لا أستطيع أن أرى أمامي".

"الطريق مفتوح أمامك، تابع المسير".

اقترب إلى الأمام ببطء ويداه ممتدتان أمامه.

"ماذا الآن؟"

"أنـــت أمـــام ضـــريح، تحرّك يساراً". فكّر جيرمي بأنها حسبما يبدو تتمتع بالأحداث.

"أنت لا تلعبين اللعبة بشكل صحيح".

"هل تريد المساعدة أم لا؟"

قال مترجّياً: "أنا أريد منظاري لا غير".

"إذاً عليك أن تأتي لتحصل عليه بنفسك".

"أو تستطيعين أن تأتي لإنقاذي بنفسك".

"أســتطيع، ولكني لن أفعل، من المرح أن أراك تسير مثل المومياء. الآن تحرك إلى اليسار. سأقول لك متى تتوقف".

تتابعت اللعبة على هذا المنوال إلى أن وجد سبيله أخيراً إلى جانبها. لما جلس، خلعت النظارات وأعطته إياها.

"هاك النظارات".

"أووه، شكراً".

"لا مشكلة، من دواعي سروري أن أساعدك".

أمضيا النصف ساعة القادمة في إعادة سرد أحداث الحفلة. بسبب الظلام، لم يقدر أن يقرأ ملامح ليكسي، ولكنه أحب قربه منها في هذا الظلام المطبق.

غيّر مسار الحديث قائلاً: "أخبريني عن الوقت الذي رأيتِ فيه الأنوار. سمعت قصص الجميع الليلة فيمن عداك".

مع أن ملامحها لم تتعدَّ كونها ظلالاً، شعر جيرمي بأنها عادت بالزمن إلى وقت لم تكن في وارد تذكّره.

"كنــت بعمــر الثامــنة"، قالــت بصوت ناعم. "لسبب ما، بدأت أصاب بالكوابــيس عـــن والديّ. احتفظت دوريس بصورة زفافهما على الجدار، وهكذا ظهـــرا لي دائماً في الأحلام: أمي في ثوب الزفاف ووالدي في البذلة الرسمية. هذه المـــرة، كانا محتجزين في السيارة بعد أن سقطت في النهر، وأمكنني أن أرى الذعر والخـــوف على وجهيهما فيما امتلأت السيارة بالماء شيئاً فشيئاً. وتظهر مسحة من الحزن الشديد على وجه أمي، كما لو أنها أدركت أنها النهاية، وفجأة، تبدأ السيارة بالغرق بسرعة، وأنا أشاهد غرقها من الأعلى".

الغريب أن صوتها كان مجرّداً من العاطفة، ثم تنهدت.

"ثم أستيقظ وأنا أصرخ. لا أعرف كم مرة تكرر الحلم. الآن تختلط عليَّ الذكريات، ولكن لا بد من أن الحالة استمرت بما فيه الكفاية لتدرك دوريس أنها لم تكن مجرد مرحلة عابرة. آباء غير دوريس ربما أخذوني إلى عيادة طبيب لمعاينتي، ولكن دوريس.. حسناً.. ذات ليلة، أيقظتني في وقت متأخر، وطلبت مني أن أرتدي ملابس دافئة. وكل ما أعرفه أنها أحضرتني إلى هنا. أخبرتني أنها ستريني مشهداً رائعاً...

أتذكر أنها كانت ليلة مثل هذه الليلة. أمسكت دوريس بيدي كي لا أتعثر، وشقت طريقها بين القبور وبعدها جلسنا لفترة حتى جاءت الأنوار. بدوا وكأنهم أحياء. أضاء كل شيء... حتى اختفت الأضواء شيئاً فشيئاً، وعدنا أدراجنا إلى المنزل".

أمكنه أن يسمعها تهزّ كتفيها بلا مبالاة. "رغم أني كنت يانعة، عرفت ما كان قد حصل، وعندما عدنا إلى المنزل، لم أستطع النوم لأني رأيت للتو شبحي أهلي، وكأنهما جاءا لزيارتي. بعدها، توقفت الكوابيس".

بقي جيرمي صامتاً.

اقتربت منه، "هل تصدقني؟"

"نعم، في الحقيقة، أصدقك. قصتك هي الوحيدة التي كنت سأتذكرها من قصص الليلة، حتى لو لم أكن أعرفك".

"حسناً، فقط لكي تعرف، أفضل ألا تظهر قصتي في مقالتك".

"هَلْ أنت متأكّدة؟ يُمكنُ أنْ تصبحي مشهورة".

"لا شكراً. أنا شاهدة عيان على أن الشهرة يمكن أن تدمّر شخصاً".

ضحك. "بما أن القصة ليست للنشر، هل يمكن أن أسألك إن كانت ذكرياتك جزءاً من السبب الذي دفعك لمرافقتي الليلة؟ أو أنك فقط أردت أن تتمتعي بصحبتي المتألقة؟"

"حسناً، بكل تأكيد ليس الاحتمال الأخير"، ولكنها انتبهت إلى أنها وهي تنطق بالنفي كانت تناقض نفسها. خطر لها أنه انتبه إلى الأمر أيضاً، ولكنها لوهلة

أحسّت بأن كلماتها لسعته.

قالت: "أنا آسفة".

"لا تقلقـــي. تذكري، لدي خمسة إخوة أكبر سناً. الإهانات كَانتْ إلزامية في عائلة مثل عائلتنا. لذا أنا معتاد على هذه التعليقات".

عدّلـــت جلســـتها. "حسناً، إجابة عن سؤالك، ربما أردت أن أحضر لرؤية الأنوار مرة ثانية. لطالما كانت مبعثاً على الراحة".

حمل جيرمي غصناً صغيراً عن الأرض ورماه جانباً.

"جدتك كانت سيدة ذكية. أقصد، ما فعلته".

"إنها بالفعل سيدة ذكية".

"نعـــم، أصـــحح مقولتي، إنها سيدة ذكية"، قال، وفي تلك اللحظة تحركت ليكسي قربه، وكأنها تتطاول لترى شيئاً بعيداً.

"أظن أن الوقت قد حان لتشغل أجهزتك".

"لماذا؟"

"لأنهم قادمون، ألم تشعر بقدومهم؟"

كاد يطلق نكتة عن كونه عصياً على الأشباح عندما لاحظ أنه صار بمقدوره أن يـــرى ليكسي، كما صار قادراً على رؤية الكاميرات البعيدة، وكذلك الطريق المؤدي إلى السيارة. أنير المكان بأكمله بطريقة أفضل، أليس كذلك؟

"أهلاً"، قالت له. "قد تفوت عليك فرصتك الكبيرة هنا".

حـــدّق، محاولاً أن يتأكد من أن عينيه لا تخونانه. ثم وجه جهاز التحكم عن بعد إلى كل من الكاميرات الثلاث. من بعيد، أضاءت الأنوار الحمراء. ومع ذلك، لم يستطع القيام بأي أمر آخر في مواجهة الحدث حوله.

نظـــر حولـــه باحثاً عن سيارات عابرة أو أنـــوار منازل، وعندما نظـــر إلى الكـــاميرات مرة أخرى، تيقّن أنه بالتأكيد ليس واهماً. ليس لأن الكاميرات كانت مرئـــية، بل لأنه صار قادراً على رؤية الكاشف الكهرومغناطيسي في مركز المثلث أيضاً. مد يده إلى نظارات الرؤية الليلية.

قالت: "لَن تَحتاج إليها".

وضـــع النظارات على عينيه استعداداً، واستحال العالم إلى اللون الفوسفوري المخضـــر. وفـــيما ازدادت كثافة الضوء، بدأ الضباب بالتقوس والالتفاف، متخذاً أشكالاً مختلفة.

نظر إلى ساعته. كانت الساعة 11:44:10 مساءً، وسجل ملاحظة للتذكير. تساءل إن كان القمر قد ظهر فجأة رغم استبعاد الفكرة، ولكنه سيتأكد من أوجه القمر،عندما يصل إلى غرفته في غرينليف.

لكنها كانت أفكاراً ثانوية. الضباب - كما كانت ليكسي قد تنبأت - ازداد توهجاً، فخفض نظاراته للحظة لمراقبة الفارق في الصور. ازداد التوهج في الخارج، لكن التغيير بدا أكثر وضوحاً باستخدام نظارات الرؤية الليلية. لم يطق صبراً لمقارنة الصـــور المسجلة على أشرطة الفيديو جنباً إلى جنب. لكن كل ما كان يمكن عمله الآن كان التحديق المستمر إلى الأمام، هذه المرة بدون نظارات الرؤية الليلية.

حـــبس أنفاســـه، وراقبَ فيما أصبح الضباب فضيّ اللون كل لحظة، قبل أن يـــتحول اللون إلى أصفر شاحب، ثم أبيض سميك، وأخيراً إلى وهج يعمي الأبصار. ولـــلحظة، لـــلحظة واحدة فقط، كان أغلب المقبرة مرئياً وكأنها ملعب كرة قدم مضـــاء قبل مباراة كبرى، فيما بدأت بعض أجزاء النور الضبابي بالتحرك في دوائر صغيرة قبل أن تنتشر في جميع الاتجاهات مثل نجم متفجر. للحظة، تخيّل جيرمي بأنه رأى أشكال أناس أو أشياء. ولحظتها، بدأت الأنوار بالانحسار، وقبل أن يدرك أن الأنوار كانت قد اختفت، اسودت المقبرة مرة أخرى.

رمش، كما لو أنه يطمئن بأن ما حصل قد حصل بالفعل، ثم نظر إلى ساعته مـــرة ثانية. استغرق الحدث بأكمله اثنتين وعشرين ثانية من البداية وحتى النهاية. ومـــع أنه كان يدرك أن عليه أن ينهض ليتفقد الأجهزة، أمضى لحظة يحدق بجمود في موقع ظهور أشباح سيدر كريك.

الاحتـــيال، أو الأخطـــاء غير المقصودة، أو المصادفات هي التفسيرات الأكثر شـــيوعاً للأحداث التي تعتبر فوق الطبيعة. وحتى اللحظة، كل تحقيقات جيرمي في مـــثل هذه الأحداث صنفت ضمن أحد تلك التفسيرات الثلاثة. الاحتمال الأول،

أي الاحتـيال، كـان التفسير الأوسع انتشاراً في الأحداث التي يسعى من خلالها أحدهم لتحقيق بعض الأرباح. ويليام نيويل، على سبيل المثال، وهو الذي ادعى أنه وجد البقايا المتحجرة لعملاق في مزرعته في نيويورك في عام 1869، في تمثال صار يعـرف بعملاق كارديف، يقع ضمن هذا التصنيف. أما تيموثي كلوسن، الدليل الروحي، فكان مثالاً آخر.

لكـنّ الاحتيال شمل أيضاً أولئك الذين أرادوا ببساطة أَنْ يَروا كم من الناس يمكـنهم أن يخدعـوا، لا بهـدف جني المال، بل لاختبار الإمكانية فحسب. كان المزارعان الإنكليزيان دوغ باور وديف تشورلي اللذان قاما بإيجاد الظاهرة المعروفة بدوائر المحاصيل مثالاً على ذلك. أما الطبيب الذي صوّرَ وحش بحيرة نيسَ في العام 1933 فكـان مثالاً آخر. في الحالتين، الخدعة مورست أصلاً على سبيل النكتة، لكـن الاهـتمام العام تصاعد بوتيرة مرتفعة بحيث أضحى الاعتراف بالحقيقة أمراً صعباً.

أمـا الأخطـاء الصادقة، من ناحية أخرى، فهي تفسّر نفسها. بالون لمراقبة الطقس يعتقد على سبيل الخطأ أنه صحن طائر. دب يعتقد أنه عملاق أسطوري، أو اكتشاف أثري يتبيّن أنه تم نقله إلى موقعه الحالي بعد مئات أو آلاف السنين من إنشـائه. في تلـك الحالات، يرى الشاهد أمراً، لكن العقل يستنبط رؤية أمر آخر كلياً.

أمـا المصـادفات فكانت التفسير وراء بقية الأحداث، وكانت بكل بساطة نتيجة احتمالات رياضيّة. فمهما كان الحدث عصيّاً على التصديق، كان محتملاً من الناحـية النظرية، فمن المحتم أن يحصل في وقت ما، في مكان ما، والى شخص ما. عـلى سبيل المثال، رواية روبرت مورغان - المبتكر - والتي نشرت عام 1898 - قبل أربعة عشر عاماً من إبحار سفينة التايتانيك - تروي قصة أكبر سفينة ركاب في الـتاريخ والتي أبحرت في رحلتها الأولى من ميناء ساوثهامبتون لتتمزق إرباً نتيجة اصطدامها بجبل جليدي، والتي قضى أغلب ركابها من الأغنياء والمشهورين في شمال المحـيط الأطلسـي المتجمد بسبب قلة قوارب النجاة. ولسخرية القدر، فإن اسم السفينة في الرواية كان تايتان.

لكـــن مـــا تجـــلى أمامه هنا لم يقع ضمن هذه التصنيفات. الأنوار التي رآها جيرمـــي لم تكـــن ضـــرباً من الاحتيال ولا مصادفة، كما أنها لم تكن خطأ غير مقصـــود. لا بد من أن هناك تفسيراً في مكان ما، ولكنه وهو جالس في المقبرة في تلك اللحظة لم تكن لديه أدنى فكرة!

خلال الحدث، بقيت ليكسي جالسة دون أن تتكلم. "حسناً؟" سألت أخيراً. "ماذا تعتقد؟"

"لا أعرف حتى الآن"، اعترف جيرمي. "رأيت شيئاً، بالتأكيد".

"هل سبق أن رأيت مثله؟"

قال: "لا. في الحقيقة، هذه المرة الأولى التي أرى فيها حدثاً بهذا الغموض".

"إنه مدهش، أليس كذلك؟" قالت بصوتها ناعم. "كدت أنسى كم هي جميلة هذه الأنوار. سمعت عن أوروا بورياليس، ولطالما سألت إن كان سيبدو مثل هذه".

لم يـــرد جيرمي. في ذهنه، أعاد إنشاء الأنوار، متذكراً طريقة اشتداد كثافتها بـــنفس الطـــريقة الـــتي تزداد فيها كثافة أنوار السيارات المقبلة عندما تلتف حول منعطف. لا بد بأن سبب الأنوار عربة متحركة من نوع ما. نظر باتجاه الطريق في انتظار مرور السيارات، ولكنه لم يكن مندهشاً لغيابها.

تركـــته ليكســـي يجلس في صمت لمدّة دقيقة وكادت تسمع صوت أفكاره! أخيراً، اتكأت للأمام ولامست ذراعه لاستعادة انتباهه.

"حسناً؟" سألت. "ماذا سنفعل الآن؟" هزّ جيرمي رأسه وعاد إليها تدريجياً.

"هل هناك طريق سريع حول المكان؟ أو طريق رئيسي آخر؟"

"فقط الطريق الذي أتيت منه والذي يمر داخل البلدة".

"هاه!" قال عابساً.

"ماذا؟ لا آه هذه المرة؟"

قـــال: "ليس بعد، مع ذلك، سأصل إليها". على الرغم من الظلام الدامس، اعتقد أنه كاد يرى ابتسامة ساخرة. "لماذا أشعر بأنك تعرفين المصدر؟"

"أنا لا أعرف". قالت، مدعية الخجل. "ماذا عنك؟"

"إنه مجرد انطباع عندي. أنا جيّد في قراءة الناس. رجل يدعى كلوسن علّمني أسراره".

ضحكت. "حسناً إذاً، أنت تعرف بماذا أفكر".

أعطته لحظة واحدة فقط قبل أن تقترب أكثر إلى الأمام. بدت عيناها مغريتين أكـــثر مـــن أي وقت مضى، ومع أن عقله كان في مكان آخر، تذكر صورها في الحفل وجمالها الأخّاذ.

"ألا تتذكر قصتي؟ إنهما أبواي، ربما أرادا أن يقابلاك".

هل كانت النغمة الخاصة باليتيم التي استخدمتها؛ تلك النغمة الحزينة والقوية في الوقت نفسه؟ أحسّ بكتل صغيرة تتشكل في حنجرته، أو كان عليه أن يحتضنها في ذراعيه الآن وهنا، ويبقى محتضناً إياها إلى الأبد.

بعد نصف ساعة، بعد أن قاما بتحميل الأجهزة، عادا إلى منـــزلها.

ســـاد الصمت في طريق العودة إلى المنـــزل، وعندما وصلا إلى أمام منـــزلها، أدرك جيرمي بأنه أمضى أكثر الوقت مفكّراً بشأن ليكسي أكثر من التفكير بشأن الأنوار. لم يرد للأمسية أن تنتهي، ليس بعد.

تردّد أمام الباب، وضعت ليكسي يدها أمام فمها متثائبة قبل أن تطلق ضحكة محرجة.

قالت: "آسفة على ذلك، في العادة لا أسهر حتى وقت متأخر".

"لا تقلقي، لقد أمضيت وقتاً رائعاً الليلة"، ولاقى نظرها بنظرته.

"وأنا كذلك". قالت بصدق.

اقـــترب مـــنها خطـــوة، وعندما أدركت بأنه كان يفكّر بتقبيلها، تظاهرت بالبحث عن غرض في سترتها.

"أفـــترض بـــأن الأمســـية وصلت إلى نهايتها إذا؟" قالت على أمل أن يفهم التلميح.

ســـألها: "هل أنت متأكّدة؟ يمكننا أن نشاهد الأشرطة في الداخل، إذا كنت تودين ذلك. ربما يمكنك أن تساعديني في فهم حقيقة الأضواء".

نظرت بعيداً بتعبير حزين...

قالت همساً: "لا تخرّب هذا من أجلي".

"أخرّب ماذا؟"

"هذا... كل شيء..." أغلقت عينيها، محاولة استجماع أفكارها. "أنت وأنا نعــرف لماذا تريد المجيء إلى الداخل. لكن حتى لو أردت أنا ذلك، فلن أسمح لك بالدخول. لذا رجاءً لا تسأل".

"هل أخطأت في أمر ما؟"

"لا. لم تخطــئ. لقد أمضيت نهاراً رائعاً. في الحقيقة، كان أفضل يوم منذ مدّة طويلة".

"إذاً ما خطبك؟"

"أنــت تلاحقني بالغزل منذ وصلت إلى هنا، ونحن نعرف ماذا سيحدث إذا تركتك تدخل من هذا الباب. لكنك ستترك البلدة. وعندما تفعل، سأكون أنا من يتأذى بعد ذلك. لذا لماذا تبدأ شيئاً ليس لك نية إنهائه؟"

مــع شــخص آخــر، مع أي شخص آخر، كان سينطق بأي كلام أو يغيّر الموضــوع حــتى يجد السبيل للدخول من الباب. ولكن لمّا نظر إليها على الشرفة، خانته الكلمات. وللغرابة، لم يكن بحاجة للكلمات هذه المرة.

"معك حق"، اعترف، مجبراً نفسه على الابتسام. "لنقل إن الأمسية وصلت إلى نهايتها. ربما يجب عليَّ أن أذهب لأبحث عن مصدر تلك الأنوار على أي حال".

لــلحظة، لم تكــن متأكّدة من أنها سمعته بشكل صحيح، لكن عندما تراجع خطوة إلى الوراء، نظرت في عينيه.

"شكراً لك".

"ليلة سعيدة، ليكسي".

أومــأت، وبعــد لحظــة صعبة، استدارت نحو الباب. أخذ جيرمي حركتها كفرصــة ليغادر، وكان قد خطا بعيداً عن الشرفة عندما سحبت ليكسي مفاتيحها من جيب سترتها، وكانت تمرر المفتاح باتجاه الباب عندما سمعت صوته وراءها.

صاح قائلاً: "ليكسي!"

في الضباب، لم يبدُ منه إلا خيال باهت.

"نعم!"

"أعـــرف بأنك قد لا تصدقيني، ولكنّ آخر شيء أود أن أفعله هو أن أؤذيك أو أجعلك تندمين لأننا التقينا".

مع أنها ابتسمت سريعاً على تعليقه، استدارت دون أي كلمة. عدم الردّ عنى له الكثير، وللمرة الأولى في حياته، لم يكن جيرمي خائب الأمل من نفسه فحسب، ولكن تمنّى فجأة لو أنه كان شخصاً آخر كليّاً.



الفصل الحادي العشر

كانت الطيور تزقزق، وبدأ الضباب بالتلاشي، وانطلق حيوان راكون مسرعاً عبر سقيفة البيت عندما رن هاتف جيرمي الخلويّ. اخترق الضوء الرمادي القاسي الستائر الممزّقة في وقت مبكّر من الصباح، وصفع عيني جيرمي مثل لكمة ملاكم.

نظرة سريعة إلى الساعة أظهرت أنها الثامنة صباحاً. إنه وقت مبكر جداً لكي تتكلم مع أي كان، وبالأخص بعد أن تكون قد قضيت الليل كله ساهراً. لقد تقدم به العمر كثيراً لقضاء ليالٍ من هذا النوع، وأجفل قليلاً قبل أن يتلمّس الهاتف.

قال متذمراً: "من الأفضل أن يكون أمراً مهماً".

"جيرمي؟ أهذا أنت؟ أين كنت؟ لماذا لم تتصل؟ أنا أحاول أن أتصل بك!"

نايت، فكّر جيرمي، وأغلق عينيه ثانية. يا إلهي يا نايت.

في هذه الأثناء، تابع نايت كلامه، لا بد من أنه قريب بعيد لرئيس البلدية، فكّر جيرمي. ضع هذين الاثنين في غرفة واحدة، وأقفل الباب، وصلهما بمولد كهربائي فيما هما يتكلمان، ويمكنهما أن يضيئا بروكلين لمدة شهر.

"قلت بأنك ستبقى على اتصال!"

أجبر جيرمي نفسه على الانتصاب إلى جانب السرير، مع أن جسمه كله كان يؤلمه.

قال: "آسف، نايت. ما زلت مشغولاً، والاستقبال ليس جيداً هنا".

"يجب أن تبقيني على اطلاع! حاولت أن أتصل بك طوال يوم أمس، لكني ما فتئت أصل إلى بريدك الصوتي. لا تستطيع أن تتخيل ماذا يجري. عندي منتجون يطاردونني ذات اليمين وذات اليسار، ويأتون إليّ بأفكار قد تود مناقشتها. والأمور

تـــتحرك حقـــاً. أحدهم اقترح أن تقوم بعمل موضوع عن حمية البروتين العالية. تعـــرف، تلك الحمية التي تقول إن بإمكانك أن تأكل كل اللحم الذي تريده وأن تفقد الوزن رغم كل شيء".

هزّ جيرمي رأسه، محاولاً التركيز.

"لحظة؟ عمَّ تتكلّم؟ من يريدني أن أتحدّث عن حمية؟"

"بـــرنامج جـــي إم أي. عمّن ظننت أني أتكلم؟ بالطبع، قلت بأني سأعاود الاتصال بهم، ولكني أعتقد أنك ستكون رائعاً في هكذا موضوع".

هذا الرجل يتسبب لي بالصداع أحياناً. فكّر جيرمي فيما فرك جبهته.

"لـــيس لـــدي أي اهتمام بالتحدث عن الحمية الجديدة، نايت. أنا صحفي علمي، ولست أوبرا".

"إذاً اعرض الأمر بطريقتك الخاصة. هذا ما تفعله، صحيح؟ والحمية لها علاقة بالعـــلم والكيمياء. ها أنا على حق، أو هل أنا على حق؟ بحق الجحيم أنت تعرف أني على حق. أضف إلى ذلك أنا هنا أعرض الأفكار فقط لا غير".

"رأيت الأنوار"، قاطعه جيرمي.

"أعـــني، إذا كـــان عـــندك شيء أفضل، إذاً يمكننا أن نبحثه. ولكني أحلّق معصـــوب العيـــنين وحـــدي هـــنا، وقضية الحمية هذه قد تكون السبيل لتضع قدمك...".

"رأيت الأنوار"، قال جيرمي ثانية، رافعاً صوته.

هذه المرة سمعه نايت، وسأله: "تعني الأنوار في المقبرة؟"

واصل جيرمي فرك صدغه. "نعم، تلك الأنوار".

"مـــتى؟ لماذا لم تتصل بي؟ كنت منحتني موضوعاً لأسوِّقه! أوه، رجاء أخبرني أنك صورتها على فيلم".

"فعلت، لكني لم أرَ الأشرطة حتى الآن، لذا لا أعرف كيف ظهرت".

"إذاً الأنوار حقيقية؟"

"نعم. كما أني أعتقد أني عرفت من أين تأتي، أيضاً".

"إذاً هي ليست حقيقية...".

"اسمـــع، نايت، أنا متعب، أصغِ إليّ ولو لثانية. هلاّ فعلت؟ ذهبت إلى المقبرة لـــيلة أمس ورأيت الأنوار. ولكي أكون صادقاً، يمكنني أن أرى لماذا يعتبرها بعض الـــناس أشـــباحاً، بسبب الطريقة التي تظهر بها. هناك أسطورة مثيرة جداً مرتبطة بالأنوار. حتى أن البلدة خطّطت لعطلة نهاية الأسبوع للاستفادة منها. لكن بعد أن تركت المقبرة، ذهبت باحثاً عن المصدر وأنا متأكّد جداً بأنني وجدته. كل ما عليَّ أن أفهمـــه هو كيف ومتى تحدث، لكن عندي بضع أفكار حول المصدر كذلك. وآمل أن أفهم الأمر بأكمله في وقت لاحق من هذا اليوم".

نايـــت، في لحظـــة نادرة، لم يكن عنده شيء يقوله. ولكنّ خبرته أعادته إلى وعيه بسرعة.

"موافق، موافق، أعطِني ثانية لأتوصل إلى أفضل وسيلة للعب. أنا أفكر بمدراء التلفزيون هنا...".

"ومن غير نايت لديه هذا التفكير؟" تساءل جيرمي.

"موافـــق، ماذا تظن يجب أن أقول؟" استمر نايت. "نفتتح بالأسطورة نفسها، كأنـــنا نعـــدّ المشهد. المقبرة الضبابية، صورة مقرّبة لبعض القبور، ربما لمحة سريعة لغراب أسود ينذر بالشؤم... ثم تبدأ بالكلام...".

الـــرجل لا بد سيد كليشيهات هوليوود، ثم نظر جيرمي إلى ساعته مرة ثانية، وقال لنفسه إن الوقت ما زال مبكراً لذلك.

"أنا متعب، نايت. عندي فكرة. فكّر بالموضوع وأعلمني لاحقاً، موافق؟"

"نعـــم، نعـــم. يمكـــن أن أفعل ذلك. هذا سبب وجودي، صحيح؟ لتسهيل حياتك. بالمناسبة، هل تعتقد أني يجب أن أتصل بألفين؟"

"لســـت مـــتأكّداً حتى الآن. دعني أرى الأشرطة أولاً، وبعدها سأتكلم مع ألفين، وسنرى وقتها ما يعتقد".

"نعـــم"، قال، وصوته يعلو بحماس. "خطة جيدة، فكرة جيدة! وهذه أخبار عظـــيمة! قصـــة أشـــباح أصيلة! هم سيحبّون هذا! أخبرتك كم أنهم متحمسون ومتشوقون للفكرة، أليس كذلك؟ صدقني، أخبرهم بأنك ستعود بهذه القصة وأنك

لن تكون مهتماً بآخر بدعة من الحميات. ولكن الآن وفي يدنا ورقة مساومة، فإنهم سيخبلون. لا أطيق صبراً لإخبارهم. واستمع، سأتصل بك بعد ساعتين فقط، ولذلك تأكّد بأن تبقي هاتفك شغالاً. الأمور يمكن أن تتحرّك بسرعة...".

"مع السلامة، نايت. سأتكلّم معك لاحقاً".

تمدّد جيرمي في السرير وسحب الوسادة على رأسه، ولكنه وجد أنه من المستحيل أن يعود للنوم. نهض وذهب إلى الحمام، محاولاً ما بوسعه ليتجاهل المخلوقات المحشوّة التي بدت وكأنها تراقب كل حركة من حركاته. لقد اعتاد على وجودها، وعندما نزع ملابسه، علّق منشفته على كفّيه.

قفز إلى الدش، أدار الماء إلى أقصى حدٍّ ممكن، ووقف تحت السيل المتدفق لعشرين دقيقة حتى احمرّ جلده. عندها فقط شعر أنه عاد إلى الحياة مرة ثانية، فالنوم لأقل من ساعتين يرخي بثقله على أي شخص.

بعد أن ارتدى سروال الجينز، أمسك بالأشرطة ودخل إلى سيارته. خيّم الضباب على الطريق مثل تبخر الجليد الناشف على مسرح حفلة موسيقية، وحافظت السماء على نفس الألوان الغامقة التي كانت لها في اليوم السابق، مما دفعه للظن بأن الأنوار ستظهر للمرة الثانية هذه الليلة. الأمر الذي لا يبشر بالخير للسياح القادمين في عطلة نهاية الأسبوع فحسب، ولكنه أيضاً يعني أنه يجب أن يتصل بألفين. حتى لو كانت الأشرطة على ما يرام، فإن ألفين ساحر في استخدام آلة التصوير، ولا بد من أن ألفين سيلتقط مشاهد تجعل إصبع نايت ينتفخ من القيام بالاتصالات الهاتفية المسعورة.

الخطوة الأولى مع ذلك كانت أن يرى ما التقطته عدسات التصوير. لا غرابة في الأمر، لم يجد جهاز فيديو في غرينليف، ولكنه تذكر أنه رأى جهازاً في غرفة الكتب النادرة، وفيما قاد السيارة على طول الطريق الهادئ باتجاه البلدة، تساءل كيف ستتصرف ليكسي تجاهه عندما يصل إلى هناك. هل ستعود إلى لعب دور الموظفة المحترفة وتبقي على المسافة بينهما، أو هل تطفو مشاعر يوم البارحة؟ أم هل ستتذكر ببساطة اللحظات الأخيرة تحت السقيفة عندما ضغط عليها؟ لم تكن لديه أدنى فكرة عمّا سيحصل، رغم أنه قضى الشطر الأكبر من الليل محاولاً أن يخمن ردّ

فعلها.

بالتأكـــيد، لقد وجد مصدر الأنوار. مثل أكثر الألغاز، لم يكن أمراً مستعصياً عـــلى الحل لو كنت تعرف عمّا تبحث، ونظرة سريعة على موقع ناسا الإلكتروني أزالت الاحتمال الوحيد المتبقي، القمر. تأكد جيرمي أن القمر لم يكن مسؤولاً عن الأنوار. تبين له أن القمر كان وقتها هلالاً، حيث يختفي الجزء الأكبر من القمر في ظـــل الأرض، خامره شك أن لاختفاء ضوء القمر دوراً في ظهور الأنوار في هذه المرحلة المعيّنة. صار الأمر مفهوماً: بدون ضوء القمر، فحتى أضعف الأضواء يزداد وضوحاً، خصوصاً عندما ينعكس على قطرات ماء الضباب.

ولكـــن فـــيما هـــو يقف في الهواء البارد مع جوابه، عاودته الأفكار بشأن ليكســـي. لا يعقـــل أنه التقى بها قبل يومين فقط. أمر لا يصدق. بالطبع، يفترض آينشـــتاين بأن الوقت نسبي، وهاكم تفسير حيّ لهذه النظرية. مقولة النسبية القديمة تقـــول إن دقيقة مع امرأة جميلة تمر بلحظة، بينما دقيقة واليد ممدودة في مرجل من النار تشبه الوقت الذي يمتد إلى الأبد. فعلاً.

شـــعر بالأســـى لســـلوكه أمام منـــزلها، وتمنى للمرة المائة لو أنه توقف عند تلمـــيحها عندما همَّ بتقبيلها. هي توضح مشاعرها وهو بدوره يتجاهلها. جيرمي في الأيـــام العاديـــة كان سينسى الأمر برمته. لكن، ولسبب ما، لم يعد الأمر بهذه السهولة...

مـــع أنـــه صادق الكثير من النساء منذ غادرته ماريا و لم يكن ناسكاً بالمعنى الدقيق للكلمة، فإن قضاء اليوم بأكمله متحدثاً مع شخص ما... كان حدثاً نادراً. في العادة كان تناول العشاء أو ارتشاف بعض الشراب مترافقاً مع بعض الأحاديث والمغازلة كفيلاً بتذويب الموانع قبل الانتقال إلى الجزء الجيد من التعارف. جزء منه يعـــلم بأنه لم يعد شاباً للمضي بلعبة المواعدة والتعارف، وأن الوقت ربما قد حان للاســـتقرار ولاتبّاع نمط حياة مثل إخوته. أما إخوته فكانوا يؤيدون هذا التوجه، وكذلـــك الحال مع زوجاتهم. كانوا يعتقدون أنه من المهم أن يتعرف الرجل على النســـاء قبل أن ينتقل للنوم معهن، وبلغ الحدّ بأحدهم أن دبّر له موعداً مع جارته المطلقـــة الـــتي تؤمن بالمقاربة نفسها. بالطبع، رفضت الخروج معه مرة ثانية، على

الأرجح بسبب تقرّبه الشديد منها منذ المرة الأولى. خلال السنوات القليلة الماضية، بدا أنه من الأسهل عدم التعرف على النساء بشكل وثيق، وبهذا يتمكن من إبقائهن في خانـــة الغرباء، رغم أن بعضهن كان يوحي بالأمل والكثير من الإمكانية لإنجاح العلاقة.

وهنا بيت القصيد. لم يكن ثمة أمل أو إمكانية. أو على الأقل، ليس لحياة تشبه الحـــياة التي يؤمن بها إخوته أو زوجاتهم، أو حتى الحياة التي تتخيلها ليكسي. كان طلاقـــه من ماريا الدليل القاطع. ليكسي هي فتاة من بلدة صغيرة وغارقة بأحلام الـــبلدات الصغيرة، ولا يكفي أن تكون مخلصة ومسؤولة أو أن تكون بينهما أمور مشـــتركة. أكـــثر النساء أردن شيئاً آخر، أسلوب حياة لا يستطيع هو أن يمنحهن إياه. ليس لأنه لم يرد أن يمنحهن هذه الحياة، ولا لأنه مفتون بمشهد حياة العزوبية، ولكـــن ببســـاطة لأنه أمر مستحيل. العلم يمكن أن يجيب عن الكثير من الأسئلة، والعـــلم يمكن أن يحلّ الكثير من المشاكل، ولكنّ العلم لا يستطيع أن يغيّر حقيقته الخاصـــة: والحقيقة كانت أن ماريا قد تركته لأنه لم يكن – ولم يكن بمقدوره أن يكون – نوع الزوج الذي تبتغيه.

لم يعـــترف بهـــذه الحقـــيقة إلى أحد. بالطبع، ليس لإخوته، ولا لأبويه، ولا لليكسي. وعادة، حتى في لحظات الصفاء النفسي، لم يكن يعترف بذلك لنفسه.

مع أن المكتبة كانت مفتوحة ساعة وصوله، إلاّ أن ليكسي لم تكن قد وصلت ســـاعتها. غالـــبه الشعور بالألم وهو يدفع باب المكتب ليجد الغرفة فارغة. لكنها كانت في المكتبة في وقت سابق: تركت غرفة الكتب النادرة مفتوحة، وعندما أدار مفتاح الضوء، رأى ورقة على المنضدة معلقة على الخرائط الطوبوغرافية التي طلبها سابقاً. قرأ الملاحظة في لمح البصر:

أنا أقضي بعض الأمور الشخصية. استعمل جهاز الفيديو متى أردت.

ليكسي

لا ذكـــر لأمـــس أو ليلة أمس، لا ذكر لرغبتها في رؤيته مرة ثانية. لا كلمة شكر قبل التوقيع. لم تكن هذه الملاحظة باردة بقدر ما يمكن لبعض الملاحظات أن تكون، ولكنها من ناحية أخرى لم تترك فيه شعوراً بالدفء.

ربما كان يستغرق في تفسير الاحتمالات. ربما كانت مسرعة هذا الصباح، أو ربما كتبت ملاحظة قصيرة لأنها ستعود بسرعة. قالت بأنه أمر شخصي، ومع النساء، يمكن أن يكون الأمر الشخصي أي شيء من التسوق، مروراً بشراء هدية لصديق. ما من تفسير في هكذا أحوال.

أضف إلى ذلك قال لنفسه إن عنده الكثير من العمل بانتظاره. نايت كان ينتظر، ومستقبله المهني على المحك. أجبر جيرمي نفسه للتركيز على ملاحقة بقية القصّة.

لم تصدر التسجيلات الصوتية أي أصوات غير عادية، ولا المايكروويف، و لم يسجل الكاشف الكهرومغناطيسي أي تغيّر في معدلات الطاقة. أما أشرطة الفيديو فقد التقطت كل ما رآه في الليلة السابقة. أعاد مشاهدة الصور عدة مرات من زوايا مختلفة. أظهرت آلات التصوير المجهزة بمقدرة ترشيح الأضواء كيف توهج الضباب بشكل واضح جداً. وعلى الرغم من أن التسجيلات كانت كافية لمرافقة عموده الصحفي، إلا أنها كانت بعيدة كل البعد عن النوعية المستخدمة في البرامج التلفزيونية. إنها في الزمن الحقيقي أشبه بأفلام الفيديو المنزلية، وتشبه إلى حدّ بعيد الأفلام المشبوهة التي تعرض كبراهين على بقيّة الأحداث الخارقة. سجل ملاحظة لشراء آلة تصوير حقيقية، متجاهلاً الصدمة التي ستصيب المحرر عندما يوقع على طلب الشراء.

لكن، على الرغم من أن الأشرطة لم تكن بالمستوى الذي كان يتمنى أن يجدها عليه، راقب كيف أن الأنوار تغيرت أثناء الثواني الاثنتين والعشرين، واطمأن أكثر بأنه عثر على الجواب. أخرج الأشرطة من جهاز العرض، وطالع الخرائط الطوبوغرافية، واحتسب المسافة بين تل ريكر والنهر. قارن الصور السابقة التي التقطها في المقبرة بصور المقبرة التي وجدها في الكتب عن تاريخ البلدة، وتوصل إلى تقدير شبه دقيق عن معدل غرق المقبرة. ومع أنه لم ينجح بالعثور على المزيد من المعلومات حول أسطورة هيتي دوبيليت، باعتبار أن السجلات لم تذكر المزيد عن هذه النقطة، قام بإجراء اتصال مع مكتب المياه الرسمي يتعلق بالخزان الأرضي في هذا الجزء من الولاية، واتصال آخر مع قسم المناجم، والذي كان عنده معلومات

عن المناجم التي كانت قد حفرت في وقت سابق من القرن. بعد ذلك، أدخل بعض الكلمات في محرك البحث على الإنترنت ليحصل على جداول المواعيد التي أرادها، وأخيراً، بعد انتظار عشر دقائق، نجح في التحدث مع السيد لارسن في مصنع الورق، والذي كان متلهّفاً للمساعدة بأي وسيلة.

بذلك، جمع أجزاء القصة بما يسمح بإثبات لا يحتمل الشك.

كانت الحقيقة بادية للعيان أمام الجميع طوال الوقت. وكما الحال مع أكثر الألغاز فإن الحل كان بسيطاً، مما جعله يتساءل كيف لم يصل الجميع إلى حل منذ وقت طويل. ما لم يكن اللغز قد وجد جواباً بالفعل منذ وقت طويل، مما فتح الباب على زاوية أخرى للقصة.

لا شك أن نايت سيتحمس، ولكن على الرغم من النجاح الصباحي، فإن جيرمي بالكاد أحس بالإنجاز. بدلاً من ذلك، كل ما شغله تفكيره هو أن ليكسي لم تكن إلى جانبه لتهنئه أو لتغيظه. بصراحة، لم يعر بالاً كيف سيكون ردها طالما أنها إلى جانبه لترد عليه. نهض من مقعده ليتفقد مكتبها مرة ثانية.

لا تغيّر في المكتب، إذ إنه كما رآه في اليوم السابق. أكوام الوثائق ما زالت تغطي مكتبها، والكتب مبعثرة بشكل عشوائي، أما حافظ الشاشة على جهاز الكمبيوتر فكان يخطّط ويمحو رسوماً ملوّنة. جهاز تسجيل المكالمات يشير إلى وجود رسائل، وقربه نبتة صغيرة.

رغم كل شيء، لم يقدر أن يتخطّى الإحساس أنه من دون ليكسي، فإن الغرفة تبدو فارغة تماماً.

الفصل الثاني عشر

"أنـــت الـــرجل!" صـــاح ألفين في سماعة الهاتف. "كيف الحياة في أقاصي الجنوب؟"

عـــلى الرغم من التشويش على هاتف جيرمي الخلويّ، لم يخفَ الابتهاج في صوت ألفين.

"أنا بخير، أتصل بك لأرى إن كنت ما تزال تود أن تأتي لتساعدني".

"أنا أجمع أغراضي"، قال بنفس متقطّع. "اتصل بي نايت قبل ساعة وقص عليَّ أخـــبارك. سأقابلك الليلة في غرينليف في وقت متأخر. أجرى نايت الحجز. ولكن على أي حال، تغادر طائرتي خلال ساعتين. وصدّقني، لا أستطيع الانتظار. بضعة أيام على هذا الحال وسأفقد عقلي".

"عمَّ تتكلم؟"

"ألم تقرأ الصحف أو تشاهد نشرات الأخبار؟"

"بالطبع، حتى الآن لم يفتني أي عدد من إخبارية بون كريك الأسبوعية".

"هاه؟"

"لا شيء"، قال جيرمي. "لا يهم".

"حســـناً، عـــلى أي حال، سيطرت عاصفة ثلجية علينا منذ غادرت"، قال ألفين. "وأقصد بها عاصفة بمقياس القطب الشمالي، مع كل ما في الكلمة من معنى. مانهـــاتن غارقة في الثلج. لقد خرجت من هنا في الوقت المناسب. إنه اليوم الأول الـــذي تغـــادر فيه الرحلات قرب موعد الإقلاع. وتوجب عليَّ أن ألجأ إلى بعض النافذين لأحصل على مقعد في الطائرة. كيف لا تعرف عما يجري هنا؟"

فـــيما كان ألفين يتكلم، نقر جيرمي مفاتيح حاسوبه، وفتح قناة الطقس على

الإنترنـــت. على خريطة الولايات المتحدة، ظهرت المنطقة الشمالية الشرقية وكأنها بطانية بيضاء".

"عليَّ اللعنة"، قال جيرمي لنفسه، "من كان ليتكهّن بهكذا تغيّر؟"

"أظن أني كنت منشغلاً"، قال جيرمي.

"أو على الأصح متوارياً"، قال ألفين، "ولكني أتمنى أنها تستحق وقتك".

"عمَّ تتكلم؟"

"لا تتعـــب نفسك بالإنكار"، قال ألفين. "نحن صديقان، أتذكر؟ نايت عاش أوقاتـــاً صـــعبة محـــاولاً الاتصال بك، وأنت ما كنت تقرأ الصحف، ولا تشاهد نشـــرات الأخبار. كلانا نعرف معنى هذا. تصاب بهذه الأعراض في كل مرة تقابل فيها شخصاً جديداً".

"انظر، ألفين...".

"هـــل هـــي جميلة؟ أراهن بأنها جميلة، صحيح؟ حظك مؤاتٍ دائماً لدرجة مزعجة!"

تردّد جيرمي قبل الإجابة، ثم استسلم أخيراً. إذا كان ألفين قادماً، فسيعلم في وقت قريب على أي حال.

"نعم، هي جميلة. لكن الأمر ليس كما تظن. نحن فقط صديقان".

"أنا متأكّد"، قال ألفين وضحك. "لكن مفهومنا للصداقة مختلف إلى حدٍّ ما".

قال جيرمي: "ليس هذه المرة".

"هل عندها أخت؟" سأل ألفين متجاهلاً الإجابة.

"لا".

"لكـــن عـــندها صـــديقات، صحيح؟ وتذكّر، أنا غير مهتمّ بالقبيحات من صديقاتها...".

أحسّ جيرمي بأن الصداع عاوده، وردّ بحدة، "لست في مزاج لهذا الحديث، اتفقنا؟"

صـــمت ألفـــين عند الطرف الآخر. "ياه، ماذا يجري هناك؟ كنت أمازحك

فحسب".

"بعض مزاحك ليس مضحكاً".

"تحبّها، أليس كذلك؟ أعني، تحبّها كثيراً".

"أخبرتك بأننا صديقان فقط".

"لا أصدقك. أنت غارق في الحب".

قال جيرمي: "لا".

"اسمع يا صديقي. أعرفك جيداً فلا تتعب نفسك بالإنكار. وأعتقد أنه أمر رائع. مستغرب ولكنه رائع. ولكن للأسف، أنا مضطر لاختصار المكالمة لأن عليّ اللحاق بموعد الطائرة. حركة السير مميتة، كما تعرف في هذه الأحوال. لكني لا أستطيع الانتظار لرؤية المرأة التي روّضتك أخيراً".

"هي لم تروّضني"، احتج جيرمي. "لماذا لا تُصغي إليّ؟"

"أنا أُصغي"، قال ألفين. "أنا أسمع فقط الأشياء التي لم تقلها".

"حسناً، كما تريد. متى ستكون هنا؟"

"أظن قرابة السابعة ليلاً. سأراك عندها. وبالمناسبة، قل لها مرحباً بالنيابة عني، موافق؟ أخبرها أني أموت لمقابلتها ومقابلة صديقتها...".

أنهى جيرمي الاتصال قبل أن تتاح لألفين فرصة إكمال جملته، وكما لو ليزيد من إصراره، دفع بالهاتف إلى جيبه.

لا عجب أنه أبقى على الهاتف مغلقاً. لا بد من أنه شعور داخلي نابع من أن صديقيه يمكن أن يكونا مزعجين أحياناً. أولاً، نايت، الأرنب النشيط الساعي أبداً ودائماً إلى الشهرة، والآن هذا.

لا يملك ألفين أدنى فكرة عمّا يتحدث عنه. ربما كانا صديقين، وربما أمضيا الكثير من ليالي الجمعة محدقين بالنساء أثناء تناولهما الشراب، وفي العمق، ربما يظن ألفين أنه مصيب، لكنه لم يكن كذلك، ببساطة لأنه لا يمكن أن يكون مصيباً.

الحقائق على أي حال، تفصح عن نفسها. أولاً، جيرمي لم يقع في حب امرأة منذ سنوات، ورغم مرور وقت طويل، ما زال يتذكر الإحساس، وبهذا يمكنه أن

يتعرف على الإحساس لو شعر به مرة أخرى، و لم يحدث ذلك. لقد التقى للتو بالمرأة، لذا فإن الفكرة بأكملها تبدو غير معقولة. حتى أمه ذات الأصول الإيطالية والشديدة الرومانسية لا تصدق أن الحب الحقيقي يمكن أن يتفتح بين ليلة وضحاها. والدته، كما الحال مع إخوته وأنسبائه، لا تريد له سوى الزواج وتأسيس عائلة. ولكنه إن ظهر على باب المنزل الآن وأخبرها أنه تعرف قبل يومين على فتاة وأن هذه الفتاة هي من يبحث عنها، لكانت أمه صفعته، وطاردته بالمكنسة لاعنة إياه بالإيطالية، ثم تجره إلى الكنيسة لأداء الصلاة، لأنها على قناعة بأنه ارتكب ذنوباً يحتاج إلى التكفير عنها.

تعرف أمه الرجال. إنها متزوجة من أحدهم، وأنشأت ستة شبان، ولا بد أن هذه الأمور مرّت عليها. إنها تعرف بالضبط كيف يفكر الرجال حيال النساء، ومع أنها كانت تعتمد على إحساسها بدلاً من العلم، فلقد كانت شديدة الدقة في حكمها، وبالأخص في أن الحب لا يمكن أن يحصل في غضون يومين. صحيح أن الحب يمكن أن يبدأ بسرعة، ولكنّ الحب الحقيقي يحتاج إلى الوقت لينمو ويستمر. الحب قبل كل شيء، مبني على الالتزام والتكريس، وعلى الإيمان بأن قضاء العمر مع شخص ما ينتج عنه ما لا يمكن لشخصين أن ينتجاه منفردين. وحده الزمن يمكن أن يثبت صحة الحكم.

أما الرغبة، فيمكن أن تشتعل فوراً، وهنا ستزيد والدته من صفعاتها. تعريف الرغبة بالنسبة لها بسيط: شخصان يكتشفان أنهما متوافقان، والجاذبية تزداد، وتطفو الغريزة الفطرية للحفاظ على النوع. كل هذه التعريفات عنت أمراً واحداً، أي ربما رغب بليكسي، ولكنه لا يمكن أن يكون قد أحبّها.

نعم، هذا الجواب. القضية منتهية. ألفين على خطأ، وجيرمي على صواب، ومرة أخرى، الحقيقة أنقذته.

ابتسم بارتياح للحظة قبل أن يبدأ حاجبه بالانكماش.

ورغم ذلك...

حسناً، ولكن إحساسه لا ينطبق عليه توصيف الرغبة. ليس هذا الصباح، على أي حال. ما يشعر به يتعدى الرغبة باحتضانها أو تقبيلها، إنه يتحرّق لرؤيتها،

وليمضي الوقت معها، وليكلمها. أراد أن يشاهدها وهي تقلب عينيها عندما ينطق بكـــلام مضحك، وأراد أن يشعر بيدها على ذراعه كما في اليوم السابق. أراد أن يراقـــبها وهي تدفع بخصلات الشعر إلى وراء أذنها بعصبية، وأن يستمع إليها تخبره عن طفولتها. أراد أن يسألها عن أحلامها وآمالها بالمستقبل... ليعرف أسرارها.

لكـــن ذلـــك لم يكن الجزء الغريب. الغريب أنه لا يستطيع أن يدرك الدافع الحقيقي لاندفاعه. حسناً، لن يقول لا إن أرادت النوم معه، لكن حتى لو لم تفعل، فإن قضاء الوقت معها يكفيه.

في أعماقه، غاب عنه الدافع الحقيقي. لقد قرّر أنه لن يضع ليكسي في موقف كـــالذي حصـــل الليلة السابقة. يتطلب الأمر الكثير من الشجاعة، قال في نفسه، لـــتقول مـــا قالته. كانت شجاعة أكثر منه. رغم كل شيء، فإنهما بعد أن أمضيا يومين معاً، لم يكن حتى قادراً على أن يخبرها بأنه سبق له الزواج.

لكـــن، إن لم يكن ما يشعر به حباً، و لم يكن شهوة، فما هو؟ إعجاب؟ هل كـــان مجرد إعجاب. بالطبع، ولكن تلك الكلمة لم تفِ بالغرض. إنها صغيرة جداً. مـــبهمة وناعمـــة وتجاوز الدقة، كالقول إن الناس يحبون الآيس كريم، أو مشاهدة الـــتلفزيون. لا تعني الكلمة الكثير، ولا توضح كيف أنه للمرة الأولى، يشعر برغبة مـــلحّة ليخبر شخصاً آخر عن الأسباب الحقيقية لطلاقه. إخوته ووالداه لم يعرفوا الحقيقة. ولكن لسبب ما، لا يستطيع أن يبعد الشعور بأنه أراد ليكسي أن تعرف، وها هي الآن بعيدة عنه.

بعد دقيقتين، رن هاتفه، وميّز الرقم على شاشة الهاتف الخلويّ. ومع أنه ليس في حالة نفسية مرحة، قرّر بأنه لا بد من أن يجيب، أو سيصاب الرجل بذبحة قلبية.

قال جيرمي: "هاي، أنت، ما الأخبار؟"

"جيرمـــي!" صاح نايت. ومن خلال التشويش، بالكاد تمكن جيرمي من أن يسمع. "أخبار عظيمة! لن تصدق كم كنت مشغولاً. كان الوضع أشبه بمستشفى للمجانين! عندنا اتصال هاتفي مع تلفزيون أي بي سي في السّاعة الثّانية!"

"عظيم".

"مهلاً. لا أستطيع سماعك. هذا الإرسال فظيع".

"آسف...".

"جيرمي! هل ما زلت هناك؟ صوتك يتكسّر!"

"نعم، نايت، أنا هنا...".

"جيرمي؟ أمكن لك أن تسمعني، يجب أن تستعمل هاتفاً عامّاً وتتصل بي إلى هنا. في الساعة الثّانية! مهنتك على المحك! مستقبلك بأكمله يعتمد على هذا الاتصال!"

"نعم، سمعتك".

"أوه، هذا مضحك"، قال جيرمي، كما لو أنه يتكلم مع نفسه.

"لا أستطيع سماع أي شيء تقوله. اضغط زراً إذا فهمت كل شيء أقوله".

ضغط جيرمي على الرقم 6.

"عظيم! رائع! السّاعة الثّانية! كن على طبيعتك! أعني، من دون الجزء الساحر. هؤلاء الناس يظهر أنهم متشددون جداً".

أغلق جيرمي الهاتف، متسائلاً كم من الوقت سيستغرق نايت ليدرك أن جيرمي لم يعد على الطرف الآخر من المكالمة!

انتظر جيرمي. ثم طال انتظاره.

ذرع المكتبة، تجوّل قرب مكتب ليكسي، نظر من النافذة باحثاً عن سيارتها. ازداد شعوره بعدم الارتياح مع مرور الدقائق. ربما كان إحساسه حول غيابها هذا الصباح صحيحاً. مع ذلك، عمل ما بوسعه ليقنع نفسه بغير ذلك. قال لنفسه إنها ستأتي في النهاية. وأنه في وقت لاحق سيسخر من أفكاره المضحكة. أما الآن، فما زال عليه أن يفرغ من بحثه، أي أن يراجع بعض الحكايات في بعض المفكرات أمامه والتي لم ينتهِ منها بعد. وبعد ذلك، لا يعرف.

ليس غرينليف بالطبع. لا يريد أن يقضي وقتاً هناك أكثر من اللازم، مع أنه بدأ يحب علاّقة المناشف في غرفته. ألفين لن يصل حتى المساء. أما فكرة أن يتجول في البلدة فقد تنتهي به أسير غيركن رئيس البلدية. هذا عدا عن أن مجرد التسكع في المكتبة طوال النهار لا يروق له.

ليت ليكسي كانت أكثر دقة في تحديد موعد عودها، أو حتى إلى أين كانت قد ذهبت. لم يستطع أن يفهم ما كتبته حتى بعد أن قرأه للمرة الثالثة. هل تعمدت ألا تورد الكثير من التفاصيل أو أنها لم تنتبه للأمر؟ لم يشعره أي الاحتمالين بالارتياح. لا بد أن يخرج من هنا. غلبته الأفكار السوداء.

بعد أن جمع أغراضه، نزل إلى الطابق السفلي وتوقف قرب مكتب الاستقبال. كانت المتطوعة المسنّة منهمكة في قراءة كتاب. وقف أمامها وهمهم بصوت مرتفع. عندما نظرت إلى الأعلى تبسمت قائلة: "أهلاً، سيد مارش! رأيتك قادماً في الصباح ولكنك بدوت مشغولاً. لذا تركتك وشأنك. كيف لي أن أساعدك؟"

ثبّت جيرمي أوراقه بين يديه، وحاول أن يحافظ على نبرة اعتيادية في صوته.

"هل تعرفين أين الآنسة دارنيل؟ تركت ملاحظة تقول إنها ستخرج، وكنت أتساءل إن قالت لك متى ستعود؟"

"ذلك مضحك"، قالت المرأة المسنّة، "كانت هنا عندما أتيت". دققت في التقويم أمامها. "ليس عندها أي اجتماع ولا أرى أية مواعيد أخرى. هل تفقدت مكتبها؟ ربما أقفلت على نفسها وهي في داخله. تفعل ذلك أحياناً عندما تزداد وتيرة العمل".

قال: "لقد فعلت، هل تعرفين إن كانت تملك هاتفاً خلويّاً يمكنني أن أتصل بها من خلاله؟"

"لا تمتلك هاتفاً، أنا متأكدة. تقول لي إنها عندما تكون في الخارج وحدها، فإن آخر ما تريده هو أن يتمكن أي شخص من إيجادها".

"حسناً... شكراً، على أي حال".

"هل أستطيع أن أساعدك في أمر محدد؟"

قال جيرمي: "لا، احتجت فقط إلى مساعدتها في مقالتي".

"كم أنا آسفة لأنني لا أقدر أن أفيدك أكثر".

"أوه، لا تقلقي".

"هـــل فكّـــرت بالسؤال في مطعم هيربس؟ ربما هي هناك تساعد دوريس في إنجـــاز بعض المهام استعداداً لعطلة نهاية الأسبوع. أو ربما ذهبت إلى البيت. عندما يأتي الأمر إلى ليكسي فلا يمكنك أن تتوقع شيئاً بشأنها. تعلمت ألا أفاجأ بأي أمر تقوم به".

"شـــكراً، على أي حال. لكن إذا جاءت، هل يمكنك أن تخبريها بأنني كنت أبحث عنها؟"

شاعراً بالتوتر أكثر من أي وقت مضى، غادر جيرمي المكتبة.

قبل التوجّه إلى هيربس، مرّ جيرمي ببيت ليكسي، ولاحظ أن الستائر كانت مغلقـــة وأن ســـيارتها قد اختفت. بالرغم من أنه ما من شيء استثنائي في المشهد أمامه، أحس أن هناك أمراً ليس على ما يرام، وازداد إحساسه بعدم الارتياح بينما عاد أدراجه على الطريق الذي يأخذه إلى البلدة.

خفـــت زحمـــة الصـــباح في مطعم هيربس، وغرق المطعم في سكون الفترة الانتقالـــية بـــين الصـــباح والظهر، وهو الوقت الذي تنجز خلاله الترتيبات بعد الازدحـــام الأخير استعداداً للازدحام القادم. فاق عدد العمال الزبائن بنسبة أربعة إلى واحد، ولم يستغرقه أكثر من ثانية ليتأكد من أن ليكسي لم تكن هناك. كانت راشيل تمسح طاولة، ولوّحت له بمنشفة عندما رأته.

"صباح الخير يا عزيزي". قالت وهي تقترب منه، "تأخر الوقت قليلاً، ولكنني أكيدة أن بإمكاننا أن نحضّر لك بعض الفطور إن كنت جائعاً".

أدخـــل جيرمي مفاتيحه إلى جيبه وقال: "لا، شكراً، لست جائعاً. ولكن هل تعلمين إن كانت دوريس موجودة؟ أود أن أتكلم معها قليلاً".

"عـــدت إليها مرة ثانية، هاه؟" ابتسمت وأشارت بكتفها، "هي في الخلف. سأخبرها أنك هنا. وبالمناسبة، كانت حفلة مميزة للغاية مساء أمس. الناس جميعهم كانوا يتحدّثون عنها هذا الصباح، ورئيس البلدية مرّ بنا ليرى إن كنت قد تعافيت من أثر الحفلة. أعتقد أن أمله خاب عندما لم يجدك هنا".

"قضيت وقتاً ممتعاً".

"هل نريد بعض القهوة أو الشاي بينما تنتظر؟"

أجاب: "لا، شكراً".

عادت إلى الخلف، وبعد دقيقة، ظهرت دوريس وهي تمسح يديها على مئزرها، وخدّها ملطّخ بالعجين، ولكن حتى عن بعد، أمكنه أن يرى التورّم تحت عينيها، وبدا أنها تتحرك ببطء أكثر من المعتاد.

"آسف على ظهوري بهذه الحالة"، قالت وأومأت إلى نفسها. "رأيتني أحضر العجين. أخرتني ليلة الأمس عن تحضير العجين استعداداً لعطلة نهاية الأسبوع، وسأحتاج إلى بعض المجهود لأسابق قدوم الحشود غداً".

تذكر ما أخبرته به ليكسي وسألها: "كم عدد الناس الذين تتوقعون حضورهم في عطلة نهاية الأسبوع هذه؟"

قالت: "من يعرف؟ في العادة، يحضر مائة أو مائتان للجولة، وأحياناً أكثر بقليل. رئيس البلدية يتمنى حضور ما يقارب ألفاً للجولة هذه السنة، ولكن من الصعب عليَّ أن أخمّن كم منهم سيأتي للفطور والغداء".

"إذا كان رئيس البلدية على حقّ، فإن العدد ارتفع كثيراً هذه السنة".

"حسناً، فلنعتمد تقويمه إذا أردت. توم ميّال للتفاؤل، ولكنه يضطر للجوء إلى بث الإحساس بالضرورة ليحصل على ما يريده في وقت سريع. أضف إلى ذلك أنه حتى الناس الذين لا يأتون في الجولة، سيأتون لحضور الاستعراض يوم السبت. كما أن حراس المعبد الماسوني سيجولون بسياراتهم، وكما تعرف فإن الأطفال يحبّون رؤيتهم. وستكون هناك حديقة حيوانات صغيرة أيضاً هذه السنة وللمرة الأولى".

"يبدو أنه حدث عظيم".

"كان ليكون أهم لو لم يقع في منتصف الشتاء. يستقطب مهرجان بامليكو الحشد الأكبر على الدوام، ولكنه يقام في حزيران/يونيو، ويأتي إلينا بعض تلك الكرنفالات الجوّالة التي تخيّم قربنا في عطلة نهاية الأسبوع تلك. إنها عطل نهاية الأسبوع التي يمكنها أن تقيم أو أن تخرب مطعماً. يمكنك أن ترى مدى الإجهاد، وهو وقتها يكون أكثر بعشر مرات مما أمرّ به الآن".

ابتسم جيرمي. "الحياة هنا لا تنفك تدهشني".

"لا تستغرب أمراً حتى تجربه. يخامرني شعور مضحك أنك قد تحبّ الحياة هنا".

بدت وكأنها تختبره تقريباً، ولم يكن متأكداً كيف يرد. خلفهما، انشغلت راشيل بتوضيب الطاولات وبتبادل الأحاديث مع الطباخ الواقف في منتصف الغرفة. وكانا يتبادلان الأدوار بالضحك على ما يقوله كل منهما للآخر.

"لكن، على أي حال"، قالت دوريس لتنقذه، "أنا مسرورة لأنك مررت بنا. قالت لي ليكسي إنها أخبرتك شيئاً عن دفتر ملاحظاتي. حذّرتني بأنك من المحتمل ألا تصدق أي كلمة منه، لكني أدعوك للنظر إليه إذا أردت. إنه في مكتبي في الخلف".

قال جيرمي: "أودّ ذلك. أخبرتني أنك احتفظت بسجلّ مهم".

"فعلت ما بمقدوري. من المحتمل ألا يقارب معاييرك، ولكن من ناحية أخرى، لا أظن أن أحداً سواي قرأه".

"أنا متأكّد بأنني سأدهش. لكن بالحديث عن ليكسي، ذلك جزء مما أحضرني إلى هنا. هل رأيتها في مكان ما؟ لم تكن في المكتبة اليوم".

أومأت. "مرت بي في البيت هذا الصباح. هكذا عرفت أنه يجب أن أحضر دفتري. أخبرتني أنكما رأيتما الأنوار ليلة أمس".

"نعم بالفعل".

"و؟"

"إنها مدهشة. ولكن كما قلت، لم تكن أشباحاً".

نظرت إليه برضى. "وافترض أنك توصلت إلى تفسير للظاهرة بأكملها، وإلا لما أتيت إلى هنا".

"أعتقد ذلك".

"أمرٌ عظيم بالنسبة لك". قالت، ثم أشارت إلى خلفها. "آسفة لأنني لا أستطيع الدردشة الآن لوقت أطول أكثر، لكني مشغولة، دعني آتيك بدفتر

ملاحظاتي. من يعرف، ربما قررت أن تكتب تقريراً حول مواهبي الخارقة".

قال: "وما يدريك، قد أفعل ذلك فعلاً".

راقبها جيرمي تختفي وراء باب المطبخ. تساءل حول محادثتهما. كانت محادثة لطيفة جداً ولكن خالية إلى حدٍّ كبير من المشاعر الشخصية. كما لاحظ أن دوريس لم ترد حقاً على سؤاله عن مكان ليكسي. و لم تتطوع حتى بتخمين. أي أنها - ولسبب ما - قررت أن موضوع ليكسي لم يعد موضوعاً للبحث. نظر إلى الأعلى ورآها تقترب منه. حافظت على نفس الابتسامة اللطيفة، ولكن هذه المرة أحس بالقلق في داخله.

"الآن، إذا كان لديك أي سؤال حول هذا"، قالت، وناولته دفتر الملاحظات، "لا تتردّد بشأن الاتصال بي. ولا تتردّد في عمل نسخ عنها لو أردت، ولكن أعد الدفتر لي قبل أن تغادر. إنه خاص جداً بالنسبة لي".

"سأفعل ذلك"، قال واعداً.

وقفت صامتة أمامه، وتكّون لدى جيرمي انطباع بأنها كانت على وشك أن تخبره أن محادثتهما قاربت نهايتها. أما هو، فلم يكن في وارد أن يستسلم بسهولة..

قال جيرمي: "أوه، أمر آخر".

"نعم؟"

"هل ترغبين أن أعيد دفتر الملاحظات إلى ليكسي؟ إن رأيتها اليوم؟"

"لِمَ لا"، قالت دوريس. "لكني سأكون هنا أيضاً في كل الأحوال".

وعندما تلقف جوابها الواضح، عاوده الإحساس بالقلق.

سأل: "هل قالت أي شيء عنّي؟ عندما رأيتها هذا الصباح".

"ليس كثيراً. لكنها على أي حال، قالت إنك على الأرجح ستمر بنا".

"هل بدت بخير؟"

"ليكسي"، بدأت ببطء، كما لو أنها تختار كلماتها بعناية، "صعبة القراءة أحياناً، لذا فأنا لست متأكّدة بأنني يمكن أن أجيب عن ذلك. لكني متأكّدة بأنها ستكون بخير، إذا كان هذا ما تقصده".

"هل هي غاضبة مني؟"

"لا، هذا ما يمكنني أن أؤكده لك. إنها بالتأكيد لم تكن غاضبة".

في انتظار المزيد، لم ينطق جيرمي. وخلال فترة الصمت، أخذت دوريس نفساً عميقاً. وللمرة الأولى منذ التقيا، انتبه جيرمي لخطوط العمر حول عينيها.

"أحبّك يا جيرمي، وأنت تعرف بأني أفعل"، قالت بصوتها الناعم. "ولكنك تضعني في موقف صعب. يجب أن تفهم أن عندي ولاء أكيداً لبعض الأمور، وليكسي إحداها".

"ماذا تقصدين؟" سألها وأحس بأن حنجرته قد تحجّرت.

"يعني بأنني أعرف ما تريد وعمّا تسأل، لكني لا أستطيع الإجابة عن أسئلتك. ما أقدر أنه أقوله هو بأن ليكسي لو أرادتك أن تعرف أين هي، كانت ستخبرك".

"هل سأراها ثانية؟ قبل أن أغادر؟"

قالت: "لا أعرف، أفترض أن الأمر يعود لها".

مع سماع ذلك التعليق، بدأ يستوعب حقيقة أنها قد اختفت حقاً.

قال جيرمي: "أنا لا أفهم لماذا تقدم على أمر مثل هذا الأمر".

ابتسمت ابتسامة حزينة وقالت: "نعم، أظن أنك تفهم".

لقد اختفت...

مثل رجع الصدى، ظلّت الكلمات تكرّر نفسها. وراء عجلة القيادة في طريق العودة إلى غرينليف، حاول جيرمي تحليل الحقائق بهدوء. لم يضطرب. هو لا يضطرب أبداً. مهما كان شعوره جامحاً، ومهما أراد أن يضغط على دوريس للمزيد من المعلومات حول مكان ليكسي أو حالتها النفسية، ها هو يشكرها بكل بساطة لمساعدتها ويتوجّه إلى السيارة، كما لو أنه وجد ما يبحث عنه.

أضف إلى ذلك، ذكّر نفسه، ما من سبب للاضطراب. لم يصبها خطب ما، قال لنفسه. الحقيقة المبسطة أنها لم ترد أن تراه مرة ثانية. لربما كان عليه أن يتوقع حصول ذلك. لقد توقع الكثير منها، حتى عندما أوضحت له منذ البداية أنها ليست مهتمة.

هزّ رأسه، وقال لنفسه إنه ليس من الغريب أنها غادرت.

رغـــم الحداثة التي كانت تتمتع بها في أوجه مختلفة، إلا أنها كانت تقليدية في أوجـــه أخـــرى، وربما تعبت من التعامل مع حيله الخادعة المكشوفة. ربما كان من الأسهل لها أن تترك البلدة ببساطة بدل أن تشرح موقفها لشخص مثله.

أين يقف هو الآن؟ إما أن تعود أو لا تفعل. إن عادت، فلا مشكلة. أما إن لم ترجع، حسناً، هنا تبدأ الأمور بالتعقيد. يمكنه أن يتراجع وأن يقبل قرارها، أو يمكنه أن يحـــاول تعقّـــبها. إن كـــان ماهراً في أمر ما، فهو في إيجاد الناس. في استعمال الســـجلات العامّة، والمحادثات اللطيفة، والمواقع الصحيحة على شبكة المعلومات. لقد تعلّم كيف يقتفي أثر فتات الخبز وصولاً إلى عتبة منـــزل الشخص المنشود. ثم خامـــره الشك بأنه قد يضطر للجوء إلى هذه الأساليب. لقد أعطته بنفسها الإجابة التي يحتاج إليها، وكان متأكداً بالضبط إلى أين ذهبت. مما عنى أن بإمكانه التعامل مع الموقف كيفما أراد.

ثم توقّفت أفكاره مرة ثانية.

أمـــا المشكلة فليست في ما بمقدوره أن يفعله، بل في ما يجب عليه أن يفعل. تذكـــر أن عـــنده اتصالاً هاتفياً بعد بضع ساعات، وهو اجتماع له انعكاس على مهنـــته. وإن انطلق باحثاً عن ليكسي فهو يشك بأن يكون قادراً على إيجاد هاتف عمومـــي عـــندما يحـــتاج إليه. أما ألفين فسيصل هذا المساء، ربما في آخر الأمسية الضـــبابية، ورغم أن ألفين يمكنه أن يتعامل مع موضوع التصوير وحده هذه الليلة، فـــإن عليهما أن يعملا معاً غداً. دون الحاجة لذكر أنه يحتاج إلى قيلولة، فأمامه ليلة طويلة، وحتى عظامه متعبة.

من ناحية أخرى، لم يرد أن ينتهي كل شيء بهذه الطريقة. أراد رؤية ليكسي، يحـــتاج إلى رؤيـــتها. حـــذره عقله أن لا يدع عواطفه تتحكم بأعماله، والتفكير المـــنطقي يقول بأنه ما من أمر إيجابي يتأتّى عن انطلاقه في البحث عنها. وحتى لو وجدهـــا، فمـــاذا لو تجاهلته، أو ربما تخاف منه. وفي تلك الأثناء، قد يصاب نايت بجلطة، وسيعلق ألفين وحده وسينفجر غاضباً، وسينهار مستقبله المهني.

في الـــنهاية، كـــان القـــرار بسيطاً. أوقف سيارته في فسحة أمام كوخه في

غرينلـــيف، وهز رأسه. ترتيب أفكاره في إطار معين حدّد له اختياراته. هو لم يمضِ السـنوات الخمـس عشـرة الأخيرة مستخدماً المنطق والعلم دون أن يستفيد من تجربته.

الآن، قال لنفسه، ما عليه سوى أن يجمع أغراضه.

الفصل الثالث عشر

حسناً، موافقة. إنها جبانة.

ليس من السهل عليها أن تعترف بالحقيقة.. إنها تهرب. ولكن مهما يكن الأمر، لم تكن قادرة على التفكير بشكل واضح في اليومين الماضيين. يمكنها أن تغفر لنفسها أنها غير مثالية. لو بقيت هناك لكانت الأمور تعقدت أكثر. لا يهم إن أحبته أو أنه أحبّها؛ استيقظت هذا الصباح وهي تعلم أن عليها أن تنهي الأمر قبل أن يتفاقم، وعندما توقفت على الممر الرملي، أحست أنها قد أقدمت على الخطوة الصحيحة بقدومها إلى هنا.

لم يكن المكان بأحسن حالاته. الكوخ القديم متهالك ومغطى بالأشجار. واجهة النوافذ البيضاء مكسوة بالرذاذ المالح، أما جدرانه الخشبية فتتخللها خيوط رمادية تركتها عشرات الأعاصير. بشكل من الأشكال، كانت تنظر إلى الكوخ بأنه رحلة إلى زمن آخر: أكثر الأثاث يعود عمره إلى أكثر من عشرين عاماً، والأنابيب تصدر أصواتاً غريبة كلما فتحت ماء الدش، أما الموقد فيصعب تشغيله. إلا أن الذكريات حول قضائها جزءاً من شبابها في هذا المكان نجحت دائماً في تهدئتها. فبعد أن خزنت حقائبها وأكياس البقالة التي أتت بها لعطلة نهاية الأسبوع، فتحت النوافذ لتهوئة المكان. ثم أمسكت ببطانية، واستقرت على كرسي هزاز تحت السقيفة الخلفية، ولا شيء في بالها سوى مراقبة المحيط. هدير الموج كان يبعث على السكينة وله تأثير منوّم. وعندما طلعت الشمس من بين الغيوم وامتدت أشعّة الضوء نحو الماء مثل الأصابع، حبست أنفاسها.

كانت تفعل ذلك في كل مرة تأتي فيها إلى هنا. المرة الأولى التي رأت فيها الضوء يكسر جدار الغيوم كانت بعد فترة قصيرة من زيارتها المقبرة مع دوريس، لما كانت بنتاً صغيرة، وتذكرت كيف كانت تعتقد أن أبويها كانا قد وجدا طريقة

أخـــرى ليعلنا عن تواجدهما في حياتها. كانت تعتقد أنهما يراقبانها وكأنهما ملاكان مـــن الســـماء، وبأنهمـــا متواجدان حولها على الدوام دون أن يتدخلا في حياتها، وكأنهما كانا متأكدين من أنها ستتخذ القرارات المناسبة دائماً.

لوقـــت طويل شعرت بالحاجة للإيمان بمثل هذه الأشياء، لأنها ببساطة كانت تشـــعر بالوحدة. جداها كانا محبّين ورائعين... لكن بقدر ما أحبتهما لعنايتهما بها وتضـــحيتهما مـــن أجـــلها، لم تعتد على الشعور بالاختلاف عن نظائرها. أهل أصدقائها كانوا يلعبون لعبة الكرة اللينة في عطلة نهاية الأسبوع، ويبدون شباناً حتى في ضوء الصباح الناعم خلال الصلاة، وبدأت تسأل نفسها عما تفتقده؟

لا تســـتطيع أن تتكلّم مع دوريس حول هذه الأمور. ولا يمكن أن تتكلّم مع دوريـــس حـــول الذنـــب الذي أحست به نتيجة هذه الأفكار. وكيفما صاغت كلماتها، ستتأذى مشاعر دوريس، وحتى عندما كانت ليكسي لا تزال فتاة صغيرة، كانت تعرف النتيجة.

مـــع ذلـــك، فإن الشعور بالاختلاف ترك أثره. ليس فقط عليها ولكن على دوريس أيضاً، وبدأ بالظهور أثناء سنوات مراهقتها. فكلما كانت ليكسي تتخطى الحـــدود، كانـــت دوريس تستسلم لتتفادى الاشتباك، تاركة ليكسي تعتقد أن لها حـــرية وضـــع قواعدها الخاصة بها. كانت أقرب إلى الطيش عندما كانت شابة، وارتكبت الكثير من الأخطاء وأحسّت بالكثير من الندم، إلا أنها انقلبت نحو الجدية خـــلال سنوات الكلية. وفي تجسّدها الجديد، اعتنقت المبدأ القائل إن النضج يعني الـــتفكير بالمخاطر قبل السعي وراء الربح، وإن النجاح والسعادة في الحياة يتمثلان بالمقدرة على تجنب الأخطاء، كما يتمثلان في ترك علامة فارقة على العالم.

ليلة أمس، أدركت أنها كادت ترتكب خطأ. كانت تتوقع أن يحاول تقبيلها، وسرّت من حزمها عندما أراد دخول المنـــزل.

عرفـــت بأنها آذت مشاعره، وهي آسفة على ذلك. من المحتمل أنه لا يعرف أنـــه بعـــد أن ابتعد بسيارته عن المنـــزل توقف قلبها عن الخفقان بعنف لأن جزءاً منها أراده أن يدخل إلى المنـــزل، دون اعتبار لما كان سيحصل. لقد عرفت الكثير عن تبعات خطوة كهذه، ولكن لم يكن بمستطاعها أن تمنع نفسها. الأسوأ أنها فيما

كانـــت تتقلـــب في سريرها الليلة الفائتة، أدركت أنها لن تكون قادرة على فعل الشيء الصحيح مرة أخرى.

بأمانـــة، كـــان يجب عليها أن تكون أكثر تنبهاً منذ البداية. خلال الأمسية السابقة وجدت نفسها تقارن جيرمي مع كل من أفيري وسيد النهضة، وللمفاجأة، كـــان جيرمي أفضل منهما بكثير. كان عنده ذكاء أفيري وحسه الفكاهي، ولطف وسحر سيد النهضة، مع الفرق أن جيرمي كان أكثر ارتياحاً مع نفسه من كليهما. ربمـــا كان اعتقادها نتيجة لليوم الرائع الذي قضياه معاً، وهو يوم لم تعش مثله منذ زمـــن طويـــل. متى كانت آخر مرّة تناولت فيها غداء تلقائياً؟ أو تمشت على تل ريكر؟ أو زارت المقبرة بعد حفلة في وقت كانت ستتّجه فيه مباشرة إلى السرير؟ لا شـــكّ في أن الإثارة وعنصر المفاجأة أعادا إليها إحساسها بالسعادة يوم كان أفيري وسيد النهضة رجلي أحلامها.

لكنها كانت على خطأ وقتها، كما هي مخطئة الآن. علمت جيداً أن جيرمي ســـيحل اللغـــز الـــيوم. حسناً، ربما كان مجرد شعور، ولكنها كانت متأكدة من شعورها، وبالأخص أن الجواب كان في إحدى المفكرات وكل ما عليه فعله هو أن يجده، ولم يكن عندها شك بأنه كان سيطلب مشاركتها الاحتفال بحلّ اللغز. كانا سيمضـــيان اليوم معاً، وهي لم ترد ذلك. ولكن، في أعماقها، كان هو بالضبط ما أرادته، فشعرت بضياع لم تشعر به منذ سنوات.

توقعت دوريس كل جزء من مشاعر ليكسي هذا الصباح عندما مرّت بها في المنـــزل، ولكن ما من داعٍ للاستغراب. ليكسي نفسها أمكنها أن تشعر بالإرهاق باديـــاً حول عينيها، وعرفت أنها بدت تعبة إلى أقصى حدّ عندما ظهرت فجأة أمام جدّتهـــا. بعد أن رمت ثياباً تكفيها لعدة أيام في الحقيبة، غادرت منـــزلها دون أن تســـتحم، دون أن تحاول توضيح ما تشعر به. رغم ذلك، أومأت دوريس ببساطة عـــندما أخبرتها ليكسي أنه لا بد لها من أن تذهب. دوريس، رغم تعبها، أدركت أنهـــا رغم كونها سبباً في تقريبهما من بعضهما البعض، فهي لم تتوقع ما يمكن أن يحصل في النتيجة. وكانت هذه مشكلة الحدس (الحسّ الداخلي)؛ يمكن للحدس أن يصيب على المدى القريب، ولكن يستحيل توقع ما يحصل على المدى الأبعد.

إذاً... جـــاءت إلى هنا لأن عليها أن تأتي، وإن للمحافظة على اتزانها. وهي ســـتعود إلى بون كريك عندما تعود الأمور إلى طبيعتها بعد وقت قريب. لن يمضي زمـــن طويـــل حتى يقلع الناس عن الكلام عن الأشباح وعن الزائر الغريب، وعن جولة البيوت التاريخية، وسيتحول السيّاح الزائرون إلى مجرد ذكرى. سيعود رئيس الـــبلدية إلى ملعب الغولف، وستعاود راشيل الخروج مع رجال غير مناسبين، ومن المحـــتمل أن يتوصل رودني إلى طريقة ليلتقي فيها بليكسي عرضياً أمام المكتبة، ولا شـــك مـــن أنه سيتنفس الصعداء عندما يدرك أن علاقتهما يمكن أن تعود إلى ما كانت عليه.

ربمـــا لم تكن بالحياة المثيرة، لكنها حياتها، ولن ترضى أن تسمح لأي كان أن يخـــلّ بالتوازن. في مكان ووقت آخر، ربما كانت ستتصرف بطريقة مختلفة، ولكنّ الـــتفكير بالاحتمالات لا يجدي نفعاً. تابعت النظر إلى مياه البحر، وأجبرت نفسها أن لا تتخيّل ما كان يمكن أن يكون.

على السقيفة، لفّت ليكسي البطانية حول كتفيها. إنها فتاة كبيرة وستتخطاه كمـــا تخطت من سبقه. إنها أكيدة. ولكن حتى مع هذا الإدراك، أعاد إليها البحر المتقلّب مشاعرها تجاه جيرمي، واستنفدت قواها محاولة أن تحبس دموعها.

بعـــد أن اتخذ القرار، كل شيء بدا سهلاً. سارع إلى غرفته في غرينليف وفي الوقـــت نفســـه كـــان يخطط لتحركه. أمسك بالخريطة وبمحفظته احتياطاً، اترك الحاســـوب لأنك لست بحاجة إليه، وكذلك ملاحظاتك. ضع دفتر دوريس جانباً في حقيبتك الجلديّة واصطحبها معك. اكتب ملاحظة لألفين واتركها على مكتب الاســـتقبال، رغـــم أن جاد لن يكون مسروراً. تأكد من أخذ شاحن الهاتف، ثم انطلق.

جاء وغادر في أقل من عشر دقائق، وها هو الآن في طريقه إلى سوان كوارتر، حيـــث ســـتقلّه العـــبّارة إلى أوكراكوك، القرية على الضفة الخارجية. من هناك، ســـيتوجّه شمـــالاً على الطريق السريع رقم 12 إلى باكستون. لا بد من أنه الطريق الـــذي ستسلـــكه، وكل ما كان عليه فعله هو أن يسلك الطريق نفسه ليصل إلى المكان في ساعتين فقط.

مع أن القيادة إلى سوان كوارتر كانت سهلة على الطرق المستقيمة والفارغة، وجـد نفسه يفكّر بأمر ليكسي، وزاد ضغطه على دواسة الوقود، محاولاً أن يغالب الإحساس بالانزعاج... الانزعاج مرادف للاضطراب، وهو يرفض أن يضطرب؛ كرامته لا تسمح له. ومع هذا، وحينما اضطر أن يبطئ السرعة في أماكن مثل بيل هافين وليشفيل، ضبط نفسه ينقر المقود بتوتر ويتمتم بكلام غير مفهوم.

إنه إحساس غريب، من النوع الذي تزداد حدته كلما اقترب من مقصده. إحساس لا يقدر أن يفهمه، أو لم يرد أن يفهمه. وفي إحدى المرات النادرة في حياته، كان يسير وكأنه طيار آلي، ويقحم نفسه في عكس ما يستدعيه المنطق، ولا يفكر إلا بردّ فعلها عندما تراه.

فقط عندما فكّر أنه بدأ يفهم سبب تصرفها الغريب، وجد نفسه يقف الآن أمام محطة العبّارة محدقاً برجل نحيل في بزّة رسمية، والذي بالكاد رفع رأسه عن المجلة التي كان يقرأها. علم أن العبّارة إلى أوكراكوك لا تنتقل بنفس الانتظام كالعبارة بين جزيرة ستاتن ومانهاتن، وأن موعد مغادرة العبارة قد فاته، وأن عليه إما أن يعود في الغد، أو أن يلغي خطته بالإجمال، ولم يكن مستعداً للنظر بأي من الاحتمالين.

"هل أنت متأكّد بأنه ما من طريق آخر أصل به إلى فنار هاتيراس؟" سأله جيرمي وهو يشعر بأن نبضات قلبه تزداد سرعة. "هذا أمر مهم".

"يمكن أن تقود السيارة إلى هناك".

"كم تستغرق القيادة إلى هناك؟"

"يعتمد الوقت على سرعة قيادتك".

طبعاً، وماذا غير ذلك، قال جيرمي في سره. "لنقل أني قدت السيارة بسرعة".

هزّ الرجل كتفيه كما لو أن الحديث أضجره، "خمس أو ستّ ساعات ربما. يجب أن تتوجّه شمالاً حتى تصل إلى بليموث، ثم تسلك الطريق 64 حتى جزيرة رونوك، ثم إلى وايلبون. من هناك، تتوجّه جنوباً إلى باكستون. إنّ الفنار هناك".

نظـــر جيرمي إلى ساعته؛ إنها الواحدة تقريباً، وفي الوقت الذي سيصل فيه إلى مقصده، سيكون ألفين قد وصل إلى بون كريك، وهذا ليس جيداً.

"هل من مكان آخر أستقل منه العبّارة؟"

"هناك واحد قرب جزيرة سيدر".

"عظيم. وأين ذلك؟"

"عـــلى بعد حوالى ثلاث ساعات بالاتجاه الآخر. لكنك أيضاً يجب أن تنتظر حتى صباح الغد".

وراء الرجل، رأى جيرمي ملصقاً دعائياً لبعض الفنارات المختلفة في كارولينا الشمالية. فنار هاتيراس، أكبرها، كان في الوسط.

"ماذا لو قلت لك بأنها حالة طارئة؟" سأل جيرمي.

للمرة الأولى، رفع الرجل نظره للأعلى.

"هل هي حالة طارئة؟"

"دعنا نقول بأنها كذلك".

"وقتها سأتصل بخفر السواحل. أو ربما بمدير الشرطة".

"آه"، قـــال جيرمي محاولاً السيطرة على أعصابه. "إذاً هل تقول لي إنه ما من طريقة لي لأصل إلى هناك الآن؟ أعني، من هنا إلى هناك؟"

وضـــع الرجل إصبعه على ذقنه. "أظن وقتها أنه يمكنك أن تستقلّ مركباً، لو كنت على عجلة من أمرك".

الآن سأصل معه إلى جواب ما، فكّر جيرمي. "وكيف أرتب ذلك؟"

"لا أعرف. لم أواجه مثل هذا الموقف سابقاً".

قفز جيرمي عائداً إلى سيارته، واعترف أخيراً أنه بدأ يضطرب.

ربمـــا لأنـــه قطع كل هذه المسافة، أو ربما لأنه أدرك أن كلماته الأخيرة إلى ليكســـي في اللـــيلة الســـابقة كشفت عن حقيقة أعمق، لكنّ شيئاً آخر منعه من العودة. رفض العودة، ليس بعد أن اقترب إلى هذا الحدّ.

نايت ينتظر اتصاله، ولكن فجأة لم يعد الاتصال بنفس الأهمية. ولا أن ألفين

سيصـــل الليلة. إذا سار كل شيء على ما يرام، فما زال بإمكانهما أن يصوّرا هذا المساء ومساء غد. عنده عشر ساعات حتى ظهور الأنوار: في مركب سريع، يمكنه أن يصـــل إلى هاتيراس في ساعتين. عنده وقت كاف ليصل إلى هناك، ليتكلم مع ليكسي، وليعود أدراجه. لا بد أن يجد شخصاً ليأخذه إلى هناك.

لكـــن احـــتمالات الفشل واردة. قد لا يكون قادراً على استئجار مركب، ولكـــنه ما يزال قادراً على القيادة إلى باكستون لو اضطر. ولكن هل هو أكيد بأنه سيجدها متى وصل إلى هناك؟

لا تـــبدو خطة معقولة، ولكن ما الفرق. لكل إنسان الحق في خطة جنونية، والآن جـــاء دوره. معـــه مال في محفظته، ولا بد أن يجد وسيلة ليصل إلى هناك. سيخاطر وسيرى كيف ستسير الأمور معها، على الأقل ليثبت لنفسه أنه قادر على تركها وعلى عدم التفكير بها مرة أخرى.

نعـــم، هذا كل ما يريد أن يثبته. عندما ألمحت له دوريس أنه قد لا يراها مرة أخـــرى، تسارعت أفكاره إلى حدّ الجنون. صحيح أنه سيغادر بعد يومين، ولكن ذلك لم يعنِ أن الأمر برمته قد انقضى. ليس الآن على أي حال. يستطيع أن يعود للـــزيارة، وأن تأتي هي إلى نيويورك وإذا كان مقدّراً للعلاقة أن تنجح، فسيجدان وسيلة لإنجاحها. الجميع يفعلون ذلك، صحيح؟ ولكن حتى إن لم يكن الأمر ممكناً، حـــتى لـــو صممت أن تنهي الموضوع برمته، يريد أن يسمعها بنفسه. وقتها فقط يستطيع أن يعود إلى نيويورك متيقناً أنه لم يكن ثمة خيار آخر.

توقف مسرعاً أمام أول مرسى للسفن رآه. لا يريدها أن تنطق بتلك الكلمات. لم يكـــن في طريقة إلى باكستون مودعاً، ولا ليسمعها تقول إنها لا تريد أن تراه بعد اليوم. ولكنه سيذهب، ويا للعجب، ليتأكد إن كان ألفين محقاً في مقولته.

كانـــت فـــترة بعض الظهر الوقت المفضل عند ليكسي. ضوء شمس الشتاء الناعمة، والجمال الطبيعي القاسي للمنظر الريفي يجعلان العالم أشبه بالحلم.

حـــتى الفـــنار المخطط بالأسود والأبيض السكري يبدو كالسراب من هنا، وأثناء سيرها على الشاطئ تساءلت كم كان صعباً الإبحار في هذه المنطقة قبل بناء الفـــنار. أطلق البحارة على المياه المقابلة للشاطئ اسم مقبرة الأطلسي نظراً لمياهها

الضـــحلة والحواجز الرملية المتحركة، وفي تلك المياه انتشر حطام آلاف السفن في قعر البحر. السفينة الحربية مونيتور، والتي شاركت في أول معركة بين سفن حربية خـــلال الحرب الأهلية فقدت على هذا الشاطئ. وكذلك الأمر مع سفينة سنترال أميركا المحملة بذهب كاليفورنيا والتي تسبب غرقها بذعر على مستوى الاقتصاد في العـــام 1857. أمـــا سفينة القرصان بلاكبيرد *انتقام الملكة آن* فوجدت في خليج بوفـــور، كما هو الحال مع عدد من الغواصات الألمانية التي كان يزورها عشرات الغطاسين يومياً.

جدها كان مولعاً بالتاريخ. وكل مرة كانا يمشيان فيها على الشاطئ ويداهما متشـــابكتان، كـــان يروي لها قصص السفن التي فقدت عبر القرون. أخبرها عن الأعاصير، والأمواج الخطرة، والأخطاء الملاحية التي احتجزت المراكب بانتظار أن تمزقها الأمواج الهائجة. ومع أنها لم تكن على الدوام مهتمة بهذه الأخبار، أو أحياناً كانـــت تخاف من الصور التي استحضرتها في ذهنها عند سماع القصص، فإن لكنته كانـــت تهدئها، ولم تحاول قط أن تغيّر الموضوع. ومع أنها كانت ما تزال صغيرة وقتها، إلا أنها أحست أن حديثه معها عن هذه الأشياء عنى له الكثير. بعد سنوات علمت أن سفينته أصيبت خلال الحرب العالمية الثانية وأنه نجا بأعجوبة.

إنّ اســتعادة تلك النـــزهات جعلتها تشتاق لجدها بشدة. النـــزهات كانت جـــزءاً من روتينهما اليومي، طقساً خاصاً بهما، وكانا في العادة يخرجان قبل ساعة مـــن موعد العشاء عندما تنشغل دوريس بالطهو. في كثير من الأحيان، كان يجلس على كرسيه يقرأ ونظارته مستندة على أنفه، وفجأة يضع الكتاب جانباً ويتنهد، ثم يقف ويسألها إن كانت تودّ أن تتمشّى لرؤية الخيول البرّية.

فكـــرة رؤيـــة الخـــيول أثارتها دائماً. لا تعرف لماذا. لم يسبق لها أن امتطت حصـــاناً، كما لم تشعر بضرورة أن تفعل ذلك ولكنها تذكرت كيف كانت تقفز وتـــركض باتجاه الباب في كل مرة يقترح فيها جدها هذه الفكرة. في العادة كانت الخيول تنأى بنفسها عن الناس وتهرب كلما أحست باقترابهم، ولكن وقت الغروب كانت الخيول ترعى، ووقتها كانت تقلل من حذرها لسبب ما، وإن لبضع دقائق. وكـــان مـــن الممكـــن وقتها الاقتراب لرؤية العلامات المميزة، وإن كنت محظوظاً

لسماع صهيلها المحذر بعدم الاقتراب أكثر.

تـــتحدّر تلك الخيول من الخيول البرية الإسبانية، ويعود تاريخ تواجدها على الضفاف الخارجية إلى العام 1523. والخيول هذه الأيام ترعاها العديد من القوانين الحكومـــية التي تحمي وجودها، وقد أصبحت جزءاً من البيئة المحيطة كما الأيل في بنسلفانيا، رغم ازدياد أعدادها. إلا أن السكان هنا تجاهلوا وجود الخيول إلا عندما تحولت إلى مصدر إزعاج لهم. أما المصطافون فكانوا يعتبرون رؤية الخيول أحد أهم أســباب زيـــاراقم. ومع أن ليكسي تعدّ من السكان المحليين، إلا أن رؤية الخيول جعلتها تشعر بالشباب، بكل ما تحمله الحياة من متع وتوقعات.

أرادت الآن أن تشعر بالشباب لتهرب من ضغوط العمر. اتصلت بما دوريس لتعـــلمها أن جيرمي جاء باحثاً عنها. لم تفاجأ. ومع أنها افترضت أنه يتساءل عن الخطـــأ الذي ارتكبه، أو عن السبب الذي دفعها للمغادرة، فإنها كانت على يقين بأنه سيتخطى الأمر بسرعة. جيرمي واحد من أولئك الأشخاص الموهوبين الواثقين من كل خطوة يقدمون عليها، ومن أولئك الذين يسيرون قدماً دون أن يلتفتوا إلى الوراء.

هكذا كان أفيري. وحتى الآن ما تزال تذكر كم تأذت من إحساسه بالتميّز، ومـــن لامبالاته بألمها. بالعودة إلى الماضي، أدركت أنه كان عليها أن ترى سلبيات شخصيته على حقيقتها. ولكن في وقتها، لم تتنبّه للإشارات التحذيرية: الطريقة التي يطيل بها النظر إلى النساء الأخريات، أو الطريقة التي يطيل بها عناق النساء ثم يقسم أنهـــن كنّ مجرد صديقات. في البداية، أرادت أن تصدق ما قاله لها بأنه لم يخنها إلا مـــرة واحدة، ثم استعادت في فكرها الأخبار التي وصلتها حول أفيري من إحدى صديقاتها التي أبلغتها أنها سمعت إشاعات عنه وعن إحدى فتيات الجمعية. وإن أحد زملائـــه في العمل اشتكى من كثرة غيابه غير المبرر عن العمل. كانت لا تحب أن تعـــترف بسذاجتها، مع أنها كانت كذلك، وهي وإن خاب أملها من خيانته، إلا أنها أدركت أنها كانت ولمدة طويلة خائبة الأمل من سذاجتها.. لقد أقنعت نفسها بأنها ستتجاوز الأمر، وبأنها ستلتقي برجل أفضل منه. شخص ما مثل سيد النهضة، والـــذي أثبـــت بما لا يقبل الشك أنها فاشلة في الحكم على الرجال، وكذلك في

الإبقاء عليهم بجانبها.

ليس من السهل الإقرار بهذا، وكانت هناك أوقات تتساءل فيها أين تخفق لتدفع الرجال بعيداً عنها. حسناً، ربما ليس سيد النهضة، لأن ما بينهما كان أقرب إلى النزوة منه إلى العلاقة، ولكن ماذا عن أفيري؟ أحبّته واعتقدت بأنه أحبّها. بالطبع من السهل القول إن أفيري نذل، وإنه هو سبب انهيار العلاقة. ولكن، في الوقت نفسه، لا بد من أنه شعر بأن العلاقة كانت تفتقر إلى أمر ما. بأنها هي – نعم هي – تفتقر إلى أمر ما. ولكن ماذا؟ هل كانت شديدة الإلحاح؟ هل كانت مملة؟ هل كان غير مقتَنع في غرفة النوم؟ لماذا لم يركض وراءها مستجدياً السماح؟ إنها أسئلة لم تصل إلى أجابتها بعد. أصدقاؤها، بالطبع، أكدوا لها أنها لا تعرف عمّا تتكلم، وقالت لها دوريس الشيء نفسه. رغم ذلك، لم تتضح لها الصورة بعد. لكل قصة منظوران مختلفان. وحتى الآن ما زالت تتخيل أحياناً أنها تتصل به لتسأله ما إذا كانت قد تصرفت تجاه أي شيء بشكل مختلف.

أشار لها أحد أصدقائها أنه من الطبيعي أن تقلق النساء حول هذه الأمور. يبدو أن الرجال محصّنون ضدّ هذه المشاعر من عدم الأمان. وحتى لو لم يكونوا محصنين، فإنهم يتعلمون أن يخفوا مشاعرهم أو أن يدفنوها عميقاً فلا تعيق تقدمهم. وهي اعتمدت الأسلوب نفسه، وعادة كانت النتائج مرضية. عادة...

من بعيد، بدت بلدة بامليكو ببيوتها البيضاء، والشمس من ورائها تغرق في مياه بامليكو ساوند مثل بطاقة بريدية. كانت تحدق باتجاه الفنار (المنارة)، وتماماً مثلما كانت قد أملت، لمحت سرباً من الخيول البرية يرعى من أشجار الشوفان البحري قرب القاعدة. حوالى اثني عشر حصاناً، بنّية أو ضاربة إلى الصفرة في معظمها، وجلودها قاسية ووحشية وازدادت سماكتها مع الشتاء. وقفت مهرتان وسط المجموعة وذنباهما يتحركان بتآلف.

توقّفت ليكسي لمراقبتهما، ودسّت يديها في جيبيّ سترتها. ازدادت برودة الطقس مع اقتراب المساء، وأمكنها أن تحس بلسعة البرد على خديها وأنفها. ازدادت سرعة الهواء، ومع أنها كانت تود أن تبقى أكثر، شعرت بالتعب. كان يوماً طويلاً، طويلاً جداً.

رغمـــاً عنها، تساءلت عمّا يفعل جيرمي. هل كان يستعدّ للتصوير ثانية؟ أو يقـــرّر أيـــن يتناول الطعام؟ هل كان يحزم أغراضه؟ ولماذا تتجه أفكارها إليه على الدوام؟

تـــنهّدت، عارفـــةً الجواب بالفعل. بقدر ما أرادت رؤية الخيول، فإن رؤيتها حملـــت إليها الإحساس بالوحدة أكثر من الأمل ببدايات جديدة. بقدر ما اعتبرت نفســـها مســـتقلّة، وبقدر ما حاولت التقليل من قيمة ملاحظات دوريس التي لا تـــتوقف، لم يكن في وسعها إلا أن تشعر بالتوق إلى الرفقة والألفة. ليس بالضرورة للـــزواج. كـــل ما كانت تطلبه أحياناً أن تتطلع قدماً لليلة الجمعة أو ليلة السبت. تشـــتاق لأن تمضي صباحاً هادئاً مع شخص يهتم بها، ومع استحالة الفكرة، كان جيرمي هو الشخص الذي بقيت تتخيله بجانبها.

هـــزّت ليكسي رأسها ودفعت بالفكرة بعيداً. في قدومها إلى هنا، كانت قد أملـــت أن تجد مهرباً من أفكارها، ولكن فيما هي واقفة قرب الفنار تراقب الخيول البرية، أحسّت بقسوة العالم عليها. كانت في الواحدة والثلاثين من عمرها، عزباء، وتعـــيش في مكان خالٍ من الفرص. جدها ووالداها صاروا مجرد ذكريات، وحالة دوريس الصحية كانت مصدر قلق دائم لها، والرجل الوحيد الذي بدر عنه اهتمام بها بعد سنوات من العزلة سيكون قد اختفى إلى الأبد عندما تعود إلى منـــزلها.

عـــندها بدأت بالبكاء، واستمرت لوقت طويل دون أن تقدر على التوقف. ولكـــن عـــندما استجمعت نفسها أخيراً، رأت شخصاً ما يقترب منها، وكل ما أمكنها فعله هو أن تحدق به عندما أدركت من كان.



الفصل الرابع عشر

رمشـــت ليكســـي، وحاولت أن تتأكد إن كان ما تراه حقيقيّاً. لا يمكن أن يكـــون هـــو، لأنه لا يمكن أن يكون هنا. الفكرة بأكملها بدت مستبعدة، وغير متوقعة، وشعرت بأنها تراقب المشهد بعيني شخص آخر.

ابتســـم جيرمـــي وأنـــزل حقيبته، ثم قال: "هل تعرفين، يجب أن لا تحدّقي هكذا. الرجال يعجبون بالنساء اللاتي يتصرفن بكياسة".

تابعت ليكسي التحديق به، ثم قالت: "أنت".

"أنا"، قال بإيماءة.

"أنت... هنا".

"أنا هنا"، وافق ثانية.

حدّقت به في الضوء المتضائل، وخطر ببال جيرمي أنها أجمل مما كان يتذكر.

"ماذا...؟" تردّدت، محاولة أن تستوعب ظهوره، "أعني، كيف...؟"

"إنهـــا قصة طويلة نوعاً ما"، اعترف لها. وعندما لم تقم بأي حركة، أومأ إلى الفنار. "وهل هذا هو الفنار حيث تزوج أبواك؟"

"تذكّرت ذلك؟"

"أتذكّر كل شيء"، قال ونقر جبهته بإصبعه. "الخلايا الرمادية وما إلى ذلك. أين تزوجا بالضبط؟"

تكـــلم بسهولة، كما لو أنها كانت محادثة أقل من عادية، مما زاد من سريالية (تجاوز واقعية) الموقف بالنسبة لها.

"هناك"، قالت وأشارت. "بجانب المحيط، قرب خط الماء".

"لا بد بأنها كانت مناسبة جميلة"، قال وتطلّع في ذلك الاتجاه. "المكان بأكمله

جميل. يمكنني أن أرى لماذا تحبينه".

بدلاً من أن تردّ، أخذت ليكسي نفساً عميقاً، محاولة لجم عواطفها المتلاطمة.

"ماذا جئت تفعل هنا يا جيرمي؟"

استغرق ثانية قبل أن يجيب. "لم أكن متأكداً إن كنت ستعودين. كما أدركت أني لو أردت رؤيتك مرة ثانية، فإن الخيار الأفضل كان أن آتي إليك".

"لكن لماذا؟"

استمرّ جيرمي بالتحديق نحو الفنار. "شعرت كأنه لم يكن عندي خيار آخر".

"لست متأكدة مما تقصده".

نظر جيرمي إلى الأسفل، ثم نظر للأعلى وابتسم كما لو أنه يعتذر. "لكي أكون صادقاً، أمضيت أغلب اليوم محاولاً أن أفهم دوافعي أنا الآخر".

بينما وقفا قرب الفنار، بدأت الشمس بالغرق تحت خط الأفق، وتحولت السماء إلى لون رمادي مميز. أما النسيم البارد والمشبع بالرطوبة فقد كشط سطح الرمل، وأثار رغوة عند حافة الماء.

من بعيد، رأت شخصاً في سترة ثقيلة غامقة يطعم النوارس، ويرمي فتات الخبز في الهواء. فيما راقبته ليكسي، شعرت أن صدمة ظهور جيرمي بدأت بالزوال. جزء منها أراد أن يغضب لأنه تجاهل رغبتها في البقاء وحدها، وجزء آخر - الجزء الأعظم - ممتن لأنه جاء باحثاً عنها. أفيري ما سبق له أن اهتمّ بتتبعها، وكذلك سيد النهضة. حتى رودني ما كان ليفكّر بالمجيء إلى هنا، وحتى قبل دقائق قليلة، لو طرح شخص ما إمكانية قيام جيرمي بعمل مثل هذا كانت ستسخر من مجرد التفكير بالأمر. بدأت تفكر أن جيرمي كان مختلفاً عن جميع من التقت بهم في السابق، وأنها يجب أن لا تفاجأ بأي عمل يقدم عليه.

بدأت الخيول بالابتعاد شيئاً فشيئاً، تتوقف لتقضم بعض الغذاء هنا وهناك فيما عادت أدراجها عبر الكثيب. بدأت الرطوبة الساحلية بالاقتراب، واختفى الفاصل بين البحر والسماء. أما طيور خطاف البحر فبدأت تقفز على الرمل قرب حافة الماء، وسيقانها الطويلة تتحرك بسرعة باحثة عن القشريات الصغيرة.

في الصمت، جمع جيرمي يديه ونفخ فيهما، محاولاً إيقاف الإحساس بالألم.

"هل أنت غاضبة لأنني أتيت؟" سأل أخيراً.

"لا"، اعترفت. "متفاجئة، لكني لست غاضبة".

ابتسم، وردت الابتسامة بومضة سريعة. "كيف وصلت إلى هنا؟"

أشـــار بكتفه نحو باكستون. "صعدت مع مجموعة من الصيادين الذين كانوا متجهين إلى هنا، أنـــزلوني في المارينا".

"نقلوك معهم هكذا؟"

"نعم، هكذا".

"كنت محظوظاً. أكثر صيّادي السمك أشخاص قساة جداً".

"قـــد تكونـــين عـــلى حقّ، ولكنّ البشر بشر. بينما أنا لست خبيراً في علم الـــنفس، أنـــا من القائلين إن أي واحد - حتى الغرباء - يمكن أن يشعر بإلحاحية الطلـــب، وأكثر الناس يقدمون على فعل الشيء الصّحيح عادة". وقف مستقيماً، وهمهم قائلاً: "وعندما لم ينجح ذلك، عرضت أن أدفع لهم مالاً".

ضحكت لحركاته.

قالت: "دعني أحزر. لقد تسبّبوا بخسارتك لكثير من المال، أليس كذلك؟"

هـــزّ كتفيه بلا مبالاة خجولة (استخفافاً). "أعتقد أن الأمر يعتمد على كيفية نظرتك إلى الموضوع. بالفعل بدا مبلغاً كبيراً مقابل جولة في المركب"..

"طبيعـــيّاً. إنها رحلة صعبة. ثمن الوقود وحده يكفي. كما أن هناك استهلاك المركب...".

"ذكروا لي ذلك".

"وبالطبع، لا تنسَ وقتهم وحقيقة أنهم سيعملون غداً قبل الفجر".

"ذكروا ذلك، أيضاً".

من بعيد، اختفى آخر الخيول خلف الكثيب.

"لكنك جئت، رغم كل شيء".

أومـــأ، مندهشاً مثلها. "لكنهم تأكّدوا بأنني فهمت أنها سفرة أحادية الاتجاه. لم يكونوا في وارد انتظاري، لذا أعتقد أني عالق هنا".

رفعت حاجباً. "أوه، حقاً؟ وكيف خططت للعودة؟"

ابتسم ابتسامة عريضة لعوبة. "حسناً، يصادف أني أعرف شخصاً يقيم هنا، وكنت أخطط لاستخدام سحري الرائع لإقناعها بالعودة بي".

"وماذا لو قررت ألا أذهب إلى هناك لبعض الوقت؟ أو إذا قلت بأنك مسؤول عن نفسك؟"

"لم أحسب حساب ذلك الجزء حتى الآن".

"وأين تنوي البقاء فيما أنت هنا؟"

"لم أصل إلى هذا الجزء كذلك حتى الآن".

"على الأقل أنت صادق حول ما تقوله"، قالت مبتسمة، "لكن أخبرني، ماذا كنت ستفعل لو لم أكن هنا؟"

"وأين عدا هذا المكان يمكن لك أن تذهبي؟"

ألقت نظرة خاطفة، مطمئنةً إلى حقيقة أنه كان قد تذكّر هذا عنها. من بعيد رأت أضواء سفينة صيد تتحرك ببطء شديد حتى كأنها باقية في مكانها.

قالت: "هل أنت جائع؟"

"إنني شديد الجوع. لم أتناول طعاماً طيلة اليوم".

"أتحب أن تتناول العشاء؟"

"هل تعرفين مكاناً لطيفاً؟"

"لدي في ذاكرتي مكان جميل".

سأل: "هل يأخذون بطاقات ائتمان؟ استعملت كل ما لدي من مال يُدفع نقداً للوصول إلى هنا".

قالت: "أنا متأكدة بأننا نستطيع أن نحلّ المسألة".

انعطفا عند الفنار، ثم شقّا طريقهما عائدين على الشاطئ، وسارا على امتداد الرمل المضغوط قرب طرف الماء. كان هناك فضاء بينهما لا يبدو أن أياً منهما راغب بعبوره. بدلاً من ذلك، بأنفيهما اللذين اكتسيا باللون الأحمر جراء البرد، تحركا إلى الأمام بثبات، كما لو أن كليهما كانا يعرفان المكان المقصود.

في الصمت، استرجع جيرمي عقليّاً تفاصيل رحلته. شعر بالذنب حيال نايت وألفـــين. تغيّـــب عن الاتصال الهاتفي، لم يكن هناك استقبال هاتفي أثناء عبوره باملـــيكو ساوند، وقرّر أنه من الضروري أن يتصل حالما يجد هاتفاً أرضياً. لم يكن يـــتطلع قدماً إلى ذلك الاتصال. لا شك أن نايت انتظر اتصال جيرمي لساعات، وأنه سينفجر مثل البركان عند سماع صوته، ولكن جيرمي خطط لاقتراح أن يجتمع بالمنـــتجين الأسبوع القادم، وأن يرفق الاجتماع بالفيلم والخطوط العريضة للقصّة؛ عـــلى اعتبار أنها الفكرة الأساسية من وراء الاتصال الهاتفي. على أي حال، إذا لم يكن اقتراحه كافياً لاسترضائهم، وإن كان التغيب عن اتصال هاتفي واحد كفيلاً بإنهاء مهنته قبل أن تبدأ، فلم يكن أكيداً بأنه يريد دخول مجال العمل التلفزيوني.

وألفـــين... حسناً، أمره أسهل قليلاً. ما من طريقة يعود بها جيرمي إلى بون كـــريك لمقابلة ألفين الليلة. وقد أدرك ذلك لمّا أنـــزله المركب. ولكن ألفين كان معـــه هـــاتف خلوي، وسيشرح له ما يجري. لن يكون ألفين سعيداً بالعمل وحده الليلة، لكنه سيتعافى غداً. ألفين كان أحد أولئك الناس النادرين الذين لا يسمحون لأي أمر أن يضايقهم لأكثر من يوم.

رغـــم ذلك، ولكي يكون صادقاً مع نفسه، أقرّ جيرمي أنه لم يهتمّ بأي من تلك المواضيع في هذه اللحظة. بدلاً من ذلك، كل ما كان يهمه هو أنه كان يمشي مـــع ليكســـي على شاطئ هادئ في مكان مجهول، وأنهما وهما يمشيان في النسيم المالح، لفّت ذراعها بهدوء حول ذراعه.

شدته ليكسي باتجاه درجات خشبية متكسرة إلى كوخ قديم، وعلّقت سترتها عـــلى الرفّ بجانب الباب. علّق جيرمي سترته وحقيبته أيضاً. ولما مشت أمامه إلى غرفة الجلوس، راقبها جيرمي، وزاد يقينه بأنها كانت جميلة.

"هل تحبّ الباستا؟" سألته مقتحمة أفكاره.

"هل تمزحين؟ نشأت على محبة الباستا. يصادف أن أمّي إيطالية".

قالت: "جيد، لأن هذا ما خططت لتحضيره".

"هل سنأكل هنا؟"

"أظـــن أن علينـــا أن نـــأكل هنا"، قالت من وراء كتفها. "أنت مفلس، هل

تذكر".

كـــان المطبخ صغيراً، بطلاء أصفر باهت، وورق جدرانه ورديّ متقشر عند الزوايا، وخزاناته مخدّشة، ومائدة الطعام مطلية وموضوعة تحت النافذة. على طاولة المطـــبخ وضعت أكياس البقالة التي أحضرتها سابقاً. مدّت يدها إلى الكيس الأول وســـحبت علبة شيريوز ورغيف خبز. من مكانه قرب المغسلة، رأى جيرمي بعضاً من جلدها عندما وقفت على أصابع قدمها لوضع الأغراض في الخزانة.

"هل تحتاجين إلى مساعدة؟"

"لا، تدبرت الأمر، شكراً"، قالت ملتفتة إليه. بعد أن عدّلت قميصها، مدّت يدها إلى الكيس الآخر ووضعت بصلتين جانباً، وعلبتين كبيرتين من طماطم سان مـــارزانو. "لكـــن بينما أصنع هذا، هل تريد شيئاً لتشربه؟ عندي ست علب من شرابي المفضل في الثلاجة إذا كنت مهتمّاً".

وسّع عينيه مفتعلاً الصدمة. "عندك شراب مفضل؟ اعتقدت بأنك لا تشربين كثيراً".

"فعلاً".

"مع ذلك، بالنسبة لشخص لا يشرب، يمكن لستّ علب من الشراب المفضل أن تتسبّب بالكثير من الضرر". هزّ رأسه قبل أن يتابع. "لو لم أعرفك أفضل، لقلت إنـــك كنـــت تخططين للانغماس في نوبة شراب ومرح صاخب خلال عطلة نهاية الأسبوع هذه".

نظـــرت إليه نظرة مُخْزية، ولكن كما في الأمس، نظرة لعوبة. "إنها أكثر من كافية لشهر بأكمله، شكراً.. الآن، هل تودّ أن تتناول شراباً أم لا؟"

ابتســـم، شـــعر بالارتياح لعودتهما إلى تراشقهما المألوف. "نعم، أود شراباً، شكراً".

"هل يمكنك أن تحضره بنفسك، أرجوك. أنا منشغلة بتحضير الصلصة".

تحـــرك جيرمي باتجاه الثلاجة وسحب من العلبة زجاجتين من شرابها المفضل. انـــتزع غطـــاء الزجاجتين ووضع زجاجة أمام ليكسي. عندما رأتها، حرك كتفيه قائلاً: "لا أحب الشرب وحدي".

استند إلى الطاولة بجانبها، وثبّت رجلاً فوق الأخرى. "فقط لكي تعلمي، أنا جيّد جداً في التقطيع إذا احتجت إلى مساعدة".

قالت: "سأتذكر ذلك".

ابتسم. "منذ متى امتلكت عائلتك هذا المكان؟"

"اشـــتراه جـــدّاي مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية. وقتها، لم تكن هناك أية طرق على الجزيرة. كان لا بد من أن تقود السيارة على الرمال لكي تصل إلى هنا. هناك بعض الصور في غرفة الجلوس تظهر كيف كان هذا المكان في السابق".

"هل تمانعين لو ألقيت نظرة؟"

"امـــضِ. لديّ ما يشغلني. هناك حمّام في آخر الصالة إذا أردت الاغتسال قبل العشاء. في غرفة نوم الضيوف على اليمين".

انتقل إلى غرفة الجلوس، وشاهد صور حياة الشاطئ الريفية، ثم لاحظ حقيبة ليكسي قرب الأريكة. بعد أن فكر للحظة، حملها وسار باتجاه القاعة. على اليسار، رأى غـــرفة واسعة مع سرير بركيزة كبيرة مغطى بلحاف مزين برسوم الأصداف الـــبرية. أمـــا الجدران فزينت بصور عن الضفاف الخارجية. خمّن أن هذه غرفتها، ووضع حقيبتها داخل الغرفة.

ثم عـــبر الممـــر الفاصـــل ودخل الغرفة الأخرى. كانت مؤثثةً بطريقة توحي بالملاحة البحرية، وأضفت الستائر الزرقاء الداكنة تناغماً لطيفاً مع المناضد والخزائن الخشـــبية. وضع حذاءه وجوربيه أسفل السرير، متسائلاً عن الإحساس بالنوم هنا بينما يعرف أن ليكسي كانت وحدها في المطبخ.

أمـــام مغسلة الحمّام، نظر إلى نفسه في المرآة واستعمل يديه في محاولة لإعادة الســـيطرة على مظهر شعره. اكتسى جلده بطبقة خفيفة من الملح، وبعد أن غسل يديـــه، رشّ مـــاءً على وجهه أيضاً. شعر بالانتعاش، وعاد إلى المطبخ وسمع الأغنية الحزينة لفرقة البيتلز أمس صادرة من راديو صغير على طرف النافذة.

"هـــل أنـــت مســـتعدة لبعض المساعدة الآن؟" وبجانبها، رأى طاسة سلطة متوسطة الحجم فيها قطع صغيرة من الطماطم والزيتون.

وهـــي تغســـل الخـــسّ، أومأت ليكسي نحو البصل. "لقد فرغت تقريباً من

السلطة، هل تقدر أن تقشر هذه".

"بالتأكيد. هل تريدينني أن أقطعها أيضاً؟"

"لا، لا لزوم. فقط انــزع القشرة. إنّ السكين في الدرج هناك".

سحب جيرمي سكين ستيك، وتناول البصل عن طاولة المطبخ. للحظة، عملا دون كلام، واستمعا إلى الموسيقى. وحين انتهت من الخسّ ووضعته جانباً، حاولت ليكسي أن تتجاهل قرب المسافة التي يقفان بها. لكن من طرف عينها، لم تقوَ على مقاومــة وســامة جيرمــي الطبيعية، مع رشاقة وركيه وساقيه، وكتفيه الواسعتين وعظام خديه العالية.

قطع جيرمي عليها أفكارها سائلاً: "هكذا؟"

"نعم بالضبط".

"هل أنت متأكّدة أنك لا تريدينني أن أقطعها إلى مكعبات؟"

"لا. إن فعلت، فستخرب الصلصة، وأنا بدوري لن أغفر لك".

"الجميع يقطع البصل إلى مكعبات. أمي الإيطالية تقطع البصل إلى مكعبات".

"ليس أنا".

"إذاً ستضعين هذه البصلات الكبيرة كما هي في الصلصة؟"

"لا. سأقطعها أولاً إلى نصفين".

"هل يمكنني على الأقل أن أقوم أنا بذلك؟"

"لا، شكراً. لا أقصد أن أصدمك!" ابتسمت. "أضف إلى ذلك، أنا الطاهي، أتذكر؟ عليك فقط أن تراقب وتتعلّم. الآن اعتبر نفسك مثل... التلميذ".

نظر إليها. منذ دخلا من الخارج، خفّ الاحمرار من خديها، وعاد جلدها إلى تألقه الطبيعي.

"تلميذ؟"

هزّت كتفيها بلا مبالاة. "ماذا تريدني أن أقول؟ يمكن أن تكون أمّك إيطالية، لكني نشأت مع جدة جرّبت كل ما هنالك من وصفات".

"وذلك يجعلك خبيرة؟"

"لا، لكـــنه جعل دوريس خبيرة، ولوقت طويل، كنت أنا تلميذها. تعلّمت منها والآن جاء دورك".

مـــدّ يـــده إلى البصلة الثانية. "إذاً، أخبريني ما المميز بوصفتك؟ أعني عدا عن احتوائها على بصل بحجم كرة البيسبول؟"

أخـــذت البصلة المقشورة وقطّعتها مناصفة. "حسناً، بما أن أمّك إيطالية، أنا متأكّدة بأنك قد سمعت عن طماطم سان مارزانو".

"بالطبع، إنها طماطم. من سان مارزانو".

"هـــا، هـــا"، قالت. "في الحقيقة، إنها الأحلى والألذ من بين كل الطماطم، خصوصاً في الصلصات. الآن، راقب وتعلّم".

ســـحبت قدراً من تحت الموقد ووضعتها إلى جانبها، ثم فتحت الغاز وأشعلت النار. أزّ اللهب الأزرق وقامت هي بوضع القدر الفارغة فوق النار.

"أنا منبهر حتى الآن"، قال وأنهى البصلة الثانية ووضعها جانباً. التقط زجاجة المشـــروب المفضـــل واتّكـــأ على طاولة المطبخ مرة ثانية. "يجب أن تحصلي على برنامجك الخاص للطهو".

تجاهلته، وصبّت كل محتويات علبتي الطماطم في القدر، ثم أضافت قالباً كاملاً مـــن الزبدة إلى الصلصة. نظر جيرمي من فوق كتفها، وراقب بينما بدأت الزبدة بالذوبان.

"يبدو صحّياً. أخبرني طبيبـــي أني دائماً بحاجة إلى كولسترول إضافي في حميتي الغذائية".

"هل تعرف أن عندك ميلاً نحو التهكّم؟"

قال: "سمعت ذلك من قبل". ورفع قنينته. "لكن شكراً على الملاحظة".

"هل فرغت من البصلة الثانية؟"

"أنا التلميذ، أليس كذلك؟" قال، وسلّمها البصلة.

شـــقّت البصلة إلى نصفين قبل أن ترمي بالقطع الأربع في الصلصة. حركتها لفترة بملعقة خشبية، وتركتها تغلي، ثم خففت النار تحت القدر إلى أدنى مستوى.

"حســـناً إذاً"، قالت برضىً، "لقد انتهينا للوقت الحاضر، ستكون جاهزة بعد ساعة ونصف".

فـــيما غسلت يديها، نظر جيرمي إلى القدر عابساً. "هكذا؟ لا ثوم؟ لا ملح وفلفل؟ لا سجق؟ لا قطع لحم؟"

هـــزّت رأســـها. "ثلاثـــة مكونات فقط. بالطبع، نحن سنصبّه على اللينغيني ونغمره بجبن البارميزان المفروم الطازج".

"هذا ليس إيطالياً جداً".

"في الحقـــيقة، بلى. إنها الطريقة التي يحضّرون بها الباستا في سان مارزانو منذ مـــئات الســـنين. وتلك بالمناسبة، بلدة في إيطاليا". ثم أغلقت حنفية الماء، وهزّت يديهـــا فوق المغسلة وجففتهما بمنشفة الصحون. "لكن بما أن عندنا بعض الوقت، سأغتسل قبل العشاء. مما يعني أنك ستكون وحدك قليلاً".

"لا تقلقي عليَّ. سأجد ما أقوم به".

"إذا أردت، يمكنك أن تغتسل. سأضع بعض المناشف خارجاً لأجلك".

بما أنه ما زال يحسّ بالملح على رقبته ويديه، وافق بسرعة. "شكراً. عظيم".

"أعطِني لحظة رجاءً لأحضّر الأشياء لك، موافق؟"

ابتســـمت وأمســـكت بمشروبها المفضل فيما مرّت بمحاذاته، وشعرت بنظرة عينيه على وركيها. تساءلت إن كان يشعر بالارتباك مثلها.

في آخـــر الممـــر، فتحت باب الحجرة، أمسكت منشفتين، ووضعتهما على سريره. تحت المغسلة في حمّامه وجدت العديد من علب الشامبو وصابونة جديدة، فوضـــعتها خارجـــاً أيضاً. وهي تفعل ذلك، تخيلت انعكاس صورته في المرآة بعد الاستحمام والمنشفة ملفوفة حول خصره. هذه الصورة الخيالية جعلت شيئاً يقفز في داخلها. أخذت نفساً عميقاً، وشعرت بأنها استعادت سنين مراهقتها.

"مرحباً؟" سمعته ينادي. "أين أنت؟"

"أنـــا في الحمّام"، أجابت، مندهشة من صوتها الهادئ. "أتأكّد فقط أن عندك كل شيء تحتاج إليه".

وقـــف وراءهـــا. "لا أظن أن عندك شفرة حلاقة لاستخدام واحد في تلك الأدراج، أليس كذلك؟"

"لا، آسفة"، قالت. "سأنظر في حمّامي، أيضاً، لكن...".

"لا شيء مهم"، قال ممرراً يده على ذقنه. "سأعتمد المظهر الوحشي الليلة".

"المظهر الوحشي كافٍ"، قالت لنفسها وشعرت بالخجل.

اســـتدارت لكـــي لا يلاحظ. "استعمل أي نوع تريد"، قالت. "وتذكّر بأن خروج الماء الحار سيستغرق وقتاً، لذا كن صبوراً".

"ســـأفعل. لكن أردت أن أسألك إن كان بإمكاني أن أستعمل الهاتف. يجب أن أجري اتصالين".

أومأت. "الهاتف في المطبخ".

مـــرّت بمحاذاتـــه، وأحسّت بأنه يراقبها للمرة ثانية مع أنها لم تلتفت لتتأكد. بـــدلاً من ذلك، ذهبت إلى غرفتها، أغلقت الباب وراءها، واستندت عليه، محرجة مـــن الطريقة الغبية التي تشعر بها. لم يحدث شيء. لن يحدث شيء. أخبرت نفسها ثانـــية. أوصـــدت الـــباب، علّه يكفي ليحجب أفكارها. ونجحت... على الأقل للحظة، حتى لاحظت أنه وضع حقيبتها في غرفتها.

أن تعـــرف أنه كان هنا قبل لحظات فتح المجال أمام سيل من الأفكار المحرمة والـــتوقعات. وهي وعلى الرغم من أنها أرادت أن تمسح هذه الأفكار من رأسها، كان لا بد لها من أن تعترف بأنها كانت تكذب على نفسها طوال الوقت.

في هـــذا الوقـــت، عاد جيرمي إلى المطبخ بعد أن استحم، وأمكن له أن يشمّ رائحـــة الصلصـــة وهي تغلي ببطء على الموقد. أنهى مشروبه المفضل، ووجد سلة القمامة تحت المغسلة فرمى فيها الزجاجة، ثم تناول زجاجة ثانية من الثلاجة. على الـــرفّ تحت، رأى قالباً جديداً من جبن البارميزان ومرطباناً غير مفتوح من زيتون أمفيسو، فكّر بأن يستل حبة زيتون قبل أن ينـــزع الفكرة من رأسه.

وجـــد الهـــاتف، واتصـــل بمكتب نايت وتم تحويله على الفور. وعلى مدى عشرين ثانية، أبعد السماعة عن أذنه ريثما أفرغ نايت بركان ثورته. لما هدأ أخيراً،

تجاوب مع اقتراح جيرمي بشأن عقد اجتماع الأسبوع القادم. أنهى جيرمي المكالمة مع وعد بأن يتصل به مرة ثانية صباح الغد.

أما ألفين، فكان من المستحيل الوصول إليه. بعد عدة محاولات اتصال وتحويل إلى بـــريده الصـــوتي، انتظر جيرمي دقيقة وحاول الاتصال مرة ثانية ولكن النتيجة كانت ذاتها. أظهرت الساعة في المطبخ أنها السادسة تقريباً، وقدر جيرمي أن ألفين هـــو في مكان ما على الطريق السريع. ربما سيتمكن من مكالمته قبل أن يخرج هذه الليلة.

لم يعـــد عنده ما يشغله، وما زالت ليكسي متوارية. خرج جيرمي من الباب الخلفـــي ووقـــف عـــلى الشرفة. ازداد الطقس برودة. ومع أنه لم يستطع أن يرى المحيط، سمع إيقاع تقلب الموج بشكل مستمر، ودخل في حالة عميقة من السكينة.

بعد قليل، عاد إلى غرفة الجلوس المظلمة. نظر إلى آخر الممر، ورأى خطاً من الضوء تحت باب ليكسي المغلق. وفي انتظار ما سيفعله، أنار مصباح القراءة الصغير قـــرب الموقـــد. انبعث عن المصباح ضوء يكفي لينشر الظلال حول الغرفة. طالع الكتـــب التي كدّست فوق حافة المدفأة قبل أن يتذكر الحقيبة. في عجلته ليصل إلى هنا، لم ينظر في دفتر ملاحظات دوريس حتى الآن. بعد أن سحبه من الحقيبة، حمله وعاد إلى الكرسي الهزاز. لما جلس، شعر بالتوتر في كتفيه ينـــزاح للمرة الأولى منذ ساعات.

الآن، قـــال لنفسه، أمر رائع. لا، غير ذلك. الأصح أنها الطريقة التي يجب أن تكون عليها الأمور على الدوام.

قـــبل قلـــيل، عندما سمعت جيرمي يغلق باب غرفته، وقفت ليكسي بقرب النافذة وارتشفت مشروبها المفضل، مسرورة أن عندها شيئاً لتهدئة أعصابها.

حـــافظ كـــل منهما على محادثة سطحية في المطبخ. حافظ كل منهما على مســـافته حتى تجد الأمور حلاً. عرفت أن عليها أن تبقي على هذا الفاصل عندما تعود إلى هناك. ولكن وهي تضع مشروبها المفضل جانباً، أدركت بأنها لم تعد تريد الإبقاء على تلك المسافة. ليس بعد الآن.

عـــلى الرغم من معرفتها بالمخاطر، كل ما فيه جذبها إليه – المفاجأة في رؤيته

يمشي باتجاهها على الشاطئ، وابتسامته السهلة وشعره الأشعث، ونظرته الصبيانية العصـــبية – وفي تلك اللحظة صار هو الرجل الذي تعرفه والرجل الذي لا تعرفه. ومـــع أنهـــا لم تعترف لنفسها حتى الآن، إلاّ أنها أدركت أنها تريد أن تعرف الجزء الذي خفي عليها، مهما يكن وحيثما تقودها هذه المعرفة.

قـــبل يومـــين، ما كانت لتتخيّل أن أمراً مثل هذا وارد، وخصوصاً مع رجل كانـــت بالكاد تعرفه. سبق لها أن تأذت، ولقد أدركت الآن أنها ردّت على الأذى بالتراجع إلى أمان الوحدة. لكنّ حياة خالية من المخاطرة ليست بالحياة، ويبقى أنها لو أرادت أن تتغير، فعليها أن تبدأ الآن.

بعد الاغتسال، جلست على حافة السرير وفتحت الجيب الأعلى من حقيبتها وسحبت قنينة سائل الترطيب. وضعت بعضاً منه على ساقيها وذراعيها، ومسحته على صدرها وبطنها، واستمتعت بإحساس الانتعاش في جلدها.

لم تحضـــر معهـــا أي ثياب مميزة. ففي عجلتها لتغادر هذا الصباح، أحضرت معها ما وقعت عليه يداها. فتشت في الحقيبة حتى وجدت سروال الجينـــز المفضّل لديها. باهت جداً، وممزق عند الركبتين وعند الأطراف. لكن الغسيل المستمر زاد مـــن نعومـــة القطـــن. كما أنها تعرف جيداً أن هذا السروال يبرز جمال جسدها. شعرت بإثارة سرية لأن جيرمي لا بد سيلاحظ.

ثم ارتـــدت قميصاً أبيض طويل الأكمام، و لم تتكلف بإدخاله تحت السروال، وطـــوت الكمين إلى مرفقيها. وقفت أمام المرآة، زرّرت القميص، و لم تقفل الزر الأول كالعادة، كاشفة جزءاً بسيطاً من أعلى صدرها.

جفّفت شعرها بمجفف الهواء ومررت الفرشاة عبره. للماكياج، قامت بأفضل مـــا تقدر عليه، واضعةً بعض البودرة الحمراء على خديها، وكحل العينين، وأحمر الشـــفاه. تمنّـــت لو كان عندها بعض العطر، لكن لم يكن بمقدورها أن تفعل شيئاً حول ذلك الآن.

عـــندما صـــارت مســـتعدّة، عدّلت قميصها أمام المرآة، وأعجبها ما رأته. ابتسمت، وحاولت أن تتذكر آخر مرة همّها الظهور بمظهر جيد.

كـــان جيرمي يجلس على الكرسي رافعاً قدميه عندما دخلت إلى الغرفة. نظر

إلـــيها، ولـــلحظة، بدا كما لو أنه يريد أن يقول شيئاً، لكنه لم يقدر أن يصدر أي صوت. بدلاً من ذلك، اكتفى بالتحديق.

لم يكـــن قادراً على إبعاد نظره عن ليكسي، وأدرك فجأة لماذا كان من المهم إيجادها ثانية. لم يكن أمامه أي خيار آخر، وأدرك ساعتها كم يحبّها.

"تبدين... مدهشة"، همس أخيراً.

"شـــكراً لك"، قالت، سامعةً العاطفة الحقيقية في صوته، وسعيدة بالإحساس الذي أشعرها به. التقت أعينهما وتجمدت نظرهما، وفي تلك اللحظة، فهمت بأن الرسالة في نظرته كانت تعكس الرسالة في نظرها.

الفصل الخامس عشر

لـــلحظة، بدا أن كليهما غير قادرين على التحرك، حتى أخذت ليكسي نفساً عميقاً ونظرت بعيداً. ما زالت مهزوزة، رفعت قنينتها بعض الشيء.

"أعتقد أني سأحتاج إلى واحدة أخرى"، قالت بشبه ابتسامة. "هل تود واحدة أنت أيضاً؟"

وضّح جيرمي حنجرته. "أخذت واحدة. شكراً".

"سأعود في غضون دقيقة. يجب أن أتفقد الصلصة، أيضاً".

اتجهت ليكسي نحو المطبخ وهي تشعر بالوهن في ساقيها، ووقفت أمام الموقد. تركـــت الملعقـــة الخشبية لطخة من صلصة الطماطم على الطاولة بعد أن التقطتها لتحرك الصلصة، وأعادت وضعها في نفس البقعة لما انتهت. تناولت زجاجة أخرى مـــن شـــرابها المفضل ووضعتها على الطاولة. حاولت فتح مرطبان الزيتون، ولكنّ يديها كانتا ترتعدان، فلم تستطع أن تقبض على الغطاء بشكل مناسب.

"هل تحتاجين إلى بعض العون؟" سأل جيرمي.

نظـــرت للأعلى، مندهشةً. لم تسمعه يقترب، وتساءلت إن كانت مشاعرها بادية للعيان بنفس القوة التي تشعر بها؟

قالت: "إذا سمحت".

أخذ جيرمي مرطبان الزيتون منها. راقبت العضلات الوترية في ساعديه عندما قبض على الغطاء، ثم نظر إلى مشروبها المفضل وفتح الغطاء وأعطاها إياه.

لم يـــنظر إلى عينـــيها، ولم يبدُ راغباً بقول المزيد. في سكون الغرفة، راقبت اتكـــاءه عـــلى الطاولة. الضوء العلوي كان مناراً، ولكن مع غياب ضوء الغسق المتدفق من النافذة، بدا أنعم مما كان عندما بدأا بالطهو.

رشـــفت ليكسي بعضاً من شرابها المفضل، وأخذت لحظة لتستمتع بالطعم، لتستمتع بكل شيء هذا المساء: الطريقة التي ظهرت بها، والتي شعرت بها، والطريقة الـــتي حـــدّق هـــو بهـــا. كادت تمد يدها وتلمس جيرمي، ولكنها بدلاً من ذلك استدارت وذهبت صوب الخزانة.

أخـــذت بعـــض زيت الزيتون وخل عصير العنب ووضعت القليل منهما في طاسة صغيرة، مع بعض الملح والفلفل.

"كل شيء رائحته زكية".

انتهـــت مـــن تحضير الصلصة، وانتقلت إلى الزيتون ووضعته في طاسة صغيرة أخرى. "ما زال لدينا ساعة قبل العشاء"، قالت وحاولت أن تبقي صوتها ثابتاً. "بما أني لم أخطـــط لاستقبال ضيوف، علينا أن نكتفي بهذه كمقبلات. أكاد أقترح أن نتـــناولها عـــلى الشرفة في الخارج، ولكني حاولت سابقاً والطقس بارد جداً. كما يجب أن أحذّرك بأن الكراسي في المطبخ ليست مريحة جداً".

"والمقصود؟"

"هل تودّ أن تذهب لتجلس في غرفة الجلوس ثانية؟"

ســـار أمامها. توقف قرب الكنبة لالتقاط دفتر دوريس، ثم راقبها وهي تجلس عـــلى الأريكة. وضعت الزيتون على المنضدة الصغيرة، ثم عدلت جلستها لترتاح. عندما جلس بجانبها، أمكنه أن يشمّ رائحة الزهور الحلوّة للشامبو الذي استخدمته. من المطبخ، سمع صوتاً خافتاً للراديو.

قالت: "أرى أن معك دفتر ملاحظات دوريس".

أومأ. "سمحت لي أن أستعيره".

"و؟"

"لم تســـنح لي الفرصة سوى لقراءة الصفحات الأولى منه. لكن فيه تفاصيل أكثر مما ظننت".

"الآن هل تصدق بأنها توقّعت جنس كل أولئك الأطفال؟"

قال: "لا. مثلما سبق لي أن قلت، ربما سجّلت فقط التوقعات التي كانت محقّة

بشأنها".

ابتســـمت ليكســـي. "ماذا عن الطرق المختلفة التي سجلت بها الملاحظات؟ بعضها بقلم الحبر، وأحياناً بأقلام الرصاص، أحياناً بسرعة، وأحياناً أخذت وقتها".

قـــال: "لا أقول إن الدفتر لا يبدو مقنعاً، أنا فقط أقول بأنها لا تستطيع توقّع جنس الأطفال بمسك يد شخص ما".

"لأنك تقول هذا؟"

"لا. بل لأنه مستحيل".

"هل تعني غير محتمل من منظار إحصائي؟"

"لا، بل مستحيل".

"حسناً، سيد شكاك. كيف سار موضوعك؟"

بدأ جيرمي ينقر بإصبعه على الملصق على زجاجة الشراب المفضل. "جيد. إذا أمكن، مع ذلك ما زلت أريد أن أنظر في بعض المفكرات في المكتبة. قد أجد شيئاً لزيادة حرارة القصة".

"هل حزرت اللغز؟"

"نعم. الآن يجب عليَّ أن أثبته. على أمل أن يتعاون الطقس".

"سيفعل. يفترض أن يبقى الجو ضبابياً خلال كل عطلة نهاية الأسبوع. سمعت ذلك على الراديو في وقت سابق".

"جيد. لكنّ الجزء السيئ أن الحلّ ليس مرحاً كما الأسطورة".

"هل كان يستحق القدوم لأجله، إذا؟"

أومـــأ. "بدون شكّ"، قال بصوت هادئ. "ما كنت لأتأخر عن هذه السفرة مهما يكن".

سمعت نغمته، وعرفت بالضبط ما كان يعنيه، واستدارت نحوه. أسندت ذقنها على يدها، وضعت ساقاً على الأريكة، واستمتعت بشعورها، بكونها مرغوبة.

"إذن ما هو؟" سألت، ومتّكئة للأمام بعض الشيء. "هل بإمكانك أن تخبرني الجواب؟"

أضـــفى ضوء المصباح وراءها هالة خفيفة، وتألقت عيناها البنفسجيتان تحت رموشها الغامقة.

"أفضّل أن أريك الجواب".

ابتسمت. "عندما أعيدك، على أي حال، كما تعني، صحيح؟"

"صحيح".

"وأنت تريد العودة..؟"

"غداً، إذا أمكن". هزّ رأسه، وحاول استعادة السيطرة على مشاعره، لا يريد أن يخـــرّب هذا، لا يريد أن يدفع بشدة. لا يريد أكثر من أن يأخذها بين ذراعيه. "يجـــب أن أقابل ألفين. هو صديق لي يعمل مصوّراً في نيويورك. أتى ليحصل على بعض التصوير السينمائي المحترف".

"هو سيأتي إلى بون كريك؟"

"في الحقيقة، إنه يصل إلى البلدة في هذه الأثناء".

"الآن؟ ألا يجب أن تكون هناك؟"

"ربما"، اعترف.

فكّرت بما يقوله، وشعرت بالتضحية التي قام بها ليأتي اليوم.

"موافقـــة. هناك عبّارة مبكّرة يمكن أن نستقلّها. يمكن أن نصل إلى البلدة في حوالى الساعة العاشرة".

قال: "شكراً".

"وأنت ستصوّر ليلة الغد؟"

أومـــأ. "تركت ملاحظة طلبت فيها من ألفين الذهاب إلى المقبرة الليلة، لكننا يجـــب أن نصـــوّر في مكان آخر، أيضاً. وغداً سيكون يوماً حافلاً على أي حال. هناك بعض النقاط الضعيفة التي يجب أن أعمل عليها".

"مـــاذا عـــن حفلة الإسطبل؟ أعتقد أننا عقدنا صفقة أنك إذا حللت اللغز، فسأرقص معك".

أنـــزل جيرمي رأسه. "إذا تمكنت من الحضور، فسآتي بالتأكيد. صدقيني. لا

أريد أكثر من الحضور".

ملأ الصمت الغرفة.

"متى ستعود إلى نيويورك؟" سألت أخيراً.

"السبت. يجب أن أكون في نيويورك في الأسبوع القادم لحضور اجتماع".

غرق قلبها لسماع كلماته. مع أنها كانت تعلم أنه سيعود. "العودة إلى الحياة المثيرة، هاه؟"

هزّ رأسه. "حياتي في نيويورك ليست بهذه الروعة. الجزء الأكبر من وجودي هناك يتعلق بالعمل. أقضي معظم وقتي في البحث أو في الكتابة، وتلك أعمال انفرادية. في الحقيقة، أشعر بالوحدة أحياناً".

رفعت حاجبها. "لا تحاول أن تدفعني للأسف عليك، لأني لا أصدقك".

نظر إليها. "ماذا لو ذكرت أن جيراني مخيفون؟ هل تشعرين بالأسى عليَّ عندها؟"

"لا".

ضحك. "أنا لا أعيش في نيويورك من أجل الإثارة، كما تعتقدين. أنا أعيش هناك لأن عائلتي هناك، لأني مرتاح هناك. لأن لي بيتاً هناك. مثلما بون كريك منزلك".

"أفهم أنك قريب من عائلتك".

"نعم، بالفعل. نجتمع تقريباً كل عطلة نهاية أسبوع في بيت والديّ في كوينز لوجبات العشاء الكبيرة جداً. أصيب أبي بنوبة قلبية قبل بضع سنوات وكان وقعها قاسياً عليه، لكنه يحبّ عطل نهاية الأسبوع تلك. تتحول دائماً إلى ما يشبه السيرك: مجموعة من الأطفال يتراكضون حول المكان، أمي تطهو في المطبخ، إخوتي وزوجاتهم يقفون في الفناء الخلفي. بالطبع، هم جميعاً يعيشون في أماكن قريبة، ولذا هم هناك أكثر مني في أغلب الأحيان".

أخذت شراباً آخر، وحاولت تصوّر المشهد. "يبدو رائعاً".

"هو كذلك. لكنه صعب أحياناً".

نظرت إليه. "أنا لا أفهم".

أدار القنينة في يده بهدوء قائلاً: "ولا أنا أحياناً".

ربما كانت الطريقة التي تكلم بها هي التي منعتها من الإجابة؛ نظرت إليه مباشرة، في انتظار المزيد.

سألها: "هل كان عندك حلم؟ حلم تمنيته بشدة، وعندما أوشكت على الوصول إليه والإمساك به، اختطفه شيء آخر؟"

"كل شخص لديه أحلام لا تتحقّق"، أجابته بحذر.

هبطت كتفاه، "نعم، أعتقد أنك على حق".

"لست متأكّدة مما تحاول إخباري به"، قالت.

"هناك شيء لا تعرفينه عنّي"، قال، واستدار لمواجهتها ثانية. "في الحقيقة، إنه شيء لم أخبره لأحد".

مع كلماته، أحسّت بتشنج في كتفيها. "أنت متزوّج"، قالت له وهي ترجع ظهرها.

هزّ رأسه. "لا".

"إذاً أنت تواعد شخصاً ما في نيويورك والأمر جدّي".

"لا، ليس هذا أيضاً".

عندما لم يقل المزيد، رأت ظلالاً من الشك ترتسم على وجهه.

"لا بأس، الأمر لا يخصّني على أي حال".

هزّ رأسه وأجبر نفسه على الابتسام. "اقتربت من الجواب في المرة الأولى، تزوّجت، وطلّقت".

كانت تتوقع جواباً أسوأ، كادت تطلق ضحكة عصبية عالية، ولكن تعبيره الحزين منعها.

"كان اسمها ماريا. كنّا كما النار والثلج في بادئ الأمر، ولم يفهم أحد ما يجمع بيننا. لكن تحت السطح، كنا نشترك في نفس القيم والاعتقادات حول كل المواضيع الأساسية في الحياة، ومنها الأطفال. أرادت أربعة، أردت خمسة". تردّد

عندما رأى تعبيرها. "أعرف أن ذلك يعني الكثير من الأطفال هذه الأيام، لكنه كان شـــيئاً تعوَّدنـــا علـــيه. هي مثلي أتت من عائلة كبيرة". توقّف. "لم نعرف أن ثمة مشـــاكل بيننا مباشرة، لكن بعد ستّة أشهر، لم تحمل، وأجرينا بعض الاختبارات الروتينـــية. أظهرت الفحوص أنها بخير، وأني لسبب ما لست بخير. لم يعطونا سبباً، ولا جوابـــاً محـــتملاً. فقـــط أحـــد تلك الأشياء التي تصيب الناس أحياناً. عندما اكتشفت ذلك، قرّرت أنها لا تريد البقاء في الزواج أكثر. والآن... أعني، أنا أحبّ عـــائلتي، أحبّ أن أمضي الوقت معهم، لكن عندما أكون هناك، أتذكر العائلة التي لـــن أكون قادراً على تكوينها. أعرف أن ذلك غريب، ولكني أظن أنك يجب أن تكوني في مكاني لتفهمي كم أردت أطفالاً".

عـــندما انـــتهى، تابعت ليكسي التحديق به، وحاولت أن تفهم لماذا يخبرها. "زوجتك تركتك لأنها اكتشفت بأنك لم تكن قادراً على الإنجاب؟"

"ليس مباشرة. لكن في النهاية، نعم".

"ولم يستطع الأطباء فعل شيء؟"

"لا". بـــدا محـــرجاً. "أعني، لم يقولوا بأنه كان مستحيلاً أن أنجب، ولكنهم أوضحوا أنني على الأغلب لن أكون قادراً على الإنجاب. وذلك كان كافياً لها".

"ماذا عن التبني؟ أو إيجاد متبرع؟ أو...".

هزّ جيرمي رأسه. "أعرف أنه من السّهل الاعتقاد أنها كانت قاسية، لكنها لم تكـــن كذلك. لا بد من أن تعرفيها لتفهمي بالكامل. نشأت وهي تحلم بأن تكون أمـــاً. أضـــف إلى ذلك أن أخواتها كلهن صرن أمهات، وهي أرادت بدورها أن تكـــون أمـــاً هـــي الأخرى. لولاي". نظر إلى السقف. "لوقت طويل، لم أرد أن أصـــدق. لم أرد أن أصدق أنني مصاب بعيب. لكني كذلك. وأنا أعرف أن الأمر يبدو سخيفاً، ولكن بعد تلك الحادثة، بدأت أشعر أني أقل من رجل. وكأنني لست أهلاً لأن أكون لأحد".

هزّ كتفه، وعاد صوته ليغدو أكثر جدية حينما كان يستمر. "نعم، كان يمكن أن نتبـــنّى؛ نعـــم، كان يمكن أن نجد متبرعاً. اقترحت كل ذلك. لكنها لم تقتنع. أرادت أن تحمل، أرادت أن تخوض المخاض، وبالتأكيد أرادت الولد أن يكون من

زوجهـــا. بعـــد ذلـــك، بدأت الأوضاع بالانحدار. لا من ناحيتها فقط، أنا أيضاً تغـــيرت. أصـــبحت مزاجـــياً. بدأت بتكثيف سفراتي.. لا أعرف.. ربما أنا من أبعدها".

نظرت إليه ليكسي بتركيز. "لماذا تخبرني كل هذا؟"

أخـــذ رشفة من الشراب وعاود التلاعب بالملصق. "ربما أردتك أن تعرفي قبل أن تتورطي مع شخص مثلي".

لمـــا نطـــق هذه الكلمات، أحسّت ليكسي بالدم يتسارع إلى خدّيها. هزّت رأسها والتفتت.

"لا تقل ما لا تعنيه".

"وما الذي يدفعك للاعتقاد أني لا أعني ما أقول؟"

في الخـــارج، ارتفعـــت سرعة الريح، وسمعت أصوات الهواء الخافتة تصطدم بالباب.

"لأنـــك لا. لأنـــك لا تستطيع. لأنك لست من أنت، ولا علاقة لذلك بما أخبرتني به للتو. أنت وأنا... نحن لسنا على النحو نفسه كما تعتقد. أنت هناك، أنا هـــنا. عندك عائلة كبيرة تراها على الدوام، عندي دوريس فقط، وهي تحتاج إليّ هنا، خصوصاً الآن نظراً لصحتها. تحبّ المدن، أحبّ البلدات الصغيرة. عندك مهنة تحبها، حسناً، وأنا عندي المكتبة وأنا أحبّها أيضاً. إذا اضطر أحدنا للتغيير، لتغيير ما اخـــترناه لحياتـــنا".. ثم أغمضت عينيها للحظة، "أعرف أنه من الممكن للناس أن يفعلـــوا ذلك، ولكنها مشكلة عويصة عندما يصل الأمر لبناء علاقة. قلت بنفسك إنـــك أحببـــت ماريـــا لأنكما تتشاركان بنفس القيم. لكن معنا، أحدنا يجب أن يضـــحّي بما عنده. وإن كنت لا أريد أن أضحّي بما عندي، لا أعتقد أنه من العدل في المقابل أن أطلب منك التضحية".

أنـــزلـــت نظـــرتها، وفي السكون الذي تبع كلامها، أمكنه أن يسمع دقات الســـاعة فـــوق المدفـــأة. وجهها الرائع غطته مسحة من الحزن، وخشي أن يفقد فرصته معها. عندما انتهت من كلامها، استعمل إصبعه ليدير خدها تجاهه.

"ماذا يحصل لو لم انظر إليها كتضحية؟ ماذا لو أخبرتك أنني أفضّل أن أكون

معك على أن أعود إلى حياتي القديمة؟"

شـــعرت بأن إصبعه مرّرت تياراً كهربائياً على جلدها. حاولت أن تتجاهل الإحساس، وأبقت على ثبات صوتها.

"عـــندئذ أخبرك أني قضيت وقتاً رائعاً في اليومين الأخيرين، أيضاً. وأن لقائي بـــك كان... حسناً، مذهلاً. وأنه، نعم، أود أن أظن أن ثمة وسيلة لإنجاح العلاقة. وبأنني أشعر بالإطراء".

"لكنك لا تريدين السعي لإنجاحها؟"

هزّت ليكسي رأسها. "جيرمي... أنا...".

"لا بأس، أتفهم".

"لا، لا. لا تفهـــم. لأنك سمعت ما قلته ولكنك لم تصغِ. عنيت بأني بالطبع أود إنجـــاح العلاقة بيننا. أنت ذكي ورحيم وساحر..." توقّفت، متردّدة. "موافقة، ربما أنت شديد الصراحة أحياناً...".

عـــلى الرغم من التوتّر، لم يستطع أن يسيطر على ضحكته. استمرّت وهي تختار كلماتها بعناية.

"الســـبب حين أقول بأن اليومين الأخيرين كانا مدهشين هو أنني عانيت من أحـــداث في ماضيّ تركت ندوباً عليَّ أنا أيضاً". وبسرعة وبشكل هادئ، أخبرته عـــن سيد النهضة. عندما انتهت، شعرت أنها مذنبة تقريباً. "ربما كنت أحاول أن أكـــون واقعـــية هنا. أنا لا أقول بأنك ستختفي مثلما فعل، لكن هل بإمكانك أن تقول بأمانة بأننا سنحسّ بنفس المشاعر حيال بعضنا بعضاً إن كنا سنضطر للسفر لقضاء الوقت معاً؟"

"نعم"، قال بثقة. "يمكننا ذلك".

بدت حزينة من جوابه. "يمكن أن تقول ذلك الآن، لكن ماذا عن الغد؟ ماذا بعد شهر واحد من الآن؟"

خارجـــاً، أصدرت الرياح صفيراً أثناء التفافها حول الكوخ. نفخت الرياح الرمل على النوافذ، وتحركت الستائر فيما شقّ الهواء طريقه بالقوة من خلال النوافذ

الزجاجية القديمة.

حدّق جيرمي بليكسي، وأدرك مرة أخرى بأنه يحبّها.

"ليكسي"، قال، وصار فمه جافاً. "أنا...".

عرفـت ما سيقوله، فرفعت يديها لتوقفه. "رجاء، لا. لست جاهزة لهذا حتى الآن، موافق؟ الآن، دعنا فقط نتمتّع بالعشاء. هل بإمكاننا أن نفعل ذلك؟" تردّدت قبل أن تضع زجاجة الشراب بلطف على المنضدة. "ربما عليَّ أن أذهب لأتأكد من الطعام وأبدأ بتحضير اللينغيني".

غمـره شـعور بالإحباط وهو يشاهدها تنهض عن الأريكة. توقفت قرب المطبخ، ثم استدارت لمواجهته.

"وفقـط لكي تعرف، أعتقد أن زوجتك السابقة كانت فظيعة، وهي بعيدة كـل الـبعد عن الصورة العظيمة التي حاولت أن تتخيلها. أنت لا تترك زوجتك لشـيء مثل ذلك، وحقيقة أنك ما تزال قادراً أن تقول عنها أموراً جيدة تظهر أنها هـي مـن ارتكب الخطأ. صدقني، أعرف ما يتطلبه الأمر لكي يكون المرء والداً جيداً. أن يرزق المرء بالأطفال يعني أن تعتني بهم، أن تربيهم، أن تحبهم وتدعمهم، ولا يتعلق الأمر بمن ينجبهم ذات ليلة أو بتجربة الحمل".

عـادت إلى المطـبخ، واختفت عن مجال رؤيته. أمكنه أن يسمع أغنية بيلي هالـيداي *سأراك* على الراديو. أحس بأنه يختنق، وقف ليلحق بها، عارفاً أنه إذا لم يغتنم الفرصة، فقد لا تتاح له مرة أخرى. فهم فجأة أن ليكسي هي سبب مجيئه إلى بون كريك، إنها هي الإجابة التي كان يبحث عنها منذ زمن طويل.

اتّكأ على مدخل المطبخ، راقبها وهي تضع قدراً أخرى على الموقد.

قال لها: "شكراً لأنك قلت ما قلته".

"مرحـباً بك"، قالت وتفادت أن تقابل نظرته. عرف بأنها كانت تحاول أن تـبقى قويـة تجاه عواطفها، وقد احترم عاطفتها كما احترم حذرها. رغم ذلك، اقترب منها خطوة، وهو يعلم أنه لا بد من أن ينتهز الفرصة.

وسألها: "هل تصنعين معي معروفاً؟ بما أني قد لا آتي ليلة الغد"، قال ومدّ يده، "هلا راقصتني؟"

"هنا؟" نظرت إليه، مباغتة وقلبها يخفق بسرعة. "الآن؟"

دون كلمة أخرى، اقترب أكثر، وأمسك بيدها. ابتسم وهو يرفع يدها إلى فمه ويقبل أصابعها قبل أن يعيد يدها إلى مكانها. ثم سدد إليها نظرة، ولف ذراعه حول ظهرها وسحبها نحوه برفق. وفيما تحرك إصبعه على جلد يدها وهو يهمس اسمها، وجدت نفسها تتّبع خطواته.

خلفهما انطلقت الموسيقى الهادئة وبدأا بالدوران ببطء. ومع أنها شعرت بالخجل في بادئ الأمر، إلا أنها اتكأت عليه في النهاية، وشعرت بدفء جسمه. بثّ نفَسُه الدفء في رقبتها، وفيما لفّت يده ظهرها برقة، أغلقت عينيها واتكأت عليه أكثر، ورمت برأسها على كتفه وشعرت أن قواها خارت. هنا، أدركت بأنه كان ما تمنته منذ زمن طويل، وفي المطبخ الصغير جداً، تحركا مع إيقاع الموسيقى اللطيفة، وضاع كل منهما في الآخر.

في الخارج، استمرت الأمواج بالتدافع نحو الكثيب، وصفرت الريح الباردة حول الكوخ، واختفت في الليل الداهم. في الداخل، غلى العشاء ببطء فوق الموقد.

عندما رفعت رأسها أخيراً لتلاقي عينيه، لفّ ذراعيه حولها. لامس بشفتيه شفتيها مرّة، وبعد ذلك مرّتين، قبل أن يضغط أكثر. بعد أن توقف لبرهة ليتأكد أنها بخير، قبّلها ثانية، وهي قبّلته بالمقابل، وشعرت بقوة ذراعيه. أحسّت بلسانه يلتف على لسانها، وكأن الرطوبة أسكرتها، ولامست يدها وجهه، ومررتها على ذقنه الخشن. ردّ بتقبيل خدّها ورقبتها، وشعرت بحرارة لسانه على جلدها.

قبّلا بعضهما بعضاً في المطبخ لوقت طويل، واستمتعا بالقبل بدون عجلة أو إلحاح، حتى انسحبت ليكسي أخيراً. أطفأت النار وراءها، ثم أخذت يده ثانية، وقادته إلى غرفة نومها.

مارسا الحب ببطء. وفيما تحرك فوقها، همس في أذنها كم كان يحبها مردداً اسمها. لم تتوقف يداه عن تلمسها وكأنه أراد أن يثبت لنفسه بأنها كانت حقيقية. بقيا في السرير لساعات ومارسا الحب وضحكا لساعات، مستمتعيْن بلمس بعضهما البعض.

بعد ساعات، نزلت ليكسي عن السرير ولفّت نفسها برداء الحمّام. ارتدى

جيرمـــي ســـروال الجينـــز، ولحق بها إلى المطبخ حيث أنهيا طهو العشاء. بعد أن أضـــاءت ليكسي شمعة، حدّق بها عبر اللهب الصغير، وتأمل احمرار خدّيها، بينما الـــتهم وجبة الطعام الألذ التي تذوقها في حياته. لسبب ما، فإن تناولهما الطعام معاً في المطبخ، هو من دون قميص وهي عارية تحت الثوب الرقيق الذي كانت ترتديه كان أكثر ألفة من أي شيء آخر كان قد حدث تلك الليلة.

بعدئـــذ، عـــادا للنوم، وشدها إليه، سعيداً بقربها منه. وأخيراً، عندما غفت ليكسي بين ذراعيه، راقب نومها. بين الحين والآخر، كان يرفع الشعر عن عينيها، ويعـــيش الأمسية مرة أخرى ويتذكر كل التفاصيل، مدركاً في قلبه أنه التقى المرأة التي يريد أن يمضي بقية حياته معها.

مباشرة قبل الفجر، استيقظ جيرمي وأدرك بأن ليكسي قد اختفت من جانبه. انتصـــب في الســـرير، ربت الأغطية كما لو ليتأكد بأنها ليست هناك، ثم قفز إلى خارج السرير وارتدى سروال الجينـــز. ملابسها ما زالت على الأرض، لكنّ رداء الحمّـــام الذي ارتدته على العشاء اختفى. شد سرواله، وارتعش بعض الشيء من البرد ولف ذراعيه وشقّ طريقه إلى أسفل الممر.

وجدها على الكنبة قرب المدفأة، وكأس الحليب على المنضدة الصغيرة بجانبها. في حضنها كان دفتر ملاحظات دوريس، في صفحاته الأولى، لكنها لم تكن تنظر إليه. بدلاً من ذلك، كانت تحدّق إلى الخارج عبر النافذة المظلمة نحو الفراغ.

اقـــترب منها خطوة، وأصدرت الألواح الأرضية الخشبية صريراً، وانتفضت ليكسي لسماع الصوت. وعندما رأته، ابتسمت.

"هاي، أنت".

في الضـــوء الخافـــت، أحسّ جيرمي بأن شيئاً ليس على ما يرام. جلس على حافة الكرسي بجانبها ولفّ ذراعه حولها.

"هل أنت بخير؟"غمغم.

"نعم، أنا بخير".

"ماذا تفعلين؟ إنه منتصف الليل".

"لا أستطيع أن أنام. كما أننا يجب أن ننهض باكراً لنلحق بالعبارة".

أومأ، مع أنه لم يقتنع بالكامل بجوابها.

"هل أنت غاضبة مني؟"

"لا".

"هل أنت آسفة على ما حدث؟"

"لا، لـــيس ذلـــك، أيضاً". على أي حال، لم تضف أي شيء آخر، وقرّبها جيرمي إليه، محاولاً تصديقها.

"إنه دفتر مثير"، قال، محاولاً ألا يضغط عليها. "أتمنّى أن أقرأه لاحقاً".

ابتسمت ليكسي. "مضى زمن طويل منذ راجعته بعناية للمرة الأخيرة. رؤيته هنا تعيد إليّ الكثير من الذكريات".

"كيف؟"

تردّدت، ثم أشارت إلى أسفل الصفحة المفتوحة أمامها.

"عندما كنت تقرأه في وقت سابق، هل وصلت إلى هذا التدوين؟"

"لا".

"اقرأه".

قـــرأ جيرمي التدوين بسرعة؛ بدا شبيهاً بالإدخالات (بالتدوينات) الأخرى. أسماء الآباء الأولى، العمر، فترة الحمل، وأن المرأة ستلد بنتاً. عندما فرغ من القراءة، نظر إليها.

"هل يعني أي شيء بالنسبة إليك؟" سألت.

اعترف قائلاً: "لست متأكّداً ماذا تقصدين".

"الاسمان جيم وكلير لا يعنيان أي شيء بالنسبة إليك؟"

"لا". تفحص وجهها بدقة. "أليس كذلك؟"

أنـــزلـــت ليكسي عينيها. "إنهما أبواي"، قالت بصوت هادئ. هذا الإدخال توقع أن أكون بنتاً". رفع جيرمي حاجبيه بتساؤل.

"هـــذا ما كنت أفكّر به. نظن أننا نعرف بعضنا البعض، لكنك لا تعرف ما اسم أبويّ حتى، وأنا لا أعرف اسم أبويك".

شـــعر جيرمي بعقدة تبدأ في معدته. "وذلك يضايقك؟ لأنك تعتقدين أننا لا نعرف بعضنا بعضاً؟ صحيح؟"

"لا. ما يضايقني هو أنني لا أعرف إن كنا سنعرف بعضنا يوماً ما".

ثم، بـــرقّة جعلـــت قلبه يؤلمه، لفّت ذراعيها حوله. لوقت طويل، جلسا على طـــرف الكرسي يحتضنان بعضهما البعض، كلاهما يتمنى لو يحتفظان بتلك اللحظة إلى الأبد.

الفصل السادس عشر

سألته ليكسي: "إذاً هذا صديقك، هاه؟"

ثم نظـرت بجدية باتجاه زنـزانة الحجز. ورغم أن ليكسي كانت قد عاشت في بـون كريك طوال حياتها، إلا أنها لم يسبق لها أن حظيت بامتياز زيارة سجن المقاطعة حتى اليوم.

أومأ جيرمي. "في العادة هو ليس كذلك"، همس مجيباً.

في وقـت سـابق من الصباح، كانا قد اجتمعا عند كوخ الشاطئ، وكلاهما متـردد في المغادرة. على أي حال، عندما استقلا العبّارة في سوان كوارتر، التقط هـاتف جيرمي ما يكفي من القوة لسماع الرسائل. ترك نايت أربع رسائل حول الاجتماع القادم. أما ألفين، فترك رسالة واحدة مذعورة تقول إنه قيد الاعتقال.

أنـزلـت ليكسي جيرمي إلى سيارته، ولحق بها عائداً إلى بون كريك. شعر بـالقلق بشـأن ألفين، لكن شعر بالقلق بشأن ليكسي أيضاً. مزاج ليكسي الحزين الـذي بـدأ في ظلام ما قبل الفجر، استمر للساعات التي تلت. ومع أنها لم تبتعد عـندما لـف ذراعه حولها على متن العبّارة، إلاّ أنها كانت هادئة، ومحدّقةً في مياه باملـيكو ساوند. عندما ابتسمت، كانت ابتسامتها خاطفة، وعندما أمسك بيدها، لم تشـد على يده. وكذلك لم تعد إلى الكلام الذي كانت قد قالته سابقاً. الغريب أنهـا تكلمـت بدلاً من ذلك حول حطام السفن العديدة على هذا الساحل، ولما حـاول أن ينقل الموضوع إلى القضايا الأكثر جديّة، إمّا كانت تغيّر الموضوع أو لم تجب مطلقاً.

في هـذه الأثـناء، كان ألفين يقبع في سجن المقاطعة. وبدا، على الأقل بنظر ليكسـي، أنـه يسـتحق أن يبقى هناك. في تيشرت ميتاليكا سوداء، وسروال، وجاكيـت جلدية، وإسوارة جلدية مرصعة، كان ألفين يحدق بهما بنظرة وحشية،

ووجهه يتورّد احمراراً من الغضب. "أعني، بحق الجحيم، أي بلدة متخلفة هي هذه الـــبلدة؟ هل يحصل أي أمر طبيعي فيها؟" كان يكرر هذه النغمة دون توقف منذ وصـــول ليكسي وجيرمي، وكانت مفاصله قد ابيضّت من الضغط على القضبان الحديدية. "الآن، أرجوكما، هل بإمكانكما أن تخرجاني من هنا؟"

خلفهما، وقف رودني عابساً، مكتفاً ذراعيه، متجاهلاً ألفين كما فعل لثماني ســـاعات متواصلة. هذا الرجل لا يتوقف عن النحيب، أضف إلى ذلك، أن اهتمام رودني تحـــول أكثر نحو جيرمي وليكسي. أنبأه جاد أن جيرمي لم يرجع إلى غرفته لـــيلة أمـــس، وأن ليكسي لم تكن في منـــزلها هي الأخرى. يمكن أن تكون مجرد صدفة، ولكنه يشك كثيراً بأنهما قد أمضيا الليلة معاً، وهذا آخر ما يريده.

"أنـــا أكـــيد أننا سنجد حلاً ما"، قال جيرمي، محاولاً ألا يزيد من استفزاز رودني. بدا عليه الغضب عندما ظهرا معاً. "أخبرني ما كان قد حدث".

"مـــاذا حدث؟" كرّر ألفين رافعاً صوته. وتجمدت عيناه بنظرة مجنونة. "تريد معرفة ماذا حدث؟ سأخبرك بما حدث! هذا المكان بأكمله مجنون، هذا ما حدث! أولاً، تهـــت وأنـــا أحـــاول إيجاد هذه البلدة الغبية. أعني، كنت أقود على الطريق السريع، أعبر قرب بضع محطات للوقود، وأتابع، صحيح؟ لأنه لم تبدُ لي أي بلدة. وفجـــأة، ضـــعت وســـط مستنقع لساعات. لم أجد البلدة والساعة شارفت على التاســـعة. ثم تظن أن أي شخصٍ يمكن أن يعطيني اتجاهات للوصول إلى غرينليف، صـــحيح؟ أعـــني، هل هذا بهذه الصعوبة؟ في بلدة صغيرة، ومكان الإقامة الوحيد؟ حســـناً، تهـــت لـــلمرة الثانية! ثم هناك هذا الرجل في محطة الوقود الذي نخر أذني لنصف ساعة".

"تولي"، قال جيرمي وهو يهزّ رأسه.

"من؟"

"الرجل الذي تكلمت معه".

"نعـــم، مهمـــا يكـــن... إذاً وصلت إلى غرينليف أخيراً، صحيح؟ والرجل العملاق المغطى بالشعر ليس ودياً على الإطلاق، ويرمقني بنظرات شريرة. يسلّمني ملاحظتك، ثم يرميني في تلك الغرفة التي تضم كل تلك الحيوانات الميتة".

"كل الغرف مثلها".

"مهما يكن!" شخر ألفين. "وبالطبع، أنت لست هناك".

"آسف على ذلك".

"ألا تدعـني أكمـل؟" صرخ ألفين. "إذاً، حسناً، حصلت على ملاحظتك، والآن علي أن أتبع إرشاداتك لأصل إلى المقبرة، صحيح؟ وأنا وصلت إلى هناك في الوقت المناسب لرؤية الأنوار، وهي رائعة كما تعرف. وبعد ساعات طويلة، لم يتح لي أن أبـوّل. ولذا وقفت عند هذا المكان الذي يدعى لوكيلو لأتناول شراباً، وهو المكـان الوحـيد في البلدة الذي يفتح في تلك الساعة. وهناك شخصان لا غير في المكـان بأكملـه، ولذا أبدأ بالحديث مع فتاة تدعى راشيل. والأمور تسير على ما يـرام، ونحـن في أتمّ الانسجام. وفجأة يأتي هذا الرجل الذي يبدو وكأنه قد ابتلع كبابة شوك للتو". وأومأ نحو رودني. ابتسم رودني دون أن يظهر أسنانه.

"لـذا، على أي حال، بعد فترة قليلة، أخرج إلى سيارتي، وكل ما أعرفه أن هـذا الرجل ينقر على نافذتي بمصباحه الكاشف ويطلب مني الخروج من السيارة. لـذا أسـأل لماذا؟ فيطلب مني الخروج للمرة الثانية. وبعد ذلك يبدأ بسؤالي كم شربت، وأنه ربما يجب عليَّ أن لا أقود. لذا أخبرته أني بخير وبأني أعمل هنا معك، وفجأة يعتقلني الليل بأكمله. أخرجني من هنا!"

التفتت ليكسي. "أهذا ما حدث، رودني؟"

نظّـف رودني حنجرته. "إلى حدٍّ ما. لكنه نسي الجزء حين دعاني *بارني الغبيّ الكـبير*. وقال بأنه سيتهمني بتهمة المضايقة إذا أنا لم أدعه وشأنه. بدا غير منطقي بحيث خشيت أن يكون تحت وطأة المخدّرات أو يصبح عنيفاً، لذا أحضرته إلى هنا من أجل سلامته. كما دعاني برجل العضلات الغبي، أيضاً".

"كنت فعلاً تضايقني! لم أفعل أي شيء!"

"كنت تشرب وتقود السيارة".

"تناولت شرابين مفضلين! شرابين مفضلين!" عاد ألفين إلى جنونه مرة ثانية. "اسأل العامل! هو سيخبرك!"

"فعلت"، قال رودني، "وهو قال لي إنك شربت سبع مرات".

"إنه يكذب!" صاح ألفين، وتحولت عيناه إلى جيرمي. نظر من خلال القضبان وانكمش وجهه. "تناولت شرابين! أقسم، جيرمي! لن أقود لو كنت تناولت أكثر. أحلف بتوراة أمّي!"

تمعـــن جيرمـــي وليكسي في رودني، الذي هزّ كتفيه متجاهلاً. "كنت أؤدي واجبي فحسب".

"واجـــبك! واجـــبك!" صاح ألفين. "اعتقال الأبرياء! هذه أميركا وأنت لا تســـتطيع أن تفعـــل ذلك هنا! وهذا لن يقف هنا! عندما سأنتهي منك، لن تكون قادراً على أن تعمل كرجل أمن في متجر وال - مارت! هل تسمعني يا بارني! وال - مارت!"

كان من الواضح أن الرجلين استمرا على هذا المنوال طوال الليل.

"دعني أتكلم مع رودني"، همست ليكسي أخيراً.

وعندما غادرت معه، صمت ألفين.

"سنخرجك من هنا"، طمأنه جيرمي.

"أنا لا أنتمي إلى هنا في المقام الأول!"

"أعرف ذلك. لكنك لا تساعد نفسك".

"إنه يضايقني!"

"أعرف ذلك. لكن دع ليكسي تعالج الأمر. هي ستهتم بالقضية".

خارجاً في المدخل، نظرت ليكسي إلى رودني، وقالت: "ماذا يجري فعلاً؟"

تفـــادى رودني الـــنظر في عينيها. بدلاً من ذلك، تابع النظر باتجاه زنـــزانة المركز.

"أين كنت ليلة أمس؟" سأل.

كتفت ذراعيها. "كنت في الكوخ على الشاطئ".

"معه؟"

تردّدت ليكسي، تساءلت عن أفضل طريقة للإجابة.

"أنا لم أذهب معه، إن كان ذلك ما تود معرفته".

أومـــأ رودني. يعـــرف بأنها لم تجب بالكامل، لكنه أدرك فجأة بأنه لا يريد معرفة المزيد.

"لماذا اعتقلته؟ بأمانة".

"لم أخطط لاعتقاله.. هو من جلب ذلك لنفسه".

"رودني...".

استدار، وأنـــزل رأسه على صدره.

"كـــان يتودد إلى راشيل، وأنت تعرفين كيف تصبح عندما تشرب: شديدة الغـــنج ودون أي نقطة من الوعي. أعني، مع أنه ليس من شأني، ولكنّ شخصاً ما يجـــب أن ينتـــبه لها". توقّف. "على أي حال، عندما غادر، ذهبت للكلام مع هذا الرجل لأتأكد إن كان يخطط للذهاب إلى منـــزلها، وأي نوع من الرجال هو، فبدأ بإهانتي. لم أكن في أفضل أحوالي، على أي حال...".

عرفت ليكسي السبب، وعندما توقف رودني عن الكلام، مرّ الوقت و لم تقل شيئاً. ثم هزّ رودني رأسه، كما لو أنه ما زال يحاول تبرير نفسه. "لكن الحقيقة، أنه كان يشرب ويخطّط لقيادة السيارة. وذلك غير قانوني".

"هل تخطّى الحدّ القانوني؟"

"لا أعرف. لم أكلّف نفسي بالتدقيق".

"رودني!" همست بصوت عالٍ.

"لقد أغضبني، ليكسي. إنه وقح وغريب المظهر ويتودد إلى راشيل ويشتمني، ثم يقول بأنه يعمل مع هذا الرجل..." وأشار برأسه نحو جيرمي.

وضـــعت ليكســـي يدها على كتفه. تعلم أنك ستقع في مأزق إن أبقيته هنا بـــدون أي سبب، خصوصاً مع رئيس البلدية. إذا اكتشف ما فعلت بالمصور بعد كـــل المشـــقة التي تعرض لها لتأكيد صحة القصة، فستتسبب لنفسك بالمشاكل". تركـــته يفكـــر للحظة قبل الاستمرار. "وأضف إلى ذلك، كلانا نعرف بأنه كلما سارعت في إخلاء سبيله، كلما سارع كلاهما بالمغادرة".

"هل تعتقدين حقاً بأنه سيغادر؟"

نظرت ليكسي إلى عيني رودني. "طائرته غداً".

للمرة الأولى، نظر رودني إليها. "هل ستذهبين معه؟"

استغرقت لحظة للإجابة عن السؤال الذي كانت تطرحه على نفسها طوال فترة الصباح. "لا"، همست. "بون كريك بيتي. وهنا حيث أبقى".

بعد عشر دقائق، كان ألفين يخرج إلى موقف السيارات وبجانبه جيرمي وليكسي. أما رودني، فكان يقف عند مدخل سجن المقاطعة، يراقبهم وهم يذهبون.

"لا تنبس بأي كلمة"، حذّره جيرمي ثانية، وتابع الضغط على ذراع ألفين. "فقط استمر بالمشي".

"إنه ريفيّ أخْرَق مع بندقية وشارة!"

"لا، ليس كذلك"، قالت ليكسي بصوت حاد. "إنه رجل جيد، والمسألة ليست كما تعتقد".

"اعتقلني بدون أي سبب!"

"كما أنه يعتني بالناس الذين يعيشون هنا أيضاً".

وصلوا إلى السيارة، وأشار جيرمي لألفين بالصعود إلى المقعد الخلفي.

"هذه ليست نهاية القصة"، تذمّر ألفين وهو يتحرك ببطء إلى داخل السيارة. "سأتصل بالمدعي العام. ذلك الرجل يجب أن يطرد".

"الأفضل أن تنسى الأمر برمته"، قالت ليكسي، ونظرت إليه من خلال باب السيارة المفتوح.

"أنساه؟ هل جننت؟ كان مخطئاً وأنت تعرفين ذلك!"

"نعم، فعلاً. ولكن باعتبار أنه لم يتقدم ضدك بأي اتهامات، ستنسى الأمر في أي حال من الأحوال".

"من أنت لتقولي لي ماذا يجب أن أفعل؟"

"أنا ليكسي دارنيل"، قالت وترنمت باسمها. "ولا يكفي أني صديقة جيرمي،

لكن يجب أن أعيش هنا مع رودني، ولا أكذب عندما أقول بأنني أشعر بالكثير من الأمـــان بوجوده هنا. كل شخص في البلدة يشعر بأنه أكثر أماناً بسببه. أما أنت، مـــن ناحية أخرى، فستترك غداً، وهو لن يضايقك ثانية". ابتسمت. "وهيا، لا بد أن تعترف بأن هذا الحدث سيمنحك قصة مميزة تقصّها عندما تعود إلى نيويورك".

حدّق بها بعدم تصديق قبل أن ينظر إلى جيرمي. "إنها هي؟"

أومأ جيرمي.

"إنهـــا جميلة"، علّق ألفين. "ربما تكون من النوع الملحّ قليلاً، ولكنها مع ذلك جميلة".

"الأفضل حتى الآن أنها تطهو مثل الإيطاليين".

"جيّدة كأمّك؟"

"ربما أفضل".

أومأ ألفين، ثم صمت للحظة. "أظن أنك تشاطرها الرأي حول نسيان القضية بأكملها".

"نعم. تعرف هذا المكان أفضل مني أو منك، و لم تخطئ معي حتى الآن".

"إذا فهي ذكية، أيضاً، هاه؟"

"جداً"، قال جيرمي.

رسم ألفين تكشيرة وحشية على وجهه. "أظن أنكما كنتما معاً ليلة أمس".

لم يجب جيرمي.

"يجب أن تكون شيئاً مميزاً...".

"أنا هنا، أيها الرجلان!" تدخّلت ليكسي أخيراً. "تدركان بأنني يمكن أن أسمع كل شيء تقولانه".

"آسف"، قال جيرمي. "عادات قديمة وما إلى ذلك".

"هل بإمكاننا أن نذهب الآن؟" سألت ليكسي.

نظر جيرمي إلى ألفين، الذي بدا وكأنه يراجع خياراته.

"طبعاً"، قال بلا مبالاة. "وليس فقط ذلك، سأنسى هذا الحادث كلياً. بشرط

واحد".

"وما هو؟" سأل جيرمي.

"كـــل هذا الكلام حول الغذاء الإيطالي جعلني جائعاً، وأنا لم آكل منذ يوم أمس. ادعواني على الغداء، ولن أنسى الموضوع فحسب، بل سأخبرك كيف كان التصوير ليلة أمس، أيضاً".

راقبهم رودني وهم يبتعدون قبل أن يعود إلى الداخل. تعب من قلة النوم. ما كـــان يجـــب أن يعتقل الرجل، ولكن رغم ذلك، لم يأسف على ما فعله. جل ما أراده أن يمارس بعض الضغط، وفجأة فتح الرجل فمه وتصرّف بغرور...

فرك أعلى رأسه، وهو لا يريد التفكير بالموضوع. انتهى كل شيء الآن. ما لم ينـــتهِ بعـــد هو أن ليكسي وجيرمي أمضيا الليل معاً. الشك شيء، ولكنّ الإثبات شـــيء آخر، وهو رأى كيف كانا يتصرفان مع بعضهما البعض هذا الصباح. كان تصـــرفهما مخـــتلفاً عن ليلة الحفلة، أي أن أمراً ما تغيّر بينهما. رغم ذلك، لم يكن واثقاً تماماً حتى سمع الطريقة التي حاولت بها أن تتهرب من الإجابة، دون أن تجيب. أنـــا لم أذهب معه، إن كان ذلك ما تود معرفته. لا، أراد أن يجيب. أنا لم أسألك هـــذا. سألها إن كانت على الشاطئ مع جيرمي ليلة أمس. لكن جوابها المبهم كان كافياً، ولا يتطلب عالم صواريخ ليفهم ما حدث.

كـــاد الإحســـاس أن يحطم قلبه. وتمنى مرة ثانية لو كان يفهمها أكثر. مرت أوقات في الماضي كان يضحك لأنه اقترب من معرفة ما يجعلها تنجذب له، ولكن الأحـــداث أثبتت العكس، أليس كذلك؟ لماذا سمحت بحدوث ذلك ثانية؟ لماذا لم تتعلّم من الغريب الجوّال الأول الذي عبر في البلدة؟ ألا تذكر كم اكتأبت بعدئذ؟ أما عرفت بأنها ستتعرض للأذية مرة ثانية؟

لا بـــد أنهـــا تعرف تلك الأشياء، لكنها لا بد بأنها قرّرت – على الأقل لليلة واحـــدة – بأنها لا تهتم. لا يعقل ذلك إطلاقاً. أما رودني فقد تعب من الاهتمام. تعـــب مـــن التعرض للأذى من قبلها. نعم، ما يزال يحبها، ولكنه كان قد خصّص وقـــتاً أكـــثر من اللازم ليفهم مشاعرها تجاهه. حان الوقت لتتخذ ليكسي قرارها بطريقة أو بأخرى.

شاعراً بتلاشي غضبه، وقف ألفين عند مدخل هيربس عندما رأى جاد يجلس عـــلى أحد المقاعد. عبس جاد وكتف ذراعيه حالما رأى ألفين وجيرمي وليكسي يجلسون في كشك قرب النافذة الأمامية.

"حـــارس مبـــنانا الودّي لا يبدو مسروراً جداً لرؤيتنا"، همس ألفين من فوق الطاولة.

ألقى جيرمي نظرة سريعة، فيما ضاقت فتحتا عيني جاد. "لا.. شيء غريب.. لطالما بدا ودياً قبل ذلك. لا بد أنك فعلت أمراً ما أزعجه".

"لم أفعل أي شيء. فقط تسجّلت".

"ربما لا يحبّ مظهرك".

"وما العيب في مظهري؟"

رفعت ليكسي حاجبيها كما لو لتقول، *لا بد أنك تمزح*.

"لا أعرف"، فكّر جيرمي بصوت مسموع. "ربما لا يحب ميتاليكا".

نظر ألفين إلى قميصه وقال، "مهما يكن".

نظر جيرمي إلى ليكسي التي ابتسمت بالمقابل. تعابيرها كانت بعيدة، كما لو أن فكرها في مكان آخر.

"التصـــوير كـــان عظيماً ليلة أمس"، قال ألفين، ومد يده إلى قائمة الطعام. "التقطـــته مـــن زاويـــتين وشاهدت الإعادة ليلة أمس. مادة مدهشة. الشبكات ســـتحبّها. تذكـــرت. يجـــب أن أتصل بنايت. لم يستطع أن يصل إليك. استمر بالاتصـــال بي طوال فترة ما بعد الظهر بدلاً من ذلك. ليس عندي أي فكرة كيف تتحمّل ذلك الرجل".

عندما بدت ليكسي حائرة، مال جيرمي إليها.

"إنه يتحدّث عن وكيلي".

"سيأتي هو الآخر؟"

"لا. إنه مشغول كثيراً ويحلم بآفاق مهنتي المستقبلية. كما أنه لا يعرف كيف يتصـــرف خارج المدينة. إنه من نوع الرجال الذين يعتقدون أن سنترال بارك يجب

أن يحوّل إلى منافذ للبيع بالمفرق وإلى مجمعات للشقق".

أنار وجه ليكسي بابتسامة سريعة.

"إذن ما القصة معكما أنتما الاثنان؟" سأل ألفين، "كيف التقيتما؟"

عندما لم تظهر ليكسي أي ميل للإجابة، تحرك جيرمي في مقعده.

"هي مديرة المكتبة التي ساعدتني في البحث عن القصة"، قال بشكل مبهم.

"ولقد قضيتما الكثير من الوقت مع بعضكما البعض، هاه؟"

بطرف عينه، رأى جيرمي ليكسي تلتفت بعيداً.

"هناك الكثير من الأبحاث".

نظـــر ألفين إلى صديقه، أحسّ أن ثمة أمراً ليس على ما يرام. بدا وكأنهما قد تشـــاجرا شـــجار أحبة، وأنهما تجاوزا الأمر، ولكنهما ما زالا منـــزعجين. وهذه الأحداث لا يمكن أن تكون قد حصلت في صباح واحد.

"حســـناً... جيد"، قال، وقرّر تغيير الموضوع للآن. بدلاً من ذلك، انتقل إلى قراءة قائمة الطعام فيما اقتربت منهم راشيل..

"هاي، ليكس، هاي، جيرمي"، قالت وهي تقترب. "هاي، ألفين".

نظر ألفين للأعلى قائلاً: "راشيل!"

"أعتقد أنك قلت لي بأنك ستأتي للفطور. كدت أفقد الأمل من قدومك".

"أنا آسف على ذلك". ونظر إلى جيرمي وليكسي. "نمت نوماً عميقاً".

مـــدّت راشـــيل يدها إلى مئزرها، وسحبت لوحة صغيرة وقلم رصاص أبقته وراء أذنها. لمست رأس القلم بلسانها. "الآن، ماذا يمكن أن أحضر لكم؟"

طلـــب جيرمي شطيرة، وطلب ألفين شوربة الكركدن وشطيرة، أما ليكسي فهزت رأسها، "لست جائعة جداً. ولكن، هل دوريس هنا؟"

"لا، لم تـــأت الـــيوم. شعرت بالتعب وقررت أن ترتاح اليوم. عملت الليلة الماضية حتى وقت متأخر في إعداد العدة لعطلة نهاية الأسبوع".

حاولت ليكسي قراءة تعبيرها.

"حقـــاً، ليكس"، أضافت راشيل بجدية. "ما من داعٍ للقلق. صوتها جيد عبر

الهاتف".

"ربما يجب أن أذهب لأتفقّدها، على أي حال". قالت ليكسي، ونظرت حول الطاولة مؤكدة قبل أن تنهض. تحركت راشيل جانباً لتفسح لها المجال.

"هل تودين أن أرافقك؟" سأل جيرمي.

"لا، لا بـــأس. عندك أعمال تقوم بها، وأنا عندي أعمالي. هل تودّ أن نتقابل في المكتبة لاحقاً؟ أردت أن تنظر في المفكرات، أليس كذلك؟"

"إذا أمكـــن"، قـــال، ولسعته اللامبالاة في صوتها. كان يفضل أن يمضي بقيّة العصر برفقتها.

"ماذا لو أقابلك هناك عند الرابعة؟" اقترحت.

"جيد. لكن أعلميني بما يجري، موافقة؟"

"مثلما قالت راشيل، أنا متأكدة من أنها بخير، لكني سآخذ دفتر ملاحظاتها من المقعد الخلفي، هل تمانع؟"

"كلا، بالطبع".

نظرت إلى ألفين. "سعدت بمقابلتك، ألفين".

"أنا أيضاً".

بعد لحظة، اختفت ليكسي وكانت راشيل في طريق العودة إلى المطبخ. حالما ابتعدتا، اتكأ ألفين على الطاولة.

"موافق، صديقي، قل ما عندك".

"ماذا تعني؟"

"تعـــرف بالضبط عمّا أتحدّث. أولاً إنك تقع في هواها. ثم تقضيان الليلة معاً. لكن عندما تصلان إلى السجن، كلاكما تتصرّفان كأنكما بالكاد تعرفان بعضكما البعض. وهي تتمسك الآن بالعذر الأول لتخرج من هنا".

"دوريـــس جدتهـــا"، أوضح جيرمي، "وليكسي تقلق عليها. ليست على ما يرام".

"مهمـــا يكن"، قال ألفين مشككاً. "ها أنت تحدّق بها مثل جرو وحيد، وهي

تقوم بما بوسعها لتتجاهل ذلك. هل اختلفتما أو ما شابه؟"

"لا"، قـــال جيرمـــي. توقّف ملقياً نظرة حول المطعم. عند طاولات الزاوية، رأى ثلاثـــة مـــن أعضـــاء المجلس البلدي، بالإضافة إلى المتطوّع المسن من المكتبة. جميعهم لوّحوا له. "في الحقيقة، أنا لا أعرف ما الأمر. كل شيء كان رائعاً، وبعد ذلك...".

عـــندما لم يستمر، أسند ألفين ظهره إلى الوراء. "نعم، حسناً، لم تكن العلاقة لتدوم على أي حال".

"بل ربما يقدَّر لها ذلك"، أصرّ جيرمي.

"أوه، نعم؟ ماذا؟ هل تخطّط للانتقال إلى منطقة الشفق، أم هل ستأتي هي إلى نيويورك؟"

طوى جيرمي منديله عدة مرات بدون إجابة، لا يريد أن يتذكر الواقع.

في صـــمته، رفع ألفين حاجبيه. "بالتأكيد يجب أن أمضي وقتاً أكثر مع هذه السيدة. لم أرَ شخصاً يدخل كيانك مثل هذه منذ ماريا".

نظر جيرمي للأعلى دون كلام، وهو يعلم أن صديقه مصيب فيما يقوله.

كانـــت دوريـــس مستلقية على السرير، تفحص النظارة للقراءة عندما رأت ليكسي أمام باب غرفة نومها.

"دوريس؟" سألت ليكسي.

"ليكسي"، صاحت، "ماذا تفعلين هنا؟ تعالي تعالي...".

وضعت دوريس الكتاب المفتوح في حضنها جانبًا. ما تزال في البيجاما، ومع أن جلدها كان رمادياً بعض الشيء، إلا أنها بدت بخير في ما عدا ذلك.

عبرت ليكسي الغرفة. "قالت راشيل بأنك لازمت المنـــزل اليوم، وأردت أن أمر لأطمئن عليك ".

"أوه، أنـــا بخير. فقط متعبة قليلاً اليوم، ذلك كل ما في الأمر. لكني اعتقدت بأنك من المفترض أن تكوني على الشاطئ".

"كنت هناك". وجلست على حافة السرير. "لكن كان لا بد أن أرجع".

"أوه؟"

قالت: "ظهر جيرمي".

رفعت دوريس يديها كما لو أنها استسلمت. "لا تلوميني، أنا لم أخبره أين كنت، كما لم أقل له أن يذهب باحثاً عنك أيضاً".

"أعرف". وأمسكت ليكسي ذراع دوريس مطمئنة.

"إذاً كيف عرف أين يجدك؟"

وضعت ليكسي يديها في حضنها. "أخبرته قبل أيام عن الكوخ، وهو درس المسألة جيداً. لن تصدّقي كم فوجئت عندما رأيته يمشي على الشاطئ".

راقبت دوريس ليكسي بعناية قبل أن تعدل من جلستها.

"إذاً... أنت وهو.. كنتما في كوخ الشاطئ ليلة أمس؟"

أومأت ليكسي.

"و؟"

لم تجب ليكسي مباشرة. لكن بعد لحظة، شكّلت شفتاها ابتسامة صغيرة. "صنعت له صلصة الطماطم الشهيرة الخاصة بك".

"أوه؟"

"أحبها كثيراً"، قالت. ثم مررت يدها عبر شعرها. "بالمناسبة، أعدت دفتر ملاحظاتك. إنه في غرفة الجلوس".

نزعت دوريس نظارة القراءة وبدأت بمسح العدسات بزاوية الملاءة. "مع ذلك لا سبب مما ذكرته يشرح لماذا عدت".

"أراد جيرمي من يقلّه. صديقه من نيويورك - مصوّر - جاء لتصوير الأنوار. هما سيصوران الليلة، أيضاً".

"كيف هو صديقه؟"

ترددت ليكسي، وفكرت في الموضوع. "يبدو مثل خليط بين مغنٍ في فرقة روك وعضو في عصابة دراجات نارية، لكن ما عدا ذلك... فهو جيد".

عندما صمتت، مدّت دوريس يدها وأخذت بيد ليكسي. عصرتها بلطف،

وتمعّنت في حفيدها.

"هل تريدين أن تخبريني لماذا أنت هنا حقاً؟"

"لا"، أجابت ليكسي، وتلاعبت بطرف لحاف دوريس بإصبعها. "ليس في الواقع. إنه أمر يجب أن أفهمه وحدي".

أومأت دوريس. دائماً تعكس ليكسي قناعاً من الشجاعة. أحياناً، من الأفضل ألا تقول شيئاً على الإطلاق.

الفصل السابع عشر

نظر جيرمي إلى ساعته فيما وقف على الشرفة في هيربس، ينتظر انتهاء محادثة ألفين مع راشيل. كان ألفين يحاول جاهداً، كما أن راشيل لم تكن على عجلة لتقول له وداعاً، أي ما يمكن اعتباره مؤشراً إيجابياً في الأوقات العادية. رغم ذلك، بدا لجيرمي أن راشيل لم يتعدَّ اهتمامها بألفين حدود اللياقة، أما ألفين، فلم ينتبه لإشاراتها، ولكن مشكلة ألفين أنه لا يقرأ الإشارات.

عندما افترق ألفين وراشيل أخيراً، انضم ألفين إلى جيرمي، وتكشيرة كبيرة ترتسم على وجهه، كما لو أنه نسي أحداث ليلة الأمس. وهو الاحتمال الأكبر.

"هل رأيت ذلك؟" همس عندما صار قريباً. "أعتقد أنها معجبة بي".

"وهل تقدر إلا أن تعجب بك؟"

"هذا بالضبط ما أقوله". وافقه ألفين. "يا رجل! إنها مميزة. أحب الطريقة التي تتكلم بها.. إنها مثيرة".

"كل شيء مثير عندك"، ردّ جيرمي.

"ذلك ليس صحيحاً"، احتجّ ألفين. "فقط معظم الأشياء".

ابتسم جيرمي. "جيّد، ربما ستراها اللّيلة في الحفل الراقص. يمكن أن نمرّ إلى هناك قبل أن نتوجه إلى موقع التصوير".

"هناك حفل راقص الليلة؟"

"في مخزن التبغ القديم. سمعت أن البلدة بأكملها ستأتي. أنا متأكّد بأنها ستكون هناك".

"جيد"، قال ألفين وهو يخطو على الشرفة. ولكن أرفق ذلك بسؤال بصوتٍ خافت: "غريب أنها لم تذكرها أمامي".

قلبت راشيل أوراق الطلبات بذهن شارد، وهي تراقب ألفين يغادر المطعم مع جيرمي.

كانت متحفّظة إلى حدّ ما عندما جلس بجانبها في لوكيلو، ولكن عندما ذكر سـبب قدومـه للبلدة وبأنه يعرف جيرمي، بدأا بالمحادثة، وهو أمضى ما يقارب الساعة يخبرها عن نيويورك. جعلها تبدو وكأنها الجنة بنفسها، وعندما ذكرت بأنها تمنّـت أن تسافر إلى هناك يوماً ما، كتب رقم هاتفه على ورقة صغيرة وطلب منها أن تتصـل بـه. حتى أنه وعدها بالحصول على تذاكر مسرحية الملك وكيلي إذا أرادت.

رغم أنها كانت دعوة مغرية، عرفت أنها لن تتصل. كما أنها لا تحب الأوشام. ورغـم حظها السيئ مع الرجال على مرّ السنين، تمسكت بمبدأ ألا تواعد شخصاً في أذنـه ثقـوب أكـثر مما في أذنها. ولكن ذلك لم يكن السبب الوحيد لتراجع اهتمامها، لا بد أن تعترف؛ رودني أيضاً له دور في الموضوع.

زار رودني لوكـيلو في أغلب الأحيان ليتأكد أن لا أحد يحاول أن يقود تحت تأثير الشراب، وكل شخص تقريباً أمضى أي وقت هناك كان يعرف أن ثمة فرصة أن يمـر رودني بالمكان أثناء اللّيل. كان يجول في الحانة، يقول مرحباً للجميع، وإن شـعر أنك أفرطت في الشراب، يقول لك ما يظنه ويشير إلى أنه سيراقب سيارتك لاحقـاً. ورغـم الخـوف الذي قد ينتاب البعض، إلا أنه كان يضيف أيضاً بأنه سـيكون سعيداً لإيصالك إلى البيت بسيارة الشرطة. كانت تلك طريقته في إبعاد مسـبّـبي المشاكل عن الطريق، وفي السنوات الأربع الماضية، لم يضطر لإجراء أي عملـية اعتقال. حتى أن مالك لوكيلو لم يعد يمانع حضوره، مع أنه في البدء كان يشـتكي من وجود ضابط شرطة يجول في المكان. وبما أن أحداً لم يمانع، تعلم أن يتقبل وجوده، وحتى كان يتصل به إن شك أن بعض الرواد قد أفرطوا في الشراب وهم بحاجة لمن يقلّهم إلى بيوتهم.

لـيلة أمـس، جاء رودني كعادته، ولم يستغرق وقتاً طويلاً ليكتشف جلوس راشـيل في الحانة. في الماضي، كان يبتسم ويبادلها الحديث، لكن هذه المرة، عندما رآهـا مع ألفين، كان هناك لحظة اعتقدت فيها بأنه بدا مجروح الشعور. كان ردّ

فعل غير متوقّع، لكنه اختفى بسرعة كما ظهر وبدا غاضباً. بطريقة ما، بدا وكأنه يغار. ولذا افترضت أن هذا سبب مغادرته المكان بسرعة كما فعل. أثناء عودتها إلى منـــزلها، استمرت بإعادة المشهد في رأسها، وحاولت أن تفهم إن كانت قد رأت فعـــلاً مـــا حصل، أو أنها ببساطة قد تخيّلته. لاحقاً، عندما استلقت على السرير، استنتجت بأنها لن تكون منـــزعجة حقاً إن كان رودني يغار عليها.

ربما، حسبما اعتقدت، كان هناك أمل لهما حتى الآن.

بعـــد أن توقفـــا لأخـــذ سيارة ألفين التي كانت مركونة في الشارع المقابل للوكـــيلو، قـــاد جيرمي وألفين إلى غرينليف. أخذ ألفين دشاً سريعاً، وقام جيرمي بتغـــيير ملابسه، وأمضيا الساعتين القادمتين في مراجعة المعلومات التي حصل عليها جيرمـــي. بالنسبة إلى جيرمي، كان ذلك وسيلة الهروب؛ التركيز على العمل كان الطريقة الوحيدة التي يعرفها جيرمي ليمنع نفسه من القلق على ليكسي.

كانـــت أشرطة ألفين استثنائية مثلما وعد، خاصة بالمقارنة مع الأشرطة التي حصل عليها جيرمي بنفسه. الوضوح والصفاء، إضافة إلى دمجهما مع إعادة الحركة البطيئة، جعل من السهل التنبّه للتفاصيل التي غابت عن جيرمي في عجلته. الأفضل أن ألفـــين الـــتقط عدة إطارات يمكن لجيرمي أن يعزلها ويجمّدها، وهو يعرف أنها ستساعد المشاهدين على فهم ما يرونه أمامهم.

من هناك، أعاد جيرمي التسلسل التاريخي مستخدماً المراجع التي حصل عليها ليـــترجم لألفـــين مـــا يراه. ولكن، في حين تابع جيرمي تعداد البراهين بالتفاصيل المعقـــدة، بمـــا فـــيها التفسيرات الثلاثة للأسطورة، والخرائط، والملاحظات حول المناجم، والنطاق المائي والبرامج، ومشاريع البناء المختلفة، والسمات المفصّلة للضوء المنكسر، بدأ ألفين بالتثاؤب. لم يهتم أبداً بلبّ موضوع عمل جيرمي، وتمكن أخيراً مـــن إقـــناع جيرمي بإيصاله عبر الجسر إلى مصنع الورق لكي يرى المكان بنفسه. أمضـــيا بضع دقائق ينظران حول الساحة، ويراقبان تحميل الخشب على الأرصفة، وفي طريق عودتهما مرّا بالبلدة، وأشار جيرمي إلى أين سيصوّران لاحقاً. من هناك، توجّها إلى المقبرة لكي يحصل ألفين على بعض اللقطات أثناء النهار.

أدار ألفـــين آلة التصوير في المواقع المختلفة بينما تمشى جيرمي وحده. سكون

المقبرة أعاد أفكاره إلى ليكسي وقلقه عليها. تذكّر ليلتهما معاً، وحاول مرة أخرى أن يفهم سبب نهوضها من السرير في منتصف الليل. على الرغم من إنكارها للأمر، شعر بأنها كانت تحسّ بالأسى، أو ربما الندم حول ما كان قد حدث، ولكنه حتى الآن لم يفهم السبب.

نعم، كان سيغادر، ولكنه أخبرها مراراً وتكراراً بأنه سيعثر على طريقة لإنجاح العلاقة. ونعم، صحيح أنهم لم يعرفا بعضهما بعضاً بصورة جيدة، ولكنه كان يعتبر أن الفترة القصيرة التي أمضياها برفقة بعضهما البعض أثبتت له بما فيه الكفاية أنه يمكن أن يحبّها إلى الأبد. كل ما تحتاج إليه العلاقة هو منحها فرصة.

لكن ألفين - قال لنفسه - كان محقاً. مهما كانت مخاوفها حول دوريس، فلقد أوحى سلوكها هذا الصباح بأنها كانت تبحث عن عذر للابتعاد عنه. إنها على أي حال لم تكن متأكدة إن كانت تحبه واعتقدت أنه من الأسهل عليها أن تبعد نفسها عنه الآن، أو أنها لم تحبه و لم تعد تريد أن تمضي معه وقتاً أكثر.

ليلة أمس، كان متأكداً بأنها تبادله نفس الشعور.

لكن الآن...

تمنى لو أنهما أمضيا فترة بعض الظهر معاً. أراد أن يستمع إلى مخاوفها وأن يهدئها، أراد أن يحتضنها ويقبلها ويقنعها بأنه سيجد وسيلة لاستمرار علاقتهما، مهما استلزم الأمر. أرادها أن تسمع كلماته: بأنه لا يستطيع أن يتخيّل الحياة بدونها، وبأن مشاعره تجاهها حقيقية. ولكن أكثر من أي شيء آخر، أراد الاطمئنان بأنها تبادله نفس الشعور.

من بعيد، كان ألفين يسحب آلة التصوير والحامل الثلاثي القوائم إلى موقع آخر، غارقاً في عالمه الخاص وغافلاً عما يقلق جيرمي. تنهّد جيرمي قبل أن ينتبه إلى أنه قد وصل إلى المكان في المقبرة حيث توارت ليكسي عن الأنظار في المرة الأولى التي رآها فيها.

تردّد للحظة، ثم خطرت له فكرة. بدأ بتفتيش الساحات، وتوقف كل بضع خطوات. لم يستغرق أكثر من بضع دقائق ليكتشف ما كان خافياً عليه. سار بضع خطوات وتوقف قرب أجمة كبيرة من نبتة صحراوية تحيطها الأغصان والفروع،

باســتثناء منطقة في الوسط تمت العناية بها. جثم قربها، وأعاد ترتيب الزهور التي لا بــد أنهــا كانت تحملها في حقيبتها، وفهم فجأة لماذا لم ترد دوريس وليكسي أن يدوس الناس المقبرة.

في الضوء الرمادي، حدّق في قبري كلير وجيمس دارنيل، متسائلاً كيف فاته تخمين ذلك قبلاً.

في طــريق العودة من المقبرة، أنــزل جيرمي ألفين في غرينليف لينام قليلاً، ثم عاد إلى المكتبة، وتمرّن على ما أراد أن يقوله إلى ليكسي.

لاحظ أن المكتبة كانت أكثر ازدحاماً من العادة، على الأقل في الخارج. كان الــناس يتجمعون على الرصيف في مجموعات من شخصين أو ثلاثة، ويشيرون إلى الأعــلى ويحدّقــون في الهندسة المعمارية، كما لو أنهم انطلقوا مبكراً بجولة البيوت التاريخــية. حمــل أكــثرهم نفس الدليل الذي أرسلته دوريس إلى جيرمي وكانوا يقرأون بصوت عالٍ الميزات الفردية للمبنى.

في الداخــل، بــدا الاســتعداد على الموظفين أيضاً. كان عدد من المتطوعين يكنســون وينفضــون الغبار، فيما كان آخران يعلقان مصباحين إضافيين. افترض جيرمــي أن الأضواء العلوية ستعتم حالما تبدأ الجولة الرسمية لإضفاء جو من القدم على المكتبة.

تجــاوز جيرمــي غرفة الأطفال التي بدت أقل فوضى من المعتاد، وتابع السير صــعوداً عــلى الســلّم. كان باب مكتب ليكسي مفتوحاً، وتوقف لحظة قبل أن يستجمع شجاعته ليدخل. وجد ليكسي منحنية قرب إحدى الطاولات التي كانت خالــية من أكوام الورق تقريباً. كما الحال مع الآخرين في المكتبة، كانت تعمل ما بوسعها لتتخلص من الفوضى، وتكدس أكواماً مختلفة تحت الطاولات.

قال لها: "مرحباً".

نظرت ليكسي إلى الأعلى. "أوه، مرحباً"، قالت ووقفت وهي ترتب بلوزتها. "أظن أنك وجدتني وأنا أحاول أن أجعل المكان مقبولاً للناظرين".

"أمامك عطلة نهاية أسبوع كبيرة وحافلة".

"نعــم، أفترض أنه كان عليَّ أن أنتهي من هذه المهمة في وقت سابق"، قالت

وأشارت حول الغرفة، "ولكني أظن أني أصبت بحالة مستعصية من التأجيل".

ابتسمت، تبدو جميلة حتى وهي غير مرتبة.

قال: "جميعنا مصاب بنفس الأعراض".

"نعـــم، حسناً، ليس ذلك من عادتي". بدلاً من أن تتحرّك نحوه، انتقلت إلى الكومة الأخرى، ثم أنـــزلت رأسها تحت المكتب ثانية.

"كيف حال دوريس؟" سأل مستفسراً.

"بخير"، قالت، وهي تتكلم من تحت المنضدة. "مثلما قالت راشيل، إنها متعبة قليلاً، لكنها ستعود للانطلاق غداً". ثم ظهرت من تحت المكتب ثانية، وامتدت نحو الكومـــة الأخـــرى مـــن الأوراق. "إذا أتيحت لك الفرصة، عساك تمر بها قبل أن تغادر. ستقدّر ذلك كثيراً".

للحظة، راقبها ببساطة، لكن عندما أدرك مغزى ما كانت تقوله، أخذ خطوة نحوها.

فـــيما اقـــترب، تحركت ليكسي بسرعة إلى وراء المكتب، وتصرفت كأنها لم تلاحظ، ولكنها تأكدت من إبقاء المكتب فاصلاً بينهما.

"ماذا يجري؟" سأل.

حملت بضع أوراق أخرى عن المكتب، وأجابته: "أنا مشغولة فحسب".

"عنيت ماذا يجري بيننا".

"لا شيء"، قالت بصوت محايد، كما لو أنها تناقش أحوال الطقس.

"أنت لم تنظري إليّ حتى".

عندها، نظرت إلى الأعلى أخيراً، وقابلت عينيه للمرة الأولى. أمكنه أن يحسّ بمشـــاعرها الجيّاشة، مع أنه لم يكن متأكّداً إن كانت غاضبة منه أو من نفسها. "لا أعـــرف ما تريدني أن أقول. شرحت لك بأن عندي الكثير لأقوم به. صدّق أو لا تصدّق، أنا غارقة في العمل هنا".

حـــدّق جيرمي بها بثبات، وأحس فجأة أنها كانت تبحث عن أي عذر لتبدأ شجاراً.

سألها: "هل هناك أي شيء يمكن أن أقوم به لأساعد؟"

"لا، شكراً. سأتدبر الموضوع". ثم رمت بكومة أخرى تحت المنضدة. "كيف صار ألفين؟" سألت من تحت الطاولة.

خدش جيرمي رأسه من الخلف. "لم يعد غاضباً إن كان ذلك ما تسألين عنه".

"جيد"، قالت. "هل أنهيتما ما كان عليكما عمله؟"

"الجزء الأكبر منه".

ظهرت ثانية، محاولة أن تبدو مسرعة. "سحبت المفكرات من أجلك مرة ثانية. هي على الطاولة في غرفة الكتب النادرة".

ابتسم جيرمي ابتسامة ضعيفة. "شكراً".

"وإذا أمكنك أن تفكر بأي شيء آخر قبل أن تغادر"، أضافت، "سأكون هنا لساعة أخرى على الأقل. تبدأ الجولة في السابعة، مع ذلك، يجب أن تخطّط للخروج من هنا في السادسة والنصف كحدٍّ أقصى، لأننا عندها سنطفئ الأضواء العلوية".

"كنت أظن أن غرفة الكتب النادرة تغلق عند الخامسة".

"بما أنك ستغادر غداً، فكرت أن أخفف القيود قليلاً لمرة واحدة".

"لأننا صديقان، صحيح؟"

"بالتأكيد"، قالت. ابتسمت آلياً. "لأننا صديقان".

ترك جيرمي المكتب وذهب إلى غرفة الكتب النادرة، مستعيداً المحادثة في رأسه ومحاولاً فهمها. لم يمضِ لقاؤهما كما تمنّى. ورغم زلة اللسان في جملتها الأخيرة، تمنّى لو أنها تتبعه، مع أنه عرف بطريقة ما بأنها لن تفعل. ابتعادهما عن بعضهما بعضاً فترة بعد الظهر لم يساعد في إصلاح الأمور بينهما، وإن كانت الآن قد دفعت الأمور نحو الأسوأ. إن كانت في الماضي تحاول إبعاده، فإنها الآن تعامله كأنه موبوء.

بقدر ما ضايقه سلوكها، إلاّ أنه من منظار آخر كان قادراً على فهمه. ربما لم

يكـــن علـــيها أن تعامله بهذه البرودة، ولكن كل الأسباب ترجع إلى أنه عاش في نـــيويورك، وأنها عاشت هنا. أمس، على الشاطئ، كان من السهل أن يخدع نفسه بالاعتقاد بأن العوائق ستزول بصورة سحرية بينهما. كان قد صدّق ذلك... هكذا ســـارت الأمـــور.. طالما اهتم الناس ببعضهم البعض، فإنهم كانوا يتوصلون دائماً لطريقة لحلّ المشاكل.

أدرك بأنـــه كان متقدماً على نفسه. ولكن ليست هذه هي الطريقة التي يجابه بهـــا المشـــاكل في العادة. لقد بحث عن الحلول، وقام بالافتراضات، وحاول تحليل السيناريوهات الطويلة المدى، لكي يقيّم النتائج المحتملة بعناية. وافترض أن هذا ما يتوقّعه منها أيضاً.

لكنه لم يتوقّع أن تعامله مثل منبوذ، أو أن تتصرّف وكأن لا شيء قد حدث بينهما مطلقاً، أو أن تتصرف وكأنها تعتقد بأن ليلة أمس كانت خطأً.

نظر إلى كومة المفكرات على الطاولة أمامه وهو يجلس. بدأ بفصل المفكرات التي سبق له أن اطلع عليها، وبقيت عنده أربع ليقرأها. عندها، لم يجد ما يفيده في المفكـــرات الســـبع الأخـــرى - حيث وجد ذكراً لجنازات عائلية في مقبرة سيدر كريك في اثنتين منها - ولذا انتقل إلى مفكرة لم يطلع عليها من قبل. بدلاً من أن يقـــرأها مـــن الإدخال الأول، اسند ظهره إلى الكرسي وتصفّح المقاطع عشوائياً، محـــاولاً أن يكتشف ما إذا كان كاتب اليوميات قد سجل أخباره أم أخبار البلدة التي عاش فيها. اكتشف أن كاتبة المذكرات بين عامي 1912 و1915 كانت فتاة شـــابة اسمهـــا آن دمبسي، وفي الجزء الأكبر مما كتبته سجّلت الأحداث اليومية في حـــياتها، من تحب، ماذا تأكل، رأيها بأهلها وأصدقائها، وحقيقة أن لا أحد بدا أنه يفهمهـــا. الـــرائع حـــول آن يتمثل في أن قلقها وحزنها مشتركان مع ما يشعر به الشباب اليوم. رغم أنها ممتعة، وضعها جانباً مع المفكرات التي كان قد رفضها.

تبـــيّن أن المفكـــرتين التاليتين كتبتا أثناء العشرينيات من القرن الماضي وهما بمعظمهمـــا تتـــناولان أحداثـــاً شخصية أيضاً. كتب صيّاد سمك عن المدّ بتفاصيل شديدة الدقة، أما الثانية، فكتبتها معلمة مهذار اسمها غلانارا، التي وصفت علاقتها الناشـــئة مع طبيب شاب زائر على امتداد ثمانية شهور، بالإضافة إلى أفكارها حول

طلابها والناس الذين عرفتهم في البلدة. كما كان هناك إدخالان يتعلّقان بمناسبات البلدة الاجتماعية، والتي يمكن اختصارها بمراقبة السفن الشراعية على نهر باmليكو، والذهاب إلى الكنيسة، ولعب البريدج، والتنزه على طول الشارع الرئيسي بعد ظهر أيام السبت. لم يرَ أي ذكر لمقبرة سيدر كريك.

توقّع أن تكون المفكرة الأخيرة مضيعة للوقت هي الأخرى، ولكن فقدانه الاهتمام يعني أن عليه أن يغادر، وهو لا يستطيع أن يتخيّل فعل ذلك بدون محاولة الكلام مع ليكسي ثانية، وإن لإبقاء خطوط الاتصال مفتوحة. يوم أمس، كان بإمكانه أن يدخل إليها وأن يقول كل ما يرد على خاطره، إلا أن التحولات الأخيرة في علاقتهما، بالإضافة إلى حالتها العصبية، جعلا من المستحيل بالنسبة له أن يعرف تماماً ما عليه أن يقوله أو يفعله أو كيف يتصرف.

هل يجب أن يكون بعيداً؟ هل يجب أن يحاول الكلام معها، حتى لو أنه يعرف أنها كانت مستعدة لإشعال خلاف؟ أو هل عليه أن يدّعي بأنه لم يلاحظ موقفها وبأنها حقاً تريد أن تعرف سبب حدوث الأنوار الغامضة؟ هل يجب أن يطلب منها الخروج معه إلى العشاء؟ أو أن يكتفي بأخذها بين ذراعيه؟

نعم، هذه كانت المشكلة في العلاقات عندما بدأت العاطفة بتعكير الصفو. كان الأمر كما لو أن ليكسي توقّعت أنه سيقول الشيء الصحيح في الوقت الصحيح، مهما يكن. وقد قرّر أن ذلك ليس عادلاً.

نعم، أحبّها. ونعم هو أيضاً كان قلقاً بشأن مستقبلهما. لكن حين أراد أن يحاول استيعاب الأحداث، كانت بدورها تتصرف وكأنها عزمت على الاستسلام. فكّر ثانية بحوارهما.

إذا أتيحت لك الفرصة، عساك تمرّ بها قبل أن تغادر. لم تقل، إذا أتيحت "لنا" الفرصة.. بل "لك".

وماذا عن تعليقها الأخير؟ بالتأكيد.. لأننا صديقان.. كاد يعض لسانه عندما سمعها.. صديقان؟ كان عليه أن يسألها. بعد ليلة أمس، هل بالإمكان القول إننا صديقان؟ هل هذا كل ما أعنيه لك؟

ليس هذا أسلوب التخاطب مع شخص تهتمّ به أو تتمنى رؤيته مرة ثانية،

وكلما فكّر في الموضوع أكثر، كلما أراد أن يجيبها بالأسلوب نفسه. هل تنسحبين؟ أنا أيضاً سأفعل. تريدين شجاراً؟ ها أنا. لم يخطئ رغم كل شيء. ما حصل بينهما ليلة أمس متعلق بها بنفس القدر الذي يتعلق به. لقد كان يحاول أن يخبرها عن مشاعره، وهي لم تبدُ مستعدة لسماعه. أراد أن يعدها بأنه سيسعى لإنجاح العلاقة، ولكنها كانت رافضة للفكرة منذ البدء. وفي النهاية، هي التي قادته إلى غرفة النوم، وليس العكس.

حدّق إلى خارج النافذة، وضغط على شفتيه. لا، قال لنفسه. لم يعد يريد أن يلعب لعبتها بعد الآن. إذا أرادت الكلام معه، عظيم. إن لم يكن... حسناً، هكذا كانت ستسير الأمور، وبأمانة، ما بمقدوره أن يفعل شيئاً. لم يكن في وارد العودة لاستجدائها والتذرع إليها.. الكرة في ملعبها الآن. كانت تعرف أين تجده. قرّر أن يغادر المكتبة فور انتهائه من عمله، وأن يتوجه إلى غرينليف. ربما سيمنحها ذلك بعض الوقت لتفهم ما أرادته، وفي الوقت نفسه، أن يظهر لها أنه لن يرضى بالجلوس والقبول بسوء المعاملة.

حالما تركها، لعنت ليكسي نفسها، وتمنّت لو أنها تعاملت مع الأمور بشكل أفضل. ظنت أن قضاء بعض الوقت مع دوريس سيوضح الأشياء، لكن جل ما حصل هو تأجيل المحتّم لبعض الوقت. وفجأة، اقتحم جيرمي المكتب وكأن لا شيء قد تغيّر. كما لو أن لا شيء سيتغيّر غداً. كما لو أنه لن يختفي غداً.

نعم، كانت قد علمت أنه سيعود، وأنه سيتخطاها كما فعل سيد النهضة... مع ذلك فإن قصة الأحلام التي بدأت في الليلة السابقة ما زالت عالقة في ذهنها، وما زالت تثير فيها أوهاماً بأن الناس في مقدورهم أن يعيشوا بسعادة إلى الأبد. إذا أمكنه أن يعثر عليها في كوخ الشاطئ، وإن كانت لديه الشجاعة الكافية ليقول لها كل ما قاله، ألم يكن بمقدوره أيضاً أن يجد سبباً للبقاء؟

في أعماقها، عرفت بأنه كان يمني النفس بأن تأتي هي إلى نيويورك، ولكنها لا تفهم لماذا؟ ألا يفهم بأنها لا تريد مالاً ولا شهرة؟ أو تسوقاً أو ذهاباً إلى العروض أو القدرة على تناول الطعام التايلندي في منتصف الليل؟ الحياة لم تكن حول هذه الأمور. الحياة كانت تعني قضاء الأوقات معاً، إيجاد الوقت للسير واليدان

متشابكتان، أو الهمس وهما يشاهدان غروب الشمس. ليست بالحياة الفاتنة، لكنها كانـــت في عدّة أشكال أفضل ما يمكن للحياة أن تقدمه. أليس هذا ما يقوله المثل؟ مَن مِنَ الناس تمنّى على فراش الموت لو أنه عمل أكثر؟ أو تمنى لو أنه قضى وقتاً أقل وهو يستمتع بفترة بعد ظهر هادئة؟ أو أمضى وقتاً أقل مع عائلته؟

ليســـت بســـاذجة لتنفي أن الحضارة العصرية فيها ما يغري. الشهرة والغنى والجمال والذهاب إلى حفلات خاصة: فقط عندها ستكون سعيداً. هذا كان – في رأيها – هراء، أو لحن البائسين. لو لم تكن كذلك، لماذا يلجأ الأغنياء والمشهورون والجميلات إلى المخدرات؟ لماذا لا يستطيعون الإبقاء على زواجهم؟ لماذا يسجنون؟ لماذا يقعون فريسة الحزن بعيداً عن الأضواء؟

شكّت في أن جيرمي مبهور بهذا العالم، وإن كان يرفض الإقرار. فهمت هذا الجانـــب منه منذ التقيا، ومنذ حذّرت نفسها ألا تجرفها عاطفتها. مع هذا، شعرت بالأسف لأنها تصرفت بهذه الطريقة الآن. لم تكن مستعدة للمواجهة عندما ظهر في مكتـــبها، لكـــنها فكـــرت أنه كان عليها أن تقول ما تفكر به، بدلاً من أن تبقي الحاجز بينهما وأن تنكر أن هناك ما يزعجها.

نعم، كان يجب أن تتعاطى معه أفضل. مهما تكن اختلافاتهما، يستحق ذلك على الأقل.

صديقان.. فكّر مرة ثانية.. لأننا صديقان.

الطـــريقة الـــتي تحدثت بها ما تزال تطارده، وها هو ينقر على دفتر ملاحظاته شـــارد الذهـــن. هزّ جيرمي رأسه. لا بد أن ينتهي من هنا. حرك كتفيه لتخفيف التوتّر، ثم عاد إلى المفكرة النهائية ودفع كرسيه إلى الأمام. بعد أن فتح المفكرة، لم يلزمه أكثر من بضع ثوانٍ ليدرك أن هذه المفكرة كانت مختلفةً عن بقية المفكرات.

بـــدلاً من المقاطع الشخصية القصيرة، احتوت المفكرة على مجموعة من المقالات المعنونة والمؤرخة التي كتبت بين عامي 1955 و1962. المقالة الأولى دارت حول بناء كنيســـة القديس ريتشارد عام 1859، وكيف أن أعمال الحفر كشفت عن مستوطنة لومـــبي الهندية القديمة. وقد غطّت المقالة ثلاث صفحات، وتلتها مقالة عن مصير مدبغة ماكـــتوتن التي أقيمت على شواطئ بون كريك عام 1794. أما المقالة الثالثة، ففاجأت

جيرمي، إذ أوردت ما حدث حقاً لمستوطني جزيرة رونوك في العام 1587.

خطــر إلى جيرمــي أنــه قرأ سابقاً مفكرة تعود إلى أحد هواة التاريخ.. بدأ بتصــفّح الصــفحات بسرعة أكبر... راجع العناوين، ومسح المقالات... وقلب الصــفحات بسرعة... بسرعة.. وتوقف فجأة.. ثم عاد إلى صفحة سابقة.. وتجمد عندما أدرك ما رآه...

مال إلى الوراء في الكرسي، ورمش وهو يحرك أصابعه إلى أسفل الصفحة.

لقد حلّ لغز الأنوار في مقبرة سيدر كريك.

عــلى مــرّ السنين، ادّعى بعض سكان بلدتنا أن الأشباح موجودة في مقبرة ســيدر كريك، وقبل ثلاث سنوات، نُشرت مقالة حول الظاهرة في مجلة الجنوب. ومــع أنهــا لم تقدم إجابة، إلا أني وبعد أن أجريت أبحاثي الخاصة، أعتقد أني قد حللت لغز ظهور الأنوار في أوقات معينة، لا في أوقات أخرى.

أقــول بشــكل حاسم بأن الأشباح ليست موجودة. بدلاً من ذلك، مصدر الأنــوار هــو أضواء مصنع هنريكسون للورق، ولذلك علاقة بالقطار عندما يعبر الجسر الحديدي، وموقع تل ريكر، ومراحل القمر.

تــابع جيرمي القراءة، وحبس أنفاسه. ومع أن الكاتب لم يحاول تفسير غرق المقبرة؛ ومن دونها من المحتمل ألا تظهر الأنوار، إلا أن الخلاصة كانت تتطابق تماماً مع ما توصل إليه جيرمي.

الكاتب، أي كان، وجد الجواب قبل أربعين سنة تقريباً.

أربعون سنة...

علّم الصفحة بقطعة ورق مستعملة، وقلب الغلاف الأمامي ليبحث عن اسم المؤلــف، وأفكاره تعود إلى المحادثة الأولى التي أجراها مع رئيس البلدية. وبذلك، أحسّ بأن شكوكه تجمعت مع بعضها البعض وكأنها قطع أحجية.

أوين غيركن.

الملاحظات كتبها والد رئيس البلدية. الذي طبقاً لرئيس البلدية: "عرف كل ما تلزم معرفته حول هذا المكان". أي أنه فهم سبب ظهور الأنوار، ولقد أخبر ابنه بــلا شك. أي أنه علم وقتذاك أنه ما من ظاهرة فوق طبيعية تخص الأنوار ولكن

ادّعـــى خلافـــاً لذلك. أي أن رئيس البلدية كان يكذب طوال الوقت، على أمل استعمال جيرمي لاجتذاب أموال الزوار الجهلة.

وليكسي...

أميـــنة المكتبة. المرأة التي كانت قد لمحت بأنه قد يجد الأجوبة التي كان يبحث عـــنها في المفكرات. أي أنها كانت قد قرأت مذكرات أوين غيركن وبأنها كانت تكذب، وأنها فضلت أن تماشي رئيس البلدية.

تســـاءل كم من الآخرين في البلدة كانوا قد عرفوا الجواب. دوريس؟ ممكن، قـــال لنفســـه. لا. لا أعتقد، قرّر بسرعة. لا شك في أنها تعرف. خلال محادثتهما الأولى، جـــاءت وقالـــت إن الأنوار لم تكن ما يظنه الجميع. وكما هي الحال مع رئـــيس البلدية وليكسي، لم تقل له ما هي فعلاً هذه الأنوار، بالرغم من أنها كانت تعرف أيضاً.

ممـــا عـــنى.. أن الأمر بأكمله كان نكتة طوال الوقت. الرسالة.. البحث.. الحفلة.. النكتة، وعلى من؟ عليه!

والآن ليكســـي كانـــت تنسحب، ولكن ليس قبل أن أخبرته بحكاية إحضار دوريـــس لها لرؤية روح أبويها. وتلك القصّة الحلوّة أن أبويها كانا قد أراداها أن تقابله.

صدفة؟ أو أمرٌ مخطّط طوال الوقت؟ والآن الطريقة التي كانت تتصرف بها...

كمـــا لو أنها أرادته أن يترك. كما لو أنها لم تحسّ أي إحساس تجاهه. كما لو أنها عرفت ما سيحدث...

هل كان كل شيء مخطّطاً؟ وإن كان الأمر كذلك، فلماذا؟

أمسك جيرمي المفكرة وتوجّه إلى مكتب ليكسي، مصمماً على الحصول على بعـــض الأجوبة. بالكاد لاحظ أنه صفع الباب؛ ولم يلاحظ وجوه المتطوعين الذين التفتوا لمراقبته. فتح باب ليكسي، ودفعه إلى الداخل لما دخل مكتبها.

اختفت أكوام الفوضى الآن، وكانت ليكسي تحمل علبة ملمّع الأثاث وتمسح أعلى الطاولة بقطعة من القماش لتلمع الخشب. نظرت إلى الأعلى فيما رفع جيرمي

المفكرة.

"أوه، هاي"، قالت، نظرت للأعلى. وتكلفت ابتسامة. "كدت أنتهي هنا".

حدّق بها جيرمي وأعلن: "يمكنك أن تقلعي عن التمثيل".

حتى عبر الغرفة، أحسّت بغضبه، ودسّت بالغريزة خصلة من الشعر وراء أذنها.

"عمَّ تتحدّث؟"

"هذا". قال، ولوّح بالمفكرة. "قرأت هذا، أليس كذلك؟"

"نعم"، قالت ببساطة، عرفت أنها مفكرة أوين غيركن. "قرأتها".

"هل عرفت أن هناك مقطعاً يتحدّث عن الأنوار في سيدر كريك؟"

"نعم"، قالت ثانية.

"لماذا لم تخبريني عنها؟"

"بل فعلت"، قالت. "أخبرتك عن المفكرات عندما جئت أولاً إلى المكتبة. وإن لم تخنّي الذاكرة، قلت بأنك قد تجد الأجوبة التي كنت تبحث عنها، أتذكر؟"

"لا تلعبي معي ألعاباً"، قال جيرمي وضيّق عينيه. "عرفت ما كنت أبحث عنه".

"ووجدته"، احتجّت، سارعت بالجواب. "لا أرى أين المشكلة".

"المشكلة أنني أهدر وقتي. هذه المفكرة كان فيها الجواب طوال الوقت. ليس ثمة لغز هنا. لا لغز. وأنت كنت تلعبين هذه الأحجية منذ أول الأمر".

"أي أحجية؟"

"لا تحاولي الإنكار"، قال مقاطعاً. ورفع المفكرة. "عندي البرهان هنا، تذكّري؟ كذبت عليَّ. كذبت في وجهي".

حدّقت به ليكسي، وشعرت بحرارة غضبه، وأحست بجوابها الغاضب: "هل لهذا السبب جئت إلى مكتبي؟ لتبدأ بإطلاق الاتهامات عليَّ؟"

صاح: "كنت تعرفين!"

وضعت يديها على وركيها قائلة: "لا. لم أعرف".

"لكنك قرأتها!"

"ومـــاذا في ذلك؟" ردّت بشراسة. "قرأت المقالة في الصحيفة أيضاً. وقرأت المقـــالات التي كتبها الآخرون. كيف لي أن أعرف أن أوين غيركن وجد الجواب؟ كل ما عرفته أنه كان يخمّن مثلما فعل الآخرون. أو أني أهتم بالموضوع حتى؟ هل تظـــن بصدق أني أمضيت دقيقة واحدة وأنا أفكّر بالموضوع حتى قدومك؟ أنا لا أهـــتم، ولم أهـــتم! جئت إلى هنا لتحقق، ولو كنت قرأت المفكرة قبل يومين، لما كنت ستصدقها أنت أيضاً. كلانا نعرف بأنك كنت ستجري تحقيقك الخاص على أي حال".

"تلـــك ليست النقطة"، قال، رافضاً إمكانية أن تكون على حق. "النقطة أن القضية بأكملها كانت غشاً. الأشباح، الأسطورة، كلها خداع.. بكل بساطة".

"مـــاذا تقول؟ إن الجولة هي عن البيوت التاريخية، ونعم، أضافوا المقبرة إليها. ومـــاذا في الأمر؟ كل ما فيها عطلة نهاية أسبوع لطيفة في منتصف فصل كئيب. لا أحد يتعرض للخداع، ولا أحد يتأذى. هل تعتقد حقاً أن أكثر الناس هنا يصدقون أنها أشباح؟ أكثر الناس يقولون ذلك على سبيل المرح".

"هل عرفت دوريس؟" سألها مقاطعاً.

"حول مفكرة أوين غيركن؟" هزّت رأسها، غاضبة لرفضه الإصغاء. "وكيف تعرف عنها؟"

"انظـــري"، قال، رافعاً إصبعه، مثل معلّم يؤكّد نقطة إلى تلميذه. "ذلك هو الجـــزء الذي لا أفهمه. إذا لم تريدي أن تكون المقبرة جزءاً من الجولة، ودوريس لم تـــردها جـــزءاً من الجولة، إذاً لماذا لم تذهبي إلى الصحيفة بالحقيقة؟ لماذا أردت أن تشركيني في لعبتك الصغيرة؟"

"لم أرد إشراكك. وهي ليست لعبة. إنها عطلة نهاية أسبوع غير مؤذية وأنت تضخّم الموضوع بالكامل".

"أنا لم أضخّم الموضوع. أنت ورئيس البلدية فعلتما ذلك".

"إذاً أنا إحدى الأشخاص السيئين الآن؟"

عـــندما صـــمت جيرمي، ضاقت عيناها. "إذاً لماذا أعطيتك المفكرة في المقام

الأول؟ لماذا لم أخفِها عنك؟"

"لا أعـــرف. ربما لذلك علاقة بدفتر ملاحظات دوريس. كلاكما دفع لي به مـــنذ وصـــلت. لـــربما ظننتما أني لن أصل إلى هذه المفكرة. لذا أعددتما الخديعة بأكملها".

"هـــل تســـمع حتى كم تبدو مضحكاً في ما تقوله؟" اتكأت على المنضدة، ووجهها مُحْمَرٌّ (مُوَرّد بالحمرة).

"اسمعي. أنا أحاول أن أفهم لماذا أُحضرت إلى هنا في المقام الأول".

رفعت يديها، كما لو لتحاول إيقافه. "أنا لا أريد أن أسمع المزيد".

"لا غرابة".

"فقـــط اخرج"، قالت، ودفعت بعلبة تلميع الأثاث إلى درج مكتبها. "لا تعد إلى هنا، وأنا لا أريد الكلام معك بعد الآن. عُدْ من حيث أتيت".

كتف ذراعيه. "على الأقل اعترفت أخيراً بما كنت تفكرين به طوال النهار".

"أوه، الآن أنت قارئ أفكار؟"

"لا. لكـــن ليس من الضروري أن أقرأ الأفكار لأفهم لماذا تصرفت بالطريقة التي فعلت".

"حســـناً، إذاً دعني أقرأ أفكارك، موافق؟" قالت بصوت خبيث، وقد ضاقت ذرعـــاً بتعالـــيه. "دعـــني أخبرك ما أرى، موافق؟" عرفت أن صوتها أسمع المكتبة بأكملها، لكنها لم تهتم. "أرى شخصاً جيّداً في قول الأشياء المناسبة، ولكن عندما يصل الأمر إلى التطبيق، لا يعني ما يقوله".

"ماذا تقصدين؟"

سارت في الغرفة والغضب يشنج كل عضلة في جسمها.

"مـــاذا؟ هل تظن أني لا أعرف كيف تشعر حقاً حيال بلدتنا؟ بأنها مجرد وقفة عـــلى الطريق السريع؟ أو أنك في أعماق نفسك لا تستطيع أن تفهم لماذا يودّ أحدٌ أن يعيش هنا؟ وأنك، رغم ما قلته ليلة أمس، تسخر من فكرة الحياة هنا؟"

"أنا لم أقل ذلك".

"مـــا كان لزاماً عليك أن تقوله!" صاحت، وهي تكره تعجرفه. "إنه صلب الموضـــوع. عندما كنت أتحدّث عن التضحية، عرفت تماماً أنك كنت تفكر أني أنا مـــن يجـــب اجتثاثه. بأني يجب أن أترك عائلتي، وأصدقائي، وبيتي، لأن نيويورك أحســـن كـــثيراً. بأني يجب أن أكون المرأة الصغيرة الجيدة التي تلحق برجلها أينما يعتقد بأننا يجب أن نكون. لم ترد في خاطرك فكرة أنك ستكون من ينتقل".

"أنت تبالغين".

"أبـــالغ؟ عمّـــا أبـــالغ؟ أنك تتوقع أن أنتقل؟ أو هل تخطّط لتعرّج على دليل عقـــارات في طريق الخروج من البلدة غداً؟ الآن، دعني أسهّل عليك المهمة"، قالت ومدّت يدها إلى الهاتف. "السيدة رينولدز عندها مكتب عبر الشارع، وأنا متأكّدة بأنهـــا ســـتكون مســـرورة باصطحابك لرؤية منـــزل أو اثنين إن كنت في وارد الشراء".

حدّق بها جيرمي ببساطة، عاجزاً عن إنكار اتهاماتها.

"لا شيء تقوله؟" سألت، وأعادت الهاتف إلى مكانه. "أكلت القطة لسانك؟ ثم أخـــبرني بهذا بدلاً من ذلك. ماذا كنت تعني عندما قلت إننا سنجد طريقة لجعل الأمـــور تسير بيننا؟ هل تظن أني كنت مهتمة بالانتظار لزيارتك بين الحين والآخر للقـــاء سريع في السرير، دون إمكانية لمستقبلنا معاً؟ أو هل كنت تفكّر باستعمال تلـــك الـــزيارات لتقـــنعني بخطـــأ قراري، باعتبار أنك تعتقد أني أهدر حياتي هنا وسيكون الاندماج في حياتك سبباً لسعادتي؟"

الغضـــب والألم في صوتها كانا واضحين؛ وكذلك المقصود مما كانت تقوله. لوقت طويل، التزم كلاهما الصمت.

"لماذا لم تقولي أي من هذا ليلة أمس؟" سأل، وصوته يخفت.

"حاولت، إلا أنك لم ترد الاستماع".

"إذاً لماذا...؟"

ترك السؤال عالقاً، والتلميح واضحاً..

"لا أعـــرف". أعرضـــت بوجههـــا عنه. "أنت رجل لطيف، أمضينا يومين

جميلين. ربما كنت فقط في المزاج الملائم".

حدّق فيها وسألها: "هل هذا كل ما أعنيه لك؟"

"لا"، اعترفت وهي ترى الألم في تعبيره. "ليس ليلة أمس. لكنها لا تغيّر الحقيقة بأن العلاقة انتهت، أليس كذلك؟"

"إذاً أنت تنسحبين؟"

"لا"، قالت. ولتخوُّفها، أحسّت بالدموع تتجمّع في مقلتيها. "لا ترمِ هذا عليَّ. أنت من سيغادر. أنت جئت إلى عالمي. وليس العكس. كنت راضية حتى وصلت. ربما لست سعيدة جداً، ربما شعرت أني وحيدة إلى حدٍّ ما، لكني راضية. أحبّ حياتي هنا. أحبّ أن أكون قادرة على الاهتمام بدوريس إذا لم تكن على ما يرام. أحبّ القراءة إلى الأطفال في ساعة القصّة. وأنا أحبّ جولة بيوتنا التاريخية الصغيرة، حتى ولو صممت على أن تحيلها إلى موضوع قبيح لكي تعطي انطباعاً كبيراً عبر التلفزيون".

وقفا وجهاً لوجه، مجمَّديْن، وأخيراً، صامتين. كل شيء انكشف، كل الكلمات قيلت، وكلاهما شعر بالإنهاك.

"لا تكوني هكذا"، قال أخيراً.

"مثل ماذا؟ مثل شخص يقول الحقيقة؟"

بدلاً من أن تنتظر ردّه، حملت ليكسي سترتها ومحفظتها، وقذفتهما على ذراعها، وتوجّهت إلى الباب. انتحى جيرمي جانباً ليدعها تمر. مرّت قربه دون كلمة أخرى. كانت على بعد بضع خطوات من المكتب عندما استجمع جيرمي القدرة على الكلام أخيراً.

"أين تذهبين؟"

سارت ليكسي خطوة أخرى قبل أن تتوقف. تنهدت وهي تستدير، وقالت: "إلى البيت". تخلّصت من دمعة على خدّها وأصلحت وقفتها. "مثلك تماماً".

الفصل الثامن عشر

في وقــت متأخر من تلك الليلة، قام ألفين وجيرمي بتركيب آلات التصوير قرب الممشى الخشبي على نهر باامليكو. من بعيد، علت أصوات الموسيقى من مخزن التبغ مع انطلاق الحفلة. بقية المتاجر في البلدة أغلقت لهذه الليلة، حتى لوكيلو كان مهجوراً. بدا أنهما وحيدان في سترتيهما الكبيرتين.

"ثم ماذا حصل؟" سأل ألفين.

قال جيرمي: "لا شيء، غادرت".

"ولم تلحق بها؟"

"لم تردني أن ألحق بها".

"كيف عرفت؟"

فرك جيرمي عينيه، واستعاد الحوار للمرة الألف. مرّت عليه الساعات الماضية وكأنهــا سراب. بالكاد تذكّر عودته إلى غرفة الكتب النادرة قبل أن يضع مجموعة المفكــرات عــلى الرف ويقفل باب الغرفة وراءه. في طريق العودة، فكّر بما قالته، واختلطت مشاعر الغضب والخيانة بمشاعر الحزن والأسف. أمضى الساعات الأربع الــتي تلــت مستنداً إلى سريره في غرينليف، يحاول فهم كيف كان يمكن أن يعالج الأمر بصورة أفضل. أخطأ باقتحام مكتبها كما فعل. هل كان غاضباً فعلاً بسبب المفكرة؟ بسبب فكرة أنه كان قد خدع؟ أو هل كان ببساطة غاضباً من ليكسي، ومثلها، فهو يبحث عن أي عذر لبدء شجار؟

لم يكن متأكداً، كما أن ألفين لم يحمل أجوبة لتساؤلاته. كل ما عرفه جيرمي أنــه بعــد أحداث اليوم، فإنه قد استنــزف، وأنه على الرغم من أنه لا بد له أن يصــوِّر، كــان يقاوم الحافز للذهاب إلى منــزل ليكسي ليصلح ذات البين على افتراض أنها هناك. لكن، عرف أنها كانت في الحفلة الراقصة مع الآخرين.

تنهّد جيرمي وعاد بأفكاره إلى اللحظة الأخيرة في المكتبة.

"إذاً كل شيء انتهى؟"

"نعم"، قال جيرمي، "انتهى".

في الظلام، هزّ ألفين رأسه واستدار. لا يصدق سرعة وقوع صديقه في حب هذه المرأة. لم تكن على قدر كبير من السحر، كما أنها لا تطابق الصورة المثالية التي احتفظ بها عن النساء الجنوبيات.

لكن مهما يكن الأمر، عرف ألفين أن جيرمي سيتجاوز الأمر حالما يطأ الطائرة عائداً إلى المنزل، ما من شك في ذلك.

كان جيرمي دائماً يتخطّى الأشخاص.

في الحفل الراقص، جلس غيركن وحده على طاولة في الزاوية، ويده على ذقنه.

كان قد تمنى أن يمرّ جيرمي بالحفل، والأفضل بصحبة ليكسي، ولكنه حالما وصل، تناهت إلى سمعه ثرثرة المتطوعين في المكتبة حول الشجار في المكتبة. طبقاً لأولئك الناس، كان شجاراً كبيراً، ويتعلق بإحدى المفكرات ونوع من الغشّ.

عندما فكّر الآن بالأمر، قرّر بأنه ما كان يجب أن يتبرّع بمفكرة أبيه للمكتبة. لكن في ذلك الوقت، لم يعر الأمر اهتماماً، علماً أن المفكرة تحتوي على سجل دقيق جداً لتاريخ البلدة. المكتبة كانت المكان الأفضل للتبرع بها. لكن من كان يمكن أن يخمّن ما سيحدث بعد خمس عشرة سنة؟ من كان يعلم أن المصنع سيغلق وأن المنجم سيهجر؟ من كان يعرف أن مئات الأشخاص سيجدون أنفسهم عاطلين عن العمل؟ من كان يعرف بأن أعداداً من العائلات الشابة ستغادر البلدة ولن تعود أبداً؟ من كان يتخيّل أن البلدة سينتهي بها الأمر بالصراع لأجل البقاء؟

ربما ما كان يجب أن يضيف المقبرة إلى الجولة. ربما ما كان يجب أن ينشر رواية الأشباح عندما عرف بأنها كانت مجرد أضواء النوبة الليلية من مصنع الورق. لكنّ الحقيقة بكل بساطة أن البلدة كانت بحاجة إلى دعاية، إلى اجتذاب الزوار، إلى جعلهم يودون البقاء بضعة أيام في البلدة لكي يكتشفوا روعة المكان. إن عبور الزوار يمكن أن يتحول في النهاية إلى جاذب للراغبين بالتقاعد، مثل أورينتال أو

واشـــنطن أو نـــيو بـــيرن. كان يعتقد أن هذا هو أمل البلدة الوحيد للنجاة. يريد المـــتقاعدون أمـــاكن مضـــيافة ليأكلوا ويجروا أعمالهم المصرفية، ويريدون أماكن للتسوق. والتغيير لا يحصل مباشرة، ولكنه لا بد أن يبدأ في مكان ما. بفضل إضافة المقـــبرة وأنوارها الغامضة، أمكنهم بيع بضع مئات من التذاكر الإضافية في الجولة، كما أن حضور جيرمي أعطاهم فرصة نشر الخبر على امتداد الدولة.

أوه، كان يحسب دائماً أن جيرمي ذكي بما فيه الكفاية ليحلّ اللغز وحده. لم يزعجه هذا الجزء فما الضير أن يعرض جيرمي الحقيقة على التلفزيون الوطني... أو حـــتى في عموده الصحفي.. سيسمع الناس في مختلف أنحاء البلاد عن بون كريك، والبعض قد يأتون للزيارة. إن أي دعاية أفضل من لا دعاية؛ ما لم يلجأ بالطبع إلى استخدام عبارة غشّ.

إنهـــا كلمة توحي بالشر، ولا تتوافق مع ما كان يحدث. بالتأكيد، إنه عرف ماهـــية الأنـــوار، ولكـــنّ عدداً قليلاً جداً غيره علم. وما الضير، على أي حال؟ الأســـطورة حقيقية، والأنوار موجودة، وبعض الناس اعتقدوا بالفعل أنها أشباح. جـــلّ مـــا فعلـــه هو السير مع التيار، معتقداً أن ذلك جعل البلدة متميزة وذات خصوصية. السكان بحاجة إلى هذه الصورة الآن أكثر من أي وقت مضى.

جيرمـــي مارش، بذكرياته الحالمة عن البلدة سيتفهم ذلك، أما جيرمي مارش بـــدون ذكـــريات حالمة فلن يتفهم. والآن لم يعرف غيركن ما هو الانطباع الذي سيتشكل لدى جيرمي يوم غد.

"يبدو رئيس البلدية قلقاً نوعاً ما، ألا تعتقدين؟" أشار رودني.

تمعّنـــت راشيل في رئيس البلدية، وهي تشعر بالفخر لأنهما وقفا معاً لأغلب الأمسية. وحتى التفاتاته أحياناً نحو الباب والبحث عن ليكسي لم تنجح في التقليل من هذا الشعور، لسبب بسيط وهو أنه بدا سعيداً برفقتها هو الآخر.

"ربما. لكنه يبدو قلقاً على الدوام".

"لا"، قال رودني، "ليس بنفس المقدار. هناك أمر جدي يشغل تفكيره".

"هل تريد الكلام معه؟"

فكّـــر رودني بالموضـــوع. فهـــو مثل رئيس البلدية والآخرين كان قد سمع

بالشجار في المكتبة، ولكنه بعكسهم جميعاً، كان يعتقد بأن عنده اطلاعاً جيداً على الأحـــداث. تمكن أخيراً من جمع قطع الأحجية، وخاصة بعد أن رأى وجه رئيس البلدية. كان غيركن يخشى أن يكشف جيرمي لغز البلدة الصغير أمام العالم.

أما بالنسبة للشجار، فقد حاول تحذير ليكسي مما تنتظره. إنه أمر حتمي. أما هي، فلا شك في أنها المرأة الأكثر عناداً التي عرفها، وهي إمرأة لا تغير موقفها أبداً. كما أنها متقلبة، وها هو جيرمي يذوق بعضاً من هذا التقلب. ومع أن رودني كان يتمنى ألا تعرض نفسها لتجربة صعبة ثانية، شعر بالارتياح لأن العلاقة انتهت.

قال رودني: "لا، ليس لديَّ الكثير لأخبره. أفلت زمام الأمور من يده الآن".

عبست راشيل بحاجبيها. "أي زمام؟"

"لا شيء". أسقط الموضوع بابتسامة. "لا يهم".

نظـــرت إليه راشيل لحظة قبل أن تهزّ كتفيها بلا مبالاة. وقفا جنباً إلى جنب فـــيما انتهـــت الأغنية الأولى وبدأت الأغنية الثانية. وفيما تقاطر الناس إلى ساحة الرقص، بدأت راشيل تنقر قدمها مع الإيقاع.

لم ينتبه رودني للراقصين، رأسه مشغول بما يحصل. أراد أن يتكلم مع ليكسي. في طـــريقه إلى هنا، مرّ بمنـــزلها ورأى الأنوار مضاءة والسيارة في الممر. كما تلقى في وقت سابق تقريراً من النائب الآخر أن ولد المدينة وصديقه من الرسوم المتحركة كانا يعدان العدة للتصوير على الممشى الخشبي. أي أن اللغز ما يزال ينتظر الحل.

إذا كانـــت أنوار المنـــزل مضاءة بعد الحفل، ربما يمكن أن يمر قليلاً في طريق عودتـــه، كما فعل ليلة غادرها سيد النهضة. كان يشعر أنها لن تفاجأ أبداً لرؤيته. اعتقد بأنها من المحتمل أن تحدق فيه للحظة قبل أن تفتح له الباب. ثم ستصنع بعض القهـــوة الخالية من الكافيين، ومثل آخر مرّة، سيجلس على الأريكة ويستمع إليها لساعات فيما توبّخ نفسها لحماقتها.

أومأ لنفسه. عرفها أفضل مما عرف نفسه.

رغم ذلك، ما زال غير مستعد للقيام بهذه المهمة. أولاً، ستحتاج إلى المزيد من الوقت وحدها لكي تنظم أفكارها. كما أنه تعب من لعب دور الأخ الكبير، وليس واثقاً أنه في مزاج مناسب للاستماع إليها. كان الليلة يشعر بالسعادة، و لم يكن في

وارد اختتام الأمسية محبطاً.

أضف إلى ذلك أن الفرقة كانت جيدة جداً، وأفضل بكثير من فرقة السنة الماضية. من طرف عينه، راقب راشيل وهي تتأرجح مع إيقاع الموسيقى، وسرّ لأنها سعت لمرافقته، كما فعلت المرة الماضية. إنها سهلة المعشر، ولكن الغريب أنه في الفترة الأخيرة، كان يشعر بأنها تزداد جمالاً. دون شك إن ذلك من نسج خياله، ولكنه لا يستطيع أن ينكر كم بدت جميلة هذه الليلة.

لاحظت راشيل أنه يراقبها وابتسمت ابتسامة عريضة محرجة، وقالت: "آسفة، أحبّ هذه الأغنية".

وضّح رودني حنجرته، وسألها: "هل تودّين أن ترقصي؟"

ارتفع حاجباها، "حقاً؟"

"مع ذلك لست براقص متمرس".

"يسعدني أن أراقصك"، قاطعته ومدّت يدها إلى يده.

لحق بها إلى حلبة الرقص، وقرّر في ذلك الزمان والمكان بأنه سيقرر ما العمل بشأن ليكسي لاحقاً.

جلست دوريس على الكرسي الهزاز في غرفة الجلوس، تحدّق بذهن شارد باتجاه النافذة، وتتساءل إن كانت ليكسي ستمر بها. حدسها قادها للشكّ، ولكنها في تلك اللحظة تمنت لو أنها على خطأ. علمت أن ليكسي منزعجة، وكانت معرفتها أقل من هاجس، وأكثر منه قراءة للواقع وكل انزعاجها يتعلق بمغادرة جيرمي.

بشكل من الأشكال، تمنّت لو أنها لم تدفع ليكسي نحوه. بالنظر إلى الوراء، عرفت الآن أنها كان يجب أن تنتبه إلى ما قد تؤول إليه الأمور، فلماذا فعلت ما بوسعها لتحرك العلاقة بينهما؟ هل لأن ليكسي وحيدة؟ هل لأن ليكسي عالقة في دوامة منذ وقعت في هوى شاب من شيكاغو؟ هل لأنها وصلت إلى قناعة بأن ليكسي كانت مذعورة من فكرة الوقوع في حب شخص آخر؟

لماذا لم تقم فقط بالتمتّع بصحبة جيرمي؟ حقاً، هذا كل ما أرادته لها. جيرمي ذكي وساحر، وليكسي ببساطة بحاجة لترى أن هناك رجالاً مثله. تحتاج إلى أن

تعلم أن ليس كل الرجال مثل أفيري أو مثل الشاب من شيكاغو. ماذا أسمته؟ سيد النهضة؟ حاولت أن تتذكر اسمه ولكنها علمت أنه ليس مهماً. الأهم هي ليكسي، ودوريس قلقة عليها.

أوه، ستكون بخير على المدى البعيد، دوريس متأكدة. دون شكّ أنها ستتقبل حقيقة ما كان قد حدث وستجد سبيلاً لتسير قدماً. بمرور الوقت، قد تقنع نفسها بـأن ما حصل كان لصالحها. وهي إن كانت تعلم شيئاً واحداً عن ليكسي، فهو أنها مجاهدة.

تنهّدت دوريس. تعلم أن جيرمي مغرم هو أيضاً. إن كانت ليكسي قد وقعت في هـواه، فـإن وقعـته كانت أقسى. تعلمت ليكسي فن تخطي العلاقات وفن الاستمرار بالعيش مدعية بأن ما حدث لم يحدث على الإطلاق.

جيرمي المسكين، قالت لنفسها. ليس عدلاً.

في مقـبرة سـيدر كريك، وقفت ليكسي في الضباب المتكاثف قرب البقعة حيـث دفن أبواها. علمت أن جيرمي وألفين يصوران قرب الجسر الحديدي وتل ريكر والممشى الخشبي، مما عنى أن بإمكانها أن تختلي بأفكارها الليلة.

لم تخطـط للبقاء طويلاً، لكن لسبب ما، شعرت بضرورة القدوم إلى هنا هذه المـرة أيضـاً، كمـا فعلت بعد علاقتها بسيد النهضة وأفيري. أضاءت المصباح الكاشف على الأسماء المحفورة لأبويها، وتمنّت لو أنهما هنا لتتكلّم معهما.

علمـت أنهـا تنظر إليهما نظرة رومانسية تختلف باختلاف مزاجها. أحياناً أحبـت أن تعتـبرهما محبين للمرح ومهذارين، وأحياناً أخرى تود أن تعتقد أنهما مسـتمعان هادئـان. أما الآن، فأرادتهما أن يمنحاها الحكمة والقوة، وأن يعطياها نصـيحة توضـح الأمور لها وتخفف من حدة الضياع الذي أصابها. لقد تعبت من ارتكاب الأخطاء في حياتها. الأخطاء هي جلّ ما أنجزته، قالت لنفسها بيأس، وهي الآن علمت أنها على وشك ارتكاب خطأ آخر، مهما فعلت.

عبر النهر، كانت فقط أضواء مصنع الورق مرئية عبر الضباب، والبلدة نفسها ضـاعت في سـديم حالم. اقترب موعد وصول القطار طبقاً لجدول جيرمي، وقام ألفـين بجولة مراقبة نهائية على آلة التصوير المواجهة لتل ريكر. كانت تلك اللقطة

الصـــعبة. لقطـــة الجســـر الحديدي كانت سهلة، ولكن لأن تل ريكر كان بعيداً ومغطـــى بالضباب، فلم يكن ألفين واثقاً من أن آلة التصوير ستعمل كما يريد. لم تكن مصممة للتصوير الفوتوغرافي البعيد المدى، وهو ما كان يحتاج إليه هنا. ومع أنه أحضر عدسته الأفضل والأفلام العالية السرعة، تمنّى لو أن جيرمي كان قد ذكر له هذا التفصيل الصغير قبل أن يترك نيويورك.

لم يكن جيرمي في وعيه في الأيام القليلة السابقة، لذا فهو لا يُلام. في العادة، في موقـــف كهذا، كان جيرمي يتكلّم وينكّت باستمرار، ولكنه هذه المرة لم يتكلم تقريباً خلال الساعتين الأخيرتين. وبدلاً من أن يكون التصوير سهلاً وأشبه بالعطلة التي كان يطمح لها، كانت الساعتان الماضيتان أشبه ما تكونان بالعمل، وخاصة مع الـــبرد. لم يكـــن هذا كما تخيل. ومهما يكن، سيرفع أجره وسيرسل الفاتورة إلى نايت.

في هـــذه الأثناء، كان جيرمي يقف على السكة وذراعاه مكتفتان، محدقاً في الضفة الضبابية.

"هـــل ذكـــرت لك أن نايت اتصل في وقت سابق؟" سأل ألفين، محاولاً أن يشغل صديقه.

"هل فعل؟"

"أيقظـــني من قيلولتي"، قال ألفين، "وبدأ بالصراخ عليَّ لأن هاتفك الخلوي مطفأ".

عـــلى الـــرغم مـــن مـــزاجه القلق، ابتسم جيرمي. "تعلمت أن أتجنبه قدر المستطاع".

"نعم، جيّد... أتمنّى لو أنك أخبرتني".

"ماذا أراد؟"

"نفس الشيء. آخر تحديث. لكن الخلاصة؛ سأل إن كنت ستأتيه بعيّنة".

"أي عيّنة؟"

"أعتقد بأنه كان يتحدّث عن الأشباح. إذا كان هناك رواسب طينية أو شيء

من ذلك القبيل، لكي تريها إلى المنتجين خلال الاجتماع في الأسبوع القادم".

"رواسب طينية؟"

رفع ألفين يديه. "هذا ما قاله، لا تلمني".

"لكنه يعلم أن الأشباح ما هي إلا انعكاس الضوء من مصنع الورق".

أومأ ألفين. "نعم، يعرف. لكنه اعتقد أنها لمسة لطيفة. تعرف، نوع من المفاجأة لتنال إعجابهم".

هزّ جيرمي رأسه بعدم تصديق. كانت قد خطرت لنايت الكثير من الأفكار المجنونة على مرّ السنين، لكن هذه تنال الجائزة الكبرى. مع ذلك، هذا هو. أي شيء يطرأ في رأسه يخرج من فمه، ونصف الوقت، لا يتذكّر ما قاله حتى.

"قال أيضاً بأنك يجب أن تتّصل"، أضاف ألفين.

"سأفعل"، قال جيرمي، "لكني تركت هاتفي الخلوي في غرينليف". توقف، "لم تخبره عن المفكرة، أليس كذلك؟"

"لم أعرف بها وقتها"، قال ألفين. "أنت لم تخبرني إلا بعد أن اتصل. كما قلت، أيقظني من قيلولتي".

أومأ جيرمي مفكراً. "إن اتصل بك ثانية، احتفظ بالفكرة لنفسك لفترة، موافق؟"

"ألا تريده أن يعرف أن رئيس البلدية يدير خديعة؟"

"لا"، قال. "ليس بعد".

نظر ألفين إليه. "ليس بعد، أو ليس أبداً؟"

لم يجبه جيرمي مباشرة. طرح ألفين فعلاً السؤال الحقيقي، أليس كذلك؟ "لم أحزم أمري بعد".

حدّق ألفين من خلال العدسة مرة أخرى وقال: "سؤال صعب، قد لا يكفي أن تصنع القصة. تعرف ذلك. أعني، الأنوار شيء، لكنك يجب أن تدرك بأن الحلّ لن ينال كل الاهتمام الذي تتمناه".

"ماذا تعني؟"

"الـــتلفزيون. لست متأكّداً بأهم سيهتمّون بالحقيقة؛ أي أن مرور القطار هو الذي يسبّب الأنوار".

"لـــيس فقط مرور القطار"، صحّح له جيرمي. "إنها الطريقة التي تنعكس فيها أضـــواء مصنع الورق على القطار وتل ريكر، وكيف أن كثافة الضباب الأعلى في المقبرة الغارقة تتسبب بظهور الأنوار".

اصطنع ألفين التثاؤب. "آسف"، قال. "هل كنت تقول شيئاً؟"

"ليس مملاً"، أصرّ جيرمي. "هل تدرك كم عدد العوامل التي اجتمعت لتتسبب بهـــذه الظاهرة؟ كيف أن المناجم غيّرت مواقع المياه الجوفية وتسببت بغرق المقبرة؟ موقع الجسر الحديدي؟ مراحل القمر، لأن الأنوار لا تظهر إلا في أوقات معينة من الظلام الدامس؟ الأسطورة؟ موقع مصنع الورق وجدول مواعيد القطارات؟"

اســـتهجن ألفـــين. "صدقني، إنه ممل، وأشدد على ما أقوله. يمكن أن يحظى الـــبرنامج بكـــثير مـــن الاهتمام لو لم تعثر على الإجابة. يحبّ مشاهدو التلفزيون الألغـــاز. خصوصاً في أماكن مهمة مثل نيو أورلينـــز أو شارلستون، أو الأماكن الجمـــيلة والرومانسية. لكنّ أنواراً منعكسة في بون كريك بكارولينا الشمالية؟ هل تظن حقاً أن الناس في نيويورك أو لوس أنجلوس سيهتمون؟"

فـــتح جيرمي فمه ليقول شيئاً، وفجأة تذكّر أن ليكسي كانت قد قالت نفس الشيء حول الظاهرة، وهي عاشت هنا. خلال الصمت، نظر ألفين إليه.

"إذا كنـــت جدياً حول مشروع التلفزيون، ستحتاج إلى أن تزيد التوابل على القصـــة بطـــريقة مـــا، والمفكرة التي أخبرتني عنها لا تكفي. يمكن أن تقدم الحلقة بأكمـــلها بـــناء عـــلى البحث، وتظهر المفكرة في النهاية. قد يكون ذلك كافياً لاسترعاء انتباه المنتجين إذا ما قدمته بالطريقة الصحيحة".

"تظن أنني يجب أن أضحّي بالبلدة من غير اكتراث؟"

هـــزّ ألفين رأسه. "لم أقل ذلك. ولكي أصدقك القول، لست متأكداً حتى أن المفكرة ستكون كافية. أنا فقط أخبرك بأنك إذا لم تستطع العودة ببعض الرواسب الطينـــية، فمـــن الأفضـــل أن تفكـــر ملياً بموضوع المفكرة لكي لا تبدو أبلهَ في الاجتماع".

أشاح جيرمي بعينيه. القطار سيصل بعد بضع دقائق. "ليكسي لن تتكلّم معي ثانية إذا فعلت ذلك". ثم هزّ كتفه. "على افتراض أنها ما زالت تود ذلك".

صمت ألفين. في الصمت، نظر إليه جيرمي.

"ماذا تعتقد أنه عليَّ أن أفعل؟"

أخذ ألفين نفساً عميقاً. "أعتقد، أن الجواب تحدده أولوياتك، أليس كذلك؟"

الفصل التاسع عشر

بالكاد أغمض جفن جيرمي ليلة أمس في غرينليف. أنهى وألفين تصوير عبور القطـــار، وكيف انعكس الضوء بضعف على تل ريكر. استعرضا الفيلم، وقررا أنه جـــيد بمـــا فيه الكفاية لإثبات نظرية جيرمي، ما لم يكونا راغبين باستقدام أجهزة أفضل.

رغم ذلك، وعلى طريق العودة إلى غرينليف، بالكاد كان تفكير جيرمي يدور حول اللغز أو حتى الطريق. بدلاً من ذلك، بدأ مرة أخرى باسترجاع الأيام القليلة الماضـــية في رأســـه. تذكّـــر المرة الأولى التي كان قد رأى فيها ليكسي في المقبرة، وحوارهما الناشط في المكتبة. فكّر في غدائهما على تلّ ريكر، وزيارتهما إلى الممشى الخشـــبي، وتذكّـــر دهشته في الحفلة الاستثنائية على شرفه، وإحساسه عندما رأى الأنـــوار أول مرة في المقبرة. ولكن أكثر من أي شيء آخر، تذكّر تلك اللحظات عندما بدأ بإدراك أنه كان يقع في حبها.

هل يمكن أن الكثير من الأحداث قد حصلت خلال يومين؟ وأثناء دخوله إلى غرفـــته في غرينلـــيف، حـــاول بدقة تحديد اللحظة الحقيقية عندما بدأت العلاقة بالانهيار. لم يكن واثقاً جداً، ولكنه ظنّ أنها تحاول الهرب من مشاعرها، وليس منه فقط. إذا، متى بدأت بإدراك أنها تكن مشاعر تجاهه؟ في الحفلة، مثله؟ في المقبرة؟ في وقت سابق من ذلك العصر؟

لا فكرة لديه عن الجواب. كل ما عرفه بأنه أحبها وأنه لا يستطيع أن يتخيّل ألا يراها ثانية.

مـــرّت الســـاعات بـــبطء؛ ستغادر طائرته من رالاي ظهراً. عليه أن يغادر غرينليف بعد قليل. صحا قبل السادسة، حزم أغراضه، وحمّلها في سيارته. وبعد أن تأكد بأنه رأى نوراً يشع من غرفة ألفين، شقّ طريقه خلال هواء الصباح البارد إلى

مكتب الاستقبال.

عبس جاد، كما توقّع. شعره أَشْعَث أكثر من المعتاد، وثيابه مجعدة، ولذا فكر جيرمي أنه قد صحا قبل دقائق قليلة. وضع جيرمي المفتاح على طاولة الاستقبال.

قال جيرمي: "هذا مكان مميز، سأوصي به أصدقائي".

رغـــم استحالة تصوره، ازداد جاد عبوساً، ولكنّ جيرمي ابتسم بالمقابل. في طـــريقه إلى الغـــرفة، رأى الأضـــواء العلوية لسيارة تثب في الضباب على الطريق الحصوي. تخيل أنها ليكسي، وشعر برعشة في صدره. ولكن عندما ظهرت السيارة للعيان أخيراً، غاصت آماله بسرعة.

ظهـــر غيركن رئيس البلدية، ملتفاً بسترة ووشاح ثقيل من السيارة من دون الحمـــاس الـــذي ظهـــر به خلال لقاءاتهما السابقة، وتلمّس طريقه نحو جيرمي في الظلام.

صاح غيركن: "تحزم أغراضك كما أظن".

"انتهيت للتو".

"لم يصفعك جاد بالفاتورة، أليس كذلك؟"

"لا". قال جيرمي. "بالمناسبة، شكراً لذلك".

"مرحـــباً بك. مثلما قلت، إنه أقل ما يمكننا فعله، أنا فقط أتمنّى أن تكون قد تمتّعت بإقامتك في بلدتنا الجميلة".

أومأ جيرمي، ولاحظ القلق على وجه رئيس البلدية. "نعم، لقد فعلت".

لـــلمرة الأولى مـــنذ أن قـــابل جيرمي، بدا غيركن مرتبكاً بكلامه. ولما غدا الصـــمت مزعجاً، دسّ الوشاح في سترته. "حسناً، جئت فقط لأخبرك بأن الجميع هنا تمتعوا بلقائك، وأنا أتكلم باسم البلدة، لكنك أعطيت انطباعاً جيداً".

وضع جيرمي يديه في جيبيه. "لماذا الحيلة؟"

تنهد غيركن. "تقصد إضافة المقبرة إلى الجولة؟"

"لا. أعـــني حقيقة أن أباك سجّل الجواب في مفكرته، وبأنك أخفيت الجواب عنّي".

ظهـــر تعـــبير حزين على تقاسيم غيركن. "معك كل الحق"، قال بعد لحظة، بصـــوت متردد. "أبي حلّ ذلك اللغز، ولكن أظن أنه كان من المفترض أن يحلّه". ونظر في عيني جيرمي. "هل تعرف لماذا أصبح مهتماً بتاريخ بلدتنا؟"

هزّ جيرمي رأسه.

"خـــلال الحـــرب العالمـــية الثانية، خدم أبي في الجيش مع رجل يدعى لويد شـــومبرغ. كـــان ضابطاً مساعداً، وأبي كان مجرد عسكري. لا يدرك الناس هذه الأيـــام أنـــه أثناء الحرب، لم يكن هناك جنود فقط، على الخطوط الأمامية. أغلب الجـــنود كانوا أناساً عاديين: خبّازون، جزّارون، وميكانيكيون. أما شومبرغ فكان مؤرخـــاً أو هكذا قال لي أبي. الحقيقة أنه كان معلم تاريخ في مدرسة عليا بولاية ديلاوار، لكن أبي قسم أنه ما رأى ضابطاً أدقّ منه في الجيش. كان يرفّه عن رجاله بإخبارهم قصصاً من الماضي، قصصاً لا يعرفها إلا القليلون، وساعدت القصص أبي في تخطـــي خوفـــه ممـــا يدور حوله. على أي حال، بعد الهجوم على إيطاليا، وقع شـــومبرغ وأبي وبقيّة الفصيل تحت طوق الألمان. طلب شومبرغ من رجاله التراجع فيما حاول توفير الغطاء لهم. وقال لهم بأنه لا خيار أمامه. كانت عملية انتحارية، والجميع أدرك ذلك، ولكن ذلك كان شومبرغ". توقف غيركن. "وكانت النتيجة، أن أبي عـــاش وشومبرغ مات، وبعد أن رجع أبي إلى الوطن من الحرب، قال بأنه يريد أن يصبح مؤرخاً، لتكريم صديقه".

عندما توقف غيركن، نظر جيرمي إليه بفضول. "لماذا تخبرني هذا؟"

"لأني"، أجـــاب غيركن، "كما أرى الأمر، لم تكن لديَّ خيارات كثيرة. كل بلـــدة تحتاج إلى أن تتميز بشيء ما، ليتذكر الناس أن موطنهم خاص. في نيويورك، لا يتوجب عليك أن تقلق حول هذا. هناك برودواي، ووول ستريت، وبناية إمباير ســـتيت، وتمثال الحريّة. لكن هنا، بعد كل عمليات إغلاق الأعمال، نظرت حولي وأدركت بأن كل ما تبقى لدينا كان مجرد أسطورة. والأساطير... حسناً، هي فقط آثـــار من الماضي، والبلدة تحتاج إلى أكثر من ماضٍ لتستمر. جلّ ما كنت أحاول فعله هو إيجاد طريقة لأبقي على هذه البلدة حية، ثم أتيت أنت".

نظـــر جيرمـــي بعيداً، وفكّر بأبواب المتاجر المغلقة التي رآها عندما وصل إلى

هنا. تذكر ما أخبرته به ليكسي عن إغلاق مصنع النسيج ومناجم الفوسفات.

"إذاً جئت هذا الصباح لتروي لي منظورك لهذه القصّة؟"

"لا". قـــال غيركـــن. "جئت لأعلمك أن الفكرة بأكملها كانت فكرتي. لا دخل للمجلس البلدي، ولا للناس الذين يعيشون هنا. ربما كنت مخطئاً في ما فعلته، ربما لا توافقني الرأي. لكني قمت بما اعتقدت أنه في صالح هذا المكان والناس الذين يعيشـــون هـــنا. وكل ما أسأله أن لا تورط أحداً غيري عندما تنجز قصتك. إذا أردت التضحية بي، يمكنني أن أتقبل ذلك. وأعتقد أن أبي سيتفهم".

بدون انتظار الردّ، عاد غيركن إلى سيارته، واختفى في الضباب.

صـــبغ الفجر السماء باللون الرمادي. كان جيرمي يساعد ألفين على تحميل آخر الأجهزة عندما وصلت ليكسي.

خرجـــت مـــن السيارة، وكان مظهرها كما في المرة الأولى التي رآها فيها، وعيناها البنفسجيتان غير صالحتين للقراءة حتى عندما قابلت نظرته نظرتها. وكانت في يدهـــا مفكرة غيركن. للحظة، واجها بعضهما البعض كما لو أنهما لا يعرفان ماذا يقولان.

ألفـــين، الواقف قرب صندوق السيارة المفتوح، كسر حاجز الصمت وقال: "صباح الخير".

تكلفت ابتسامة. "هاي، ألفين".

"نهضت باكراً".

هـــزّت كتفـــيها، وعيناها تومضان باتجاه جيرمي. نظر ألفين إليهما قبل أن يلتفت إلى الخلف.

"أظن أني سألقي نظرة أخرى على الغرفة"، مع أن أياً منهما لم يعره اهتماماً.

عـــندما مضى، أخذ جيرمي نفساً عميقاً وقال: "لم أظن أنك كنت ستمرين بنا".

"لكي أكون صادقة، لم أكن واثقة أنا نفسي".

"أنـــا مسرور لأنك فعلت". وذكره الضوء الرمادي بنـــزهتهما على الشاطئ

قرب الفنار، وشعر بسهم ناري من الألم لمّا أحس كم يحبّها. ومع أن غريزته الأولى كانت باتجاه إصلاح ما بينهما، إلا أن موقفها المتصلّب جعله يتحاشى ذلك.

أومأت نحو سيارته. "حزمت أمتعتك وصرت جاهزاً للذهاب حسبما أرى".

"نعم، مستعد بالكامل".

"وهل أنهيت تصوير الأنوار؟"

تــردّد، و لم يعجبه أسلوب محادثتهما. "هل جئت حقاً إلى هنا للتحدّث عن عملي أو أمتعتي المحزومة؟"

"لا، لم آتِ لذلك".

"إذاً، لماذا جئت؟"

"للاعــتذار عــن الطريقة التي عاملتك بها أمس في المكتبة. ما كان يجب أن أتصرف كما فعلت. لم هذا يكن عدلاً بحقّك".

ابتسم نصف ابتسامة. "لا بأس، سأتخطى الأمر. وأنا آسف، أيضاً".

رفعت المفكرة. "جلبت هذه لك. إن أردتها".

" لم أظن أنك تريدينني أن أستعملها".

"فعلاً".

"إذاً لماذا تعطينني إياها؟"

"لأنــي كان يجب أن أخبرك عن هذا المقطع في المفكرة، ولا أريدك أن تعتقد بــأن أي شخص هنا انشغل في تغطية الحقائق. يمكنني أن أرى وجهة نظرك في أن الــبلدة كانت تخطط لشيء، وهذا عرض سلام. لكن أريد أن أطمئنك بأنه ما من مخطط كبير".

"أعرف"، قاطعها جيرمي. "مرّ رئيس البلدية هذا الصباح".

أومــأت، وســقطت نظرتها قبل أن ترفعها لتقابل نظرته مرة ثانية. في تلك الــلحظة، اعــتقد أنها ستقول شيئاً، ولكن مهما كان ما ستقوله، توقّفت لتلتقط أنفاســها. "حســناً، أظــن أن هذا كل شيء"، قالت ودفعت بيديها في جيبــي معطفهــا. "ربمــا يجــب أن أدعك تكمل عملك قبل أن تنطلق. لست من أنصار

الوداع الطويل".

"هل هذا مع السلامة؟" سأل، محاولاً الإبقاء على نظرتها.

بدت حزينة تقريباً بينما أمالت رأسها جانباً. "يجب أن يكون، أليس كذلك؟"

"هكذا إذاً؟ أجئت لتقولي لي إن كل شيء انتهى؟" مرّر أصابعه في شعره وعبس. "لا رأي لي بالمسألة؟"

كان صوتها هادئاً عندما أجابت. "لقد خضنا بكلّ هذا، جيرمي. أنا لم آتِ هذا الصباح لأتجادل، و لم آتِ لإغضابك. جئت لأنني آسفة على الطريقة التي عاملتك بها أمس. ولأني لم أردك أن تظن أن الأسبوع لم يعنِ لي شيئاً. بل على العكس".

شعر بكلماتها كالصفعات الحقيقية، وكافح لكي ينطق. "لكنك مصمّمة على إنهاء ما بيننا".

"أنا مصمّمة أن أكون واقعية".

"ماذا لو قلت لك إني أحبّك؟"

حدّقت فيه للحظة طويلة قبل أن تستدير. "لا تقل ذلك".

اقترب منها خطوة. "لكني أحبك. أحبك ولا أستطيع أن أسيطر على شعوري".

"جيرمي... رجاء...".

تحرّك بسرعة أكبر، أحسّ بأنه كان يخرق دفاعاتها أخيراً، وزادت شجاعته مع كل خطوة. "أريد أن أجعل هذا ينجح".

"لا نستطيع".

"بالطبع، نستطيع"، قال، ودار حول السيارة، "يمكننا أن نجد حلاً".

"لا"، قالت، وغدا صوتها قاسياً. وعادت خطوة إلى الوراء.

"لِمَ لا؟"

"لأنني سأتزوّج رودني، حسناً؟"

جمدته كلماتها. "ماذا تقولين؟"

"لــيلة أمس بعد الرقصة، مرّ عليَّ وتكلمنا. تكلمنا لوقت طويل. إنه صادق، وجاد في عمله، ويحبّني، وهو هنا. أما أنت فلست هنا".

حدّق بها، وأذهله إعلانها. "لا أصدقك".

بادلته النظرات، دون انفعال على وجهها. "بل صدق".

عندما أخفق جيرمي في الرد، سلمته المفكرة، ثم رفعت يدها في تحية مقتضبة، وبدأت بالابتعاد خلفياً، تماماً كما فعلت ذلك اليوم في المقبرة.

"مع السلامة، جيرمي"، قالت قبل أن تستدير لتدخل سيارتها.

جمّدته الصدمة. سمع جيرمي دوران المحرك، ورآها تنظر وراء كتفيها لما بدأت بالــرجوع. تقــدم للأمام ليضع يده على غطاء المحرك، ليحاول إيقافها. ولكن لما بــدأت الســيارة بالتحرك، ترك أصابعه تنــزلق على الرطوبة التي غطت السيارة، وأخيراً عاد خطوة إلى الوراء لما بدأت السيارة بالابتعاد في الممر.

لــلحظة، اعتقد جيرمي أنه رأى وميض الدموع في عينيها. لكنها لما نظرت بعيداً، أدرك بشكل نهائي أنه سوف لن يراها ثانية.

أراد أن يصيح، أن يطلب منها التوقف. أراد أن يخبرها بأنه يمكن أن يبقى، أنه أراد أن يبقى، بأن العودة إلى المنــزل لا قيمة لها إن خسرها. لكنّ الكلمات بقيت محصورة في داخله، وببطء شديد، مرّت السيارة قربه، ثم زادت سرعتها وهي تشق طريقها على الطريق.

في الضباب، بقي جيرمي، واقفاً، ومراقباً حتى صارت السيارة ظلاً، ولم يظهر منها إلا أضواؤها الخلفية، ثم اختفت بالكامل، وضاع صوت المحرك في الغابة.



الفصل العشرون

انقضـــى بقية اليوم كما لو أنه يراه من خلال عيني شخص آخر. طغى عليه شعور الأذى والغضب، وبالكاد تذكر أنه لحق ألفين طوال الطريق السريع في طريق العـــودة إلى رالاي. أكـــثر من مرة، نظر في المرآة الخلفية مجيلاً نظره في الإسفلت الأســـود، مراقباً السيارات التي ظهرت من بعيد، وتمنّى لو أن إحداها كانت سيارة ليكسي. كانت صريحة جداً برغبتها في إنهاء العلاقة، لكن رغم ذلك، شعر باندفاع الأدريـــنالين كـــلما رأى ســـيارة تشبه سيارتها، وأبطأ السرعة ليحصل على نظرة أفضل. أما ألفين، في هذه الأثناء، فكان يبتعد عنه أكثر. عرف جيرمي أنه يجب لا يـــبعد نظـــره عن الطريق أمامه، ولكنه بدلاً من ذلك، أمضى أغلب وقته ينظر للوراء.

بعد تسليم سيارته المستأجرة، قصد مبنى المطار، وذهب إلى بوابة الإقلاع. مرّ قرب المتاجر المزدحمة، ونظر في وجوه الناس المسرعين حوله، وتساءل مرة ثانية لماذا كانت ليكسي راغبة في التخلي عن كل ما يجمعهما سوية؟

على الطائرة، انقطعت أفكاره عندما جلس ألفين بجانبه.

"شـــكراً لمساعدتك في جعلنا نجلس معاً"، قال ألفين، وصوته يتقطّر بالتهكّم. وضع حقيبته على الرف العلوي.

"هاه؟" قال جيرمي.

"المقاعد.. ظننت أنك ستهتم بالمقاعد عندما تصل. حمدا لله أني سألت عندما حصلت على بطاقة الركوب. كان من المفترض أن أجلس في الصفّ الأخير".

قال جيرمي: "آسف، أظن أني نسيت".

"نعم، أظن ذلك"، قال ألفين، وجلس على المقعد بجانبه، ثم نظر إلى جيرمي.

"أتريد رغم ذلك التحدّث عنها؟"

تردّد جيرمي. "لست متأكّداً أن هناك شيئاً للتحدّث عنه".

"ذلـــك مـــا قلته في وقت سابق. لكني سمعت أن الكلام مفيد لك. ألم تتابع برامج الحوارات مؤخراً؟ عبّر عن مشاعرك، طهّر ذنوبك، فتش وستجد؟"

"ربما في وقت لاحق"، غمغم.

"كما تريد"، قال ألفين. "إذا لم ترد الكلام، حسناً، سآخذ قيلولة". أمال ظهر مقعده وأغلق عينيه.

نظر جيرمي إلى خارج النافذة فيما نام ألفين في معظم الرحلة.

في ســـيارة الأجـــرة التي استقلها من لاغوارديا، صفعته الضوضاء والسرعة المحمومة للمدينة: رجال الأعمال يسرعون قربه حاملين الحقائب، وأمهات يسحبن أطفـــالاً صـــغاراً وفي الوقت نفسه يحاولن التعامل مع أكياس المشتريات، ورائحة عوادم السيارات، وأصوات أبواق السيارات، وضجيج صفارات الإنذار. كان هذا أمراً طبيعياً جداً في عالمه الذي نشأ فيه واعتبره بديهياً. والذي فاجأه أنه عندما نظر عـــبر نافذة السيارة، محاولاً توجيه نفسه إلى حقيقة حياته، فكّر بغرينليف والصمت المطبق الذي شعر به هناك.

وصل إلى عمارته السكنية. صندوق بريده محشو بالإعلانات والفواتير. أمسك كـــل شيء وصعد الدرج. داخل الشقّة، وجد كل شيء كما كان قد تركه تماماً. المجـــلات منـــثورة في غـــرفة الجلوس، مكتبه مكتظ كعادته، وما زال هناك ثلاث زجاجات من مشروبه المفضل في الثلاجة. بعد أن أخرج الثياب من حقيبته، وأعاد ترتيبها في غرفته، فتح زجاجة شراب وحمل حاسوبه وحقيبته إلى المكتب.

كـــان عـــنده كـــل المعلومات التي جمعها في الأيام القليلة الماضية: ملاحظاته ونســـخ عـــن المقالات، وآلة التصوير الرقمية وفيها الصور التي أخذها من المقبرة، والخـــريطة، والمفكـــرة. عندما بدأ بفتح الأغراض، وقعت حزمة البطاقات البريدية على المكتب، واستغرق لحظة ليتذكر أنه كان قد اشتراها في يومه الأول في البلدة. البطاقة البريدية الأولى كانت منظراً عاماً للبلدة من النهر. أزال الغلاف، وبدأ يقلّب البقـــية. وجد البطاقات البريدية التي تصوّر دار البلدية، ولقطة ضبابية لمالك الحزين

الأزرق في المياه الضحلة لبون كريك، ومجموعة من القوارب الشراعية في وقت العصر من أحد الأيام. في منتصف الحزمة، توقف أمام صورة للمكتبة.

جلس ساكناً، يفكّر بليكسي ويدرك ثانية أنه يحبّها.

ولكن انتهى هذا الآن، فتابع خلط البطاقات البريدية. رأى صورة قديمة لهيربس وواحدة للبلدة كما تبدو من أعلى تل ريكر. ولكن البطاقة الأخيرة كانت صورة بون كريك أيضاً، وهنا وجد نفسه يتوقّف مرة أخرى.

هذه البطاقة البريدية هي نسخة عن صورة سوداء وبيضاء قديمة أخذت للبلدة في عام 1950. في المقدمة (المنظر الأمامي) كان المسرح مع حراس حسني المظهر ينتظرون قرب نافذة التذاكر؛ في الخلفية وضعت شجرة عيد ميلاد مزينة في المنطقة الخضراء الصغيرة في الشارع الرئيسي. على الأرصفة، أمكنه أن يرى أزواجاً ينظرون من النوافذ المزينة بالأكاليل والأضواء، أو يتمشون يداً بيد. وكلما درس جيرمي الصورة، وجد نفسه يتخيل كيف كان الاحتفال بالأعياد في بون كريك قبل خمسين سنة. بدلاً من المتاجر المقفلة، رأى أرصفة تحتشد بسيدات يرتدين الأوشحة، ورجال يعتمرون القبعات، وأطفال يشيرون إلى الأعلى نحو شارة على شكل رقاقة ثلج معلقة من اللافتة.

وجد جيرمي نفسه يفكر بغيركن رئيس البلدية. البطاقة البريدية لم تصور طريقة حياة بون كريك قبل نصف قرن فحسب، ولكن أيضاً الصورة التي كان يتمناها غيركن للبلدة مرة ثانية. إنها صورة مثالية لهذه البلدة على الطريقة الجنوبية. حمل البطاقة لوقت طويل، وفكّر بليكسي، وتعجب ماذا كان سيفعل بهذه القصة.

حدّد اجتماعه بمنتجي التلفزيون عصر يوم الثلاثاء. قابل جيرمي نايت في مطعم الستيك المفضل لديه، سميث وولسنكي، قبل الاجتماع. كان نايت كعادته، حيوياً، وأثير لرؤية جيرمي وشعر بالارتياح لأنه استعاده من البلدة، ولأنه الآن تحت ناظريه. ما إن جلس، حتى بدأ بالتحدّث عن الفيلم الذي صوره ألفين، ووصف الصور بالرائعة، "مثل ذلك البيت المسكون في أميتيفيل، لكنه حقيقي". وطمأنه بأن المدراء التنفيذيين في التلفزيون سيحبونها. في الجزء الأكبر من الحديث، جلس جيرمي في صمت يستمع إلى ثرثرة نايت، ولكنه عندما رأى امرأة بشعر أسود

تغـــادر المطعم، وشعرها بالضبط بنفس طول شعر ليكسي، شعر بكتلة في حنجرته وفجأة، استأذن ليذهب إلى دورة المياه.

عـــندما عاد، كان نايت يطالع قائمة الطعام. أضاف جيرمي مُحلّياً إلى الشاي المجمّد الذي طلبه. وقام هو أيضاً بقراءة القائمة، وذكر بأنه يفكر بطلب طبق سمك السيف. نظر نايت للأعلى.

قال محتجاً: "لكنه مطعم ستيك".

"أعرف. أنا مع ذلك، في مزاج يتناسب مع تناول طعام خفيف".

انتقلـــت يدّ نايت بذهن شارد إلى وسط جسمه، كما لو أن أعجوبة ستدفعه لطلـــب نفـــس الطبق. في النهاية، عبس وهو يضع القائمة جانباً، وقال: "بالتأكيد سأختار الستيك الرقيق، أفكر به منذ الصباح، أين كنا؟"

"الاجتماع"، ذكّره جيرمي، واتكأ نايت للأمام.

"إذاً لا أشـــباح، صـــحيح؟" قـــال نايت. "ذكرت على الهاتف أنك رأيت الأضواء، ولكن عندك فكرة جيدة عن ماهيتها".

"لا، لا أشباح".

"إذاً، ما هي؟"

سحب جيرمي ملاحظاته وأمضى الدقائق القليلة التي تلت وهو يخبر نايت بما يعـــلمه. بـــدأ بالأسطورة ووصف بالتفصيل مسيرة بحثه. حتى هو أمكنه أن يشعر بالرتابة في صوته. أومأ نايت باستمرار وهو يستمع إليه، ولما انتهى جيرمي، أمكنه أن يرى تجاعيد القلق على جبهة نايت.

"مصنع الورق؟ كنت أتمنّى لو أنه كان شيئاً من اختبارات حكومية، أو شيئاً مـــن هذا القبيل، مثل اختبار القوات المسلحة لطيارة جديدة أو شيء ما". توقف. "وهـــل أنـــت متأكد أنه ليس قطاراً عسكرياً؟ الناس يحبون أي برامج عن الجيش. بـــرامج الأســـلحة السرية، أشياء كهذه. أو ربما سمعت هناك شيئاً لا تستطيع أن توضّحه".

"آسف"، قال جيرمي، بصوت خافت. "إنه مجرد ضوء ينبعث من القطار. لم

تكن هناك أي ضوضاء".

مــــن خلال مراقبته لنايت، أمكن لجيرمي أن يرى الأفكار تتصارع في رأسه. توصـــل جيرمي إلى قناعة أن نايت يمتلك غرائز أفضل من محرّريه عندما يصل الأمر إلى القصص.

قـــال نايت: "ليس بالكثير، هل اكتشفت إن كانت الأسطورة حقيقية؟ ربما هناك منظار مختلف من الناحية العرقية".

هزّ جيرمي رأسه. "لم أقدر أن أؤكد إن كانت هيتي دوبيليت موجودة حقاً. في مـــا خلا الأساطير، لم أستطع أن أجد أي سجل لها في أي وثائق رسمية. وواتس لاندينغ اختفى منذ وقت طويل".

"انظـــر، لا أقصـــد هنا أن أكون صعب الإرضاء، لكنك يجب أن تزيد من حماســـك الروائي إذا أردت للموضوع أن يمر. إن لم تكن متحمساً، لن يتحمسوا هـــم بدورهـــم. هل أنا على صواب أم أني على صواب؟ بالطبع أنا على صواب. ولكن هيا بنا، كن صادقاً معي. وجدت أمراً آخر، أليس كذلك؟"

"عمّا تتحدّث؟"

قـــال نايت: "عندما سلّم ألفين شرائط الفيديو، سألته عن القصة فقط لأرى انطباعاته، وهو ذكر لي أنك وجدت شيئاً آخر مثيراً".

لم يتلعثم جيرمي. "هل فعل؟"

"إنهـــا كـــلماته، وليست كلماتي". قال نايت، وبدا مسروراً من نفسه. "مع ذلك، لم يخبرني ما هو. قال لي إن ذلك يعود إليك. مما يعني أنه أمر كبير".

حـــدّق في نايـــت. أمكنه أن يشعر بالمفكرة تتوهج من خلال نسيج حقيبته. على الطاولة، تلاعب نايت بشوكته، وأدارها المرة تلو الأخرى، في انتظار.

"حسناً"، بدأ جيرمي، وعلم أن وقت اتخاذ القرار قد حان أخيراً.

عندما لم يستمر، اتكأ نايت للأمام. "نعم؟"

ذلـــك المســـاء، بعد انتهاء الاجتماع، جلس جيرمي وحيداً في شقته، يراقب العـــالم في الخارج بذهن شارد. بدأ الثلج بالتساقط، وبدت رقاقات الثلج مثل كتلة

ساحرة تحت أنوار الشوارع.

بـــدأ الاجـــتماع جيداً. كان نايت قد أثار حماس المنتجين لدرجة أنهم بهروا بالصـــور الـــتي رأوهـــا. قام نايت بأفضل ما بوسعه. بعدئذ، أخبرهم جيرمي عن الأســـطورة، ولاحـــظ اهتمامهم المتزايد عندما تكلم عن هيتي دوبيليت، والطريقة الجـــاهدة التي كان قد قارب فيها عملية التحقيق. استطرد من قصة بون كريك إلى التحقـــيقات الأخرى عن الظاهرة الغامضة، وأكثر من مرّة، رأى المدراء التنفيذيين يـــنظرون إلى بعضـــهم البعض، ويحاولون أن يتوصلوا إلى طريقة تسمح بعرض ما توصل إليه من خلال برنامج تلفزيوني.

ولكـــنه لما جلس وحده في وقت لاحق من تلك الليلة، والمفكرة في حضنه، عـــرف أنـــه لن يعمل معهم. روايته عن لغز مقبرة بون كريك أقرب ما تكون إلى رواية جيدة بنهاية ضعيفة. الحلّ كان شديد البساطة، وشديد السهولة، ولقد شعر بخيـــبة أملهم عندما غادر. وعدهم نايت بالبقاء على اتصال، وهم كذلك، ولكن جيرمي كان يعلم أنه لن تكون هناك اتصالات أخرى.

أما بالنسبة إلى المفكرة، فقد أبقاها لنفسه، كما فعل مع نايت في وقت سابق.

في وقـــت لاحـــق، اتصل بغيركن رئيس البلدية. كان اقتراح جيرمي بسيطاً ويقضـــي بـــأن لا تَعِـــد بون كريك زوارها بعد الآن بجولة على البيوت التاريخية تتصادف مع موعد رؤية الأشباح في المقبرة.

أما كلمة *مسكونة* فستزال من الدليل السياحي، كما تزال كل الادعاءات التي تربط الأنوار بالظواهر غير الطبيعية. بدلاً من ذلك، فإن تاريخ الأسطورة سيعرض بكاملـــه، ويمكـــن أن يقال للزوار بأنهم قد يشاهدون ظاهرة مدهشة. فيما بعض الســـيّاح قـــد يرون الأنوار ويتساءلون بصوت عالٍ إن كانت هذه الأنوار أشباح الأسطورة، سيطلب من المتطوعين الذين يجرون الجولات ألا يقترحوا أي شيء من هـــذا القبـــيل. وأخـــيراً، طلـــب جيرمي من رئيس البلدية إزالة القمصان القطنية والكؤوس من مخزنه الكبير في البلدة.

خـــلال حديثهما، وعده جيرمي أنه هو بالمقابل لن يأتي على ذكر مقبرة بون كـــريك على التلفزيون، أو في عموده الصحفي، أو في مقالة مستقلة. لن يكشف

خطة رئيس البلدية بتحويل البلدة إلى نسخة مسكونة بالأشباح من بلدة روزويل، نـــيو مكســـيكو، ولـــن يقول لأي شخص في البلدة أن رئيس البلدية كان يعرف الحقيقة طوال الوقت.

قَبِلَ رئيس البلدية بالعرض. وبعد أن أغلق الهاتف، اتصل جيرمي بألفين الذي أقسم على الالتزام بالسرية.



الفصل الحادي والعشرون

في الأيام التي تلت اجتماع جيرمي الخائب بالمنتجين، ركّز انتباهه على محاولة العـــودة إلى روتينه السابق. تكلّم مع المحرر في ساينتيفيك أميركان. تأخر عن الموعد الـــنهائي، وتذكـــر اقـــتراحاً مبهماً لنايت، فوافق على كتابة مقالة حول الأخطار المحـــتملة لحمـــية الكربوهيدرات المنخفضة. أمضى ساعات على شبكة الإنترنت، ومسح صحفاً لا تحصى باحثاً عن قصص مثيرة للاهتمام. خاب أمله عندما علم أن كلوسن — بمساعدة شركة كبرى للدعاية والإعلان في نيويورك — نجا من العاصفة الـــتي أثارهـــا ظهور جيرمي التلفزيوني في برايم تايم، وأنه — أي كلوسن- ما زال يـــتفاوض على برنامج خاص به. سخرية الموقف لم تمر على جيرمي، فأمضى بقية اليوم يشتكي من سذاجة المؤمنين الحقيقيين.

رويـــداً رويـــداً، كان يعيد نفسه إلى الطريق الصحيح، أو على الأقل، هكذا ظـــن. ومع أنه كان يفكر بليكسي كثيراً، متسائلاً إن كانت مشغولة أو أنها تستعد لـــزفافها إلى رودني، عمل ما بوسعه ليطرد تلك الأفكار من رأسه. كانت أفكاراً مؤلمـــة جداً. بدلاً من ذلك، حاول استئناف الحياة التي كان يعيشها قبل أن يعرف ليكســـي. لـــيلة الجمعة، خرج إلى ناد. لم تمضِ الأمسية على ما يرام. بدلاً من أن يختلط بالجموع ويحاول اجتذاب انتباه النساء الجالسات قربه، جلس وحده يرتشف شرابه المفضل في أغلب الأمسية، وغادر قبل وقته المعتاد. في اليوم التالي، زار عائلته في كويـــنـــز، ولكن رؤية إخوته وزوجاتهم يلعبون مع أطفالهم أعادت إليه الأفكار بالآمال المستحيلة.

بحلول ظهر يوم الاثنين، هبّت عاصفة شتائية أخرى، وكان قد أقنع نفسه بأن كل شيء قد انتهى حقاً. لم تتصل به، وهو لم يتصل بدوره. أحياناً، تبدو له الأيام القليلة التي قضاها مع ليكسي وكأنها السراب الذي ذهب ليكتب عنه. ليس الأمر

حقيقـياً، قـال لنفسـه، ولكن لما جلس على مكتبه، وجد نفسه يقلب البطاقات البريدية ثانية، وأخيراً دبّس صورة المكتبة على الحائط وراء المكتب.

طلـب غداء من المطعم الصيني أسفل الشارع للمرّة الثالثة في أسبوع، ثم مال إلى الوراء في كرسيه، متسائلاً عن الخيارات التي قام بها. للحظة، تساءل إن كانت ليكسـي سـتأكل في نفس الوقت الذي يأكل فيه، لكن الفكرة قطعها أزيز جهاز الاتصال الداخلي.

أمسك محفظته وتوجّه إلى الباب. من خلال خشخشة الاتصال الداخلي، سمع صوتاً نسائياً.

"الباب مفتوح. اصعدي".

فـتش في نقـوده، وسحب ورقة عشرين دولاراً، عندما رنّ الجرس اتجه نحو الباب.

قال: "خدمة سريعة، في العادة يستغرق...".

اختفى صوته لما فتح الباب ورأى الواقفة أمامه.

في صمت، نظر إليها ونظرت إليه قبل أن تبتسم دوريس أخيراً. "مفاجأة!"

رمش وهو يقول: "دوريس؟"

نفضـت الثلج عن حذائها، وقالت: "يا لها من عاصفة ثلجية في الخارج، ولن أخـبرك عـن الجليد، ظننت أني لن أنجح بالوصول. سيارة الأجرة كانت تنـزلق طوال الطريق".

واصل تحديقه، محاولاً فهم سرّ ظهورها المفاجئ.

أنـزلت حقيبتها اليدوية عن كتفها وقابلت نظرته.

"هل ستبقيني عند الباب، أم ستدعوني للدخول؟"

"نعم... بالطبع. رجاء..."، قال، وأشار إلى الداخل.

أخـيراً، مـرّت دوريس بجانبه، ووضعت حقيبتها على المنضدة قرب الباب. أجالـت النظر في شقته وخلعت سترتها. "شقة لطيفة"، قالت وهي تجول في غرفة الجلـوس، "إنها أكبر مما ظننت. لكن الدرجات قاتلة. أنت تحتاج فعلاً إلى تركيب

مصعد".

"نعم... أعرف".

توقّفــت عــند النافذة. "لكن المدينة جميلة، حتى في العاصفة. و... وحيوية. يمكنني أن أفهم لماذا يريد بعض الناس العيش فيها".

"ماذا تفعلين هنا؟"

"جئت للكلام معك، بالطبع".

"عن ليكسي؟"

لم تجــبه صراحة. بدلاً من ذلك، تنهّدت، ثم قالت بهدوء: "من ضمن أشياء أخرى".

عندما رفع حاجبه استغراباً، هزّت كتفيها، "هل أجد عندك بعض الشاي؟ ما زلت أشعر ببعض البرد".

"لكن...".

"عــندنا الكثير لنقوله"، قالت بنبرة ثابتة. "أعرف أن عندك أسئلة، لكن الأمر سيستغرق وقتاً. لذا ماذا عن بعض الشاي؟"

دخل جيرمي إلى المطبخ الصغير وسخّن كأس ماء في المايكروويف. بعد إضافة كيس من الشاي، حمل الكوب عائداً إلى غرفة الجلوس، حيث وجد دوريس تجلس على الأريكة. سلّمها الكوب، وارتشفت منه فوراً.

"آســفة لأنــني لم أتصل. أعرف أنه كان واجباً عليَّ أن أتصل. لا بد أنك مندهش جداً. لكنّي أردت الكلام معك شخصياً".

"كيف عرفت أين أقيم؟"

"تكلّمت مع صديقك ألفين. وهو أخبرني".

"تكلّمت مع ألفين؟"

"أمــس، أعطى رقم هاتفه لراشيل، لذا اتصلت به، وكان لطيفاً جداً وأعطاني عــنوانك. أتمــنّى لو أتيحت لي فرصة مقابلته عندما كان في بون كريك. يبدو أنه رجل محترم".

أحسّ جيرمي بأنّ الأحاديث الخفيفة هي إشارة على العصبية المتزايدة تجاه ما عـــندها لتقوله. عرف بأنها كانت تحاول أن تستجمع أفكارها استعداداً لما كانت ستقوله.

رنّ الجرس ثانية، ونظرت دوريس نحو الباب.

"ذلك غدائي". قال، وقد أزعجته المقاطعة. "أعطِني دقيقة، موافقة؟"

وقـــف، وضغط على زر الاتصال الداخلي، وفتح الباب. أثناء الانتظار، رأى دوريس ترتّب بلوزتها. بعد لحظة، تململت ثانية، ولسبب ما، انتقلت عصبيتها إليه. أخـــذ نفســـاً عمـــيقاً وخرج إلى المدخل، قابل رجل التوصيل فور ظهوره على الأدراج.

عـــاد جيرمـــي وأوشك أن يضع كيس الطعام على طاولة المطبخ عندما سمع دوريس خلفه.

"ماذا طلبت؟"

"لحم بقر بالقرنبيط، وأرزاً مقلياً باللحم".

"رائحته زكية".

ربمـــا كانت الطريقة التي تكلمت بها هي التي جعلته يبتسم. "هل تريدينني أن أحضّر طبقين؟"

"لا أريد أن آكل غداءك".

"هـــناك الكثير منه"، قال، ومدّ يده ليحضر الأطباق. "أضيفي إلى ذلك، ألم تخبريني أنك تحبين أن تقصّي الحكايات أثناء تناول وجبة جيدة؟"

سكب الطعام، ثم أحضره إلى الطاولة، وجلست دوريس بجانبه.

للمرة الثانية، قرّر أن يتركها تبدأ الكلام، وأكلا في صمت لبضع دقائق.

قالـــت أخـــيراً: "هذا لذيذ، لم أتناول الفطور، وأظن أني لم أشعر كم كنت جائعـــة. يـــا لها من رحلة صعبة للوصول إلى هنا. كان لا بد أن أغادر مع بزوغ الفجـــر، وتأخرت طائرتي. تسبّب الطقس بكثير من التأخير، ولفترة ظننت أننا لن نقلع. كما أني كنت متوترة، لأنها المرة الأولى التي أطير فيها".

"أوه؟"

"لم يكن من داعٍ للطيران. طلبت ليكسي مني القدوم لزيارتها عندما عاشت هنا، لكنّ زوجي لم يكن في صحة جيدة و لم تتح لي الفرصة. ثم عادت، وكانت محطمة وقتها. أعرف أنك تعتقد أنها ربما تكون قاسية وقوية، لكنه قناع توهم به الآخرين. وقد حطمها ما حصل مع أفيري". ترددت دوريس. "أخبرتك عنه، صحيح؟"

"نعم".

"عانت في صمت، واصلت الظهور بمظهر الشجاعة، ولكني عرفت كم كانت منزعجة. لم يكن بمقدوري أن أفعل لها شيئاً. أخفت مشاعرها بالعمل، تركض من مكان لآخر، وتتكلم مع هذا وذاك لتعطي الانطباع بأنها بخير. لا تستطيع أن تتخيّل كم جعلتني أشعر بالعجز".

"لماذا تخبرينني هذا؟"

"لأنها هكذا الآن".

حرّك جيرمي الطعام بشوكته. "لم أكن أنا من أنهى العلاقة، دوريس".

"أعرف ذلك، أيضاً".

"إذاً لماذا تتكلّمين معي؟"

"ليكسي لن تستمع إليّ".

على الرغم من التوتّر، ضحك جيرمي. "وتظنين بأني سهل الانقياد؟"

"لا، لكني أتمنى ألا تكون على قدر عنادها".

"حتى لو كنت أرغب في محاولة أخرى، يعود الأمر إليها".

رمقته دوريس بعناية. "هل تظن ذلك فعلاً؟"

"حاولت الكلام معها. أخبرتها أني أريد أن أجد وسيلة لإنجاح الأمور بيننا".

بدلاً من أن تردّ دوريس على تعليقه، سألته، "تزوّجت مرّة، أليس كذلك؟"

"منذ زمن طويل. هل أخبرتك ليكسي؟"

"لا، عرفت منذ محادثتنا الأولى".

"قدرات روحية مرة ثانية؟"

"لا، لا شـــيء من ذلك. بل يتعلق ذلك بالطريقة التي تتعامل بها مع النساء. تغطـــي نفســـك بنوع من الثقة يعجب الكثير من النساء. في الوقت نفسه، تكوّن عـــندي إحساس أنك لا تفهم ما تريده النساء، وأنك لسبب ما غير راغب بإعطاء نفسك بالكامل".

"وما علاقة ما تقولينه بحديثنا؟"

"تـــريد النساء قصص الأساطير. ليس كل النساء، بالطبع، لكن أكثر النساء ينشأن وهن يحلمن بالرجل الذي يخاطر بكل شيء من أجلهن، حتى لو عرّض نفسه للأذيـــة". توقّفت. "مثل الطريقة التي ذهبت بها لإيجاد ليكسي على الشاطئ. لهذا وقعت في حبّك".

"هي لا تحبني".

"بلى، تحبك".

فتح جيرمي فمه لإنكار مقولتها، ولكنه لم يستطع. بدلاً من ذلك، هزّ رأسه. "لا يهمّ الآن، على أي حال. ستتزوّج رودني".

نظـــرت إلـــيه دوريس. "لا، لن تفعل. لكن قبل أن تعتقد أنها سعت بذلك لتبعدك عن طريقها، يجب أن تعرف بأنها قالت ما قالته لكي لا تأرق هي في الليالي وتتســـاءل لمـــاذا لم تعد إليها". توقّفت، وتركت الكلمات تجد سبيلها إلى داخله. "عدا عن أنك لم تصدقها، أليس كذلك؟"

ذكـــرته الطريقة التي نطقت بها دوريس بردّ فعله الأولي عندما أخبرته ليكسي عن رودني. لا، أدرك فجأة.. لم يصدقها.

مدّت دوريس يدها فوق الطاولة وأخذت يده.

"أنت رجل جيد، جيرمي. وأنت تستحق الحقيقة، ولهذا أتيت".

وقفـــت، ثم قالت: "عندي طائرة لألحق بها. إذا لم أعد الليلة ستحس ليكسي أن شيئاً ما يحصل. أفضّل ألا تعرف أني جئت إلى هنا".

"إنها رحلة طويلة. كان يمكنك ببساطة أن تتصلي بي".

"أعرف. لكن كان لا بد لي أن أرى وجهك".

"لماذا؟"

"أردت أن أعرف إن كنت تحبها، أيضاً". ربّتت على كتفه قبل أن تتوجّه إلى غرفة الجلوس، حيث التقطت حقيبتها اليدوية.

"دوريس؟"

استدارت. "نعم؟"

"هل وجدت الجواب الذي كنت تتمنينه؟"

ابتسمت. "السؤال هو، هل وجدته أنت؟"



الفصل الثاني والعشرون

ذرع جيرمي غرفة الجلوس. إنه بحاجة للتفكير، أن يعيد تقييم الخيارات، وأن يعرف ما العمل.

مــرّر يده في شعره قبل أن يهزّ رأسه. لم يكن هناك وقت للتردد. ليس الآن، بعــد أن عــرف ما عرف. عليه أن يعود. عليه أن يستقل أول طائرة يجدها، ويجد ليكســي مرة ثانية. عليه أن يتكلم معها، ويحاول إقناعها، ويخبرها أنه لما قال لها إنه يحبها لم يسبق له أن كان أكثر جدية حول أي أمر في حياته. عليه أن يخبرها بأنه لا يستطيع أن يتخيل الحياة من دونها، وبأنه سيقوم بأي شيء مهما كلّف الأمر لكي يكونا معاً.

قــبل أن تطلــب دوريس سيارة الأجرة من خارج بنايته، مدّ يده إلى الهاتف واتصل بشركة الطيران.

وضــعوه عــلى الانتظار لوقت بدا وكأنه إلى الأبد، وشعر بطول الوقت مع مرور كل لحظة، حتى تمّ إيصاله إلى وكيل سفر ليساعده.

الطائــرة الأخــيرة اليوم إلى رالاي تغادر بعد تسعين دقيقة. وحتى في أحوال الطقــس العادية، قد تستغرق الرحلة في التاكسي نصف تلك المدة، ولكن إما أن يلحق بالطائرة، أو أن ينتظر حتى يوم الغد.

كــان لا بــد أن يتحرّك بسرعة. أمسك بحقيبة رياضية من غرفته، رمى فيها سروالي جينــز، قميصين، جوارب، وملابس داخلية. ارتدى سترته ووضع هاتفه الخلــوي في جيبه. أخذ الشاحن من على الطاولة. الحاسوب النقال؟ لا، لن يحتاج إليه. ماذا عدا ذلك؟

أوه، نعــم. أســرع إلى الحمّام ودقّق في محتويات عدة الحلاقة. تذكّر شفرة حلاقــته وفرشاة أسنانه فأخذهما. أطفأ الأنوار، وأطفأ حاسوبه، وأمسك بمحفظته.

فـتّش فيها، تأكد أن معه نقوداً كافية لتصل به إلى المطار، ما معه يكفيه في الوقت الحاضر. بطرف عينه، رأى جزءاً من مفكرة أوين غيركن المطمورة تحت كومة من الصحف. رمى المفكرة وعدّة الحلاقة في الحقيبة. فكّر إن كان بحاجة إلى أي شيء آخـر، ثم استسلم. لا وقت لذلك. التقط المفاتيح عن الطاولة قرب الباب، وألقى نظرة أخيرة حوله، ثم أقفل الباب، قبل أن يركض إلى أسفل الدرج.

نـادى سـيارة أجرة، أخبر السائق أنه كان مسرعاً، وأسند ظهره مع تنهيدة وتمنى الأفضل. دوريس على حق: بسبب الثلج، حركة المرور سيئة، وعندما توقّفا على الجسر الذي يقطع النهر الشرقي، أطلق تنهيدة عصبية. نـزع حزامه ورماه في الحقيـبة لاختصار وقت الانتظار في طابور التفتيش، وكذلك فعل بمفاتيحه. حدّق فيه السائق في مرآة الرؤية الخلفية. بدا عليه الضجر، ومع أنه قاد السيارة بسرعة، لم يـبدُ علـيه أنه شعر بحراجة الموقف. عضّ جيرمي على لسانه، فهو يعرف أنه من الأفضل ألا يغضب السائق.

مـرّت الدقـائق. أما العاصفة التي خفتت لفترة، فتحركت ثانية، وخفّضت مستوى الرؤية أكثر. خمس وأربعون دقيقة لموعد الطائرة.

تـباطأ المرور ثانية، وتنهّد جيرمي بصوت جهوري عندما نظر إلى ساعته مرة أخـرى. خمـس وثلاثون دقيقة لإقلاع الطائرة. بعد عشر دقائق، وصلا إلى مخرج المطار، وتوجّها إلى محطة المغادرة.

أخيراً.

لحظة توقفت سيارة الأجرة، فتح الباب ورمى ورقتي عشرين دولاراً للسائق. داخـل مـبنى المطار، توقف لحظة أمام لوحة المغادرة الإلكترونية ليعرف أي بوابة يحـتاج إلـيها. لحسـن الحـظ، كان خط الانتظار أمام مكتب إصدار التذاكر الإلكترونـية قصـيراً، ثم توجّه إلى الأمن. أحسّ بقلبه يقع عندما رأى الازدحام، ولكـنه استراح عندما فُتح فجأة خطٌّ جديدٌ. بدأ المسافرون المنتظرون بالتوجه إلى الخط الجديد، سارع جيرمي وقطع الطريق على ثلاثة منهم.

الرحلة ستقفل بعد أقل من عشر دقائق، ولما قطع خط الأمن، بدأ بالهرولة، ثم بالركض. التفّ بين الحشود، ومدّ يده إلى رخصة القيادة، وبدأ بعدّ البوابات.

كـــان يتنفّس بصعوبة في الوقت الذي وصل فيه إلى البوابة، وأحسّ بأنه بدأ بالتعرّق.

"هل نجحت؟" سأل لاهثاً.

"فقـــط بســـبب تأخـــر قصير"، قالت المرأة على المكتب، وبدأت تطبع على الكومبيوتر. وعند الباب، حدقت به المضيفة.

بعـــد أن أخذ تذكرته، أغلقت المضيفة الباب بعد أن دخل جيرمي إلى جسر المغادرة. كان ما زال يحاول التقاط أنفاسه عندما وصل إلى الطائرة.

"نحـــن سنغلق الباب بعد قليل. أنت آخر مسافر، يمكنك أن تختار أي مقعد تريد"، قالت المضيّفة فيما أفسحت له مجالاً للعبور.

"شكراً".

تحـــرّك في ممر الطائرة، وعجب لنجاحه بالوصول، ثم رأى مقعداً فارغاً قرب الـــنافذة قرابة منتصف الممر. وضع حقيبته في الخزانة العلوية، وفجأة لمح دوريس، جالسة خلفه بثلاثة صفوف.

ردّت نظرته، ولم تنبس بأي كلمة. ابتسمت ببساطة.

هبطـــت الطائرة في رالاي في الثالثة والنصف، وسار جيرمي مع دوريس عبر مبنى المطار. قرب بوابة الخروج، أشار إلى الوراء.

قال: "يجب أن أستأجر سيارة أجرة".

قالـــت: "يســـعدني أن أقلـــك معي. أنت على طريقي". عندما رأته يتردّد، ابتسمت، وأضافت: "وسأدعك تقود".

لم ينـــزل السرعة عن ثمانين ميلاً في الساعة، واقتطع خمساً وأربعين دقيقة من وقـــت الـــرحلة البالغ ثلاث ساعات ونصف. اقتربا من مشارف بون كريك مع حلـــول الغسق. لم يلحظ مرور الوقت مع صور ليكسي التي تمر في خاطره... ولم يـــتذكر أغلب الرحلة. حاول أن يتدرّب على ما أراد قوله. حاول أن يتوقّع ردّها، لكـــنه أدرك أنـــه لم تكن عنده أدنى فكرة عما سيحصل. لا يهم، وحتى لو كان يستعمل خبرته، لا يستطيع أن يتخيل أن لا يقوم بما يقوم به الآن.

كانـــت شوارع بون كريك هادئة بينما اقتربا من وسط البلدة. التفتت إليه دوريس.

"هل تنـــزلني في البيت؟"

نظـــر إلـــيها، وأدرك أنه بالكاد تكلم معها منذ غادرا المطار. مع أفكاره التي تركّز على ليكسي، لم يلاحظ ذلك حتى.

"هل أنت بحاجة إلى سيارتك؟"

"فقط يوم الغد. الطقس بارد جداً للتجول في الليل".

اتبع توجيهات دوريس، وأوقف جيرمي السيارة أمام منـــزلها. منـــزل أبيض صغير. رأى الصحيفة اليومية مرمية أمام الباب. طفا الهلال فوق سطح البيت، وفي الضوء الخافت، نظر إلى وجهه في مرآة السيارة الخلفية. عالماً أنه على بعد دقائق من رؤية ليكسي، مرّر يده في شعره.

لاحظت دوريس بادرته العصبية وربّتت على ساقه. "سيكون كل شيء على ما يرام، صدقني".

تكلّـــف جيرمي ابتسامة، وحاول إخفاء شكوكه. "أيّ نصيحة في اللحظات الأخيرة؟"

"لا"، قالت وهي تهزّ برأسها. "لا تنسَ أنك استفدت مما كان عندي لأعطيه. أنت هنا الآن، أليس كذلك؟"

أومأ جيرمي، وانحنت دوريس عبر المقعد لتقبيله على خدّه.

همست: "مرحباً بك في ديارك".

أدار جيرمي وجهة السيارة، وأصدرت الإطارات صريراً فيما سارع عائداً إلى المكتـــبة. سبق لليكسي أن ذكرت أنها تبقي المكتبة مفتوحة للناس الذين يأتون بعد أوقـــات العمل، أليس كذلك؟ في إحدى محادثاتهما؟ نعم، قال لنفسه، إنه متأكد، ولكنه لحظه العاثر لم يستطع أن يتذكر أي يوم في الأسبوع. هل كان يوم التقيا، أم الـــيوم التالي؟ تنهّد، ولاحظ أن عصبيته لمعرفة اليوم هي محاولة لتهدئة أعصابه. هل كـــان علـــيه أن يـــأتي؟ هل ستسعد لرؤيته؟ تبخرت ثقته بنفسه عندما اقترب من

المكتبة.

بدا وسط البلدة نقيضاً حاداً للصور الضبابية الحالمة التي تذكّرها. مرّ بالسيارة علـى لوكـيلو ورأى عـدة سيارات واقفة أمامه، ومجموعة أخرى من السيارات متجمعة أمام مطعم البيتزا. كانت مجموعة من المراهقين متجمهرة في زاوية المطعم. اعـتقد جيرمي للوهلة الأولى أنهم كانوا يدخنون السجائر، ولكنه أدرك بعدها أن الدخان الذي رآه كان ببساطة دفء أنفاسهم يتكثّف في الهواء البارد.

اسـتدار ثانـية؛ عـلى الجانب البعيد للتقاطع، رأى أنوار المكتبة مضاءة في الطـابقين. أوقف السيارة وخرج إلى الهواء الليلي البارد. أخذ نفساً عميقاً، وتمشّى بسرعة إلى الباب الأمامي وفتحه.

مـا من أحد عند مكتب الاستقبال الرئيسي. توقف لينظر من خلال الأبواب الزجاجـية الـتي تفتح إلى منطقة الطابق السفلي. لا دليل على وجود ليكسي بين الموجودين. أجال النظر في الغرفة ليتأكد.

اعتقد أن ليكسي كانت إمّا في مكتبها أو في الغرفة الرئيسية، فسارع في عبور الممـر وصعد الدرج، ثم نظر حوله قبل أن يتوجّه إلى مكتبها. من بعيد، لاحظ أنّ الباب مغلق، ولا ضوء يخرج من تحته. تأكد من الباب.. مقفل.. ثم فتّش الممرات، وتوجه إلى غرفة الكتب النادرة.

مقفل.

أخذ مساراً متعرجاً عبر الغرفة الرئيسية، ومشى بسرعة، وتجاهل تحديق الناس الذيـن لا شـكّ عرفوه، ثم ركض إلى أسفل الدرج. وبينما هو يتوجّه إلى الباب الأمامي، أدرك أنه كان عليه أن يبحث عن سيارة ليكسي وتساءل لماذا لم يفعل.

الأعصاب، أجاب صوت في داخله.

لا يهم. إن لم تكن هنا، فمن المحتمل أن تكون في البيت.

ظهرت إحدى المتطوعات المسنّات حاملة مجموعة من الكتب، وتهلّلت عيناها عندما رأته يقترب.

"السـيد مارش؟" صاحت بصوت مترنم. "لم أتوقع رؤيتك ثانية! ماذا تفعل

هنا؟"

"كنت أبحث عن ليكسي".

"تركـــت قبل حوالى الساعة. أعتقد أنها ذهبت إلى منـــزل دوريس لتتفقدها. أعرف بأنّها اتصلت في وقت سابق، ودوريس لم تجب".

أبقى جيرمي تعبيره ثابتاً. "أوه؟"

"دوريـــس لم تكن في هيربس، أعرف هذا فقط. حاولت طمأنة ليكسي بأن دوريـــس لا بد كانت تنهي بعض المهام، لكنّك تعرف كم تقلق ليكسي. هي مثل الدجاجـــة الأمّ. أحياناً تدفع بدوريس إلى حافة الجنون، ولكنّ دوريس تعرف بأنّها طريقة ليكسي في إظهار الاهتمام". توقّفت، وأدركت فجأة بأنّ جيرمي لم يقل لها سبب عودته. قبل أن تتمكن من نطق أي كلمة أخرى - على أي حال - قاطعها جيرمي.

"عـــلى أي حال، أود أن أبقى لأدردش، ولكني أريد أن أتحدث مع ليكسي بأمرٍ ضروري".

"عـــن القصّـــة مرة ثانية؟ ربّما يمكنني أن أساعد. عندي مفتاح غرفة الكتب النادرة، إذا كنت تحتاج إليه".

"لا، ذلك ليس ضرورياً. لكن شكراً لك".

كـــان قـــد ابـــتعد عنها عندما سمع صوتاً وراءه: "إن عادت، هل تريدني أن أخبرها أنك مررت بها؟"

"لا"، صاح دون أن يلتفت. "إنها مفاجأة".

ارتعش لـــمّا خرج إلى البرد، وركض عائداً إلى السيارة. انطلق على الطريق الرئيســـي، وتـــبع المنحنى حتى وصل إلى حافة البلدة، وراقب حلول الظلام. فوق الأشجار، أمكنه أن يرى النجوم، آلافاً منها، ملايين. للحظة، تساءل كيف ستبدو النجوم من أعلى تل ريكر.

وصل إلى شارع ليكسي، رأى بيتها، وأحسّ أن قلبه انعصر عندما لم يرَ أنواراً في المـــنـــزل، ولم يـــرَ السيارة في الممر. رفض أن يصدق عينيه، ومرّ قرب البيت

ببطء، متمنياً أن يكون على خطأ.

إن لم تكن في المكتبة، إن لم تكن في البيت، أين هي؟

هــل عبرت قربه في الطريق إلى منــزل دوريس؟ حاول أن يتذكر. هل عبر أحد قربه؟ لا يذكر، لأنه لم يكن منتبهاً. ولكنه كان سيعرف السيارة بكل تأكيد.

قرّر المرور بمنــزل دوريس للتأكد، وسارع في وسط البلدة وهو يبحث عن سيارتها، واتجه إلى المنــزل الأبيض الصغير.

نظرة واحدة كانت تكفي.. دوريس خلدت إلى فراشها.

رغم ذلك، وقف أمام البيت، محاولاً أن يفهم إلى أين ذهبت ليكسي. ليست بالــبلدة الكبيرة وليس هناك الكثير من الخيارات. فكّر أول ما فكّر بهيربس، ولكنه تذكــر أنه يقفل في المساء. لم يرَ سيارتها في لوكيلو، ولا في أي مكان آخر بالمدينة كذلــك.. ربما تقوم بقضاء بعض الأعمال اليومية، كأن تتسوق في السوبرماركت أو أن تحضر الثياب من المصبغة.. أو .. أو...

وعندها، أدرك فجأة أين ستكون.

شدّ جيرمي على عجلة القيادة، محاولاً تمالك أعصابه حتى نهاية رحلته. أحسّ بضــيق في الصــدر، وأن أنفاسه تتسارع، تماماً كما حصل قبل ظهر اليوم عندما جلــس في مقعــده على الطائرة. كان يصعب التصديق أنه بدأ يومه في نيويورك معتقداً بأنه لن يرى ليكسي ثانية، والآن ها هو هنا في بون كريك، يخطّط لتنفيذ ما كــان يظنّه مستحيلاً. قاد السيارة على الطريق المعتم، وشعر بالخوف من ردّ فعل ليكسي إزاء عودته.

غمــر ضوء القمر المقبرة باللون الأزرق، وتوهجت شواهد القبور في الضوء الخافــت. أضفى السور الحديدي المُطَرَّق (المشغول) لمسة مخيفة على المقبرة. عندما اقترب من مدخل المقبرة، رأى سيارة ليكسي واقفة قرب الباب.

وقف خلفها، وخرج من سيارة دوريس. أمكنه أن يسمع طقطقة المحرّك وهو يــبرد. أصدرت أوراق الأشجار تحت قدميه أصوتاً عالية. أخذ نفساً عميقاً. وضع يــده على غطاء محرك سيارة ليكسي وأحسّ بالحرارة في باطن كفه. لم يمضِ عليها

وقت طويل هنا.

مرّ من خلال البوابة ورأى شجرة الماغنوليا بأوراقها السوداء اللماعة، كما لو أنها مغطاة بالنفط. داس على غصن على الأرض، وتذكّر كيف تلمّس طريق العودة في المقبرة في تلك الليلة الضبابية مع ليكسي. سمع نعيب بومة على إحدى الأشجار.

تــرك الممــر، وتنقل بسهولة بين القبور المتهالكة.. سار ببطء لكي لا يصدر ضــجيجاً. تســلق الــتل الصغير. في السماء، بدا القمر وكأنه معلّق على صفحة ســوداء. سمــع صوتاً خافتاً... وقف ليتأكد وأحسّ بالأدرينالين يندفع في جسمه. جــاء لــيجدها، ليجد نفسه، وجسمه كان يستعدّ لما ينتظره. اقترب من قمة التل الصغير. والدا ليكسي مدفونان على الجانب الآخر.

حان الوقت تقريباً. سيرى ليكسي بعد لحظات... وستراه. سيضع حلاً نهائياً، هنا.. هنا حيث بدأ كل شيء.

وجــد ليكســي واقفــة كما تخيلها، يغمرها الضوء الفضي. ارتسمت نظرة شــاردة، شــبه حزيــنة على وجهها، والتمعت عيناها البنفسجيتان. ارتدت ثياباً تناســب الطقــس البارد، ووضعت وشاحاً حول رقبتها، وقفازين سوداوين جعلا يديها كأنهما مجرّد ظلين.

كانــت تــتكلّم بهدوء، لكنه لم يفهم الكلمات. وقف مكانه. صمتت فجأة ونظرت للأعلى. للحظة طويلة، تلاقت نظراتهما.

تجمدت ليكسي وهي تنظر إليه. أخيراً، نظرت بعيداً. التفتت إلى القبرين مرة ثانية. ارتبك جيرمي.. لا يعرف بماذا تفكر... كان من الخطأ أن يأتي إلى هنا. هي لم تــرده هــنا، لم ترده مطلقاً. أحسّ بغصة في صدره، وكاد يستدير عندما رأى ابتسامة متكلّفة على وجه ليكسي.

"هــل تعرف؟ حقاً، يجب أن لا تحدّق كما تفعل الآن. النساء يعجبن بالرجل الذي يتصرف بكياسة".

غمره إحساس بالراحة، وتقدم خطوة إلى الأمام. عندما اقترب بما فيه الكفاية للمســها، مــدّ يده ووضعها على أسفل ظهرها. لم تبتعد. بدلاً من ذلك، اتّكأت عليه. دوريس كانت على حق.

إنه في دياره...

"لا"، همـــس في شعرها، "بل النساء يحببن الرجل الذي يتبعهن إلى آخر مكان في الكرة الأرضية، أو حتى بون كريك، لو تطلب الأمر".

جذبها إليه، رفع وجهها وقبلها، وعرف بأنه لن يتركها أبداً.



الخاتمة

جلـــس جيرمي وليكسي معاً تحت بطانية، ينظران إلى البلدة الممتدة أمامهما. كان مساء يوم الخميس، بعد ثلاثة أيام منذ عودة جيرمي إلى بون كريك. تلألأت الأنـــوار البيضاء والصفراء للبلدة، وتخللتها أنوار حمراء وخضراء. أمكن لجيرمي أن يرى أعمدة الدخان ترتفع من المداخن. تدفق النهر أسودَ مثل الفحم السائل عاكساً صـــورة الســـماء فوقـــه. خلفـــه، انتشرت أنوار مصنع الورق بكل الاتجاهات، وانعكست على الجسر الحديدي.

عـــلى مـــدى اليومين السابقين، أمضى جيرمي وليكسي الكثير من الوقت في الكلام. اعتذرت عن كذبتها حول رودني، واعترفت أن ابتعادها عنه على الطريق أمام غرينليف كان أصعب خطوة أقدمت عليها في حياتها. وصفت تعاستها خلال الأسبوع الذي أمضياه بعيداً عن بعضهما البعض، والذي ضاهى شعوره أيضاً. من جهـــته، أخبرها أن نايت لم يعجبه أمر انتقاله، إلا أن محرّره في ساينتيفيك أميركان الأميركي العلمي كان راغباً بالسماح له بأن يعمل انطلاقاً من بون كريك، بشرط أن يأتي إلى نيويورك بصورة دورية.

لم يذكـــر جيرمي أن دوريس جاءت لزيارته في نيويورك. على أي حال، في مســـاء الـــيوم التالي لعودته، أحضرته ليكسي إلى منـــزل دوريس لتناول العشاء، فسحبته الأخيرة جانباً وطلبت منه ألا يفصح عما قامت به.

"لا أريدهـــا أن تفكر أنني كنت أتدخّل في حياتها"، قالت، بعينين مشرقتين. "صدّق أو لا تصدّق، تعتقد أني ملحّة!"

وجـــد أحياناً صعوبة في تصديق بأنه كان حقاً هنا.. معها؛ من ناحية أخرى، يصعب التصديق أنه تركها في المقام الأول. أن يكون مع ليكسي يبدو هو الأساس في حـــياته، كمـــا لو أنها البيت الذي طالما سعى إليه. على الرغم من أن ليكسي

كانـــت تبادله الشعور، لم ترضَ أن يبيت في منـــزلها. أصرت أنها لا تريد أن تمنح هـــؤلاء القـــوم حديثاً يتندرون به. على أي حال، كان مرتاحاً إلى حدٍّ معقول في غرينليف، مع أن جاد لم يفتر عن ابتسامة واحدة بعد.

"إذاً تعتقدين أن ما بين رودني وراشيل جدي؟" سأل جيرمي.

"يـــبدو كذلك"، قالت ليكسي. "إنهما يمضيان الكثير من الوقت معاً مؤخراً. تبـــتهج في كل مرّة يأتي إلى هيربس، وأكاد أقسم بأنه يتضرج خجلاً عندما يراها. أعتقد أنهما مناسبان لبعضهما البعض".

"ما زلت لا أستطيع أن أصدق بأنّك أخبرتني أنك ستتزوجين به".

دفعته بكتفها ممازحةً. "لا أريد أن أخوض في هذا الجدال ثانية. لقد اعتذرت، وأفضّل ألا تذكّرني بذلك لبقية حياتي... شكراً جزيلاً".

"لكنها نادرة جيّدة".

"هذا ما تظنه لأنها تظهرك بمظهر الطيب وأنا بمظهر الشريرة".

"ولكني كنت طيباً بالفعل".

قبّلته على خدّه. "نعم، كنت طيباً".

سحبها أقرب. وراقبا شهاباً يخترق الأفق. جلسا في صمت للحظة.

سألها: "هل أنت مشغولة غداً؟"

أجابته: "ذلك يعتمد. ماذا يجول في فكرك؟"

"اتصلت بالسيدة رينولدز، وسأزور بعض البيوت. أودّ أن ترافقيني. في مكان مثل هذا، لا أريد أن ينتهي بي الأمر في الحيّ الخطأ".

عانقته بقوة. "تسعدني مرافقتك".

"وأنـــا أودّ أن أصـــطحبك إلى نـــيويورك، أيضاً. يوماً ما خلال الأسبوعين القادمين. أمي تصر على مقابلتك".

"أنـــا أودّ أن أقابـــلها أيضاً. كما أني لطالما أحببت تلك المدينة. بعض ألطف الناس الذين التقيت بهم يعيشون هناك". قلّب جيرمي عينيه مازحاً.

فوقهمـــا، طفـــت غيوم خفيفة تحت القمر، وفي الأفق رأى جيرمي العاصفة

تقـــترب. بعـــد بضع ساعات، ستصل الأمطار. ولكن عندها، كان هو وليكسي يرتشـــفان شرابهما المفضل في غرفة جلوسها، ويستمعان إلى قطرات المطر تضرب سطح المنـــزل.

بعد فترة، التفتت إليه، "شكراً لرجوعك، لانتقالك ... لكل شيء".

"لم يكن أمامي خيار آخر. الحب يتسبب بأمور مضحكة للناس".

ابتسمت. "أحبّك أيضاً، وتعرف".

"نعم، أعرف...".

"ماذا؟ لن تنطق بها؟"

"هل يجب أن أنطق؟"

"بكـــل تأكـــيد، بل وأن تستخدم النغمة الصحيحة، أيضاً. أن تقولها كأنك تعنيها".

ابتســـم ابتســـامة عريضـــة، وتساءل إن كانت ستتحكم بنغمته إلى الأبد.

"أحبّك، ليكسي".

مـــن بعـــيد، علت صافرة القطار، ولمح جيرمي ومضة من الضوء في الخارج المظـــلم. لـــو كانت ليلة ضبابية، لكانت الأنوار ظهرت في المقبرة. بدا أن ليكسي تتابع أفكاره.

"أخبرني إذاً، سيدي الصحفي العلمي، هل ما زلت تشكّ بوجود المعجزات؟"

"أخبرتك للتو. أنت معجزتي".

أســـندت رأســـها إلى كتفه لحظة قبل أن تمسك بيده. "أتحدّث عن معجزات حقيقية. عندما يحصل معك شيء لم تظنه أبداً ممكناً".

قال: "لا، أعتقد أن هناك على الدوام تفسيراً إذا ما كدّ المرء بما فيه الكفاية".

"حتى لو حصلت معجزة معنا نحن؟"

صوتها كان ناعماً، قارب الهمس. نظر إليها. رأى انعكاس أنوار البلدة يومض (يتلألأ) في عينيها.

"عما تتكلمين؟"

أخذت نفساً عميقاً. "شاركتني دوريس بخبر في وقت سابق هذا اليوم".

راقـــب جيرمـــي وجههـــا، غير قادر على إدراك ما تقوله، حتى عندما تحول تعبيرها من متردد إلى مشجع، فمتوقع. حدّقت به، وانتظرت أن يقول شيئاً، ولكن عقله رفض أن يستوعب كلماتها.

هناك العلم، وفي المقابل هناك أمور غير قابلة للتفسير، وكان جيرمي قد أمضى حـــياته محاولاً أن يصلح بين الاثنين. إنه يسكن أرض الواقع، ويسخر من السحر، ويشـــعر بالشـــفقة على المؤمنين الحقيقيين. لكنه عندما حدّق بليكسي، محاولاً أن يفهم ما كانت تقوله، وجد إحساسه القديم بالثقة يتداعى.

لا، لا يستطيع أن يشرحه، وفي المستقبل، لن يفلح في شرحه. إنه تحدٍّ لقوانين عـــلم الأحياء، إنه تحطيم لفرضياته حول صورة الرجل الذي كان يعرفه عن نفسه. ببســـاطة، إنه المستحيل بعينه. ولكن عندما قامت ببساطة بوضع يده بلطف على بطنها، صدق الحقيقة المفاجئة المبهجة للكلمات التي لم يعتقد أبداً أنه سيسمعها.

همست قائلة: "ها هي معجزتنا، إنها فتاة".



«سيأتـي يوم تدرك فيه أموراً لا يمكن للعلـم أن يفسّرها. وعندما يحصل ذلك، ستتغير حياتك بطرق يصعب تخيلها...».

مـن المؤلـف رقم 1 علـى قائمة كتّاب النيويـورك تايمز الأكثر رواجـاً، يأتي لنا نيكولاس سـباركس بقصة حبّ لا تُنسى تغوص في أعماق أكبر الألغاز... ألغاز القلب.

كل مـا في جيرمـي مارش يمثّل جوهر الرجل النيويوركـي: وسيم، يرتدي اللـون الأسود في أغلب الأحيـان، وهو جزء من النخبة الإعلامية.. خبير في فضح عالم ما وراء الطبيعة في مقاله الدوري في مجلّة «ساينتيفيك أمريكان»، ومن خلال ظهوره الأول عـبر التلفزيون الوطني. وعندما يتلقى خطاباً مـن بلدة «بون كريك» الصغيرة بولاية كارولينا الشماليّة، حول أنوار غريبة تظهر في مقبرة مغلّفة بالأساطير، لم يستطع أن يقاوم إغراء التوجّه إلى هناك.

وفي ذلـك المجتمـع المترابط، تدير ليكسـي دارنيل مكتبة البلدة، تماماً كمـا فعلت والدتها قبيل الحادثـة التي يتّمت ليكسي. خائبـة الأمـل مـن علاقاتها الماضية، ومنهـا علاقة دفعت بها بعيداً عـن موطنها، صارت ليكسـي أكيدة مـن شيء واحد، أن مستقبلها يكمن في «بون كريك»، قرب جدّتها وقرب جميع الناس الذين أحبّتهم.

توقّع جيرمي أن يمضي أسبوعاً سريعاً في «ذا ستيكس» يسارع بعدها عائداً إلى المدينة. ولكنه منذ اللحظة التي وقعت عيناه فيها على ليكسي، وقع أسير السيدة الجميلة التي تتحدث بلكنة مترنمّة وبصدق يبعث على الإرتباك.

الآن، إذا كان مقدّراً لهما أن يكونا سوية، ينبغي على جيرمي أن يتّخذ قراراً صعباً: إما أن يعـود إلى الحيـاة التـي اعتادهـا، أو أن يقـدم على مـا لم يقدم عليه مـن قبل – قفزة عملاقة في المجهول.

هـذه رواية حـول اغتنام الفرص واللحاق بالقلب. **المؤمن الحقيقي** ستجعل منك أيضاً مؤمناً بمعجزة إسمها الحبّ.

نيكولاس سباركس هو المؤلف رقم 1 على قائمة كتّاب النيويورك تايمز الأكثر رواجاً ومنهـا رواياتـه: «الإنقــاذ»، «الليــالي في رودانـث»، «دفـتر الملاحظــات»، «رسالة في زجاجة»، «مشوار للذكرى»، «منعطف على الطريق»، «الوصيّ»، «الزفاف»، بالإضافة إلى مذكراته المؤثّرة «ثلاثة أسابيع مع أخي»، والتي كتبها بالإشتراك مع أخيه ميكا.

يعيش نيكولاس سباركس حالياً في ولاية كارولينا الشماليّة مع زوجته وعائلته.

للمزيد من المعلومات عن المؤلّف، قم بزيارة موقع www.nicholassparks.com على شبكة الإنترنت.

صدر أيضاً للمؤلف
نيكولاس سباركس
مع شقيقه ميكا سباركس
من منشورات
الدار العربية للعلوم-ناشرون



ISBN: 9953-87-076-4



www.asp.com.lb - www.aspbooks.com
ص. ب 13-5574 شوران 2050-1102 بيروت – لبنان
هاتف 785107/8 (1-961+) فاكس 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

مكتبة مدبولي
Madbouly Bookshop
6 ميدان طلعت حرب – القاهرة
هاتف 5756421 – فاكس 5752854
البريد الإلكتروني info@madboulybooks.com

